من هدى القرآن

١١

تفسير سور

فاطر إلى الزمر

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة :

جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع) قال :

«**الحمدين ـ حمد سبأ وحمد فـاطر ــ من قرأهما في ليلة لم يــــزل في ليلته في حفظ الله وكلاءته فمن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكـروه ، وأعطي من خــير الــدنيا وخــير الآخــرة ما لم يخطر على قلبه ولم يبلغ مناه**»

(نور الثقلين / ج (4) ص (345))

الإطار العام

اسم السورة :

اتخذ اسمها من فاتحتها التي شــرعت بحمد الله على ما فطر السموات والأرض.

تـذكرنا سـورة فـاطر بمحامد ربنا الكـريم الـذي فطر السموات والأرض ، وجعل الملائكة رسلا ، وأتقن الصـنع ، وأحسن التدبير ، وهو العزيز الحكيم.

ولان معرفة الربّ ينبوع كلّ خير ، وأصل كـلّ فضـيلة وخلق كـريم ، فـإنّ القـرآن يشـفي صـدور المؤمـنين من أوســاخ الغفلة ، ببيــان أســماء الله وكــريم فعاله وواسع رحمته.

فله الملك والتـدبير فما فتحه من رحمة لا ممسك لها ، وما أمسكها فلا مرسل لها.

وضـلالة البشر عن هـذه الحقيقة تـدعوه إلى الشـرك بالله العظيم ، ويــذكّر القــرآن النــاس جميعا بــأنّ فــاطر السموات والأرض ومبتدعهما بدء هو الذي يرزق الإنسان

منهما ، فهو الحقيق بالعبـــادة وحـــده لا اله الا هو فـــانى يؤفكون!

ولكي يعرف البشر ربه يحتاج إلى إزالة حواجز مثل : حب الدنيا والغرور بها ، واتبـاع المضلّين المغـرورين بها ، واتبـاع الشـيطان أو عـدم الحـذر الكـافي منه ، ويـذكّرنا القرآن بأنّ وعد الله (بالجزاء) حقّ ، فعلينا إذا تجاوز هـذه الحواجز ، ويبين جزاء الكفّار وحسن جزاء الصالحين.

وبعد أن يبصّرنا السياق بحاجز تـزيين الأعمـال (ولعله العـادة السـيئة) يعـود ليـذكّرنا بربنا العزيز تمهيـدا لبيـان محور هام (ولعله الأساسي) في هذه السورة. ما هو ذلك المحور؟

يتطلّع الإنسان نحو العزّة والغنى ، ولكنه يضلّ ـ عادة ـ الطريق وبـدل أن يحصل عليهما بالإيمـان بالله والعمل الصـالح ، تـراه يـؤمن بالشـركاء المزعـومين ، ويمكر السيئات ، ويذكرنا القرآن بأنّ الأنداد لا يملكون قطمـيرا ، وأنّ المكر السيء لا يحيق الا بأهله ، وأنّ السـبيل القـويم لبلوغ الطموح المشروع في العزّة والغنى هو سبيل الله ، ومعرفة أنّه الفـاطر الـرازق العزيز الغـني ، وأنّه المالك الحق ، وأنّه الحكيم الـذي يجـازي كلا بعمله ، وأنّه يحب الصـالحين .. وخلاصة المحـور : تبصـير البشر بالسـبيل القويم لبلوغ تطلّعاته المشروعة.

هكـذا يـذكّر السـياق بـأنّ الله أرسل الريـاح لتثـير السحاب ، وينزل الغيث حيث يشاء فيحيي به الأرض بإذنه ، فهو الرزّاق أو ليس الزرع والضرع من الغيث؟

وهكذا ينتشر الناس في يوم البعث للحساب.

ومن أراد العـزّة فلله العـزة جميعا (هكـذا ينبغي الحصـول على العـزة ، وهي أعظم طمـوح عند البشر ، لأنّها تعـني الأمن والسـلامة والـذكر الحسن عند الـرب لا عند الطغاة والأنداد).

ولكن كيف؟ ومن هو الذي يعزّه الله؟

الجواب : صـاحب الكلم الطيّب والعمل الصـالح ، أمّا المكر السيء فيمحقه ولا يجنى منه إلّا البوار!

منذ أن كنّا نطفة أو جنينا ، الى الولادة ، وحـتى زيـادة العمر ونقصانه ، كلّ ذلك بيد الله ، وهو مسجّل في كتـاب ، وهو عند الله يسـير (فلما ذا نطلب الغـنى من غـيره؟ أو ليس خلقنا وأجلنا بيـــده ، فلو قصّـــر أعمارنا مـــاذا تنفعنا العزّة أو الغنى؟!).

وبيده الملك. أنظر إلى هذين البحـرين ، أحـدهما ملح أجاج ، والثاني عذب فرات. إنّهما لا يستويان (فلا يســتوي الصالح ولا المسيء) ولكن مع ذلك يرزقنا الله منهما لحما طريّا ، وحلية نلبسـها ، وذلّل ظهرهما للسـفن المـاخرة ، لتنقل البضائع ، ولتهدينا إلى نعمه فنشكره بها.

وهو الـذي يـولج الليل في النهـار ، ويـولج النهـار في الليل ، وسـخّر الشـمس والقمر ، وحـدّد مسـيرتهما ، فهو المالك حقّا ، بينما لا يملك الشــــركاء المزعومــــون من قطمــــير (فلا بد أن نبحث عن الغـــنى عند ربّنا المالك ، وليس عند الطغاة والمترفين).

وهم لا يكشفون الكـرب عند الشـدائد ، فلا يسـمعون الدعاء ، ولا يستجيبون لو سمعوا ، ولا ينفعون يوم القيامة ، ولا أحد أفضل من الخبير ينقل النبأ.

ويؤكد السياق على فقر البشر ـ كل البشر ـ الى ربه ، وأنّ الله هو الغـني (فلا يجـوز الخضـوع لهـذا وذاك طلبا لغناه).

وهل هنالك فقر أعظم من أنّ الله إن يشأ يــــذهبهم جميعا ويأت بآخرين بيسر؟

(ويبـدو أنّ المحـور الثـاني الـذي يتحـدث عنه القـرآن هنا بتفصيل ، وهو محـور المسـؤولية ، يتّصل بـالمحور الاول ، إذ أنّ معرفة الإنسـان بأنّه مجـازي بعمله يجعله بعيـدا عن المكر السـيء ، منـدفعا نحو العمل الصـالح ، يبلغ أهدافه بالسعي والاجتهاد عبر المناهج السليمة).

لا أحد يحمل عن أحد ثقل أعماله ووزرها حـــتى ولو كان ذا قـربى (ولا يفهم هـذه الحقيقة ويخشى ذنبه الا من يخشى ربّه بــالغيب ويقيم الصــلاة ويــتزكى) وانما ينــذر الرســول من يخشى الله ويقيم الصــلاة ويــتزكى ، وانما يتزكى لنفسه.

(ويجب ان يكـون مفهوما وبوضـوح هـذا الأمر : إنّه لا يستوي الكافر والمؤمن الصالح ، إذ هـذه المعرفة تسـاهم كثيرا في اختيار المنهج السليم لبلوغ الاهداف).

(**ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِـيرُ**) (فلا يسـتوي الكـافر والمؤمن) (**وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ**) (فـأين الضـلالة وأين الهدى) (**وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ**) (السـلام والأمن والعافية خـــير من الحـــرب والخـــوف والمـــرض) (**وَما يَسْـتَوِي الْأَحْيـاءُ**) (الـذين يسـتمعون كلام الله ويحيـون بـه) (**وَلَا الْأَمْواتُ**).

وان الله بعث الرسـول منـذرا بعـذاب نكـير يصـيب المكذبين كما أرسل في كلّ أمة نذيرا ومبشـرا الصـالحين بأنّ لهم أجرا حسنا.

(والمحور الثـالث في السـورة فيما يبـدو هو الاشـارة إلى اختلاف ألوان الجبال ، وألوان البشر والدواب والانعام ، ووعي العلمــــاء لإشـــــارات هـــــذا الاختلاف ، وأنّهم المصــــطفون الــــذين أورثهم الله الكتـــاب على اختلاف مســـتوياتهم ، وجـــزاءهم الحسن عند ربهم ، ولعله يتصل بالمحور الأول في بيان نمـوذج حيّ عمن اتبع رضـوان ربه فهـداه الله إلى السـبيل القـويم للعـزة والغـنى والجـزاء الحسن).

ألا ترى إلى الغيث حين ينزل من السماء يخرج الله به ثمرات مختلفا ألوانها (إنّ في ذلك لآية على التدبير وحسن التقدير ودقة النظم ، وأنّ الله مهيمن على الخليقة).

وإذا نظرت إلى الجبال رأيت فيها جددا بيضا وحمرا وغرابيب سود (وهي تشهد بطبقات الصخور في الأرض ذات الطبيعة المختلفة ، وتشهد أيضا على السيطرة التامة).

وهكذا الناس والدواب والانعام كل منها مختلف ألوانه (واختلاف اللون مع وحدة الخصائص يشهد على حسن التدبير ، كما يشهد على أنّ الخليقة تختلف ، وهكذا الناس ليسوا سواء في درجاتهم ، فليس سواء عالم وجهول) (**إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ**) ، وإنّ الذين يتاجرون مع الله بتلاوة الكتاب ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق في سبيله سرا وعلانية فان تجارتهم لن تبور ، وإنّ الله يزيدهم من فضله ، وهو غفور وشكور.

والكتاب الذي أنزل على الرسول حق ويصدّق الذي بين يديه ، وقد أورثه الله الذين اصطفاهم من عباده (وهم ورثة الأنبياء من علماء أهل بيت الرسول (ص)) فمنهم ظالم لنفسه (إذ لم يتحمل علم الكتاب كما ينبغي ، بل خلط عملا صالحا وآخر سيئا) ومنهم مقتصد (قد حمل الكتاب بقدر مناسب وهو العالم الرباني الذي يصوم نهاره ويقوم ليله) ومنهم سابق بالخيرات (وهو الإمام الذي بلغ حقّ اليقين).

وجزاؤهم جميعا جنات عدن يدخلونها يحلّون فيها أساور من ذهب ولؤلؤا ، وهم يحمدون الله على ما أذهب عنهم الحزن ، بينما الكفّار يخلّدون في العذاب الشديد ، ولا ينفعهم الصراخ ، ويقال لهم : ألم نعمركم ما يكفيكم للتذكرة ، وأرسلنا

إليكم النذير؟

(ويعود السياق لبيان أسماء الله الحسنى ، مما يوجب علينا تقواه والحذر من عقابه)

فالله يعلم غيب الســــموات والأرض ، ويعلم ما في الصدور (فعلى الإنسـان مراقبته علانية وسـرا) وهو الـذي يسـتبدل قوما بـآخرين ، وان عاقبة الكفر مقت وخسـار ، وأمّا الشـركاء المزعومـون (لا يقـدرون على نجـاتهم من عذاب الله ، لأنّهم لا يملكـون شـيئا) فهم لم يخلقـوا شـيئا من الأرض ، وليسـوا مـؤثّرين في تـدبير السـموات ، ولم يحصلوا على تخويل من الله بـإدارة شـؤون الخلق ، وإنما يعـدون أنفسـهم غـرورا ، والله يمسك السـموات والأرض ويمنعهما من الـــزوال (فما الـــذي يصـــنعه الطغــاة والمترفون؟).

(ولعل الآيـات الأخـيرة من السـورة إعـادة تأكيد على محاورها) ببيان أنّهم أقسموا بالله انهم يبادرون الى قبول النـذير وأكـثر من غـيرهم ، ولكنهم ازدادوا نفـورا بعد أن جاءهم النذير (والسبب أنهم كـانوا يريـدون العـزّة بـالكفر والاسـتكبار ، ويريـدون المـال بـالمكر ، أمّا الكفر فقد أورثهم المقت والصـــغار ، واما المكر فقد أورثهم الفقر وعاد عليهم بالخسران) ولا يحيق المكر السيء إلّا بأهله.

(وينذرهم السياق بـأنّهم يتعرّضـون لعاقبة الكفّـار من قبلهم) فهل ينتظرون ذلك المصير الذي جرت عليه سـنن الله الـتي لا تبـديل فيها ولا تحويـل؟! دعهم يسـيرون في الأرض لينظروا عاقبة الظالمين من قبلهم.

(وتختم السـورة الـتي تركـزت في بيـان تـدبير الله للخلق ببيان أنّ الله (**لَوْ يُؤاخِـذُ اللـهُ النَّاسَ بِما كَسَـبُوا ما تَـرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ، وَلكِنْ يُـؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا**

جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً) (بعض يعـذبهم وبعض يغفر لهم).

وخلاصة القـول في إطـار هـذه السـورة : إنها تـدور حول فكرة أساسـية ومـؤثّرة في تربية الإنسـان وتزكيته ، وهي إنّ الله هو المهيمن عليه ، وهو الــذي يــدبّر أمــوره وشؤون الكون ، ذلك أنّ الإنسان الـذي يشـهد بـذلك ليس فقط يطمئنّ إلى رحـــــاب ربّه ، وإنّما أيضا يدفعه هـــــذا الشعور إلى أن يحـدّد تصـرفاته وسـلوكه وفق منـاهج الله سبحانه وتعالى.

وهنـاك ايحـاء آخر لهـذه الفكـرة ، وهو ان لا يطمئنّ البشر إلى رخاء ، ولا ييأس عند ضراء.

سورة فاطر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2) يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)**

---

1 [فاطر] : الفطر الشق عن الشيء بإظهاره للحس ، وفاطر السماوات خالقها.

3 [فأنى تؤفكون] : أي كيف تصرفون عن طريق الحق إلى الضلال ، من أفك بمعنى انصرف ، ومنه يسمى الإفك إفكا لأنّه صرف للكلام عن الحقيقة إلى خلاف الواقع.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُـذِّبَتْ رُسُـلٌ مِنْ قَبْلِـكَ وَإِلَى اللـهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللـهِ حَـقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَـرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَـدُوًّا إِنَّما يَـدْعُوا حِزْبَـهُ لِيَكُونُـوا مِنْ أَصْـحابِ السَّـعِيرِ (6) الَّذِينَ كَفَـرُوا لَهُمْ عَـذابٌ شَـدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْـدِي مَنْ يَشـاءُ فَلا تَـذْهَبْ نَفْسُـكَ عَلَيْهِمْ حَسَـراتٍ إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (8)

الملائكة رسل الله

هدى من الآيات :

عند ما نتذكر أنّ ربّنا حميد ــ بكل المحامد الكريمة ــ أو ليس قد فطر السموات والأرض ، واستوى على عرش القــدرة حيث جعل الملائكة رسلا (لتــدبير الأمــور) عندئذ يهدينا الرب إلى أنّ مقاليد الأمور بيـده ، فـإذا فتح للنـاس رحمة فلا أحد يمســكها ، وإذا أمســكها فلا أحد يرســلها ، فهو العزيز الحكيم ، وهو الذي يرزق الناس من السموات والأرض ، ومن نعمه الظــاهرة رســالاته الــتي يكــذّب بها الناس عادة ، ولكنّ الأمور ترجع إلى الله سبحانه فلا يجوز أن نغترّ بزينة الدنيا أو بتضليل الغرور ، ويحذرنا الــربّ من الشــيطان ، ويــدعونا إلى عداوته ، لأنّه يــدعو حزبه إلى عذاب السعير.

هكذا نتلوا في الدرس الأوّل من سورة فاطر التذكرة بالأصول الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، واليوم الآخر.

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

نزلت البسملة مع جبرئيل كلّما نـزلت سـورة ، وكـان الأصحاب يعلمون نهاية السورة إذا نزلت البسملة.

وقد أكـــدنا : ان اسم الله يعـــني الصـــفات الجلالية والجمالية الــتي يــذكر بها ، كصــفة العــزة ، والقــدرة ، والعظمة من الصفات الجلالية ، وصفة الرحمة ، والغفران ، والخلق ، والرزق من الصـفات الجمالية ، ولقد خلق ربّنا بهـــذه وتلك الخليقة ، فلو لا رحمة الله ، وقدرته ، وعلمه ما وجدت.

فلو كـــــان ربنا مقتـــــدرا ، ولم يكن رحيما ، لم يكن ليخلق الخلق ، ولمـــاذا يخلقـــه؟ بلى. لقد خلقنا برحمته فقال تعالى : «**وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِـدَةً وَلا يَزالُـــــونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِـــــذلِكَ خَلَقَهُمْ**». [1]

وفي الحديث عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) قال : سألته عن الآية فقال :

«**خلقهم ليفعلــوا ما يســتوجبون به رحمة الله فيرحمهم**» [2]

وهكذا على البشر التوسل الى الله بأسمائه الحسـنى ، والبسـملة أعظمها ، فبرحمته الـتي وسـعت كـلّ شـيء (الـــرحمن) وبرحمته الدائمة الـــتي لا تـــزول (الـــرحيم) نستعين في أعمالنا.

(1) (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**)

---

(1) هود / (118 ـ 119).

(2) نور الثقلين / ج (2) ص (404).

لا حمد لأحد ، إلّا مجـــــازا ، اما الحمد حقّا فهو لله ، الخالق الرازق.

وقد يفتتن الإنسـان بحمد ما سـواه ، لأنّه تسـبّب في وصـــول نعمة إليه ، ويغفل عن حمد ربه الـــذي وهب له الكينونة الأولى ، ولا تـزال نعمه تـترى عليه بما لا يحصـيها العادّون.

أمّا الــــذاكرون ربّهم فيقولـــون : الحمد لله بجميع محامـــدة كلّها على جميع نعمه كلّها ، والحمد لله كما هو أهله ، ويستحقه حمدا كثيرا كما يحبّ ربّنا ويرضى.

وأوّل ما نحمد ربّنا عليه أنّه خلقنا ، وخلق الســموات والأرض.

(**فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

الفطر في اللغة هو الانشـــقاق ، وقد قـــال ربنا في سورة (الملك) : «**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَـماواتٍ طِباقـاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَـلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ**»

وفطر الله السـموات والأرض من العـدم ، وأنشـأهما من غير مثال يحتذي به ، أو خلق يخلق على شـاكلته. لقد انشقّ جدار الظلام الأبدي بإذن الله عن هذه الخلائق التي لا تحصى ولا تحـد. ولعل الكلمة تـوحي بمعـنى الإبـداع ، والإنشاء ، والتكوّن من دون أصل سابق ، أو مادة قديمة ، حسبما ذكر بعض المفسرين.

وقد جاء في هذا المعـنى عن أمـير المؤمـنين (ع) انه قال :

«**أنشأ الخلق إنشــاء ، وابتــدأه ابتــداء ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همامة نفس اضطرب فيها. أحال الأشـياء لأوقاتها ، ولأم بين مختلفاتها ، وغـــــــرّز غرائزها ، وألزمها أشباحها ، عالما بها قبل ابتدائها ، محيطا**

بحـــــدودها وانتهائها ، عارفا بقرائنها وأحنائها ، ثم انشأ ــ سـبحانه ــ فتق الأجـواء ، وشـقّ الأرجـاء ، وسكائك الهواء» [3]

وربما تـوحي الكلمة أيضا : بـان الله فتق السـموات بعد أن كـانت رتقا ، أي كـانت كتلة متراصة ، فحـدث فيها انفجار عظيم من هيبة الله ، يعبر عنه ـ سـبحانه ــ بقوله : «**ثُمَّ اسْـتَوى إِلَى السَّـماءِ وَهِيَ دُخـانٌ فَقـالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعـاً أَوْ كَرْهـاً قالَتا أَتَيْنا طـائِعِينَ**» [4] فكـانت السـموات والأرض ، ولعـلّ الآية التالية تشـير إلى ذلك : «**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما**». [5]

وتقـول بعض النظريـات العلمية الحديثة : إنّ الكـون كان سديما [6] ، فتكونت منه الشموس بما لا يعلمون.

(**جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً**)

الملائكة : هي القـوى العالمة ، الشـاعرة ، المطيعة لله ، وبعضـــهم موكّلـــون بالخليقة ، فللســـماء ملك ، وللشـــمس ملك ، وللبحر ملك ، وللـــريح ملك ، وللمطر ملك ، وللإنسان ملائكة حفظة وكتبة.

وبما أنّ هـذه السـورة تـذكّرنا بتـدبير الله ــ سـبحانه وتعـالى ــ للسـموات والأرض كـان مناسـبا الإشـارة إلى الملائكة المـوكلين به ، لكي لا يـزعم البعض أنّ الملائكة قـوى مسـتقلة فيعبـدوهم من دون الله ، كما عبد بعضـهم الشمس ، وبعض القمر ، وبعض النجوم ، و.. و...

---

(3) نهج البلاغة / خ (1) ص (40).

(4) فصلت / (11).

(5) الأنبياء / (30).

(6) السديم : هو الغبار الكثيف.

هكـذا نسـتوحي من كلمة «رسـلا» انهم مجـرد حملة للأوامر إلى حيث يجري تنفيذها بإذن الله وبحوله وقوته.

وكلمة «رســلا» لا تعــني الاختصـــاص بالرســالة التشريعية ، التي منها (التـوراة والإنجيل والزبـور وصـحف إبراهيم وقرآن محمد) ولكنّ الملائكة تتنزل بـإذن ربها من كلّ أمر ، في سائر شؤون الخليقة.

(**أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ**)

جاء في الأثر عن طلحة باسناده ، يرفعه إلى النـبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ قال :

«**الملائكة على ثلاثة أجزاء ، فجزء لهم جناحان ، وجزء لهم ثلاثة أجنحة ، وجزء لهم أربعة أجنحة**» [7]

ولبعض الملائكة أكـثر من ذلك بكثـير ، يقـول الإمـام أمير المؤمنين عليه السلام في صفة الملائكة :

«**ان لله تبـارك وتعـالى ملائكة لو أنّ ملكا منهم هبط إلى الأرض ما وسـعته ، لعظم خلقته ، وكـثرة أجنحته ، ومنهم من لو كلّفت الجنّ والانس أن يصـفوه ما وصـفوه ، لبعد ما بين مفاصـله ، وحسن تــركيب صــورته ، وكيف يوصف من ملائكته من سـبعمائة عـام ما بين منكبه وشـحمة أذنيه ، ومنهم من حدّ الأفق بجناح من أجنحته دون عظم بدنه**» [8]

(**يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ**)

(7) تفسير نور الثقلين / ج (4) ص (346).
(8) نور الثقلين ج (4) ص (346).

وقد أكـدنا القـول في سـورة سـابقة : ان الكـون في حالة توسّع دائم ومستمر ، وهـذه الآية تـوحي بـأنّ يد الله مطلقة ، وأنّ بيده البداء.

(**إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

[2] وما نـراه من صـنوف الخلائق ، وعجيب صـنعها ، وعظيم تقـديرها ، وتـدبير شـؤونها ، يهـدينا إلى أنّ خالقها مقتـــدر لا يعجـــزه شـــيء ، مما يزيـــدنا ثقة به واطمئنانا لتدبيره ، وسكينة في القلب تساعدنا على تقلّبات الحياة ، فلا نقنط بالبلاء ، ولا نستريح عند الرخـاء ، ولا نطمئنّ إلى الدنيا وأسبابها التي لا تثبت على حال.

(**ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها**)

فـــإنّ رحمة الله لا أحد يســـتطيع أن يمنعها عنك إذا قدّرت لك.

(**وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ**)

عزيز لأنه قـــادر ، وحكيم يرسل لمن يشـــاء ويمسك عمن يشاء ، كيفما يشاء بحكمة وليس عبثا.

[3] (**يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَـلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ**)

فهو الذي خلقنا ، وهو الذي يرزقنا ، وفي آيات قرآنية قـال الله سـبحانه وتعـالى : إنّه خلق الكـون في يـومين ، وقـدّر الأقـوات في أربعة أيّـام ، مما يهـدينا إلى أنّ الـذي خلقنا في يـــومين أعطى ضـــعف الـــوقت للـــرزق ، فلم الخوف إذا من توقّف رزقه؟

فهل من خـــالق غـــير الله يرزقنا ، من الـــذي وزّع الثروات في الأرض ، ومن الذي

وهب لمنطقة أرضا زراعية ، ولأخرى معادن أودعها ضمير الأرض منذ ملايين الســنين ليســتفيد منها الإنســان الآن وغدا.

وثقة البشر بــرزق ربه كفيلة بسد أبــواب الشــيطان التي يلج منها لتضليله إذ يصوّر له أنّ الآخرين يرزقونه.

ولعل هـــذه الثقة تدفعه إلى البحث عن الـــرزق في حقول الطبيعة ، ويسعى في مناكب الأرض يحرثها ، ويثير دفائنها ، ويسخّر طاقاتها لمصلحته ، ولا يجلس في انتظار الآخرين أن يرزقوه أو يطعموه.

وهكذا تكون الفكرة المستوحاة من الآية أوّلا تساهم في تزكية النفس ، بينما تســاهم الفكــرة الثانية في بنــاء الحضــارة بالاعتمــاد على رزق الله ، وتفجــير الطاقــات المهيأة للإنسان.

(**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**)

أين تذهبون؟! وإلى أي إفك وكذبة يـدفعكم شـياطين الجن والانس الذين يوحون إليكم بأنّهم رازقوكم.

[4] (**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**)

في الآيات القرآنية تأكيدات كثيرة على هذه الفكـرة : ونستوحي من ذلك : أنّ آراء الناس ليست مقياسا سـليما لمعرفة الحق ، ذلك أنّ الإنســان يجعل ـــ عــادة ـــ آراء الآخـرين مقياسا ، فيقـول : ما دام النـاس يقولـون : هـذا كذب فهو كذلك ، ومن هنا يؤكد ربّنا : «**وَما أَكْثَـرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**» وان أكثر الناس قاوموا رسـالات الله فأظهرها الله بالرغم من ذلك.

(**وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**)

وهكـــذا أكّد الســـياق أنّ الـــرازق هو الله ، وأنّ آراء الناس ليست مقياسا ، وأنّ الأمور لا تعود إلى هـذا أو ذاك ، ممن يتخـذهم النـاس أنـدادا من دون الله ، بل إلى الله ترجع الأمور ، وهنـاك يكـون الحسـاب عـادلا حيث يجـازى المحسن جــزاء الضـعف ، ولا يعــاقب المســيء الا بمثل عمله.

[5] ثم يؤكد الله هذه الحقيقة فيقول :

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ**)

إنّما يكذّب الناس برسالة الله لأنّهم عبـدوا الـدنيا وما فيها من مبـــاهج وزينة ، فبعض غـــرّتهم الـــدنيا مباشـــرة كالطغـاة والسـلاطين وكثـير من النـاس ، وبعض غـرّهم المغـرورون بالـدنيا من هـؤلاء ، وإنّما أهلك هـؤلاء السـذج اتباعهم لأولئك من دون لذة أو شهوة.

فـترى أدعيـاء الـدين والعلم يسـتخدمهم السـلاطين للتغرير بالبســـطاء من النـــاس فيســـلبون منهم دينهم ودنياهم ، وإنّما يرفل بـالنعم الطغـاة وأعـوانهم ، ولا يبقى للضعفاء سوى الضلالة والغرور.

(**فَلا تَغُــرَّنَّكُمُ الْحَيــاةُ الــدُّنْيا وَلا يَغُــرَّنَّكُمْ بِاللــهِ الْغَرُورُ**)

وقيل ان الغرور : هو الشيطان.

[6] للإنسان عدوّان : عدو داخلي وهو النفس ، وعدو خــارجي وهو الشــيطان ، وعلى الإنســان أن يتخذ موقفا واضحا من الشيطان لكي يتميّز نداءه التضليلي عن داعي الله ، ذلك أنّ الإنســان يملك في نفسه قـوتين متضـادتين هما : العقل والهوى ،

ويؤيد العقل الملائكة بينما الهـوى يدعمه الشـيطان ، وفي الحــديث : ان كل شــخص موكل به ثلاث وثلاثــون ملكا ، ومثلهم من الشياطين.

ومن مكر الشــيطان بالإنســان خلط الأوراق عليه ، حتى لا يميّز هـذا عن ذلك ، فـتراه يلبس الباطل بـالحق ، ويوسوس في الصدور حتى يتشــابه الحق بالباطل ، ولكن إذا عـرف الإنسـان أنّ في قلبه شـيطانا يسـعى لاغوائه ، واتخــذه عــدوا تميّز العقل عن الهـوى في نفسه ، وأمكنه معرفة طبيعة دواعيه النفســـية هل هي من عقله أو من هواه.

وفي الروايـــات : «انظر أيّهما أقـــرب الى نفسك فخالفه» لأنّ الأقرب الى النفس أقرب الى الشيطان.

(**إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**)

علما انه يـأتي بعض الأحيـان في صـورة الناصح ، انه عدو مبين ، يأتي لك من تسع وتسـعين بابا من الخـير كي يوقعك في المائـة. انه عـدو وقد آلى على نفسه ان يضل بني آدم ، ويدخلهم معه النار.

هكـذا تناصح الصـالحون بـألا يغفل ابن آدم عن عـدوه الخطر وهو الشيطان ، فهذا

الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حين يأتي اليه رجل ويقــول له : بــأبي أنت وأمّي عظــني موعظة يقول له :

«**ان كان الشيطان عدوا فالغفلة لماذا**؟!» [9]

وجـاء في حـديث ان الله اوحى إلى كليمه موسى بن عمران عليه السلام ، وكان من بين وصاياه :

(9) المصدر / ص (351).

«ما دمت لا ترى الشيطان ميتا فلا تأمن مكـره» [10]

وخطورة هذا العدو اللـدود انه لا يرضـيه شـيء إلّا إذا أوقع فريسته في نار السعير مباشرة.

(**إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ**)

ممن يطيعونه ...

(**لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ**)

[7] (**الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ**)

وعذاب الدنيا مهما كان لا يبلغ شـدة عـذاب الآخـرة ، فعلى العاقل أن يحتمل صعوبات الدنيا لكي يتجنب عذاب الآخـرة ، كمن يهـرب من النـار عـبر طريق شـائك يـدمي رجله ، بلى. أن ينجو من النــار على حســاب رجله أفضل من أن يلتهمه سعيرها.

(**وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**)

لماذا يؤكّد القرآن على المغفرة للذين آمنـوا وعملـوا الصالحات؟

ربما لأنّ المغفرة للمذنب ، وأبناء آدم ـ عادة ـ يذنبون فـإذا عرفـوا غفـران الله عظم الأمل في قلـوبهم حيث يقـول لهم الـربّ : ما دمتم تعملـون الصـالحات فسـوف يغفر لكم ذنوبكم.

---

(10) المصدر.

[8] ثم يؤكد القرآن على أنّ الشيطان يزيّن الأعمـال السيئة للإنسان حتى يراها صالحة.

(**أفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً**)

يزينه له الشـيطان ، فـيراه حسـنا ، ذلك أنّ الإنسـان يحب نفسه ولا يحب أن يقال عن عمله أنّه سيء ، وهكـذا تتكرس الخطايا عنـده ، إذ تنقلب مقاييسه وقيمه فبعد ان كان يتحاشاها أضحى اليوم يراها حسنة.

وبالنســبة الى هــذا الرجل يصــعب عليه الإقلاع من الذنوب فضله الله.

يقول الحديث المأثور عن رسول الله صـلّى الله عليه وآله :

«**بينما موسى جالسا ، إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان ، فلما دنى من موسى خلع الـبرنس ، وقام الى موسى فسـلم عليه ، فقـال له موسى : من أنت؟ قال : أنا إبليس ، قال : أنت فلا قرّب الله دارك ، قال : اني انما جئت لأسلم لمكانك من الله ، فقــال له موسى : فما هــذا الــبرنس؟ قــال : به اختطف قلوب بني آدم ، فقال له موسى فــأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه أبن آدم استحوذت عليه؟ قـال : إذا أعجبته نفسه ، واســتكثر عمله ، وصــغر في عينه ذنبه**» [11]

(**فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ**)

فالله يضل هذا الإنسان الذي يـبرر أعماله الفاسـدة ، فيسلب عقله ، ويتركه في ظلمـات لا يبصر ، ويهـدي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما صبروا وأطاعوا.

(**فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ**)

---

(11) المصدر / ص (352).

حين لا يؤمنون بك.
(**إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ**)

وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (9) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (10) وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (11) وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ

---

10 [يبور] : من بار إذا فسد ، أي أنّ مكرهم يفسد ولا ينفذ.

حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيـهِ مَـواخِرَ لِتَبْتَغُـوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)

---

12 [مـواخر] : جمع مـاخرة ، يقـال مخـرت السـفينة المـاء إذا شـقته لتسير.

لله العزة جميعا

هدى من الآيات :

في إطار تبيان تـدبير الله لأمـور السـموات والأرض ، وتكـريس حالة السـكينة في نفـوس المؤمـنين به ، يربط السياق هنا بين سنن الله في الخليقة وبين سننه في حياة البشر.

ويدعونا الى إلقاء نظـرة فاحصة الى السـحاب الـذي تحمله الرياح ، وتبعثه الى البلاد الميتة فيحييها ، ثم نظــرة الى حيـــاة الإنســـان وما يختلج في قلبه من نزعـــات وتطلعـات ، فكل شـخص يريد أن يصـبح عزيـزا ، مـنيع الجـانب ، ولكن البعض قد يخطئ الطريق ، فلا يعـرف أنّ العزة الحقيقية إنّما هي عند الله عـزّ وجل ، وإنّ المعـراج إليه هو الإيمـان والعمل الصـالح ، ويدفعه هـذا الخطأ الى اصـطناع المكائد ومكر ، ولا يحيق المكر السـيء إلّا بأهله فلا يحصل على عزة ولا غنى.

إنّ ربنا سبحانه يذكّرنا بأيّام ضعفنا : من الذي قوّانــا؟ أو لم نك نطفة من منيّ

يمنى؟ من الذي سوّانا فعدلنا؟

إنّ الربّ الذي جعل من النطفة المهينة إنسانا سويّا ، هو الذي يعزّ من يشاء ، ويـذلّ من يريد ، ويتصل الحـديث عن العزّة بالحديث عن البحـرين هـذا عـذب فـرات سـائغ شـرابه ، وهـذا ملح أجـاج ، ومع أنّهما لا يسـتويان ، إلّا أنّ الله يـــرزق العبـــاد منهما جميعا بحيث يســتخرجون لحما طريّا كما يستخدمونهما لمصلحة النقل فيهما عبر السفن.

وكل ذلك الحـــديث يربطه ســبحانه بالليل والنهـــار : فمن يـولج النهـار في الليل ، ويـولج الليل في النهـار؟! أو ليس الله ، فلما ذا نطلب العزة عند غيره؟!

بينات من الآيات :

[9] إنّ المؤمن يجعل الحياة مدرسة ، ويجول ببصـره في أرجائها ليزداد وعيا وهدى ، ومن أكـثر تجليّـات الحيـاة روعة ســـاعة انبثاقها عند ما يـــأمر الله الريـــاح لتحمل السـحب الثقيلة بالبركـات الى مـوات الأرض حيث يحيط السكون بكلّ شيء فيحييها الرب بها.

(**وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً**)

الرياح تثير السحاب ، كما يثير الزارع الأرض للـزرع ، فترسله كيفما يشاء الله.

(**فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ**)

وكلمة «فسـقناه» تـدل على أنّ ربنا هو الـذي يـدبّر الغيث فيرســـله الى بلد ميت فيحييه ، وســـقاية الغيث ليست فوضى انما هي خاضـــعة لعمل بـــني آدم ، فليس مطر سنة أقلّ من مطر سنة أخـرى في بلد ، ولكن عمل البشر هو الذي يزيده أو ينقصه

تماما ، وما الريــاح الى وســيلة لان الله أجــرى الأمــور بأسبابها.

(**فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**)

تعـالى إلى أرض مـوات لتجد البشر صـرعى الجـوع ، والأحيـاء في ضـمور ، وأديم الأرض يشـكو العطش ، فـإذا أنــزل عليها الــربّ المــاء اهــتزت ، ودبّت الحيوية في الإنســان ، وانتعش الأحيــاء. إنّ هــذا مظهر من مظــاهر انبثاق الحياة.

(**كَذلِكَ النُّشُورُ**)

[10] وكما الأرض يحييها الــــربّ بــــالغيث ، وكما الأموات ينشرهم كيف يشاء يوم القيامة ، كــذلك المجتمع المتخلّف الذي يحيط به سكون المقــابر يحييه ربّنا بعزّته ، فــإذا أراد المجتمع الاســتقلال والتقــدم والعــزّة وبالتــالي الحيــاة فعليه أن يعــرج الى الله بالعمل الصــالح والكلم الطيب.

هذه قدرة الله أن جعل ـ هذا البلد الذي مات فيه كل شيء ـ ينبض بالحياة ، فكيف يكفـرون بـالبعث والنشـور ، أفلا يؤمنون بأنّ ربنا قـادر على أن يـنزّل مثل هـذا المطر على أجــداثهم ، فتنمو فيها الحيــاة ، مثلما ينمو الــزرع ، ويخرج الناس من قبورهم كما تخرج النباتــات؟! وقد دلت بعض الروايـات على هـذه الفكـرة ان الله يمطر السـماء أربعين صـباحا ، فتنبت الأجســام فتكــون الأرض كما رحم الام.

(**مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً**)

لا عند الشركاء أو ليس (من اعتز بغير الله ذلّ)؟!

(**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**)

الكلم الطيب هو العقيـدة الصـالحة ، لأنّ الكلمة في القرآن لا تدل على اللفظ ، بل على ما ورائها من معـنى ، كما قال ربنا سبحانه : «**مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ أَصْلُها ثـابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّـماءِ**» وقد فسّـرت هـذه الآية بالقيـادة الرسـالية ، ولا ريب ان سـنام العقيـدة الصـالحة ومظهر صـدق الإنسـان في إيمانه هو التسـليم للقيـادة الإلهية (الولايـة) والكلم الطيب يصـعد الى الـرب ويصـعد معه صـاحبه معنويـا. أو ليس الإيمـان هو أثقل ما في ميزان العبد ، وما عبد الله بمثل التوحيد؟!

ولا ريب ان الكلم الطيب ـــ كما الشـجرة الطيبة ـــ تنتشر فروعها في كل أفق ، فمن العقيدة الصحيحة يشـعّ التسامح والحب ونبذ العصبيات والأفكار اليائسة والسـلبية ، وكل أولئك يقرّب العبد الى ربه زلفى.

كما أنّ العمل الصـالح يرتفع الى الله ويرتفع صـاحبه به فيتقـرب اليه ، وبـالكلم الطيب والعمل الصـالح يصل المجتمع الى العزّة الالهية.

وقد ذكر للعمل الصالح تفسيران :

التفسـير الأوّل : إنّ العمل الصـالح يرفعه الكلم الطيب [1] فالعقيدة الطيبة ترفع العمل الصالح ، لأنّ عامل الحسـنة بلا إيمـان لا يقبل منه «**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللـهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**».

التفسير الثاني : إنّ العقيـدة الصـادقة والكلم الطيب يرفعه العمل الصـالح ، فالعمل الصـالح بمثابة الأجنحة للطير.

وتتجلّى هـذه الحقيقة في الحيـاة الاجتماعية بـأنّ الكلمة الطيبة والعمل الصالح

---

(1) التفسير الكبير : الامام الفخر الرازي ج (26) ص (8).

يرفعــان المجتمع الى الأعلى دائما حيث العــزّة الإلهيــة. كيف يتم ذلك؟

كما القـارب يسـير مع التيـار كـذلك الحيـاة تسـير مع السـنن الحاكمة عليها ، فمن مشى مع تلك السـنن حملته الحيـاة إلى الأعلى ، ومن عارضـها خـاب سـعيه وبـارت خطته.

فالحقد والبغضــاء والتهمة والعــداوة تفصم عــرى المجتمع ، وقد بـنى الله الحيـاة على أسـاس الوحـدة لا التفرقة ، فتيار الحيـاة يجـري باتجـاه التجمع ، وهل يصـعد ذلك التيـار إليه سـبحانه؟! كلّا ... إنما الصـاعد إليه الحب والتعاون والإيثار.

إنّ الكون قائم على أساس البناء لا الهدم ، وإنّ الذي يبـني يتقـدم على الـذي يهـدم لأنّ سـنن الله تؤيد الـذين يبنــون ، ويخطئ أولئك الــذين يمكــرون الســيئات ، ويعتقدون أنّ باسـتطاعتهم أن يتقـدموا بها ، فليس هـؤلاء فقط لا يصعدون الى الله ، ولا ينالون من عزّة الله شيئا ، بل لهم عذاب شديد.

(**وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ**)

المكر هو الحيلة ، ومن يعيش عليها لا يفلح.

(**وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ**)

عملك الصــالح يرفعه الــربّ ، ومكر أولئك ينزّله ، ويبور أي يفسد ، وكثير من الناس الذين يبـتزّون النـاس ، كالمهر بين والمحتـالين ، نجـدهم ربما يربحـون مـرة ربحا خياليّا ، ولكنهم بالتالي يخسرون.

والعزّة يعـني أن تبحث عن الطريق القـويم ، فتمشي فيه ، وآنئذ سوف تجد أنّ سنن الحياة كلها تخدمك.

[11] ويؤكد السياق شمول تدبير الله لشؤون الإنسان ، ويبيّن كيف تجري تقلّبات حياة البشر على كفّ تقدير الله سبحانه ، فلقد خلقنا من تراب أوّلا ثم من نطفة ثم خلق لنا أزواجا ، ورزقنا ذرية ، لا نعرف جنس الحمل ولا تقديراته.

(**وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً**)

حتى تستأنسوا الى بعضكم.

(**وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ**)

لأنّك في لحظات الجنس قد لا تفكر في شيء ، ولكنّ الله يعلم ما تحمل كلّ أنثى. أهو ذكر أم أنثى ، كما يعلم ماذا يؤول اليه مصيره.

(**وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ**)

كم يكون عمر هذا المولود؟ وهل سيعمر طويلا؟ أو يباغته الأجل في عزّ طفولته أو ريعان شبابه؟ كل هذه التساؤلات في كتاب عند الله ، لا يضل ربي ولا ينسى.

(**إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**)

هذه الأمور ليست عسيرة عند الله كما هي عسيرة عندك.

[12] (**وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ**)

الفرات والأجاج تأكيد لشدة العذوبة ولشدة الملوحة.

(**وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها**)

من الماء العـذب والمـالح تـأكلون لحما وتسـتخرجون حلية ، وقد وقف المفسـرون طـويلا حـائرين ، كيف يمكن اسـتخراج الحلية من المـاء العـذب الفـرات ، فجـاء العلم وأثبت إمكانية تربية اللؤلؤ في الأنهار.

(**وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ**)

في عموم الماء ، عذبه ومالحه ، من أجل أمرين :

الأوّل :

(**لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**)

لأنّ السفينة لم تزل أفضل وسـيلة لنقل البضـائع بين الشعوب.

الثاني :

(**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

حيث ان النعم وسـيلة للكمـال المعنـوي المتمثل في شكر الله.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (17) وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (18)

---

13. [قطمير] : هو قشر النواة أي اللفّات التي فوقها.

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِـيرُ (19) وَلا الظُّلُمـاتُ وَلا النُّورُ (20) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَــرُورُ (21) وَما يَسْــتَوِي الْأَحْياءُ وَلا الْأَمْواتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشـاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (23)

أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ

هدى من الآيات :

يتشبث الإنسان ببعض الخيـوط الواهية (العنكبوتيـة) ، ويـــترك ذلك الحبل المـــتين الـــذي لا بد أن يعتصم به ، وتذكّرنا آيات القرآن بأنّ مـدبّر السـموات والأرض هو الله ، فهو الذي يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وسخّر الشمس والقمر ، وأنّ له الملك ، فلما ذا لا ندعوه ، بينما الذين يدعونهم من الشركاء لا يملكون حتى بمقدار قطمير.

وبالذات عند الضـراء ، حيث يتحسّـس البشر بضـعفه الحقيقي ، لا يعقل هؤلاء الأنداد شيئا إذ لا يسمعون النـداء ، ولو سمعوا لم يستجيبوا.

أمّا يـوم القيامة فهـؤلاء لا يشـفعون لأحد إذ يكفـرون بالمشركين.

ثم يؤكد ربنا هـــذه الحقيقة قـــائلا : «(**يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ**

الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)» لماذا؟

لأنه يستطيع بأقل من لحظة واحدة أن يفنيكم عن أخركم ، وينشئ مكانكم مجموعة بشريّة جديدة ، وهل هناك فقر أكبر من هذا الفقر؟ فالإنسان في وجوده وفي استمرار بقائه يحتاج الى ربه ، وهل هناك غنى أكبر من غنى الرب ، الذي لو شاء أذهبكم ، وأتى بخلق جديد؟ وهذا هيّن عليه ويسير.

ثم يحدثنا السياق عن مسئولية الإنسان أمام ربه عن جميع أعماله ، وانه لا يستوي عند الله الصالح والكافر ، كما لا يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، ولا الأحياء والأموات.

فلا يجوز الاعتماد على الأنداد للهروب من المسؤولية كما لا يمكن القاؤها على الآخرين.

وإنّما جاء الرسول نذيرا (بأنّ السيئات تستتبع عقابا) وهو بالتالي لا يحمل من تبعات أمته شيئا.

بينات من الآيات :

[13] (**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ**)

الليل والنهار يلج أحدهما في صاحبه بصورة مستمرة ، بسبب حركة الأرض حول الشمس.

قال بعض المفسرين : إنّ كلمة «يولج» تدل على الاستمرار ، لأنّه في كل لحظة يتم إيلاج ، ففي هذه الساعة حكم الليل في أحد البلدان ، وبعد دقيقتين سيحلّ الليل على بلد آخر ، وفي المقابل يحلّ النهار على بلد في نفس الوقت ، والظهر

في بلد ثالث.

وهناك تفسـير آخر يحتمله الكلام هو إنّ الليل والنهـار يأخذ أحـدهما من الآخر في فصـول السـنة فمـرة يكـون الليل أطول ومرّة النهار.

(**وَسَـخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ كُـلٌّ يَجْـرِي لِأَجَـلٍ مُسَمًّى**)

الشـمس والقمر يجريـان ، ولكن ليس إلى ما لا نهاية ، وكـذب من قـال : إنّ الشـمس والقمر أبـديان ، كلا .. فشمسنا هذه مثلا في حالة الكهولة ، وكـلّ ما في الكـون يؤكد على النهاية ، فهذه الإنفجـارات الهائلة في الشـمس شـاهد على تناقصـها بشـكل دائم ، والإنفجـارات الـتي نسمعها بين الفينة والأخـرى لبعض الشـموس تؤكد لنا أنه لا بد من نهاية لشمسنا أيضا.

(**ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ**)

من الـذي أولج الليل في النهـار ، وأولج النهـار في الليل ، ومن الذي سخّر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى؟ إنّه الله ربكم ، وهو المالك حقّا.

(**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**)

القطمـير هو قشر النـواة الرقيق ، وما يملك الـذين تدعون من دونه مثلها.

[14] (**إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ**)

فكيف يسمعون نجواكم أو سـركم ، أو حين تـدعونهم في الظلمـات؟ ولو افترضـنا أنهم سـمعوا دعـاءكم لم يستجيبوا لكم ، لأنهم لا يملكـون دفع الضر عن أنفسـهم ، فكيف بجلب الخير لكم؟!

(**وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**)

الملائكة والأنبيـــاء كعيسى والأوليـــاء الصـــالحون سيكفرون بشرككم ، وسيتبرأون منكم ومن عبـادتكم لهم ، كما يكفر الأنداد بكم وبشرككم.

(**وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**)

الخبير هو الذي خـبر الشـيء ، وعـرف أبعـاده ، ومن أخبر من الرب وهو الخالق المحيط بكل شيء علما؟

[15] إنّ الإحســاس بـالغنى الـذي يسـمّيه القـرآن بالاستغناء ، والذي يدعو صاحبه إلى البطر والطغيـان ، إنّه مرض خطير ، إذ يجعل الإنسان يعيش الوهم ، ولا يعـايش الحقائق ، لذلك يذكّرنا ربّنا بواقع العجز المحيط بنا.

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ**)

ومن أشد فقـــرا منّا ، وقد أركزنا الـــربّ في العجز والضعف والمسكنة ، لأنّ كـلّ شـيء عنـدنا منه سـبحانه. يقـــول الإمـــام الحســـين (عليه الســـلام) في تضـــرعه المخصوص بيوم عرفة :

«**إلهي! أنا الفقـــير في غنـــاي فكيف لا أكـــون فقيرا في فقري**»

(**وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**)

الغنى عادة ما يكون مع اللؤم ، ولكنّ الله غـني حميد ، فهو غني ويعطي من غنـاه للآخـرين ، وهو غـني لا يبخل على الآخرين ، بل «**لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْـيَةَ الْإِنْفـاقِ**» [1] وهو حميد يحمد على غناه.

---

(1) الإسراء / (100).

[16] ومن آيات فقرنا نحن البشر قدرة الله المحيطة بنا حيث يهلكنا إذا شاء ويستبدل بنا غيرنا.

(**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**)

[17] يستطيع أن يذهبكم جميعا ، ويستبدلكم بغـيركم ، يخلقهم بيسر ، لأنّه لا يمارس في خلقه علاجا ولا يمسّـه لغـوب ، (**إِنَّما أَمْـرُهُ إِذا أَرادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ**).

وفي الحديث عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ قـال :

«**خلق الله المشـــــيئة قبل الأشـــــياء ، ثمّ خلق الأشياء بالمشيئة**» [2]

فعند ما يشـاء شـيئا فقد حـدث الشـيء ، وفي الأثر :

«**أمره بين الكاف والنون**»

(**وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ**)

لنفــترض أنّ الله سـبحانه وتعـالى شـاءت مشـيئته المطلقة ـ الـتي لا يحـدّها شـيء ــ أن ينهي وجـود الكـون كلّه. هل يسأله أحد عن ذلك؟ كلا ...

فالله يفيض نـور الوجـود من ينبـوع رحمته الواسـعة لحظة بلحظة ، ولو توقّف هـــذا الفيض لحظة واحــــدة لتوقّف كلّ شيء ، فهل نحن أغنياء أم ربنا الحميد؟!

مـاذا نسـتلهم من هـذه الحقـائق ، وكيف ينبغي أن تنعكس على أنفسنا وسلوكنا؟

---

(2) التوحيد للصدوق / ص (339).

الجواب :

1 / لأنّ الله غني حميد فهو يفيض سيبه على الخليقة ، إلا إذا عصـوه وغيّـروا ما بأنفسـهم بغيا وظلما ، وهنالك يجازي الظالمين جزاء وافيا ، ولا يتحمّل أحد ثقل الجريمة عن أحد ، فلا ينفع إلقــاء المســؤولية على الآخــرين في محكمة العدل.

2 / إنّ من يعمل الصالحات يجازيه الله فهو إذا يعمل لنفسه.

[18] (**وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى**)

الـوزر : الحمل الثقيل ، والـوزارة : النفس البشـرية التي حملت ثقلا.

ومعــــنى هــــذه الآية : إنّه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى. لماذا؟

لأنّ تلك النفس لها ثقلها وحملها ، فلا تســــــتطيع أن تتحمّل حمل نفسه.

(**وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَـلْ مِنْـهُ شَـيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى**)

وقد قـال الله عن لسـان الكـافرين : «**وَقـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِـلْ خَطايـاكُمْ وَما هُمْ بِحـــامِلِينَ مِنْ خَطايـــاهُمْ مِنْ شَـــيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ**» [3].

إنّك إن تدع إنسانا ما أن يحمل عنك مسئوليتك ، فلن يحمل منها شيئا ، لأنّ كلّ إنسان يأتي وهو يحمل ما يكفيه من المسؤولية ، ويجب ان يتحدى الضغوط والأهواء.

(3) العنكبوت / (12).

إنّك مسئول عن عمـرك وشـبابك ، ويقظتك ونومك ، وسعيك وخمولك ، وإيمانك وكفرك ، فعلينا أن نعقد العزم على حمل مسئولياتنا بقوّة حتى يأتينا اليقين.

ولكن كيف نفهم هذه الحقيقة الكبرى؟

بما يلي :

1 ـ نخشى ربنا بالغيب.

(**إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ**)

لاننا ما دمنا لا نؤمن بالغيب فلن نفهم الحقائق.

2 ـ نقيم الصلاة.

(**وَأَقامُوا الصَّلاةَ**)

3 ـ نزكّي أنفسنا.

(**وَمَنْ تَـزَكَّى فَإِنَّما يَتَـزَكَّى لِنَفْسِـهِ وَإِلَى اللـهِ الْمَصِيرُ**)

فاذا آمنت بـالغيب ، وأقمت الصـلاة ، وربّيت نفسك ، فأنت وحدك المستفيد.

[19 ـ 22] في الـدنيا نـرى النـاس بعين واحـدة ، من يـتزكى ومن لا يـتزكى ، ومن قـام الليل ومن نـام ، إنّك تراهم سواء ، ولكنهم يختلفون عند ربهم.

والقـرآن يؤكد لنا هـذه الحقيقة في آيـات كثـيرة من القرآن ، فالذي زوّده الله بالبصيرة ، وأصبح يرى الحقـائق بهـدى الـرب ، يختلف عمّن هو أعمى ، قد تـرك بصـيرته لهواه ، وهدى الله لضلالة إبليس.

(**وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ**)

فالـذي انتفع بنـور عقله يعيش في ضـياء الـوحي ، أو ليس شـرط الرؤية وجـود بصر عند الإنسـان ووجـود نـور على الطبيعة؟ كذلك المـؤمن مـزوّد بنـور العقل ، ويعيش في عــالم النــور نــور الرســالة الالهية ، بينما الآخر تلفّه ظلمات الجاهلية.

(**وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ**)

والـذي يعيش في النـور بصـيرا تطمئنّ نفسه ، ويقيه الله من الكــوارث والمصــائب ، فهو في ظــلّ الله ينعم بالسلامة ، بينما الآخر يلفحه الحرور وهو الحر الشديد.

(**وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ**)

والمــــؤمن حي لأنّه يســـتفيد من الإنـــذار فيجتنب المخاطر ، بينما الكافر ميّت لا يتفاعل مع محيطه.

(**وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللـهَ يُسْـمِعُ مَنْ يَشاءُ**)

القلب الحي يسمع كلام الله.

(**وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**)

أمّا القلب الميت الذي تراكمت عليه الآثــام ، واختفى في قبر الذنوب ، فإنّك لا تستطيع أن تسمعه.

[23] (**إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ**)

لأنّ هــدف الرســالة ليس أكـثر من الإنــذار ، أمّا أن تسمع لهذا الإنذار أو لا تسمع

فتلك مسئوليتك.

لا تنتظر أن يجـبرك أحد على الإيمـان ، بل أنت الـذي يجب أن تسعى نحو الهدى.

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَـذِيرٌ (24) وَإِنْ يُكَـذِّبُوكَ فَقَـدْ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنـاتِ وَبِـالزُّبُرِ وَبِالْكِتـابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كـانَ نَكِـيرِ (26) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـماءِ مـاءً فَأَخْرَجْنا بِـهِ ثَمَـراتٍ مُخْتَلِفـاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبـالِ جُـدَدٌ بِيضٌ وَحُمْـرٌ مُخْتَلِـفٌ أَلْوانُها وَغَـرابِيبُ سُـودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعـامِ مُخْتَلِـفٌ أَلْوانُـهُ كَـذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ

---

27 [جـدد بيض وحمـر] : مفردها جـدة كغـرف وغـرفت ، والمـراد بها الطرق.

[وغرابيب سود] : الغـربيب الشـديد السـواد الـذي يشـبه لـون وسـمي الغراب غرابا لشدّة سواده.

إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30) وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32)

إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ

هدى من الآيات :

إرسال الرسل ، وتكذيب الكفّار بهم ، ونزول العـذاب عليهم بسـبب التكـذيب ، هي من سـنن الله في الخليقة ، فبـالرغم من أنّ هـذه السـنن قد لا تبـدو واضـحة وضـوح سائر السنن والأنظمة إلّا أنّها لا تشذّ عن سائر السنن في تكرارها على ذات النسق ، فمن السـنن ما تقع يوميّا ، ومنها ما تقع كلّ قرن مرة مثلا ، ومنها ما تقع عند حوادث معينة.

فالرسالة من تلك السـنن ، إذ يرسل الله رسـولا بين فترة وأخرى حسب حاجة البشر.

ومع هذه السنة تتكرر حقيقة تاريخية حتى تكاد تكـون سنة وهي : إنّ الرسالة الجديدة تصـطدم بعقبـات نفسـية واجتماعية من القوم الذين أرسل الرسول إليهم ، فتراهم يرفضونها سريعا.

أمّا السـنة الأخـرى فهي أن ينتقم الله لرسـالته من أولئك الـذين خالفوها ، فيبعث عليهم عـذابا يبيـدهم عن بكرة أبيهم.

هذه فكرة تدور حولها آيات هذا الدرس ، وأمّا الفكرة الثانية فهي : إنّ العلم الحق يدعو الى الإيمان الحق.

بينات من الآيات :

[24] ليس غريبا أن يبعث الرسـول بـالحق ، لأنّ الله إنّما خلق أسـاس الكـون بـالحق ، فالسـنن والأنظمة الطبيعية حق ، والحـالات المتغـيرة الـتي تخضع لهـذه الأنظمة حق أيضا ، وشـهوات الإنسـان وعقله حق ، وأرسل الربّ رسـوله بـالحق ليكشف الحق ويهـدي إليه ، فهي رسـالة تتكيف مع الإنسـان والطبيعة ، وتجـري على ذات النهج.

(**إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِـالْحَقِّ بَشِـيراً وَنَـذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ**)

هذه سنة ، لأنّ الله لم يجعل أمّة إلّا ولها نـذير ، يبعثه في أمّها.

[25] ومن الحقـائق الـتي تكـاد تكـون سـنة ، تكـذيب الأمم لرسلهم.

(**وَإِنْ يُكَـذِّبُوكَ فَقَـدْ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ**)

وهي الشـواهد والحجج الـتي لا ريب فيها لشـدة وضوحها.

(**وَبِالزُّبُرِ**)

وهي الكتب المنزلة على الرسل المحتوية على مجموعة المعارف الالهية ، الهدى والبينات والمفصلات.

(**وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ**)

أي البصائر. ولعل فرقه مع الزبر أنّه خصوص البينـات المحكمـــــات من الكتب ، بينما الزبر هي المتشـــــابهات والمجملات.

ومع أنّ الرسل أرسـلوا بهـذه الرسـالات الثلاث ، مع ذلك كذّبتهم الأمم.

فإذن يا من تبلّغون رسـالات اللـه! لا تستوحشـوا من تكذيب النـاس ، إنّ تكـذيبهم عـادة جـرت قبل أن تحملـوا رسالتكم ، فلا بد أن تعرفـوا أنّ ما سـيجري عليكم هو أن يكذّبكم قومكم كما كـذّب الأوّلـون ، ولكنّ الله سـيظهرها عليهم ، طوعا أو كرها.

[26] (**ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ**)

وهذه سنّة أيضا.

ونكير الله لهم : أي عذاب شـديد يستأصـلهم بـه. أفلا يعتبرون بتاريخهم ، ويعرفون شدة إنكار الله لمنهجهم في التكذيب؟!

[27] من أبرز ما يثير عقل الإنسـان ، ويجعله يغـوص في أعماق الحقـائق ، الاختلافـات الـتي تـبرز في الطبيعة مما يزيدنا وعيا بتدبير الله ، واستوائه على عـرش القـدرة ، لأنّ إدارة الأمور المختلفة التي يقوم كلّ واحد منها بأداء وظيفة معينة ، والتنسيق بينها وبين غيرها من الأمور أكـبر شهادة على الخبرة والقدرة.

ويبدو أنّ السياق هنا يذكّرنا بهذا الاختلاف ثم يبين بأنّ الذين يخشون ربهم هم العلماء.

(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً**)

مــاء المطر واحد إلّا أنّ الله ينبت به ثمــرات مختلفا ألوانها.

(**فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها**)

اللون هو الجانب الظاهر من الاختلاف ، ولكنّه يعكس جوانبا أخـــرى هي : الاختلاف في الطعم ، واللـــون ، والفائدة ، ورغبات الناس إليها.

ونترك الحقول والسهول فنصل إلى الجبـال ، فيقـول الله فيها :

(**وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ**)

الجدد من الجادة ، وهي الخطة أو الطريقة.

(**وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ**)

بين الأسود والأبيض ألوان تتفاوت من جبل إلى آخر ، بل حتى في الجبل الواحد تختلف الألوان أعلاه عن أسفله عن جوانبه.

وهذه الآية ربما تدل على طبقات الأرض الـتي تتجلّى في الجبال.

وغــربيب : الشــديد الســواد ، ومنه ســمّي الغــراب لسواده.

[28] (**وَمِنَ النَّاسِ وَالـدَّوَابِّ وَالْأَنْعـامِ مُخْتَلِـفٌ أَلْوانُهُ**)

كما الجبـــال واختلاف ألوانها كـــذلك بالنســـبة إلى الإنسان والحيوان ، فالإنسان تتفـاوت ألوانه بشـكل واضح وجلي ، وكــذا الحيــوان فالمــاعز مثلا تتفــاوت ألوانه من الأسود إلى الأبيض.

(**كَذلِكَ**)

هذا الاختلاف يـدل على الدقة والحكمة ، فربّك الـذي يخلق الحيــوان بشــكل مختلف جعل فيه أجهــزة تتكيّف واختلافها ، فإنّك إذ ترى الهرّة ترى كلّ شــيء ينسـجم مع تركيبها ، فيخلق في عين الهرّة جهازا يكبر ويصـغر حسب النور والظلام ، فترى بؤبؤة عينها تصبح مستديرة صباحا ، الى أن تتحول شيئا فشيئا الى شكل هلال الى شكل خيط يشع نورا في الظلام ، حتى أنّك تستطيع أن تعرف الوقت من عين الهرّة.

إنّ الــذي خلق بؤبــؤة الهــرّة خلق جهــازا في رأس النعامة لينظّم ضـغط الـدم فيه ، إذ أنّها لو عـدمت هـذا الجهـــاز لانفجر دماغها حالما تنكسه الى أســفل إذ يصل الضـغط في دماغها آنئذ إلى ثلاثمائة درجة ، ولكن وجــود هذا الجهاز يكيّف الضـغط فيه ، فكلّما نكّست رأسـها كلّما خفّ الضغط بسبب هذا الجهاز الدقيق حتى يبقى الضـغط على دماغها بدرجة واحــدة ســواء كـان رأسـها أعلى عن الأرض بستة أمتار أو كان فوق التراب مباشرة.

وهكذا فإنّنا لو تعمّقنا في الخليقة لعرفنا وحدة التدبير في اختلاف الصــنع ، ولكن من الـذي يفهم هـذه الحقيقة حتى يعرف ربه فيخشاه ، إنّهم العلماء.

(**إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ**)

والخشية هي ميراث العلم ، جاء في الحديث:

عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ :

إنّ من العبـادة شـدة الخـوف من الله ــ عـزّ وجل ــ يقـول الله ــ عـزّ وجل : «**إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ**» [1].

---

(1) تفسير نور الثقلين / ج (4) ص (359).

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين (ع) قال :
«.. **وحسبك من العلم أن تخشى الله**» [2]
(**إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**)
عزيز بقدرته ، غفور للجاهلين.
[29] واستطرادا للحديث عن العلماء يتحدث الله عمن هو العالم؟
العالم له صفات أربع هي :
1 ـ (**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ**)
أي يستوحون علمهم من كتاب الله ، أو يمنهجونه حسب كتاب الله.
2 ـ (**وَأَقامُوا الصَّلاةَ**)
أي يقيمون الصلاة بحدودها ومواقيتها ، بحيث تنهى عن الفحشاء والمنكر.
3 ـ (**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً**)
سرّا لأنّه بعيد عن الرياء والجبت ، وعلانية لأنّه تحد للطاغوت ، فهم يتحدون بالإنفاق جبت أنفسهم وطاغوت زمانهم.
ولكل شيء إنفاق وزكاة ، فزكاة العلم نشره ، وزكاة الجاه بذله ، وزكاة المال العطاء.

---

(2) بحار الأنوار / ج (2) / ص (48).

4 ـ (**يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ**)

يرجـون من الله فكـاك رقـابهم من النـار ، وهل تبـور تجارة أحد مع الله العزيز الغفور؟

ونستوحي من مجمل الآيات في هذا السياق خصوصا من هـذه الآية والـتي سـبقت في بيـان عاقبة المكر وانه يؤول الى البوار «**وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُـورُ**» نسـتوحي : أنّ على الإنسان أن يختـار الطريق السـليم في بلـوغ أهدافه المشـروعة حـتى ينجح (لأنّ إلى الله يصـعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) أمّا الذين يختارون الطرق الملتوية ، ويريدون بلوغ أهدافهم بالمكر والحيلة فإنّ سعيهم يضيع ، وعاقبتهم البوار.

ولعل السـياق يعـالج وسواسا شـيطانيا حيث يـدعو البشر أبـدا الى اختيـار الطريق الأسـهل والأقـرب الى الكسب حـتى ولو كـان على حسـاب القيم أو حقـوق الآخرين ، ويوحي الى الإنسان أنّ العمل الصالح لا ينفع أو أنّ نفعه قليل ، بينما يؤكد القـرآن على أنّ الله يبـارك في العمل الصالح والنّيّة الصادقة.

[30] (**لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ**)

كاملة ، بل :

(**وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**)

غفـور يغفر زلّاتهم ، وشـكور لما قـدّموه من عمل يرجون به وجه الله ، عارفين أنّه يعوّضهم خيرا مما أنفقوا حيث يدخلهم الجنة دار ضيافته.

[31] من صفات المؤمنين التصديق بكل الكتب.

(**وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ**)

من الكتب الاخرى.

(**إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ**)

[32] ولكن هناك أجيـال من العلمـاء يسـمّون بعلمـاء الوراثة وليس علماء التجربة والمعاناة.

(**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا**)

من هم هـؤلاء الـذين اصـطفاهم الـرب لحمل كتابـه؟ يبدو من السـياق أنّهم العلمـاء ، ولـذلك جـاء في الحـديث الشريف :

«**العلماء ورثة الأنبياء**»

فـإذا : المصـطفون طبقة العلمـاء من أمة محمد ــ صلّى الله عليه وآله ـ والاصـطفاء هنا ليس شخصـيا حـتى يشـبه اجتبـاء الأنبيـاء والائمة عليهم السـلام ، بل بتحميل الرسـالة لأمة من النـاس لمجمل الخصـال الـتي فيهم ولمكان وجود السابقين بالخيرات بينهم ، وهم أئمة الهدى عليهم السلام.

جاء في الأثر عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ :

«**الظـالم لنفسه منّا من لا يعـرف حـقّ الإمـام ، والمقتصد منّا من يعــرف حــقّ الامــام ، والســابق بالخيرات هو الإمام ، وهؤلاء كلّهم مغفور لهم**» [3]

---

(3) نور الثقلين / ج (4) ص (365).

ونعـرف من ذلك أنّ الظـالم هنا مغفـور له لأنّ ظلم نفسه لا يبلغ درجة دعـوة النـاس إلى الضـلال ، بل فيه ما في الناس من زلّات يطهرها بحسناته ، وهو ظـالم لنفسه إذا قيس بالمقتصد ، والسـابق بـالخيرات هو من عـرف واجبه باعتبـاره وارث علم الكتـاب ، وقد روي عن الامـام الباقر عليه السلام أنّه قـال ــ بعد أن سـئل عن الآية وعن معنى الظالم لنفسه فيها ـ :

«من استوت حسناته وسيئاته منّا ـ أهل البيت ــ فهو الظالم لنفسه ، فقلت : المقتصد منكم؟ قال : العابد لله في الحـالين حـتى يأتيه اليقين فقلت : فمن السابق منكم بالخيرات؟ قال : من دعا ــ والله ــ الى سـبيل ربه ، وأمر بـالمعروف ، ونهى عن المنكر ، ولم يكن للمضـلين عضـدا ، ولا للخـائنين خصيما ، ولم يـرض بحكم الفاسـقين ، الا من خـاف على نفسه ودينه ولم يجد أعوانا» [4]

ونستوحي من هذا النص : أنّ لذرية رسول الله (ص) المصطفين للقيادة مسئوليات أكبر ، فالظالم نفسه منهم هو الذي تسـتوي حسـناته وسـيئاته ، ولا يـدعو الى ضـلال كما جاء في حديث آخر :

«الظالم لنفسه الذي لا يدعو النـاس الى ضـلال ولا هدى»

ولعل في كلمة «لنفسه» شهادة على ظلم لا يتجـاوز نفسه الى الآخرين.

أمّا الشـاهد على أنّ الآية تعـني مثل هـؤلاء فهو الآية التالية الـتي تـدل على أنّ جميع هـؤلاء في الجنة ... هكـذا استدل الإمـام الرضا ــ عليه السـلام ــ للمـأمون العباسي حينما سأله عن الآية. لنستمع الى تحاورهما :

حضر الرضا (ع) مجلس المـأمون بمـرو ــ وقد اجتمع في مجلسه جماعة من علماء أهل

(4) المصدر / ص (394).

العراق وخراسان ـ فقـال المـأمون : أخـبروني عن معـنى هــذه الآية : «**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتــابَ الَّذِينَ اصْــطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا**» فقالت العلماء : أراد الله بذلك الأمة كلّها ، فقـال المأمون : ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال الرضا (ع) :

لا أقول كما قالوا ، ولكـني أقـول : أراد الله عـزّ وجل بذلك العترة الطاهرة ، فقال المأمون : وكيف عنى العترة من دون الأمة؟ فقال الرضا (ع) : إنّه لو أراد الأمة لكـانت بأجمعها في الجنة ، لقول الله عزّ وجل : «**فَمِنْهُمْ ظـالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِـالْخَيْراتِ بِـإِذْنِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**» ثم جمعهم كلّهم في الجنة فقال : «**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَسـاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ**» الآية ، فصــارت الوراثة للعــترة الطــاهرة لا لغيرهم [5]

(**فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ**)

تساوت حسناته وسيئاته ، وفي حديث مـأثور عن أبي الدرداء عن رسول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ــ في هـذه الآية في مصير الظالم لنفسه قال :

أمّا السابق فيدخل الجنة بغير حسـاب ، وأمّا المقتصد فيحاسب حسابا يسـيرا ، وأمّا الظـالم لنفسه فيحبس في المقـام ثم يـدخل الجنة ، فهم الـذين «**قـالُوا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**» [6]

(**وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ**)

وهو الـذي يصـوم نهـاره ، ويقـوم ليله ــ كما جـاء في الحديث السابق ـ

(**وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ**)

---

(5) المصدر / ص (365).
(6) المصدر / ص (365).

وهو الإمام.

(**ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**)

السبق بالخيرات.

وهذا التفسير للآية يتناسب والسياق ، وتؤيّده أحاديث كثيره عن النبي وأصحابه ، حتى قال الشوكاني بعد ذكرها : وهذه الأحاديث يقوّي بعضـها بعضا ، ويجب المصـير إليها ، ويـدفع بها قـول من حمل الظـالم لنفسه على الكـافر ، ويؤيّـدها ما أخرجه الطـبراني وابن مردويه والـبيهقي في البعث عن أسامة بن زيد «فمنهم ظـالم لنفسه ... الآيـة» قال : قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ :

«**كلّهم في هذه الأمة ، وكلّهم في الجنة**» [7]

وهناك تفسيران آخران :

أولهما : أنّ المراد بالظالم هو الكافر.

الثاني : أنّ المراد مجموع الامة.

وهذا مخالف لاجتماعهم في الجنة مع أنّ بعضـهم من أهل الكبائر ومن وعد الله لهم بالنار.

(7) تفسير فتح القدير المجلد / ج (4) / ص (352).

جَنَّاتُ عَــدْنٍ يَــدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَســاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (33) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَـزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُـورٌ شَـكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (35) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُـوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَــذابِها كَــذلِكَ نَجْــزِي كُــلَّ كَفُــورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْـرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَــلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَــذَكَّرُ فِيــهِ مَنْ تَــذَكَّرَ وَجـاءَكُمُ النَّذِيرُ فَـذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِـيرٍ (37) إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (38)

---

35 [لغوب] : هو المشقة في طلب المعاش ونحو ذلك.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (39) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (40) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (41)

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ

هدى من الآيات :

بين البشر وبين التحسّس بالآخرة حجاب الغــرور ، إذ يمنع هذا الحجاب من أن يضحى الإيمان بالآخرة جزءا من معادلة البشر النفسية.

والإنســان يشـعر في قـرارة نفسه بضـرورة التخلص من العذاب ، وإيجـاد حالة من الأمن والسـلام المسـتقبلي لنفسه.

ولكن قد يرفع هــذا الخطر بالعمل والســعي الجــاد ، وقد يرفع هـــذا الخطر بـــالتمني والأحلام فيصـــنع لنفسه تعويضا نفســـيا عن الواقع ، ولكن يزيل القـــرآن هـــذه التمنيّات ، ويعطينا صورة حقيقية عن ذلك اليـوم الـرهيب حين نقف أمام ربّنا الجبّار ، ويصـور مشـاهد الآخـرة حـتى لكأننا نراها ، ثم يضع الإنسان أمام وجدانه.

وفي هذه الآيات تذكرة لعمر الإنسان في الحيــاة بأنّه كان كافيا لامتحانه.

بينات من الآيات :

[33] ما هو جــزاء المصــطفين من عبــاد الله الــذين أورثوا الكتاب؟

(**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ**)

يحلـــون : اي يتحلّـــون بها ، فلقد حـــرّم الله عليهم الذهب والحرير في الدنيا ، وعوّضهم في الآخرة.

وقد جاء في الحديث عن الامام الباقر (ع) عن رسول الله (ص) :

إذا دخل المـــــؤمن في منازله في الجنة ، وضع على رأسه تاج الملك والكرامة ، وألبس حلل الـذهب والفضة ، واليـاقوت والـدر منظوما في الإكليل تحت التـاج ، وألبس سبعين حلة حرير بألوان مختلفة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ واليـــــاقوت الأحمر ، وذلك قوله : «**يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ**» [1]

[34] وبالاضــافة الى هــذه النعم المادية هنــاك نعم معنوية اخرى هي نعمة الأحسـاس بالرضى الـذي يعـبرون عنه بالحمد لله.

(**وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**)

ما هو الحزن؟

الحــزن يتعــدّد بتعــدّد الظــروف ، فمن الحــزن القلق والهم ، كقوله تعالى لام

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (366).

موسى (ع) : «**وَلا تَخـافِي وَلا تَحْـزَنِي**» ، ومن الحـزن الخـوف من الفـزع الأكـبر ، كقوله تعـالى : «**لا يَحْـزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ**» ، ومن الحـزن القلق من الهزيمة ، كقوله تعـالى : «**وَلا تَهِنُـوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَـوْنَ**» ... والله يذهب كلّ ذلك عنهم ، لأنّهم قد حزنـوا على ذنـوبهم في الدنيا ، وقد ورد في الحديث : «إنّ المؤمن في الـدنيا حزين» أي قلق من ذنبه.

(**إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**)

فالغفران يكون عند الـذنب ، والشـكر يكـون للنعمة ، فربّنا سبحانه يغفر لهم ما أذنبوا ، ويشكر لهم ما عملوا.

[35] (**الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ**)

أي الدار التي يسـتقر فيها الإنسـان ، وربما تفيد هـذه الآية معـنى الخلـود ، لأنّ الـدنيا ليست دار مقامة بل هي دار انتقال.

(**لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ**)

جـاء في تفسـير علي بن إبـراهيم : إنّ النصب هو العناء ، واللغوب هو الكسل والضجر.

وفي نهج البلاغة :

«**... وأكرم أسماعهم من أن تسمع حسـيس نـار أبدا ، وصان أجسادهم أن تلقى لغوبا ونصبا**» (2)

---

(2) نهج / ط (183) / ص (268).

وقد شوّقتنا النصوص الى دار ضيافة ربّنا ببيان جـانب من نعمها ، فقد جـاء في حـديث مفصّـل عن رسـول الله (ص) :

«فتخرج عليه زوجته الحـوراء من خيمتها تمشي مقبلة وحولها وصـــفاؤها يحجبنها ، عليها ســبعون حلة منســوجة باليــاقوت واللؤلؤ والزبرجد صــبغن بمسك وعنــبر ، وعلى رأســها تــاج الكرامة ، وفي رجلها نعلان من ذهب مكللان باليـــــاقوت واللؤلؤ شــراكهما يــاقوت أحمر ، فــإذا دنت من وليّ الله ، وهمّ (ان) يقـوم لها شـوقا تقـول له : يا ولي الله ليس هـذا يـوم تعب ولا نصب ولا تقم ، أنا لك وأنت لي» [3]

هكـذا يسـقط التعب والنصب من الإنسـان المـؤمن حتى بمقدار القيام لاستقبال زوجته من الحور العين.

[36] هذا عن الذين آمنوا فما هو جزاء الذين كفروا؟

(وَالَّذِينَ كَفَـرُوا لَهُمْ نـارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا)

جـاء في النصـوص انه في يـوم القيامة يـذبح المـوت بين الجنة والنار في صورة شاة ، فلا أهل الجنة يموتـون ، ولا أهل النـار ، بل كلّهم مخلّـدون ، وأعظم بعقـاب يبقى أبدا. إنّ قليله كثير ، وضعيفة شـديد ، فكيف بعـذاب النـار المتناهي شدة وسعيرا؟!

وقد جـــرت ســـنة الله في عالمنا اليـــوم أنّ الجسم يتكيّف مع الصعوبات ، وأنّ لكلّ شيء أجل وحـده ، وكلّما اقترب من نهايته خفّ ، بيد أنّ عـذاب الله لا أجل له ، فلا يخفف أبـدا ، ولا يتكيّف الجسم معه ، بل يبقى يتـألّم معه أبدا (نعوذ بالله العظيم منه).

(3) نور الثقلين / ج (4) ص (367).

(**وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَـذابِها كَـذلِكَ نَجْـزِي كُـلَّ كَفُورٍ**)

وهنا يـذكر السـياق صـفتين لجهنم ، ويقابلهما بمثلهما للجنة :

الاولى : الخلـــود «**لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُـــوا**»

والثانية : الشـــدة «**لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ**» وقد ذكر صـــفتان مقابلتان للجنة : الراحة ، والخلود.

[37] ولأنّ العذاب شـديد ومسـتمر فـإنهم لا ينفكّـون يحاولون التخلص منه للنجـاة ، فـتراهم يرفعـون أصـواتهم يطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحا.

(**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صـالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**)

كلّ إنسان في الـدنيا يـدّعي أنّه يعمل صـالحا ، ولكن حينما يواجه العذاب الشديد هناك يعرف بل ويعـترف بـأنّ أعماله كانت غير صالحة.

إنّ هؤلاء يصـطرخون ، والاصـطراخ أعظم الصـراخ : أن أخرجنا ربّنا نعمل صالحا غير الـذي كنّا نعمل ، فيجيبهم الله :

(**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ**)

أي عمّرنـــاكم في الـــدنيا بقـــدر يكفي للتـــذكّر ، فلم تتذكروا ، وجاءكم النذير فلم تتذكروا.

قد اختلفت أقـــوال المفســـرين في النـــذير : هل هو الرسول والقـرآن أم هو الشـيب ومـوت الأقـارب وتقـادم السنّ أم هو كمال العقل والبلوغ.

ويبدو أنّ الكلمة مطلقة ، وتـوحي بـأنّ الإنسـان ينـذر بالتالي بطريقة أو بأخرى ،

وأنّ الله لا يتوفّاه حتى يكتمل امتحانه.

(**فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**)

لمــاذا الاختلاف في الآجــال؟ فبعض يعيش عشــرين عاما ، وبعضهم أربعين ، وبعضهم ستين ...؟

الشاعر إقبـال اللاهـوري أجـاب على ذلك وقـال : إنّ اختلاف آجـال النـاس مرتبط بحكمة وجـودهم في الـدنيا ، وهو تهيئة الإنسـان للجنة ، وكـأنّ الـدنيا مدرسة ، يـدخلها الناس تمهيدا لدخول الجنة.

فبعض الناس ينجحـون من أوّل امتحـان ، وبعضـهم لا ينجحـون في الامتحـان الأوّل فيـدخلون الامتحـان الثـاني ، وهكـذا فـان اختلاف النـاس في آجـالهم هو بسـبب مـدى اسـتعدادهم ، وتقبلهم ونجـاحهم وهـذه النظرية جميلة الا انها لا توافق القـرآن الكـريم ، لان الـدنيا كما هي مدرسة تهيؤ المؤمـــنين لـــدخول الجنة ، فهي في نفس الـــوقت مهوى يسقط الكفار منه الى النار.

وفي بصــائر القــرآن الــدنيا دار ابتلاء فيه فقط قاعة امتحان وليست مدرسة.

ولعل الآية هـذه تشـير الى أنّ اختلاف الآجـال يرتبط بهذه الكلمة (الابتلاء) فالدنيا فرصة للتذكرة ، وكلّ شخص يعمّ بقـدر التـذكر (حسب ظروفه ، وبنية شخصـيته) فـإذا انتهت الفرصة فـــإنّ الحكمة الرئيســـية من بقائه تنتهي ، بلى. هناك حكم أخرى : كاستدراج الكفّار ليزدادوا كفــرا ، وإطالة عمر المؤمنين لـيزدادوا ثوابا ، وكـأن يكـون وجـود شخص مفيدا لابتلاء الآخرين ، والله العالم.

واختلفت الروايـــــــــات في تحديد العمر في قوله : «**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ**» فقالت بعض

الروايــات : إنّها لــذوي الثمانية عشر ســنة ، وفي رواية أخـرى : إنّها لـذوي الأربعين سـنة ، وفي رواية ثالثة : انها لذوي الستين.

ولعل ما قلنــاه آنفا في اختلاف النــاس في التــذكّر يجمع بين النصوص.

[38] (**إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)

إنّ الله عـالم غيبك ، ويعلم سـرّك وما يكنّ صـدرك ، كما هو عــالم بغيب الســموات والأرض ، فهو ليس بحاجة الى امتحانك ، ولكن إنّما هي فرصة يعطيها الله لكي تجرّب نفسك ، وتمتحن إرادتك.

[39] (**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ**)

أي جعل بعضــكم يخلف بعضا ، ولعل هـذه الآية تـدلّ على أنّ الأمم تنتهي ، وأنّ لها آجــالا كما للنــاس آجــال محددة.

وأما مقيـاس آجـال الأمم والمجتمعـات فهو كما قـال ربّنا سبحانه :

(**فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**)

نتيجة الكفر على صاحبها.

(**وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً**)

يبغضهم الله ويمقتهم.

(**وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً**)

خسارة في الدنيا والآخرة.

[40] يظلّ الشرك بالله الحجاب الكبير الـذي يفصـلنا عن ربّنا ، ويمنع عنّا خـيرات عبـادة الله وحـده ، ويـذكّر السـياق بـأنّ الشـركاء لا يملكـون حـقّ العبـادة لأنّهم لم يخلقوا شيئا من الأرض ، ولا ساهموا في تدبير السـموات ، ولا أذن لهم ربّ الأرض والسماء بقيادة النـاس ... فبـأيّ حـقّ يتسـلطون على رقـاب النـاس ، ولمـاذا يخضع لهم الناس؟!

(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ**)

حتى يتسلطوا باسمه على الناس.

(**أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ**)

لا نجد قـدرتهم تتجلّى في السـماء ، كـأن يـديروا الشمس والقمر.

(**أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ**)

أمرناكم بـأن تتبعـوهم بـأن أنزلنا عليكم كتابا يـأمركم بأن تتبعوهم.

(**بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً**)

فـإنّ مشـكلة الإنسـان الـتي تمنعه من الوصـول الى الحقيقة هي حجاب الغرور والتمنيات ، وعلى الإنسـان أن يخرقه حتى يتقرّب الى ربّه.

وربما تـوحي خاتمة الآية بـأنّ الظـالمين ـ الشـركاء والتـابعين ـ كـلّ واحد منهم يضـلّ الآخر ، فالمضل يعد متّبعيه بأنّه سـوف يحمل خطايـاهم ، وما هو بحامل من خطاياهم من شيء ، والمضلّلون يعـدون مضـليهم بـالولاء والانتصار لهم ، فكلّ واحد

منهم يمنّي الآخر ، وما هذه الأمنيات سوى الغــرور بذاته ، لأنّه لا أحد ينفع أحدا يوم القيامة ، ويتبرأ الذين اتّبعــوا من الذين اتّبعوا.

[41] يحيط بأولئك الشركاء والمشركون بهم الغــرور ، إذ لم يخلقوا شـيئا من الأرض ، ولم يكن لهم شـرك في تـدبير السـموات ، بينما الله الواحد اسـتوى على عـرش العلم والملك ، وهو يمسك الســـــموات والأرض لكي لا تـــزولا ، ولا شـــيء قـــادر على المحافظة عليها لو تركها الرب.

(**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا**)

والسؤال : ما هو معنى الزوال؟

1 ـ لا ريب أنّ النظــام الــذي يحافظ على الوجــود بحاجة الى منظّم ، والتــدبير بحاجة الى مــدبّر ، والله هو المــدبّر الــذي لو تركها فسد النظــام ، وزالت الســموات والأرض بفساده.

2 ـ وإذا تعمّقنا قليلا وعرفنا شيئا من الفيزياء الحديثة ، وكيف أنّ نظام دوران الإلكترون حول محور البروتون ـــ في مملكة الــذرة العظيمة والمتناهية في صــغر الحجم ـــ قــائم على الحركة ، حــتى قــالوا : إنّ الحركة لو تــوقّفت لتلاشى الوجود ، عرفنا أنّ (قيام) كـلّ شـيء إنّما هو بالله عبر أنوار قدسه التي يفيض بها كلّ خير على الخلائق.

(**وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**)

ولكن لماذا لا يسمح الله للسـموات والأرض بـالزوال مع كثرة المعاصي التي يرتكبها العباد؟

(**إِنَّهُ كانَ حَلِيماً**)

لا يبــادر بــإنزال العقوبة على العصــاة ، بل يــؤخّرهم لأجل مسمّى ، وفي آخر آية من هذه السورة تبيان لذلك.

(**غَفُوراً**)

يعفو عن كثير من السيئات فلا يعاقب عليها أبدا.

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْـدى مِنْ إِحْـدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جـاءَهُمْ نَـذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُـوراً (42) اسْـتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْـرَ السَّـيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّـيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِـهِ فَهَـلْ يَنْظُـرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُـنَّتِ اللـهِ تَبْـدِيلاً وَلَنْ تَجِـدَ لِسُـنَّتِ اللـهِ تَحْـوِيلاً (43) أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكـانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِـزَهُ مِنْ شَـيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (44) وَلَـوْ يُؤاخِـذُ اللـهُ النَّاسَ بِما كَسَـبُوا ما تَـرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُـؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَـلٍ مُسَـمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (45)))

وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

هدى من الآيات :

بالرغم من أنّ كفّار قريش ومثلهم سائر الكفّار كـانوا بفطـرتهم يعرفـون مـدى حـاجتهم الى الـوحي ، ويمنّـون أنفسهم بـأن يكونـوا أهـدى من إحـدى الأمم لو بعث فيهم نـبي مرسل ، إلّا أنّهم حين منّ الله عليهم بنعمة الرسـول كفروا به. لماذا؟

لأنّهم استكبروا في الأرض ، ومكروا مكرا سيّئا.

وبعد أن ينــذرهم الــربّ بــأنّ المكر الســيء لا يحيط بالتالي إلّا بصاحبه ، يذكّرهم بمصير الغابرين الـذين جـرت سنة الله فيهم بالدمار ، ولا تبديل في سنن الله ولا تحويل ، ويـــدعوهم للســـير في الأرض لينظـــروا كيف فعل الله بالظالمين ، وأين انتهى بهم استكبارهم ومكـرهم السـيء مع أنّهم كـانوا أشـدّ منهم قـوّة ، وينبّههم القـرآن بـأنّهم لا يستطيعون الفرار من حكومة الله ، وأنّه لا يعجـزه شـيء بل هو العليم القدير.

ويختم سورة فاطر بأنّ الله يمهل الظالمين الى أجل مسمّى ثم يأخذهم ، ولولا ذلك لما تـرك على ظهر الأرض من دابة بما فعل الظالمون!

بينات من الآيات :

[42] ضـمير البشر أكـبر شـاهد على الحـقّ وصـدق رسالات الله الـتي نـزلت بـالحق ، وكـلّ إنسـان يتمنّى أن يكون صالحا لولا أنّ دواعي الفساد تضلّه.

(**وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْـدَ أَيْمـانِهِمْ لَئِنْ جـاءَهُمْ نَـذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ**)

لعل تأكيد القسم ب «**جَهْدَ أَيْمانِهِمْ**» كان تعبيرا عن مدى رسوخ فطرة الإيمـان في النفـوس ، أو أنّه يعبّر عن مدى النفاق الذي كـانوا يعيشـونه ، وإنما أقسـموا لتغطية ما أضمروه من المكر والاسـتكبار ، كما قـال ربنا سـبحانه عن المنـافقين : «**وَأَقْسَـمُوا بِاللـهِ جَهْـدَ أَيْمـانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُـلْ لا تُقْسِـمُوا طاعَـةٌ مَعْرُوفَـةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**». [1]

وهذه السـنة جارية عند النـاس اليـوم أيضا ، فـتراهم يقولـون : إنّنا لا نمتلك قيـادة وإمـام حـقّ نتبعه ، وعند ما يرسل الله إليهم الإمـــام الحق إذا هم يتملّصـــون من المسؤولية ، ولا يتبعونه ، كما الملأ من بـني إسـرائيل من بعد موسى ، إذ قـالوا لنـبيّ لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله فلما بعث الله إليهم طالوت ملكا ، قـالوا : أنّى يكـون له الملك علينا ونحن أحـقّ بالملك منه ، ولم يـؤت سعة من المال.

والتعبـير القـرآني : «**أَهْدى مِنْ إِحْـدَى الْأُمَمِ**» ربما يعني : سنكون أهدى من تلك الأمّة التي تعتبر أهدى أمّة ، ولم يقولوا : سنكون أهدى من سائر الأمم ، مبالغة

---

(1) النور / (53).

(**وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**)

الخطط الفاسدة سوف تكون لها انعكاسات على الواقع الاجتماعي ، بيد أنّ أثرها الأبلغ سيكون على صانعها.

والكلمة هذه ذروة ما نفهمه من البلاغة،إذ ذكّرنا الربّ بأنّ المكر السيء «يحيط» بصاحبه من جميع جوانبه ، وهذا أبلغ من القول أنّه يلحق به أو يصيبه ، لأنّ صاحب المكر يزعم أنّه قادر على الفرار من عاقبة عمله ، ولكنّه يحيق به فلا يقدر هروبا ، ثم أنّ القرآن عبّر «بأهله» ولعل السبب يكمن في أنّ كلّ العاملين مكرا ليسوا بأهله ، بل بعضهم ممّن تعمّده واتخذه سبيلا ، ثم إنّ الحصر يفيد أنّ الذي يمكر بهم ينجون عادة من المكر على حساب أهله ، وقد قالوا : «من حفر بئرا لأخيه وقع فيه».

وكيف يمكن أن نكتشف هذه الحقيقة؟

يقول ربّنا : انظروا إلى التاريخ ، فالتاريخ يحكي سنن الله التي لا تتبدّل ولا تتحوّل ، ويتساءل : هل هم ينتظرون عاقبة مثل عاقبتهم؟!

(**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ**)

كيف أنّهم أهلكوا بما كسبوا ، وكيف حاق مكرهم بهم.

(**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً**)

على مرّ العصور ، السنّة هي السنّة في الغابر والحاضر ، لن تتبدل ، ولن تتحول ، بأن يستطيع أحد أن يدفعها عن نفسه إلى غيره.

في تزكية أنفسهم.

وربما يكون قـولهم هـذا ردا على اليهـود الـذين كـانوا يعيّرون المشركين ، ويهدّدونهم بنـبيّ لهم يكسر أصـنامهم ، فعرّضـوا بهم وقـالوا : لو جاءنا رسـول سـنكون أهـدى منكم.

(**فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً**)

أي كـانوا نـافرين من قبل ، فـازدادوا نفـورا على نفـورهم. لمـاذا؟ لأنّ الإنسـان قبل أن تأتيه الحجة يكـون عنـده عـذر لكفـره ، لأنّ الله قـال : «**وَما كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُـولاً**» [2] وعند ما تأتيه الحجة تـراه يكفر بالحجة.

[43] ومشـكلة هـؤلاء أنّهم اسـتكبروا ، تكريسا لانـانيّتهم ، وقـالوا : أبعث الله بشـرا رسـولا؟! ما له يأكل الطعـام ، ويمشي في الأسـواق؟! إنّه ليس رجلا من القريـتين عظيما في ماله ، وإنّه لو نـؤمن به نتخطّف من أرضنا ، فاسـتكبروا في الأرض ، بحثا عن سـلطة طاغية ، وثروة عريضة ، وشهرة واسعة.

ولقد قلنا مرارا : ان التكبّر ومظهره الاسـتكبار أخطر حاجب بين البشر وبين الإيمان بالحقائق.

(**اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ**)

قـال الـرازي عن المكر السـيء : إنّه إضـافة الجنس الى نوعه ، كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة ، وتحقيقه أن يقـال : معنـاه ومكـروا مكـرا سـيّئا ثم عـرّف لظهـور مكرهم ثم ترك التعريف باللام وأضيف الى السيء لكـون السوء فيه أبين الأمور. [3].

---

(2) الإسراء / (15).

(3) التفسير الكبير عند تفسير الآية.

(**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً**)

[44] والـدليل على عـدم تبـديل سـنّة الله أو تحـويلا تجارب التاريخ.

(**أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً**)

كقـــوم عـــاد الـــذين قـــال الله في حقّهم : «**وَلَقَـدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ**» [4].

(**وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَـيْءٍ فِي السَّـماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً**)

لا يحد قدرته المطلقة شـــيء ، إنه كـــان عليما بمن يعصي ، قادرا على أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ولكن لمـاذا لا يؤاخذ الله أهل الأرض بـألوان العـذاب وهم يعصونه ليل نهار؟

الجواب :

أوّلا : لأنّ الله عفو غفـــــور ، فيعفو عن كثـــــير من الذنوب.

ثانيا : لأنّه حليم يعطيهم فرصة بعد فرصة حـــــتى إذا انقضى أجلهم أخذهم بظلمهم.

---

(4) الأحقاف / (26).

[45] (وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَـبُوا ما تَـرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُــــؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَــــلٍ مُسَمًّى)

يــؤخّر انتقامه إلى أجل مكتــوب ، لا يســتقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

(فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً)

بصير بما يناسبهم من الجزاء : كيف وكم ومتى.

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

1 ـ في كتاب ثواب الأعمال باسناده الى أبي عبد الله (ع) قال :

«إنّ لكــلّ شــيء قلبا ، وإنّ قلب القــرآن يس ، ومن قرأها قبل أن ينـام أو في نهـاره قبل أن يمسي كـان في نهـاره من المحفـوظين والمـرزوقين حـتى يمسي ، ومن قرأها في ليلة قبل أن ينــــــــام وكّل الله به ألف ملك يحفظونه من شـرّ كـلّ شـيطان رجيم ومن كل آفة ، وإن مات في يومه أدخله الله الجنة ، وحضر غسله ثلاثون ألف ملك كلهم يستغفرون له ويشيعونه إلى قبره بالاسـتغفار ، فـإذا دخل في لحـده كـانوا في جـوف قـبره يعبـدون الله وثواب عبادتهم له ، وفسح له في قبره مدّ بصره ، وأومن من ضـغطة القـبر ، ولم يـزل في قـبره نـور سـاطع الى عنان السـماء إلى أن يخرجه الله من قـبره ، فـإذا أخرجه لم يـــزل ملائكة الله يشـــيّعونه ويحدّثونه ويضـــحكون في وجهه

ويبشرونه بكل خير حتى يجوزونه على الصراط والمـيزان ويوقفونه من الله موقفا لا يكون عند الله خلق أقرب منه إلّا ملائكة الله المقربـون وأنبيـاؤه المرسـلون ، وهو مع النبـيين واقف بين يـدي الله ، لا يحـزن مع من يحـزن ولا يهتم مع من يهتم ولا يجـزع مع من يجـزع ، ثم يقـول له الربّ تبارك وتعـالى : اشـفع عبـدي أشـفّعك في جميع ما تشـفع ، وسـلني أعطك عبـدي جميع ما تسـأل ، فيسـأل فيعطى ، ويشـفع فيشـفّع ولا يحاسب ولا يوقف مع من يوقف ، ولا يزلّ مع من يزل ، ولا يكتب بخطيئة ولا بشيء من سوء عمله ، ويعطى كتابه منشورا حتى يهبط من عند الله ، فيقول الناس بـأجمعهم : سـبحان الله ما كـان لهـذا العبد من خطيئة واحـدة! ويكـون من رفقـاء محمد (ص) [1]»

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص) :

«**من دخل المقـابر فقـرأ سـورة يس خفّف الله عنهم يومئذ ، وكان له بعدد من فيها حسنات**» [2]

---

(1) تفسير نور الثقلين / ج (4) / ص (372).
(2) المصدر.

الإطار العام

الاسم :

اتخذ اسم السورة من الكلمة الأولى فيها الـتي قـالوا إنّها اسم لنبينا الأكــــــــــــــــــــرم محمد (ص) ، ولعلها ترمز اليه كما ترمز اليه كلمة (طــــه) والله العالم.

الإطار العام :

بعد القسم بالشأن العظيم الذي هو للقـرآن الحكيم ، يخـــــــــــــــاطب ربنا ســـــــــــــيد الخلائق (يس) محمد (ص) بأنّه من المرسـلين ، وأنّه على صـراط مستقيم ، وأنّ الكتاب تنزيل من ربّ غفور رحيم ، ويهدف إنذار قوم جـاهلين بما أنـذر آبـاؤهم من قبل ، ثم أضـحت قلــوب أكــثرهم كالصــخر لا تقبل الإيمــان. أرأيت الــذي وضـعت على عنقه الأغلال ، حـتى أصـبح مقمحا ، مرفـوع الــرأس الى الأعلى حـتى لا يــرى شــيئا؟ هل يقــدر على النظـر؟! أم الـذي وضع سد مـنيع أمامه وخلفه ، وحجبت بصـره غشـاوة فهل يبصـر؟! كلّا ... كـذلك لا ينتفع هـؤلاء بالإنذار ، فسواء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا

يؤمنون.

فلمن القرآن إذا؟

إنّما هو ينــذر من يتبع الــذكر ، ويهتــدي ويطيع آيــات القرآن ، ويخشى الـرحمن بـالغيب ، وهـذا يتجنب المهالك الــتي تنــذر بها ، ويبشـــره الله بمغفــرة لذنوبه الســابقة وهفواته ، وبأجر فيه الرزق والكرامة ، ويأتي كمال الجزاء في الآخــرة ، حيث يحي الله المــوتى ، وقد كتب من قبل ما قدموه لحياتهم هناك وما خلّفوه وراءهم من آثار ، وكلّ شيء قد أحصي في إمام مبين.

(وهـــذه الرســالة جــاءت على ســنّة رســالات الله الســابقة) ويضــرب القــرآن مثلا من أصـحاب القرية حين جاءها المرسلون ، ثم يمضي في بيـان شـبهاتهم الواهية ، ويردّها أولا : على لسان الأنبياء ، وثانيا : على لسان واحد ممن هــداهم الله للإيمــان ، وأدخله جنته فقــال : يا ليت قـــومي يعلمـــون ، وأهلك الله قومه من بعـــده بصـــيحة ، وتحسّر على العباد الذين لا يبعث إليهم رسول إلا كانوا به يســتهزءون ، دون أن يعتــبروا بمصــير الســابقين الــذين سوف يحضرهم الله وإياهم لديه.

ويذكّرنا القرآن بآيات الله لعلنا نهتدي إليه ونتبع رسله : فمن الأرض الميتة التي يحيها (بـالغيث) ويخـرج منها حبا فمنه يـأكلون ، إلى الجنـات ذات الثمـرات المختلفة ، الى الليل والنهـار والشـمس الـتي تجـري لمسـتقر لها ، الى القمر الذي يجري في منازله حتى يعود كالعرجون القـديم ، الى التدبير اللطيف للشمس والقمر ، الى وسائل النقل من سفن وأنعام البر.

ويــــذكّرنا بأنّه يحفظهم من غضب الأمـــــواج برحمته وحتى يقضـوا آجـالهم ، وتـرى أنّ الـرب الـرحيم يريد لهم الخـــيرات أيضا حين يـــأمرهم بــــالتقوى (ليحفظهم من عواقب

الذنب) ولكنهم يعرضون بالرغم من تواتر الآيات ، وتراهم يـــــبررون بخلهم بأنّه كيف ننفق على من لو شـــــاء الله أطعمه (مما عكس فكـرهم وقيمهم الماديـة) ويتسـاءلون باستهزاء : متى هذا الوعد بالجزاء (لمـاذا يتـأخر) ان كنتم صادقين؟! (بلى. إنّه آت وماذا ينتظرون وماذا يستعجلون) ما ينتظرون إلّا صـيحة واحـدة تأخـذهم وهم سـادرون في بحر الجدل العقيم ، وهنالك لا يسمح لهم الوقت بالتوصية ، ولا هم يعودون الى أهلهم مـرّة ثانية (ويبقـون في عـالم البرزخ حـتى يـوم النشـور) فـإذا نفخ في الصـور فـإذا هم يخرجون من القبور ، ويتوجهون الى ربهم (وبدل التساؤل المشوب بالسخرية تراهم) يقولون : يا ويلتنا من بعثنا من مرقـدنا؟ (إنّه الله المقتـدر فيعـترفون ويقولـون :) هذ ما وعد الرحمن (من النشور) وصدق المرسلون (حين أنذروا بذلك اليوم الرهيب) وهنالك الحكم العدل الذي يشمل كل الحاضرين (ويصوّر السياق بعض مشاهد الجزاء) فأصحاب الجنة في شغل فاكهون ، بينما يمتاز المجرمون الى النـار ، ويحـاكم الـرب عبيـده قـائلا : (**أَلَمْ أَعْهَـدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُـدُوا الشَّـيْطانَ**)؟! هو عـدوّكم ، وصـراطه منحـرف عن الصـراط الإلهي المسـتقيم ، وإنّه قد أضـلّ كثـيرا منهم وأوردهم النـــار ، أفلا اعتـــبرتم بمصـــيرهم؟! واليــوم أدخلــوا جهنم تلك الــتي وعــدتم إياها ، (وبعد أن يصـــوّر لنا جانبا من عـــذاب جهنم يقـــول :) ولو كنّا نريد لجزينـاهم في الـدنيا ، فطمسـنا على أعينهم ومسـخناهم (وفعلا يفعل الله ببعضهم فلا يقـدرون منعـه) فمن يطـوّل عمـره ينكّسه في الخلـق. أفلا تعقلـون (إنّه قـادر على أن يصيبهم بمثل ذلك).

ويعطف القرآن الحديث عن الآخرة ـ بعد أن خشـعت النفــوس الطيبة بتصــوير مشــاهد منها ــ يعطفه الى ردّ شبهاتهم حول الرسـول فيقـول : وما علّمنـاه الشـعر (ولا يتناسب حديثه والشـعر أبـدا) (**إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْـرٌ وَقُـرْآنٌ مُبِينٌ**) ، ويهدف إنذار من يملك قلبا حيّا ، أمّا بالنسبة إلى غيرهم فلكي يتم الحجة عليهم (ويذكّرنا السياق بالتوحيد

الذي هو أساس كل عقيدة صالحة ، فمن آمن بالله حقا لم يطع الشركاء الموهومين ، بل أطاع الرسول الذي أمر الله بطاعته فقط) (**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً**) (ثم خولناهم التصرف فيها ، وجعلناها ذلولا يسخرونها) (**فَهُمْ لَها مالِكُونَ**)؟! (وبعد ذكر نعم الله يوجههم إلى الشكر الذي من أبرز معانيه الإيمان بالله وطاعة رسوله ولكنهم أشركوا) (**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً**) (وهم يريدون جبر نقصهم بها) (**لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ**) (والواقع أنّ العكس هو الصحيح) والآلهة لا يستطيعون نصرهم بل إنّ المشركين لهم جند محضرون.

(ويخاطب السياق الرسول ليثبّت فؤاده ولينذر الكفّار) ويقول : لا يحزنك ما يقولون لك. إنّ الله يعلم سرهم وعلنهم.

(ويعود السياق الى الإيمان بالآخرة ، وكيف يكفر بها هذا الإنسان الذي أسبغ الربّ عليه النعم ، ويخاصم فيها بكل صلافة) أفلا يرى الإنسان أنّه مخلوق من نطفة (مهينة) فإذا به يصبح خصيما لله؟! (يتقلّب في نعم الله ويجادل في آياته!) ويضرب مثلا (فيأخذ عظما يفتته ويقول :) (**مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟! قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**) (فيعلم أين ذهبت ذرأت جسد هذا الشخص أو ذاك) وهو الذي جعل من الشجر الأخضر نارا لكم توقدون عليها (مع أنّ النار باطنة فيها) وهو الذي خلق السموات والأرض فهل يعجزه إرجاع البشر؟! كلّا ...) (**إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**) (وتعالى عما يصفه الجاهلون بالنقص والعجز ، كلّا ... هو العليّ المقتدر على بعث الإنسان) وإليه ترجعون.

وكلمة أخيرة :

لقد ذكرت النصوص : أنّ (يس) قلب القرآن ، وهي ـ بحق ـ غرّة السور

المكية التي جاءت فيها حقائق الرسـالة بصـورة مركـزة ، مما يجعلها ركـيزة الحيـاة للإنسـان المسـلم ، لأنّها حـوت خلاصة دروس الحيــاة ، وحكمة المرســلين ، ومتطلبــات الحضارة.

سورة يس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(يس (1) وَالْقُــــــــــرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَــلِينَ (3) عَلى صِــراطٍ مُسْـتَقِيمٍ (4) تَنْزِيــلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمـاً ما أُنْـذِرَ آبـاؤُهُمْ فَهُمْ غـافِلُونَ (6) لَقَـدْ حَـقَّ الْقَـوْلُ عَلى أَكْثَـرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُـونَ (7) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْنـاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقـانِ فَهُمْ مُقْمَحُـونَ (8) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَـيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِـرُونَ (9) وَسَواءٌ

8 (مُقْمَحُونَ) : من قمح بمعنى رفع رأسه إلى فوق ، فإنّ الأغلال لمّا امتدت إلى تحت أذقانهم رفعت رؤوسهم إلى السماء حـتى لا يتمكّنـون من النظر أمامهم.
[فأغشيناهم] : جعلنا على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن الإبصار.

عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْـذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُـونَ (10) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِـالْغَيْبِ فَبَشِّـرْهُ بِمَغْفِــرَةٍ وَأَجْــرٍ كَــرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَــوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثـارَهُمْ وَكُـلَّ شَـيْءٍ أَحْصَـيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (12)

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

هدى من الآيات :

يقسم السياق ـ في البدء ـ بما يستدل به على صــدق رسالة النـبي (ص) وأنّه من لـدن ربّ عزيز رحيم ، يقسم بالقرآن الحكيم الذي هو الدليل الأظهر على رسـالات الله ، ثم بعدئذ يبين ملامح المجتمع الجاهلي الذي جاء الكتـاب لإصلاحه. إنّه الاعـرق في الكفر حيث أنّ أكـثرهم محكـوم عليهم بعــدم الإيمــان (لعنــادهم) وقد جعلت الأغلال في أعنــاقهم فهي الى الأذقــان ، وجعلــوا بين الســدّين من أمــامهم ومن خلفهم ، وحجبت أعينهم بالغشــاوة ، فهم لا يؤمنـون بك سـواء أنـذرتهم أم لم تنـذرهم. أوليس شـرط الاستجابة حالة الخشـوع في القلب؟ ولكن دعهم فسـوف يحـيي الله المـوتى ، وقد سـجلت عليهم أعمـالهم ، وكـلّ شيء أحصاه ربّنا في إمام مبين.

(ولعل ذكر هـذه الحقيقة يهـدف بيـان دور البشر في الهداية ، وأنّها ليست كرها عليه ، بل الله يضل أقواما عاندوا وجحدوا أو غفلوا عن الذكر).

بينات من الآيات :

باسم الله ، بــذلك النــور القدسي ، الــذي خلقه الله خلقا ، ثم خلق الأشياء به ، برحمته التي وسعت كل شيء ، وبرحمته التي لم تــزل ولا تــزال نزدلف الى ســورة يس المباركة.

[1] إنّ القرآن معجـزة البلاغة ، فهـذا الكتـاب الحكيم تركيب من هذه الأحرف الـتي لعلها تشـير اليه ، وهي في ذات الوقت رموز بين الله وأوليائه المقربين.

(**يس**)

وقد ذكرت النصوص أنّها اسم من أسماء النــبي (ص) فقد روي عن الإمـام أبو الحسن الرضا (ع) في حـوار بينه وبين الخليفة العبّاسي المأمون أنّه قال :

أخــبروني عن قــول الله تعــالى : «**يس وَالْقُــرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَـلِينَ عَلى صِـراطٍ مُسْـتَقِيمٍ**» فمن عنى بقوله (يس)؟ قـالت العلمـاء : يس محمد (ص) لم يشك فيه أحد.

قال أبو الحسن : فإنّ الله تعـالى أعطى محمـدا وآل محمد من ذلك فضلا لا يبلغ أحد كنه وصــفه إلّا من عقله ، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ لم يسلّم على أحد إلّا على الأنبيــاء (صلوات الله عليهم) فقال تبارك وتعـالى : «**سَـلامٌ عَلى نُـوحٍ فِي الْعـالَمِينَ**» وقـال : «**سَـلامٌ عَلى إِبْـراهِيمَ**» وقال : «**سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ**» ولم يقل : سـلام على آل نوح ، ولم يقل سـلام على آل إبـراهيم ، ولم يقل سلام على آل موسى وهارون ، وقـال : (**سَـلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ**) يعني آل محمد (ص).

فقال المأمون : قد علمت أنّ في معدن النبوة شــرح هذا وبيانه [1]

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (375).

ولعل معرفة الأحــرف المتقطعة في فــواتح الســور تعتبر مفاتيح لفهم أسرار كتاب الله.

[2] القسم يربط ــ اعتباريا ــ بين حقيقة يــرد التأكيد عليها ، وحقيقة مؤكــدة فعلا ، فــإذا حلفت بالله ســبحانه على أنّك تفي بوعــــــــدك ، فقد ربطت بين إيمانك بالله كحقيقة ثابتة ، وبين الوفاء بالوعد تريد التأكيد عليه.

وإذا كــانت هنالك صــلة حقيقية بين أمــرين ، وكــان أحدهما شاهد صدق على الثـاني ، فـإنّ القسم يكـون أبلغ وآكد ، ولعل كــلّ ما في القــرآن من حلف هو من هــذا النــوع.

أليس القـرآن كتـاب حـقّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفــــه؟ وهكــــذا ينبغي البحث دائما عمّا يوصل بين طرفي القسم ، وهو في الأكثر صلة الحجة والشهادة.

وهنا يحلف الذكر بالقرآن الحكيم على رسـالة النـبي. أو ليس القــــرآن أكــــبر شــــاهد على رســـالته؟ أو ليس المعجزة التي لا تفنى ولا تنتهي غرائبه ، الجديد أبدا الــذي يسبق الحياة دائما.

(**وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**)

تــرى أيّ صــفة في القــرآن تجعله أكــبر شــاهد على الرسالة؟ هل هي بلاغته التي أخرست العرب الذين زهــوا ببلاغتهم وسمّوا أنفسهم عربا لأنّهم أعربـوا عمّا يختلج في ضمائرهم؟

أم لأنّه جـــاء على يد نـــبيّ أميّ ما عهد القـــراءة والكتابة؟

أم لأنّه تنبّأ بالمســتقبل فلما تحققت أنبــاؤه عــرف الناس صدقه؟

أم لأنّه أنبت حضـــــــــــارة ربانيّة في أرض الجاهلية العريقة؟

كل تلك الصفات شواهد صدق الرسالة إلّا أنّ الصــفة الأسمى للقرآن حكمتـه. ما هي هـذه الحكمة الـتي يحلف بها الـــــربّ هنا ليســـــتدل على أنّ محمــــــدا (ص) من المرسلين؟

لا يزال «العلم» الشاهد العظيم عند كل النــاس على صدق أو كذب أصـحاب الـدعوات الجديـدة ، والقـرآن فتح أمام البشرية ولا يزال آفاق المعرفة :

عـــرّفهم بـــربهم حـــتى وجـــده العـــارفون ، وجالسه الذاكرون ، واستأنس به المريدون.

عـرّفهم بأنفسـهم حـتى بصـروا عيوبها ، وميّـزوا بين فجورها وتقواها ، واجتهــدوا في تزكيتها وتنمية المـــواهب فيها.

عرّفهم بالسنن الإلهية في الأمم الغـابرة حـتى أخـذوا بأسباب التقدم ، وتمسّكوا بأهداب التكامل والفلاح.

عـرّفهم بمنـاهج المعرفة ، وسـبل السـلام ، ومفـاتيح النجاح ، ووسائل القرب الى الله.

فـــأيّ شـــهادة أكـــبر على صـــدق الرســـالة من ذات الرسالات ، وعلى صدق الرسول من أنّه يحملها ويطبقها؟

والقـــرآن ليس فقط كتـــاب علم بل هو أيضا كتـــاب حكمة ، والحكمة ـ كما يبـدو لي ـ العلم النـافع الـذي بلغ في تكامله ونضجه مبلغا يجعله مـؤثرا في سـلوك البشر ، ومغيرا الحياة ، وصانعا للحضارة.

دعنا نضرب مثلا : علم قيادة السيارة قد يكون نظريا ، فهو مجــرد علم ، وقد يتحــول الى مهــارة عمليــة. ألا يختلفان؟ [2] ولكن أين الاختلاف؟ إنّما في أنّ دراسة قيادة السـيارة في معهد مرحلة أوّلية في علم القيـادة ، أمّا إذا تـدرّب الإنسـان عليها بلغ العلم مرحلته النهائية ، والقـرآن ذلك الكتاب الحكيم الذي يشفي الصـدور ، ويبعث الهمم ، ويعطي البصائر ، ويكمل العقل ، ويضع الشـرائع السـليمة ، ... فهو ليس علم الحياة بل هو الحياة.

[3] الرســـالة حقيقة لا ينكرها إلّا المعانـــدون ، وقد أرسل الله أنبيـاءه ـ عليهم السـلام ـ حـتى لم يكن إنكـار الرسالة أصلا يجدي أحدا نفعا ، ولعل التعبـير القـرآني هنا يوحي بهذه الحقيقة إذ قال :

(**إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**)

فلست بـــدعا من الرسل ، وإنّما أنت واحد من أولئك الكرام الذين بلّغوا عن الله ، وأنت تصدقهم ، وهم بشّـروا بك ... وهذا بدوره شهادة على صدق الرسول.

[4] وشـــهادة أخـــرى على ذلك أنّ الرســـول على الصراط المستقيم ، اسـتقامة النفس بالعقل ، واسـتقامة السلوك بالشرع ، واستقامة القـول بالصـدق ، واسـتقامة العمل بالصلاح.

فـإذا ضلّت المـذاهب في ربهم فـإنّ الرسـول يهـدي الإنسان إلى الله بما يتفق مع الفطرة والعقل ، وحين يبلغ العبد معرفة الرب لا يبقى لديه ريب في صدق الرسالة.

وإذا تطـرّفت المـذاهب فأهمل بعضـها العقل وأهمل البعض البدن ، فإنّ الرسول

---

(2) اننا نستخدم كلمة العلم عـادة في الجـانب النظـري بينما نسـتخدم للجانب العملي كلمات مثل الفن والمهارة والتدريب والتقنية.

على طريق مستقيم وسط ، لم يهمل جانبا على حساب جانب.

وإذا كانت الأهواء تسيّر الناس ذات اليمين وذات الشمال فإنّ ضغوط المجتمع والإقتصاد والسياسة تتكسّر على صمود الرسول ثم تتلاشى أمام استقامته التي تحدّت إغراء الشمس والقمر.

إنّ استقامة رسالة النبي وسلوكه تشهد على أنّه ينطق عن الوحي ، وأنّه مؤيد بالغيب.

(**عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

[5] بماذا أنزل الله الرسالة؟ وأيّ اسم يعكسه كتابه؟ أو ليس الكتاب دليل صاحبه؟

القرآن تجلّ لاسم العزّة التي تعني فيما تعني المقدرة والهيمنة ، كما لاسم الرحمة ، لأنّ رحمة ربّنا اقتضت إنقاذ البشر من براثن الضلالة والشرك.

(**تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ**)

ونستوحي من الآية أنَّ القرآن سيهزم المبادئ الباطلة عاجلا أم آجلا ، لأنّه تنزيل العزيز الذي يؤيد بعزته رسالاته ، ويعكس هذا استمرار انتشار نور الإسلام في الأرض بالرغم من كل العقبات التي يجعلها أمامه الطغاة.

[6] أمّا هدف الرسالة فهو إنذار قوم غافلين ، ما أتاهم من قبل الرسول من نذير.

(**لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ**)

وقد فسّر أغلب المفسرين هذه الآية بأنّ أولئك القوم لم ينـذر آبـاؤهم من قبل ، مما يخـالف قوله سـبحانه : «**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ**» [3] وهناك تفسير آخر يجعل حرف (ما) موصولة فيكون معناه تقريبا : «لتنذر قوما بما أنذر آباؤهم من العذاب».

وسواء أخذنا بهذا التفسير أو ذاك فانّ من المعلوم أنّ قوم الرسول لم ينذروا منذ فترة طويلة ، فهم لم ينذروا من قبله ، ونجد هذا المعنى في آية أخرى : «**وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ**» [4] ولكن هل يعني ذلك أنّهم لم ينذروا أبدا؟ كلّا ...

[7] ويذكر السياق بالتحديات التي يواجهها النبي ـ كسائر الرسل ـ في طريق الدعوة ، فسوف لا يؤمن هؤلاء الناس ، وسوف يقوم صراع مرير بينه وبينهم ، ويستمر الصراع حتى يبتلى المؤمنون وحتى يأذن الله بالنصر المبين!

(**لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**)

وهكذا لا ينبغي الخضوع للتيار الاجتماعي إذ عدم إيمان الأكثرية ليس دليلا على نقص في حجج الرسالة بل في وعيهم.

وتعطينا الآية دفعة معنوية لنمضي قدما في حمل الدعوة دون أن نهن أمام رفض الأكثرية أو كفرهم بها.

[8] ولكن لماذا لا يؤمن بها أكثرهم؟

لأنّ تراكم المعاصي على قلوبهم ، وعلاقاتهم الاجتماعية القائمة على الظلم والاستبعاد ، وتخلّفهم وانشدادهم الى عادات مجتمعهم وتقاليد آبائهم الضالين ، كلّ

---

(3) فاطر / (24).
(4) سبأ / (44).

أولئك تشكّل أغلالا في أعناقهم.
(**إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً**)
الشـــهوات غل ، وعــــادات المجتمع أغلال ، والتكبّر والحسد والعصبيات أغلال.
(**فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ**)
لعل معنــاه : أنّ الأغلال عريضة بحيث تأخذ بمجــامع أعناقهم وتبلغ الأذقـان ، ونسـتوحي من ذلك أنّ عبـوديتهم شاملة.
(**فَهُمْ مُقْمَحُونَ**)
أرأيت الفرس حينما يسحب لجامه كيف يرفع رأسـه؟ قــالوا : إنّ ذلك هو المقمح ، وهو لا يملك قــدرة الرؤية ، كما لا يستطيع الحركة.
[9] ويمضي السياق في بيـان شـقاء هـؤلاء الغـافلين الذين سدّت منافذ عقولهم (لعله بســبب الأغلال المكبلين بهـا) فأمـامهم سد ومن خلفهم سد ، وعيـونهم محجوبة ، فلا ينشـطون للتحـرك بسـبب السـدين ، ولا هم يبصـرون بأعينهم شيئا.
(**وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا**)
فلا يقــدرون على التقــدم ، ولا يمكنهم الــتراجع عن الغي ، وهم قد أحيطـوا بعقبـات تصـدهم عن السـبيل بما اكتسبوا من آثام.
(**فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**)
لقد أحــاطت بهم خطيئـاتهم وغشــيتهم فلا يبصــرون أنّهم محاطون بالسدود ، ذلك

أنّ الذنوب التي يرتكبها الإنسـان تخلّف آثارها على الواقع الخارجي ، وتتحول إلى سدود أمام هداية البشر وسعادته. أرأيت الـذي انتمى الى حـزب كـافر ، وعمل من أجل انتشار مبادئه الضالة ، وتربية جيل من الناس عليها. هل يقدر على الخلاص منه؟! كلا ... بل يضحى مثله مثل دودة القزّ التي تصنع الشرنقة ثم تموت فيها ، وهكذا الذي أعان ظالما حتى سيطر على البلاد. إنّه يصبح أسير عمله ، وكثيرا ما يسلّطه الله عليه ، ويقتل بسيف البغي الذي سلّه على الناس.

ولعل السدّين هنا إشارة الى آثار الجرائم الخارجية ، بينما الأغلال تشير الى الآثار النفسية لها ، حيث يزين الشيطان للنفس أعمالها حتى تغدو ملكات يصعب تجاوزها.

أمّا الغشاوة فهي الظلمات التي تحيط بالقلب ، فينطفئ فيه الضمير ، ويخبو نور العقل ، ولا يحسّ البشر أنّه واقع في المهلكة ، بل قد يزعم أنّه على صراط مستقيم.

[10] وعند ما تتراكم الأغلال الغليظة حول القلب الغافل ، وتحيط بصاحبه سدود الجريمة ، وتغشاه ظلمات الجهل ، يصل إلى الدرك الأسفل فلا ينتفع بالإنذار ويكون مثل قلبه مثل جسم مريض لا يستجيب للدواء ، فلا يرجى شفاؤه.

(**وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**)

إنّ هذه العاقبة السوء تنتظر كلّ أولئك الذين يغفلون عن ربهم فيختطفهم الشيطان ، ويسترسلون مع الأهواء والظروف حتى تحيط بهم أغلال العادة العصبية ، والعزة بالإثم ، وسدود النظام الفاسد اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، وتغشاهم ظلمات الجهالة ، ولا ينفعهم آنئذ الإنذار. وعلى البشر أن يتجنّب الخطوة الأولى التي تقوده الى الهاوية ، لأنه كلما هبط أكثر كلما كانت جاذبية الهاوية

أقوى.

[11] والســبيل الى النجــاة من الحلقــات المتداخلة للشقاء يمرّ عبر محاربة الجبت وجهاد الطاغوت ، وبالتالي اتقاء الأغلال والسدود.

كيف؟

أوّلا : باتباع الذكر الذي هو القرآن الكريم ، وذلك بأن يكون قـرار الإنسـان مع نفسه إتبـاع الحق الـذي يـذكّر به الوحي ويعرفه العقل.

(**إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ**)

ولعل اســتخدام لفظة الــذكر هنا كــان للإشــارة الى مصــدري المعرفة : الــوحي والعقل ، اللــذين ينتهيــان ــ بالتـالي ــ الى نـور واحد ، فـالوحي يثـير العقل ، والعقل يصدّق الوحي ، والإنسـان يتبع ذلك الـذكر ، وأولئك الـذين عوّدوا أنفسهم على اتباع الحق هم الذين ينتفعون بالإنـذار ، لأنّ نظـرتهم موضـوعية ، ومنهجهم الفكـري سـليم ، ولا يملكون حجابا يمنعهم عن فهم الحقائق.

ثانيا : بخشية الله ورجاء رحمته ، حتى يحـاربوا بـذلك جبت أنفسهم ، ويفكّوا عن قلوبهم أغلال العصـبية والعنـاد والكبر والعزة بالإثم.

إنّ خشــية الله تضــيء في القلب مصــباحا يــرى به الحقائق. أو ليست خشية الناس أو خـوف الفقر أو الحـذر من الطبيعة تنكّس القلب ، وتــدع رؤيته مقلوبــة؟ كــذلك تضـحى خشــية الله وســيلة الهــدى ، لأنّ من يخشى ربه بالغيب لا يخاف شيئا.

(**وَخَشِيَ الرَّحْمنَ**)

لعل ذكر كلمة الـــرحمن هنا يهـــدف إيجـــاد حالة من التـوازن بين الخشـية والرجـاء ، فهو الله أرحم الـراحمين وخشـــيته لا تبلغ درجة القنـــوط من رحمته ، أنّى كـــثرت الخطايا وعظمت الذنوب.

(**فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ**)

إنّ من أبعاد المغفـرة تجـاوز آثـار الـذنوب في الواقع الخارجي أو على النفس. إنّ السلطات الظالمة ، والنظام الاقتصـــــادي الفاسد ، والأنظمة الاجتماعية المتخلفة كلّها من آثــار الــذنوب ، وحين نتبع نهج الله ، ونطيع أوليــاءه ، فإنّ الله سبحانه ينصرنا على الطغاة والمـترفين ، ويسـنّ لنا شـرائع سـمحاء قائمة على أسس العـدل والإحسـان ، كما ينزع من أفئدتنا حب الشهوات ، ويعيننا على العـادات السيئة.

إنّ المغفرة بشرى عظيمة ، فطوبى لمن غفر الله له ذنوبه ، وهي تمهّد للأجر الكـريم في الـدنيا بحيـاة فاضـلة تعمها السعادة والفلاح ، وبرضوان الله وجناته في الآخرة.

[12] إنّ أعظم إنذار يسـتجيب له المخبتـون ولا ينتفع به الغـافلون ، هو النشـور حيث يحـيي الله بقدرته الـتي لا تحد المـــوتى جميعا ، بعد أن ســـجّل عليهم للحســـاب أعمالهم التي فعلوها في حياتهم وقدموها لتسـتقبلهم عند الموت ، أو التي خلفوها وراءهم من سـنة حسـنة أو سـنة سيئة.

(**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى**)

إنّه وعد صادق.

(**وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا**)

من أعمال صـالحة تتجسد ثمّة جنـات وحـور عين ، أو ذنوب تتجسد ثمّة نيرانا وحيّات.

(**وَآثارَهُمْ**)

فالصدقات الجارية ، والعلم الـذي يهتـدي به النـاس ، والأولاد الصــالحون ، هي الروافد المســتمرة الــتي تنمّي حسـنات المـؤمن بعد موته ، بينما كتب الضـلال ، وسـنن الظلم والانحـــراف ، والتربية الفاســـدة للأبنـــاء ، تلا حق الفاسق حتى بعد وفاته.

هكذا روي عن النبي محمد (ص) :

«**من سـنّ سـنّة حسـنة كـان له أجرها وأجر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أجر العامل شيء ، ومن ســنّ ســنة ســيئة فعليه وزرها وزر من عمل بها**» [5]

(**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ**)

ما هو ذاك الإمـام الـذي أحصى الله كـلّ شـيء فيـه؟ هل هو اللوح المحفوظ؟ أم طائر كلّ شـخص الـذي ألزمه الله في عنقه ، ويلقاه يـوم القيامة منشـورا؟ أم هو إمـام الحق أو إمام الضلال اللذين يتبعهما الناس؟

لعل القرآن الحكيم يشـير إلى كل ذلك وأكـثر ، إذ أنّ كلمــات القــرآن لا تتحــدد في إطــار الســياق فقط ، بل تتجاوزها لبيــان حقــائق الخليقة ، بلى. يكــون ذكر هــذه الحقيقة هنا وتلك هناك بمناسبة موضوعات السياق.

أمّا الحقيقة الــتي نســتوحيها من الآية فهي : إنّ لكل شيء إماما تتمثّل فيه

(5) تفسير الرازي / ج (26) / ص (46).

خصائصه بصــورة متكاملة ، فالأنبيــاء وأوصــياؤهم ــ أئمة الرشاد ـ تتمثل فيهم كـلّ صـفات الخـير والفضـيلة ، بينما الفراعنة والطغاة ـ أئمة الكفر ـ تتجسد فيهم كـلّ صـفات الرذيلة والشر.

ومن هنا جــاء في الحــديث المــأثور عن أئمة الهــدى تفسير هذه الآية الكريمة بالإمام أمير المؤمــنين (ع) حيث روي عنه (ع) قوله :

«**أنا والله الإمام المبين ، أبين الحقّ من الباطل ، ورثته من رسول الله**» [6].

(6) عن نور الثقلين / ج (4) / ص (379).

وَاضْـــــرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْـــحابَ الْقَرْيَـــــةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَـلُونَ (13) إِذْ أَرْسَـلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَـذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَـلُونَ (14) قـالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْـــذِبُونَ (15) قـــالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَـــــلُونَ (16) وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17) قـــالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُـــوا لَنَـــرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (18) قالُوا طـائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَـلْ أَنْتُمْ قَـوْمٌ مُسْـرِفُونَ (19) وَجـاءَ مِنْ أَقْصَـا الْمَدِينَـةِ رَجُـلٌ يَسْـعى قـالَ يا قَـوْمِ اتَّبِعُـوا الْمُرْسَـلِينَ (20) اتَّبِعُـوا مَنْ لا يَسْـئَلُكُمْ أَجْـراً وَهُمْ مُهْتَـدُونَ (21) وَما لِيَ لا أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَـرَنِي وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً

---

18 (**تَطَيَّرْنا**) : تشأمنا بواسطتكم فنخاف أن يصيبنا شـؤمكم فنقع في البلاء من طالعكم السيء.

إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُـرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَـفاعَتُهُمْ شَـيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِما غَفَــرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْـرَمِينَ (27) وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِـهِ مِنْ بَعْـدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّـماءِ وَما كُنَّا مُنْـزِلِينَ (28) إِنْ كـانَتْ إِلاَّ صَـيْحَةً واحِـدَةً فَـإِذا هُمْ خامِـدُونَ (29) يا حَسْـرَةً عَلَى الْعِبــادِ ما يَــأْتِيهِمْ مِنْ رَسُــولٍ إِلاَّ كــانُوا بِــهِ يَسْــــتَهْزِؤُنَ (30) أَلَمْ يَــــرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُــرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُــونَ (31) وَإِنْ كُــلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (32)

---

31 [القرون] : الجيل والأمة باعتبار تقارن أعمارهم.

قالُوا : طائِرُكُمْ مَعَكُمْ

هدى من الآيات :

حين تـــــتراكم حجب الغفلة على الأفئـــــدة لا ينتفع أصـحابها بالنـذر ، كـذلك قـال ربّنا آنفا ، وهو الآن يضـرب مثلا من أصحاب القرية التي جاءها المرسـلون فلم يـؤمن أغلبهم ، بل قــالوا : ما أنتم إلّا بشر مثلنا ، ولم ينفعهم أنّ الله يشـــهد على صـــدق الرسل ، وأنّهم مســـئولون عن موقفهم ، وليس النذر ، وبالغوا في التكـذيب ، إذ تطيّـروا بالرسل ، وتشاءموا من دعوتهم ، ولكن الرسل اسـتقاموا في تحدّيهم لأولئك الجاهلين ، بـالرغم من توعّـدهم بـأنهم سـوف يرجمـونهم إن لم ينتهـوا من دعـوتهم ، بأغلظ ما يمكن ، فقال الرسل : إنّ تشؤّمهم إنّما هو من أنفسـهم ، وتهديـدهم بالعـذاب لا يلـويهم عن تـذكيرهم ، وإنّه لـدليل على توغّلهم في الجريمة.

وهناك انتشرت الدعوة فجـاء رجل من أقصى المدينة يسـعى (لينـذر قومه قبل ان يحـلّ بهم العـذاب لتكـذيبهم الرســل) فنصح قومه إشــفاقا عليهم باتبــاع المرســلين ، الـــذين تـــدل على صـــدقهم حجتـــان : الأولى : أنهم لا يسألونهم أجرا ، والثانية : أنّهم

مهتدون ، وذكّرهم بـربهم بـأبلغ صـورة. أو ليس هو الـذي فطرهم ، فلما ذا ينكرونـه؟! أو ليس المرجع إليه ، فلم لا يرجونه أو يخافونه؟! أم يعتمدون على الآلهة التي لا تضـرّ ولا تنفع ، ولا تمنع عـــذاب الله عنهم؟! إنّها الضـــلالة الواضحة (ثم تحداهم بكل عزم وقـال :) إنّي آمنت بـربّكم فاســمعون (لقد أخذ الرجل وعــذّب ثم قتل ثم أحــرق ، ولكنّ السياق يتجـاوز كـلّ ما حـدث الى العاقبة فيقـول :) قيل له : ادخل الجنة (وبقي حـنين هـذا الصّـدّيق الى بعد استشـهاده ، فـتراه يقــول وهو يـدخل الجنة :) (**يا لَيْتَ قَــوْمِي يَعْلَمُــونَ بِما غَفَــرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**).

بينات من الآيات :

[13] قصة المرسلين الثلاثة الى قرية (أنطاكية) التي جعلت قلب سـورة (يس) الـتي هي بـدورها قلب القـرآن تتمثّل فيها الحقائق التالية :

أولا : توجز مفصّلات الصـراع الرسـالي مع الجاهلية ، حيث نـرى فيها جانبا من حـوار الرسل مع الأمم الغاوية ، وحججهم البالغة عليهم ، وشبهات الكفار وردود المرسلين عليها ، وسائر فصول الصراع المعروفة ، فهي ـ بالتـالي ـ تجمع جملة الحقائق التي ذكّرت بها آيات الكتـاب في هـذا الحقل.

ثانيا : تمثّلت فيها ســنّة الله في الإنـــذار ، وعـــادة الجاهليين في الإنكار ، واللـتين ذكـرت بهما آيـات الـدرس الآنف ، وهكذا تكون القصة حجة على الحقـائق الـتي بيّنها القرآن في فاتحة السورة.

ثالثا : إنّ سورة يس تبيّن واقع الجاهليين العـرب وهو قـريب جـدا من واقع أصـحاب القرية (في أنطاكيـة) ذلك لقرب العهد الزمني ، وتشابه الرسالتين (رسـالة الله الى عيسى (ع) ورســـالته لمحمد (ص)) وهكـــذا وجب أن نستخلص منها العبرة ربما

أكثر من أيّ قصة أخرى.

(**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً**)

إنّ هـــذا المثل ينطبق على مثلهم ، لأنهما من نـــوع واحد وحزب واحد.

(**أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ**)

أين كانت هذه القرية ، ومن هم المرسلون إليها؟

قـــالوا : إنّها كـــانت أنطاكية ثانية حواضر الـــروم ، والواقعة اليوم في تركيا على حدود سوريا (100 كيلومـتر الى حلب تقريبا) وقريبة من ميناء الاسـكندرية على البحر الأبيض (60 كيلومتر تقريبـا) وهي لا زالت كبـيرة ، إلّا أنّها في ذلك اليــوم كـانت أكـبر ، ويحترمها المسـيحيون لأنّ بولس وبرنابا وآخرين زاروها.

أمّا قصة الرسالة فلم يختلف المفسّـرون فيها إلّا في بعض التفاصيل ، وهي باختصار :

إنّ عيسى ـ عليه السلام ـ بعث اثـنين من الحـواريين الى تلك القرية بالرسـالة ، فلما بلغاها وجـدا في أقصـاها حـبيب النجـار فـدعياه الى الرسـالة فـآمن ، ولما دخلا المدينة دعوا الناس فآمن بعضـهم ، ومـرّ بهما الملك ذات يوم فكبّرا (ويبدو أنهما لم يجـدا طريقا لدعوته غـير ذلـك) فحبسهما الملك ، وبعث عيسى ـ عليه السلام ـ الرسـول الثالث لتعزيز موقف الأوّلين (ولعله كان وصـيّه شـمعون) فتقـــرّب الى الملك حـــتى استخلصه فحدثه عن شـــأن الرســـولين ، وطلب منه أن يســـمع منهما الحجة ، فلما أظهرا حجتهما بإبراء الأكمه وإحيـاء المـوتى (حيث أنّ ابن الملك أو ابن واحد من حاشيته كـان قد مـات قبل أسـبوع فأحياه الله بدعائهما) آمن الملك وبعض قومه ،

إلّا أنّ الغلبة كـانت للمكـذبين الـذين أهلكهم الله بصـيحة واحدة.

وهكـذا يرتفع الاختلاف الظـاهر بين روايـات التفسـير الـتي تنتقل أنّ الملك آمن ، وبين ظـاهر الآية الـتي تنبّأنا بهلاك أولئك القـوم ، ذلك أنّ إيمـان الملك ــ حسب هـذه الرواية التي نقلها الفخر الـرازي ــ لم يـؤثّر في الطبقـات المسـرفة من قومه ، فـأنزل الله عليهم العـذاب ، والله العالم.

[14] وليس المهم أن نعـــــرف تفاصـــــيل القصص القرآنية ، إنّما المهم أن نتـدبّر في الجـوانب الـتي يخبرنا ربنا عنها ، لأنّها هي الـتي تنفعنا ، وتجـري علينا سـنن الله فيها كما جرت على الأولين.

وهكـذا كـذّب أولئك الغـافلون اثـنين من المرسـلين فعزّز الله دينه بالثالث.

(**إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ**)

هل كانا رســولين من عند الله مباشـــرة؟ أم كانا من عند المسيح روح الله ـ عليه السلام ـ كما تروي التواريخ؟ وإذا كيف يقول ربنا سبحانه : «أرسلنا»؟

ربما كانا نـبيّن ــ كما هـارون مع موسى ، ويحـيى مع عيسى ـ إلّا أنّ المفروض عليهما كان طاعة عيسى ـ عليه السلام ـ باعتباره من أولي العزم.

ولعل رسول عيسى ــ عليه السـلام ــ يعتـبر عند الله رسوله ، لأنّ عيسى إنّما أرسلهما بإذن الله ، أو ربما بأمر مباشر من الله ، فهما بالتالي رسولان من عند الله.

(**فَكَذَّبُوهُما**)

بـالرغم من أنّ البعض آمن بهما ــ كالصّـدّيق حـبيب النجار الذي جاء ينذر قومه

من أقصى المدينة ــــ إلّا أنّ الأغلب كـــــان قد كـــــذّب بالرسولين ، لأنهم قد حقّ القول عليهم.

(**فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ**)

لقد عزّز الله دينه الحق بالرسول الثالث ، الذي قالوا : إنّه كان شمعون وصي عيسى.

(**فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ**)

لا يتعرّض السياق لبيان الآيـات الـتي تقـول الروايـات أنّها ظهرت على أيديهم ، مثل إبراء الأكمه وإحياء المـوتى ، فهل لأنها لم تكن ضرورية ، إذ أنّهم عرفـوا صـدقهم من خلال أقـــوالهم ، وما دعـــوا اليه من حقـــائق ، ومن خلال سـلوكهم واسـتقامتهم؟ أم لأنّ ظهـور الآيـات على أيـدي الرسل كانت سنّة لا تحتاج الى مزيد بيان؟

لعل القوم كانوا مستبصرين فأغواهم الشيطان ، وأنّ دعوة الرسل جاءت لتذكيرهم بالحقائق التي آمنوا بها من قبل فلم تكن بحاجة الى آيات جديدة ، والله العالم.

[15] أمّا شـبهة قـومهم فكـانت تتلخّص في أنّه كيف يبعث الله بشـيرا رسـولا ، وبالتـالي لمـاذا نطيعكم وأنتم مثلنا؟

(**قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا**)

ثم تمادوا في الغيّ حيث لم ينكروا فقط رسالة هؤلاء بل كفروا بكلّ رسالة ، وقالوا

(**وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ**)

لا رسـالتكم ولا رسـالة غـيركم. وهكـذا ازدادوا كفـرا وطغيانا ، ولكن لمـاذا جيء باسم الـرحمن هنـا؟ هل لأنّ الرسل ذكـــروا هـــذا الاسم وهم يــبيّنون لهم أنّ ربهم لا يــتركهم بلا رســالة ، لأنه واسع الرحمة شــديد العطف ، فقال الكفار كلّا ... ما أنزل الـرحمن؟ أم لأنّهم زعمـوا أنّ رحمة الله تأبى إنزال التكاليف الشـاقّة عليهم بالرسـالة؟ يبدو أنّ الأوّل أقرب ، فيكون جـوابهم مضـمرا في حـديث أنفسهم.

(**إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ**)

فلأن أصل الرســالة مرفــوض عنــدهم فــإنّ دعــوة الرسل تكون ـ بـزعمهم ـ مجـرد كـذب ، ولعل هـذه الآية تدلّ على أنّ الرسل كانوا ينطقون عن الله مباشرة.

[16] الله تعالى أكبر شـاهد على صـدق رسـله. أولم يـودع في ضـمير كـلّ إنسـان عقلا يهديه الى الحـق؟ أولا يظهر على أيدي رسله الآيـات؟! أو لا ينصـرهم؟ أفلا تـدل اســتقامتهم على صــدقهم ، أنّهم واثقــون تماما من أنّهم مرسلون وأنّهم لصادقون؟

(**قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**)

ولكن لا يعـــني تحمّلهم لمســـؤولية الرســـالة أنّهم مسئولون عن موقف الناس ، إنّما جزاؤهم على ربّهم.

[17] (**وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**)

فـإذا أبلغنا كم الرسـالة بوضـوح تـام فقد انتهى دورنا وبدأ دوركم.

ونســتوحي من الآية : أنّ البشر مســئول عن معرفة الهدى ، ولا يحقّ له أن يبرّر

جرائمه بأنه لم يكن مهتديا للحق ، كلّا ... إذا ظهرت دعوة الى الحق فعليك أن تتفكّر من دون عصـــبية أو عـــزة ، وترى هل هي صادقة أم لا.

[18] يغفى الجاهليّون على حرير التـبريرات غـارقين في شـهواتهم ، فـإذا جـاءهم نـذير وقـدم لهم الوعيد بـأنّ عاقبة غفلتهم الدمار ، فـإنّهم يتشـاءمون منه ، ويزعمـون أنّه يكـدرّ عليهم صـفو معيشـتهم ، فمثلهم مثل مـريض ، تفشّى في جسده مرض السـرطان ، وهو لا يـدري ، فـإذا أخبره الطبيب وحـذّره من مغبّة غفلته ثـار عليه ، وقـال : إنّك منكّد ، لماذا أنت سلبي؟

(**قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ**)

تشاءموا منهم ، وزعموا أنّ بيان سلبياتهم ، والـدعوة الى إصلاح الفاسد من حياتهم ، هو سبب الإزعاج عندهم.

واحتمل بعض المفســرين أن يكــون قد نــزل عليهم البلاء عند بلاغ الرسل ، كما نـــزلت على فرعـــون وقومه آيات الدم والسنين و. و. ، ويبدو أنّنا لسـنا بحاجة الى مثل هذا الفرض.

(**لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ**)

هكـــذا بلغ عنـــادهم أســـفل درك له حين هـــدّدوا المرسلين بالرجم لو لم يكفّوا عن دعوتهم ، وسـواء كـان الرجم هو جراحات اللسان التي لا تلتئم ، حيث توعّـدوهم بتلفيق التهم المختلفة ورجمهم بها ، كعـــادة الطغـــاة والمـــترفين دائما ، أم كـان معـــنى الــرجم هو الرضخ بالحجارة حتى الموت ، فإنّ ذلك دليل على هزيمتهم أمام حجة المرسلين فتوسّلوا بإرهابهم.

(**وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ**)

وماذا فوق الـرجم (لو كـان معنـاه الرضخ بالحجـارة) من عذاب ذي ألم؟

لعلّهم هدّدوهم بالقتل بأبشع صورة.

[19] وعكس جـــواب المرســـلين ســـكينة الحق ، وطمأنينة الثقة بنصر الله ، إذ لم يهنـــوا ولم يحزنـــوا بل كشفوا لهم الحقائق دون لبس ومن دون استخدام ألفـاظ نابية.

(**قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ**)

كـان شـؤمهم في أنفسـهم السـلبية ، في عنـادهم ، وتعصّـبهم لبـاطلهم ، وفي أعمـالهم الـتي جـرّت الـويلات إليهم. أرأيت الفيروس مسـتقر في جسد المـريض أم في كلام الطـبيب؟ أو رأيت الـذي ينهى أحـدا من الوقـوع في بـئر محفـورة في طريقـه؟ هل الخطر كـامن في نهيه أم في غفلة من يمشي؟

المجتمع الفاسد الـــذي يمشي على حـــرف الهاوية ، ويهدّده السقوط في أيّة لحظة ، طائره المشـؤوم إنّما هو طبقيته ، وظلم أفراده بعضهم البعض ، وإسـرافه ، وليس في دعوة المنذرين.

(**أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ**)

فإذا ذكّرتم بما يهدّدكم من أخطار ، فهل هـذا يسـمّى طائرا عندكم؟!

وقـال المفسـرون : إنّ هـذه الكلمة بمثابة إجابة عن تهديـــدهم بـــالرجم والعـــذاب ، أي : هل تعـــذّبوننا لأننا ذكّرناكم؟

ويبـــدو لي أنّ محـــور كلام الكفـــار هو التطيّر ، وأنّ محور كلام الأنبياء هو الجواب

عن هذا التطيّر.

(**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**)

فإسـرافكم هو السـبب في الشـؤم الـذي أصـابكم ، ولعل هـذه الآية تتشـابه وقوله سـبحانه : «**وَاتَّبَـعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ**». [1]

وذهب البعض الى أنّ الإسراف هنا بمعـنى الإسـراف في الجريمة والظلم ، وأنّه يتصل بتهديد الرجم.

[20] وهنا تـــدخل المســـرح صـــورة جديـــدة ، هي انعكاس الرسالة على قلب واع ونفس زكية ، ذلك الرجل المـؤمن الـذي وجد قومه أشـرفوا على الهلاك بكفـرهم ، فسارع إليهم يحذّرهم مغبّة رفض الرسالة.

(**وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى**)

جاء في الروايـات أنّه الصّـدّيق حـبيب النجـار ، الـذي بلغته الرســالة بــالرغم من أنّه كــان في أقصى المدينة ، وبادر الى النصيحة مع أنّه كان ـ حسب الروايات ـ راعيا ، ولعل كلمة «**أَقْصَا الْمَدِينَةِ**» تشير الى طبقته الدانية عند أولئك القـوم ، كما تشـير الى موقعه الجغـرافي مما تـدل على انتشـار الرسـالة في صـفوف بعض المستضـعفين ، الذين بالرغم من انهم كانوا يعيشون في أقاصي المدينة ، وليس في أعاليها حملوا مشعل الرسالة بكل قوّة.

ولعل تنكـير كلمة الرجل للدلالة على اكتمـال صـفات الرجولة فيه من الهمة العالية ، والحزم الشـديد ، والقـول الثابت ، كقوله سبحانه : «**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ**

---

(1) هود / (116).

صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً».

وربما سـعى الرجل سـعيا لاهتمامه البـالغ بالإنـذار ، وحرصه الشـديد على سـلامة قومه ، وهكـذا يحـرص أصحاب النفـوس الطيبة على أمن النـاس ، ويتفـانون في إبلاغ رسالات الله لإنقاذهم من عذابه المحتوم.

(**قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**)

لقد كان الرجل منهم ، وخـاطبهم بما يتناسب ومقـام النصـيحة ، إذ قـال : «يا قـوم» ، وكشف منذ البـدء عن إيمانه حين أمرهم باتباع المرسلين.

وروي أنه كان واحدا من الصّدّيقين الثلاثة في التـاريخ ، فلقد جاء في كتاب «الدر المنثور» : أخـرج أبو داود وأبو نعيم وابن عسـاكر والـديلمي عن أبي ليلى قـال : قـال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

الصّـديقون ثلاثة : حـبيب النجـار (مـؤمن آل ياسـين) الـذي (**قـالَ يا قَـوْمِ اتَّبِعُـوا الْمُرْسَـلِينَ**)» ، وحزقيل (مـؤمن آل فرعـون) الـذي قـال : «**أَتَقْتُلُـونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ**» ، وعلي بن أبي طالب ، وهو أفضـلهم [1]

[21] ومضى الصّـدّيق حـبيب النجـار في سـرد حجج المرسلين قائلا :

(**اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً**)

فلا يمكن أن يتهموا بالكذب ابتغاء الأجر ، فهم ليسـوا سـحرة ومشـعوذين ، ولا طلاب كراسي وسياسـيين ، ولا أصـحاب ثـروة ومـترفين ، فلما ذا يكـذبون ، وإنّما يفـتري الكـذب ــ خصوصا في مثل هـذه الـدعاوي العظيمة ــ من يطلب أجرا من أيّ

---

(1) راجع تفسير الميزان / ج (17) / ص (83).

نوع كـانت ، وسـيرة الأنبيـاء كما نمط دعـوتهم يشـهد لهم بالنزاهة التامة.

(**وَهُمْ مُهْتَدُونَ**)

بلى. قد يدّعي البعض دعـاوي كاذبة بجهل أو جنـون ، وحاشا رسل الله من ذلك ، إنّ رصـانة دعـوتهم ، وكمـال عقـولهم ، وحسن سـلوكهم وسـيرتهم ، ووضـوح خطهم ، واسـتقامتهم على الطريق بـرغم الصـعاب ، كـلّ أولئك شواهد حكمتهم وأنّهم مهتدون.

ثم إنّ مبادرة الرسول ـ أيّ رسول ـ بالعمل بما يـدعو الناس اليه من مكارم الأخلاق ، وحسن الفعال تشهد على صدقه.

[22] ثم إنّ محتوى دعوة المرسلين شاهد صدق لهم ، فهم يـدعوننا الى الله الـذي أخذ علينا ميثاقا في عـالم الـذر بالايمـان به ، الله الـذي أودع قلـوب البشر فطـرة الإيمـان به ، الله الـذي تـابع نعمه علينا ، وتأمرنا عقولنا بضرورة شكره؟

إنّ دعوة الأنبياء ليست الى أنفسهم ولا الى عنصر أو حـزب أو طائفة ، إنّما هي الى الله الـذي لا شك فيه ، والذي فطر الجميع على سواء.

(**وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

إذا كـانت هـذه حقيقة رسـالات النبـيين فلما ذا نكفر بهم؟! وماذا يملك من فقد ربه الذي خلقه واليه المعاد؟!

وهكـذا نجد هـذا الصّـدّيق العظيم لم يـدع فقط الى اتبـاع المرسـلين ، بل شـارك في الـدعوة الى محتـوى رسالاتهم ، وهو التوحيد.

[23] ثم ندّد بالشركاء المزعـومين ، وبيّن أنّ أسـاس عبادتهم باطل :

(**أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً**)

فاذا خضع لسـلطة سياسـية أو اجتماعية أو اقتصـادية من دون الله ، فلكي تعطيه الأمن والسـلام ، ولكي تـوفّر له الحماية من ذنوبه أمام غضب الـرب ، فهل تفعل الآلهة شيئا من ذلك؟! كلّا ...

(**إِنْ يُرِدْنِ الـرَّحْمنُ بِضُـرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَـفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ**)

فلا يخفف العذاب عنه بسبب عبادته للآلهة من دونه ، بل ذات العبـــادة جريمة نكـــراء يعـــاقب عليها الله ، ولا تستطيع الآلهة إنقاذ المشرك منه.

[24] (**إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

لو تركت عبادة الفـاطر الـذي اليه النشـور ، والقـاهر على عباده ، الى عبادة الآلهة التي لا تضر ولا تنفع.

والضلال المبين هو : الضلال الواضح الذي لا ريب في ضلالته.

[25] ثم أعلن للملأ جبهته التي انتمى إليها ، وتحدّاهم بإعلان براءته منهم ، فقال

(**إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**)

ولعله أبلغهم بــذلك بعد أن رفض المعانــدون قبــول نصـــيحته ، وهـــدّدوه بـــإنزال العقوبة عليه كما هـــدّدوا المرسلين من قبل ، ولكنه استقام ، وأمرهم بأن يسـمعوا شهادته بوحدانية الرب بلا لبس.

ولا ريب أنّ من الحجج البليغة على صحة الدعوة إيمان صاحبها الذي لا يتزلزل ، وتحديه العالم بها.

[26 ـ 27] وفعلا نفّذوا التهديد الأرعن بحقه ، فوطئوه بأرجلهم حتى مات ، حسب قول ، وحسب قول آخر أنّهم رجموه حتى قتلوه.

فأدخله الله الجنة ، وحينما همّ بدخولها تمنّى لو كان قومه معه :

(**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**)

وجاء في الحديث عن الرسول (صلّى الله عليه وآله) أنه قال عن مؤمن يس :

«**إنّه نصح لهم في حياته وبعد موته**» [3]

وهكذا الشهداء يتمنّون لو يعادوا الى الدنيا ليخبروا أهلها بما للشهيد من مغفرة وكرامة.

[28] مضى الصديق حبيب النجار شهيدا الى ربه ، ولم يلبث قومه الجبارون من بعده إلّا قليلا حتى أهلكهم الله ، ولكن كيف تمّ هلاكهم؟

(**وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ**)

من الملائكة أو ما أشبه ، ولعلّ ذكر «السماء» هنا للدلالة على أنّ الأمر المهم كان ينزل من السماء.

(**وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ**)

---

(3) تفسير نمونه / ج (12) / ص (35).

فما كان ينبغي لـرب العـزة أن يبعث جنـدا لمثل هـذا القوم. أليس قد تحقّق الهدف من دون ذلك؟

[29] فبماذا تمّ هلاكهم؟ إنّما بصيحة واحدة جعلتهم ـ في لحظة ـ كالرماد الخامد ، لا حسّ ولا حركة ولا حرارة.

(**إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ**)

[30] ويعقب السـياق على هـذه القصة الـتي لخّصت تجارب الرسالات تقريبا قائلا :

(**يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ**)

إنّها تستدعي الحسرات ، حتى أنّ كـلّ شـخص يكـون في مثل هذا الموقع لا بد أن يتحسّر ، أنّ الله خلق عبـاده لـيرحمهم ، وأكـرمهم بـالإرادة والحرية ، فاختـاروا طريق الهلاك ، فبعث إليهم الرسل لينـذرهم من مغبّة أعمـالهم ، ولكنهم استهزءوا بهم ، وعرّضوا أنفسهم للهلاك الذي يجرّ الحسـرات. كيف ضـيّعوا فرصـتهم الأخـيرة بالاسـتهزاء؟! وكيف أصبحوا وقود جهنم ، وكان من المرتقب أن يكونـوا ضيوف الرحمن في الجنة؟!

(**ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

ولعل الاسـتهزاء هو أشـدّ ألـوان الكفر ، وأبعد سـبل الضـلالة ، حيث يعيش صـاحبه حالة العبثية واللّاهتمـام ، ومثله في هذا المقـام مثل الطـبيب الـذي ينصح المـريض بالدواء ، ويحذّره من الهلاك ، فبدل أن يشكره المـريض ، ويبادر الى تنفيذ أوامره تراه يضحك منه. أو ليس مثل هذا الرجل يستدعي الإشفاق والحسرات؟!

[31] وهم يغفلون عن مصير الغـابرين الـذين أهلكهم الله بكفرهم واستهزائهم ، ولم يبق منهم سوى العبرة.

(**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ**)

وأعظم ما في الغابرين من أسباب الموعظة أنّهم قد ضـيّعوا فرصـتهم الوحيـدة ، وأنّهم لا يرجعـون أبـدا إلى أهلهم.

(**أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ**)

ألا نقف على أطلالهم ، ونتساءل : أين الذين عمّروها وعاشـوا في ظلّها ، وهل يعـودون يوما لـيروا آثـار الـدمار الذي لحق ببلادهم ، أو ليخبرونا ماذا كان مصيرهم؟ كلّا ...

[32] بلى. ســـوف يجتمع النـــاس كلّهم في يـــوم الحسرة ليحاسبوا حسابا عسيرا ، ثم ليجازوا جزاء وافيا.

(**وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ**)

قالوا : إنّ حرف «وإن» هنا أصلها إنّ بالتشـديد ، وإنّ كلمة «لمّـا» جـاءت للتأكيد ، وهكـذا يكـون التأكيد يتبع التأكيد : «إن» للتأكيد ، و «كلّ» تفيد معـنى التأكيد أيضا ، و «لمّا» والجميع تأكيد أيضا.

وقـال البعض : «إن» نافية و «لمّـا» بمعـنى إلّا ، كما يقول القائل : نشدتك بالله لما فعلت ، أي إلّا فعلت.

ويجوز أن يكون معنى «لمّـا» هو التوقّع ، وفيه معـنى النفي أيضا ، أي لم يقع

حتى الآن وسوف يقع.

وكلمة أخيرة :

تقول آخر الدراسات التي بحثت عوامل نشوء الحرب العالميتين : إنّ البشرية ـ انساقت إليها انسياقا ، فلا أحد من القادة المتحاربين كان يريدها حربا مدمرة لا تبقي ولا تذر ، ولكنّهم كمن ينحشر في الزحام يدفع ويدفع ولا يجد سبيلا للخلاص ، انحشروا فيها بلا إرادة ووعي.

كذلك حين تتراكم سلبيات الأمم تتفجر في صور شتى ، منها : الحروب التي يجازي الله بها العباد. أو لم يقل ربنا سبحانه : «**قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ**» [4].

وهكذا تلاشت قوة هتلر واليابان ، وتأخّرت أوروبا حتى أضحت القوة الثالثة. لماذا؟

للجرائم التي ارتكبت بشأن الإنسانية ، وللانحراف الكبير عن سنن الله التي لا تتغيّر.

واليوم كيف يذر الرب العزيز الحكيم هذه الجرائم ترتكب بحق خلقه؟! هذا الظلم العريض ، وهذا الاستضعاف الشامل ، مئات الملايين من خلق الله يظلمهم حفنة من المستكبرين ، فهل يهمل الله عباده؟!

كلّا ... ولكنه يملي لهم إنّ كيده متين ، فإن لم يرجعوا عن غيّهم ، ويعتبروا

---

(4) الانعام / (65).

بمصير القرون الـتي كـانت من قبلهم ــ كيف أهلكهم الله فلم يرجع منهم أحد أبدا ـ فإنّ ترسانات الأسـلحة لا بد أن تثـور يوما لتصب الحمم على رؤوس صـانعها والسـاكتين عنهم من النـاس ، أو يخسف الله بهم الأرض ، أو يسـقط عليهم من السماء كسفا ، أو ينشر فيهم وباء كوباء الايـدز فلا يستطيعون ردّه.

إذا علينا جميعا أن نعي رسـالة ربنا العزيز الـرحيم ، ونأخذ إنذاره مأخذ الجـدّ ، وإلّا فسـاعة الجـزاء رهيبة ، ولا ينفع يومئذ الندم ، كما لا تنفع التوبة شيئا.

وَآيَــةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَــةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْــهُ يَــأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيــلٍ وَأَعْنــابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُــونِ (34) لِيَــأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْــكُرُونَ (35) سُــبْحانَ الَّذِي خَلَـــــــــقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (36) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّــمْسُ تَجْـرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيــزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَـرَ قَدَّرْناهُ مَنــازِلَ حَتَّى عـادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَـدِيمِ (39) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْـلُ ســابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

---

39 [كالعرجون القديم] : العرجون هو العذق اليابس المقوس.

وَآيَـةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْـكِ الْمَشْـحُونِ (41) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (42) وَإِنْ نَشَـأْ نُغْـرِقْهُمْ فَلا صَـرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَـذُونَ (43) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (44)

ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

هدى من الآيات :

بعد أن تهيّــأت النفــوس الطيبة ، لتلقّي آيــات الله ، وذلك بــذكر العاقبة الســوءى الــتي تعــرّض لها أصــحاب القلوب المغلقة ، يشرع القرآن بالتـذكير بالله عـبر آياته ، وأوّلها آية الحيـاة الـتي يبثها الـربّ في الأرض الميتة (كما يحيي بالرسالة القلوب) ويخـرج منها الحب (الـذي يشـكل أعظم طعـام البشـر) كما يجعل فيها جنـات ذات أشـجار النخيل (المتنوعة الفوائـد) وكــروم العنب (الــذي هو من الثمرات المفيدة كما التمر) وفجّر الله الأرض عيونا تجري بالبركــات ، والأهــداف الثلاثة منها هي : أن يســتفيد منها البشر رزقا ، وليصـــنع فيها ما يشـــاء من حاجاته ، ولكي يشكر ربّه.

(وبعد آية الحياة) يذكّرنا الربّ بآياته ــ سـبحانه ــ في الخليقة ، ومن أروعها آية الزوجية الـــتي تشـــمل البشر والأحيـــاء وغيرهما (مما تـــدلنا على أنّ ربنا مـــنزّه عن الحاجة).

(ومن طعام البشر ونظـام حياته القـائم على أسـاس التزاوج ، الى بيـان آيـات ربنا في الآفـاق) هـذا الليل كيف يسـلخ منه النهـار (مما يـدل على أنّ أوّل ما خلقه الله هو النهار ، ثم سلخه فكان الليل) فإذا هم مظلمون.

والشمس (التي هي محور منظومتنا) تجـري بسـهولة ويسر (ولكن ضـمن خطة مرسـومة ، والى نهاية معلومة تسـتقر عنـدها) ذلك تقـدير العزيز العليم (الـذي رسم للشمس مدارها بعلمه ، وسخّرها بعزته).

أمّا القمر فقد قـدّره الله أيضا (كما قـدّر الشـمس) ضمن منازل يجري عبرها يوميا حتى عاد في نهاية الشـهر كما العرجون القديم ، ذابلا مصفرّا.

وكلّما تعمّقنا في الخليقة ظهرت آثار التقدير والتـدبير أكثر فأكثر ، فلا الشمس يجوز لها أن تسـارع حـتى تكـون كـالقمر في سـرعة حركته (فـإنّ مـدار الشـمس سـنوي ومدار القمر شهري) ولا الليل (الذي يحتـوي القمر عـادة) يسبق النهار ، ويتجاوز حدوده ، بل كلّ جرم يسير بسرعة معينة في مداره المرسوم له.

(وهكـذا يسـتطيع البشر أن يطمئنّ الى النظـام المحيط به ، وأن ينظّم حياته وفقه بدقّة متناهية ، وأن يبني حضارته على هذا الأساس).

وهناك نعمة أخرى ضرورية لسعادة الإنسان وحضارته ، هي نعمة السفن التي هي آية إلهيـة. إنّها لآية تهـدينا الى ربنا ، وتعرّفنا بعزّته ورحمته ، فهي تمخر في البحـار ، وتحمل النـاس والبضـائع الكثـيرة ، أمّا في الـبر فقد خلق الله لنا الأنعام التي تشبه السفن.

(وليس تسـخير السـفن أو الانعـام من صـنع البشر ، لأنّه إذا لم يهيء الله الأمـور للاسـتفادة منها فلن يقـدر البشر على ذلك) ودليل ذلك أنّه : لو أراد الله إغراقهم

فهل يغيثهم أحد أو يقدر على إنقاذهم؟ كلّا ...

بينات من الآيات :

[33] لأنّ القلب الغافل كالصــخرة الصــماء لا ينتفع بالآيـات شـيئا ، فـإنّ المنهج السـليم هو إنـذاره بتنبيهه ، وذلك أوّلا : ببيــان عاقبة الغفلة ، وثانيا : بتخويفه بمصــير الغـابرين الـرهيب ، وثالثا : بتصـوير مشـهد من العـذاب الأليم الـذي ينتظـره ... كـذلك ابتـدأت سـورة يس بإنـذار مبين ، مما خشـعت به القلـوب الطيبة وتهيّـأت لاسـتقبال نــور الإيمــان الــذي تحمله آيــات الله في النفس وفي الخليقة.

وأولى الآيات هي هـذه الحيـاة الـتي يبعثها الـرب في الأرض الميتة ، وهي شــبيهة بحيــاة الإيمــان الــتي ينفخها القرآن بالتذكرة بآيات الله.

(**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها**)

مـــــوت الأرض منها ، ولكنّ حياتها من الله ، كــــذلك الغفلة من الإنسان بيد أنّ إيمانه بالله.

والحياة أروع ما نشــاهده في الطبيعة ، إنّنا نحبها لأنّنا أحياء بها ولا نرضى بمفارقة الحياة ، وإنّنا نكرمها ونعظمها لما فيها من آيات القدرة والجمال.

ويـذكرنا الـربّ بالحيـاة الـتي يبعثها في الأرض الميتة لعلنا نــزداد معرفة بقــدرة ربنا على إحيائنا مــرة أخــرى للحساب والجزاء.

(**وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**)

أو ليس الحبّ أكثر طعام أهل العـالم ، وزراعة القمح تعتمد على المطر أكثر من

أيّ زراعة أخرى؟

[34] ومن آيــات الله الأشــجار الــتي تظلّل الأرض ، ومن الأشــجار الــتي يســتفيد منها البشر ــ وبالــذات في المحيط العربي ـ النخيل ، التي تدخل في صـناعة الأدوات المنزلية ، كما ويبنى بها الـبيوت ، ويتخذ من ثمرتها طعاما وإداما وسكرا ، ويحتفظ بها من أيام ينعها إلى سـائر أيّـام السـنة ، وتهـدى من بلد الى بلد ، وهي في ذات الـوقت أفضل طعـام للإنسـان ، لأنّ فيها أكـثر ما يحتاجه الجسد من مــواد ، حــتى روي انها بمثابة عمّة الإنســان ، فعن الرسول الأعظم (ص) قال :

«**أكرموا عمتكم النخلة**»

(**وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ**)

إنّ الأشـجار يحتـاج بعضـها الى بعضـها ، ولعله لـذلك تــذكر بصــورة مجموعة «جنــات» وقد وفّر الله لتنمية الأشجار مئـات السـنن الطبيعية ، من خصـوبة الأرض الى حرارة الجو الى وجود الماء واعتـدال الريـاح والأمطـار و. و. ، وهكذا نسب الله جعل البساتين الى نفسه.

(**مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ**)

والعنب ـ كما التمر ـ يحفظ لغـير موسـمه في صـورة زبيب ، وهو ذو فوائد غذائية كبيرة ، ولعل عدم ذكر الكرم لقلة فائدته بالقيــاس الى النحيل ، والتقــارن بين النخيل ذات الارتفاع الكبير ، والكرم الذي هو زرع يثير الإعجـاب. كيف أنّ الله يصــنع من هــذه ثمــرا ومن ذاك عنبا ، وهما متشــابهان بــالرغم من اختلاف أصـلهما ، فهـذه شـجرة باســــقة وذاك زرع مفـــــروش على الأرض أو على ما يعرشون.

(**وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ**)

أو لا ينظــرون الى شــبكة القنــوات المنتظمة تحت الأرض ، والأحـواض الـتي تجتمع إليها ميـاه القنـوات؟! ثم اختلاف المسـتويات على الأرض ، مما يسـاعد على تفجّر العيـــون من الأرض لترويها ، ويبعث منظرها الخلّاب الى معرفة الرب وشكره.

[35] إنّ التناسق بين حاجـات البشر وصـنع الله في الطبيعة دليل دقّة التقـــدير ، وحسن التـــدبير ، فالبشر بحاجة الى رزق يأتيه رغـــدا ، والى هـــامش من الحرية يستفيد منها في تنويع مصادر غذائه وإظهـار إبداعه وفنّه ، كما يحتـاج الى تنمية وعيه ومعرفته ، والسـكينة النفسـية ... وكل تلك الحاجات متكاملة في الجنات والعيون.

(**لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ**)

فيقضوا حاجاتهم المادية الى الطعام.

(**وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**)

من تنويع في الطعـــام ، والاســـتفادة من المـــاء والأشجار في بناء البيوت وأدوات المنزل.

(**أَفَلا يَشْكُرُونَ**)

فتطمئن نفوسهم بمعرفة الـرب وحبّه والثقة به ، مما يعتـبر غـذاء أساسـيا لـروحهم وعقـولهم وإرادتهم ، وهي أعظم من أجسامهم.

[36] ومن الطعام والحاجات الأقرب الى حياة البشر ينساب السياق الى أبرز

وجـوه الحاجة في الخليقة ، فالنـاس والحيوانـات وسـائر الأشـــياء خلقت أزواجا بحيث يحتـــاج بعضـــها الى بعض ، لنعـرف أنّها مخلوقة مـدبّر أمرها ، ونعلم ــ بالتـالي ــ أنّ خالقها مقـدّس عن الحاجة ، فهو الـربّ السـبحان الـذي خلق الأزواج كلّها لتكون آية تعاليه عن العجز.

(**سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها**)

وهكــذا كلّما في الطبيعة من عناصر ونقــاط ضــعف شاهدة على حاجتها الى خالق مـدبّر ، أو ليس الضـعيف لا يخلق نفسه ، ولا يــدبّر أمـــره؟! ولو خلق نفسه لأكملها ، ولو دبّرها لأغناها ، ولكنّ الله ـ سبحانه ـ أركز الخلائق في الضـعف ، وأحوجها الى بعضـها ، لتشـهد بـأنّ خالقها غـني مقتـــدر ، ولو افترضـــنا في خالقها ضـــعفا لرجع الخـــالق مخلوقا ، ولصدق فيه ما صدق في سـائر المخلوقـات من الحاجة الى مدبّر أعلى منه.

وهكـذا افتتحت الآية بتسـبيح الله ، لأنها تـذكّرنا بعجز المخلوقـات ، بينما الآيـات السـابقة كـانت تـذكّرنا بآيـات القوة فيها.

وســبحان ـــ كما قــالوا ـــ علم دال على التســبيح ، وتقديره سبّح تسبيح الذي خلق الأزواج.

(**مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ**)

فقد خلق النباتات أزواجا ، منها ما كانت معروفة لدى نزول القـرآن ، ومنها ما كشـفه تقـدّم العلم اليـوم من أنّ في كل النباتات ذكـرا وأنـثى ، وأنّه قد يتم تلاقحهما بفعل البشر ـ كما يتم تلقيح النخيل مثلا ـ وقد تلقّحهما الرياح أو النحل أو ما أشبه.

(**وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ**)

حيث الحاجة الى الــزوج عميقة الجــذور في النفس وفي الجسم ، وهي تعكس ضـــعف البشر حيث لا يكتمل الواحد إلّا بكفئه ، حـــتى ولو طغى في الأرض فإنه يعيش محتاجا الى زوجه ، وقد تجمح به الرغبة حتى تفقد صـوابه ، وقد قال نابليون ـ الذي طغى في الأرض ـ مـرة لولـده : أنت تحكم العـالم ، قـال : وكيـف؟ قـال : لأنّك تحكم أمّك وأمّك تحكمني.

وكم يروي التاريخ لنا قصصا عن الجبابرة الذين كـانوا يركعون أمام نسـائهم. أو ليس ذلك دليل ضـعفهم ، وأنّهم ليسوا آلهة كما يزعمون؟! وهذا فرعـون يـربّي عـدوّه في بيته ـ بـالرغم من تخوّفه منه ـ لأن زوجته طلبت منه ذلك فانقـاد لها ، وثبت للعـالم أنّ من يـزعم أنّه الـرب الأعلى تحكمه زوجته.

(**وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ**)

فحتى الموجودات الأخرى يكمّل بعضها بعضا ، ابتــداء من الذرة المتناهية في الصغر ـ التي تـتركب من بروتـون وإلكترون ـ وحتى المجرات المتناهية في الاتساع.

ولا يزال علم البشر دون مستوى معرفة كلّ خصائص الزوجية.

وكلما تعمّقنا في معرفة حاجة الأزواج الى بعضـــــهم كلما عرفنا دقة التـدبير ، وسـلامة النظم ، وقـوة الهيمنة على الخليقة ، وبالتالي كانت لدينا فرصة معرفة ربنا أكـثر فأكثر.

[37] دعونا ننظر الى هذا الأفق العـريض الـذي يتسع أمامنا بلا حدود نعرفها ،

لا لكي نخشى من آياته ، ولا لكي نتمتّع بجمـــــال ما فيه ، ولكن لـــنزداد وعيا به ومن خلاله بأنفســـنا ، فهـــذا الليل يلبسه ربنا الحكيم ثيـاب النهـار بما يسـبغ عليه من ضـوء الشمس ودفئها وحركتها ، ثم يسلخه منه فيعود كما كان ، مظلما هادئا إلّا من رواسب النهــــــار. إنّ في ذلك لآية ، دعونا نبصرها.

(**وَآيَـةٌ لَهُمُ اللَّيْـلُ نَسْـلَخُ مِنْـهُ النَّهـارَ فَـإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ**)

تعـالوا ننظر هـذه المـرة الى الليل حين الغـروب كما ننظر الى الذبيحة حين يســلخ جلــدها ، لنبصر يد القــدرة الإلهية كيف تفعل ذلك بلطف وبإتقان وبنظام دقيق.

[38] وآية النهار هي هذه الكرة النارية الملتهبة الــتي نســمّيها بالشــمس ، والــتي هي أكــبر من بنتها الأرض ، مليـون ومـائتي ألف مـرة. كيف تجـري في السـماء بيسر وبدقة ، في حركة مستقيمة نحو مسـتقرّها النهـائي ، عند نجمة (وغا) البعيدة وتستقرّ في يوم حيث تكـوّر ، ثم يلقى بها في جهنم فتصرخ من حرّها.

(**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها**)

من الــذي ســخّرها وســيّرها في ســبيلها المحــدّد لا تتخطّى بوصة واحــــــــدة؟! إنّه الله المهيمن بعزّته على الخليقة ، والمدبّر بعلمه أمورها بدقة.

(**ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**)

[39] أمّا القمر الذي يدور في فلكه من منزل لمنزل ، بدقة متناهية تجعل علماء الهيئة يعرفـون مسـيرته حـتى بعد مأة ألف عام ، فهو آية الليل الـتي تجعلنا نـزداد إيمانا بسلطان ربنا.

(**وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ**)

لعل هذه المنازل هي المحطات اليومية التي يكبر ثم يصـغر القمر عنـدها في كل ليلة ، منذ ولادته هلالا حـتى تغيّبه في المحاق.

(**حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**)

هل اثـار انتباهك يوما بقية عرجـون على النخل ، بعد أن قطف ثمـره ، وبقي أصـله في أعلى النخل مصـفرّا ذابلا؟ كـذلك منظر القمر في أخريـات الليل عند نهاية الشهر.

إنّ حركة الشـمس والقمر المتناهية في وقتها حـتى أنّها لو حسبت بجزء من مليون جزء من الثانية لما وجدت فيها اختلافا ، إنّها لآية النظـام العجيب الـذي يجـري عليه هذا الكون ، والقدرة الإلهية الـتي تضـبطها ، وهو في ذات الوقت دليلنا الى ضبط الوقت وتحديد الزمن.

والزمن هو أعظم مقيـاس لحضـارة الإنسـان ، فكلّما زاد ضبطه واحترامه كلّما تقدّم البشر في حقول المدنيّة.

[40] وثبـات نظم الموجـودات دليل هيمنة الـربّ العزيز ، فهذه الشمس تجري في بروجها الإثني عشر كلّ عـام مـرة (على أنّ الـذي يجـري هو كـوكب الأرض في الحقيقة ، إلا أنّ ذلك هو ما يتراءى لنا ، ونعبّر عنه بالتـالي حسب ما نرى فنقول : طلعت الشـمس وغـربت وزالت ، وإنّما أرضنا هي التي تدور عليها).

(**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ**)

فالقمر يدور في منازله كل شهر مرة ، بينما الشمس كـلّ سـنة مـرة ، ولا ينبغي للشـمس أن تتسـارع سـرعة القمر فتترى علينا الفصول الأربعة في شهر واحد.

(وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ)

فلا تـدخل سـاعات الليل في النهـار ، حـتى يتقلّص النهار ، إلّا بقدر وحسب نظـام ثـابت منذ ملايين السـنين ، وهكـذا تكـون حركة الشـمس من المشـرق الى المغـرب ثابتة.

ولعل الآية أشـارت أوّلا الى ثبـات نظـام الـدورة السـنوية للشـمس ، ثم أشـارت الى ثبـات نظـام الليل والنهار.

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

كل من الشـمس والقمر والكـواكب والنجـوم تتحـرك بسـرعة في أفلاكها ، ولكن دون أن تحيد عن النظـام القائم قيد شعرة. أو ليس في ذلك دليلا على عزة الرب ، ودقة صنعه ، وحسن تدبيره ، ولطف إجرائه للسـنن الـتي قدّرها؟!

والفلك هو الجسم الـدائري ، وهكـذا تكـون في الآية إشارة الى الحركة الدائرية للأجرام السماوية.

وإذا أخذنا الشمس مثلا لهـذه الأجـرام نجـدها تتحـرك في أفلاك مختلفة ، فهي تـدور حـول نفسـها كـلّ خمسة وعشـرين يوما دورة واحـدة ، وتـدور مع سـائر كـواكب المجـرة الـتي هي فيها بسـرعة مليـون ومائة وثلاثين ألف كيلومـترا تقريبا في السـاعة الواحـدة ، وهي تجـري في ذات الـوقت نحو مسـتقرها بسـرعة اثـنين وسـبعين ألف واربعمائة كيلومـترا في السـاعة الواحـدة ، وفي ذات الوقت تدور اقمارها حولها بنظـام ثـابت ودقيق ، وتتحـرّك سائر الأجرام في هذا الفضاء الرحيب ، كـلّ في فلك دون أن يصـطدم الواحد بـالآخر. أفلا يهـدينا ذلك كلّه الى ربنا العزيز الرحيم؟!

وهكذا دبّر الله شؤون مملكته العظيمة ، أحيا الأرض بالغيث ورزق الإنسان منها ، ونظم شؤونه بثبات نظام الأرض والشمس والقمر ، وأعطى للإنسان فرصة التكامل عبر النظام الذي هو ركيزة أساسية من ركائز الحضارة.

[41] ويذكّرنا السياق بالركيزة الثانية ، وهي وسائل النقل ، فلو لا قدرة البشر على الانتقال بنفسه وببضاعته لما استطاع أن يبني حضارة ، وأعظم وسائل النقل هي السفن ، فمن أقدم العصور وحتى اليوم كان متن الماء صهوة السفن المختلفة التي حملت الإنسان والمواد أكثر من جميع الوسائل الأخرى ، ولا تزال السفن أفضل الوسائل وأرخصها وأكثرها شيوعا ، ولذلك لا بد أن تكون للدولة المستقلة منافذ على البحر ، والدول المهددة التي لا تملك مثل ذلك تعاني الكثير من الصعاب.

(**وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**)

إنّ الله ـ وليس الإنسان ـ سخّر الفلك لحمل البشر عبر المحيطات. ولعل كلمة «ذريتهم» تعني أمثالهم ونظائرهم ، ذلك لأنّه ليس كلّ الناس يركبون السفن ، وقال البعض : إنّ معناها أطفالهم ، لأنّ الطفل رمز الحنان ، وحمله في السفينة يعكس منتهى رحمة الله بالإنسان ، على أنّه كان من الصعب على الأطفال ركوب الأنعام.

وأكّد السياق على أنّ السفينة مملوءة بالبضائع ، لأنّ الفلك المشحون أقرب الى الغرق لثقله ، وأظهر دلالة على نعمة الله حيث حمل الإنسان وحاجاته مرة واحدة.

[42] وخلق الله للإنسان ما يشبه السفينة من الدواب التي تحمله من بلد لبلد.

(**وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ**)

من الذي خلق الأنعام ، وسخّرها لنـا؟ أو ليس اللـه؟! فلما ذا الكفر به ، والتمرّد على سلطانه؟!

[43] إنّ العوامل الغيبية الــتي تــؤثّر في الظــواهر المادية تفقد الإنسـان قـدرة الـدفاع عن نفسه ، فلا تـزال أمواج البحار تبتلع المزيد من ضحايا العواصف الهـوج ، ولا تزال حوادث مثل إنفجار تشـيلنجر الـتي سـماها صـانعوها ب (التحــدي) تــذكّر الإنســان بــأنّ قدرته محــدودة وهي مستمدة من الله ، وانه إذا غضب الله عليه فلا أحد بقـادر على أن ينقذه.

إنّك إذا ذهبت الى مكتب من مكـــاتب التـــأمين في كالفورنيا في أمريكا ، وطلبت منهم التـــــــأمين ضد كل الاخطار ، فإنّهم يقولـون : بلى. ولكن إذا ابتلع البحر هـذه الولاية ـ كما يتوقع بعض علمـاء الجيولوجيا ــ فإنّنا وإيـاكم سوف نكون معا ضحايا تلك الزلازل.

(**وَإِنْ نَشَــأْ نُغْــرِقْهُمْ فَلا صَــرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ**)

ولعل قــاع البحر الميت في أرض فلســطين ينطــوي على بعض آثار قوم لوط الذين انقلبت قراهم بفعل حركة بسيطة لجناح جبرائيل ـ عليه السلام ـ فمن يقـدر على أن يغيث مثل هؤلاء غير رحمة الله؟!

وقبل أيّـام حينما احــترقت مســاحات شاســعة من غابـات الصـين ، لم تسـتطع إخمادها الوسـائل البشـرية ، وإنّما أطفأها هطول الأمطار الطبيعية.

لا أحد يغيث من غضب الله عليه ، وليس من الممكن إنقاذهم حتى ولو وجد من يهرع لإنقاذهم.

[44] بلى. رحمة الله الـــتي تتجلّى عند الكـــوارث ، وتنقذ البعض بصــــــــورة عجيبة ، هي الملجأ الوحيد عند غضب الجبار.

(**إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا**)

وعادة ما نجد بقايا لكوارث طبيعية أنقذت بما نسـميه (الصـدفة) فسـيارة كبـيرة تنقلب ، ويمـوت جميع ركابها ، غير طفل رضيع ، أو سـفينة ضـخمة تغـرق ، ولا ينقذ منها إلّا رجال معدودون ، يتعلّقون بخشبة ، أو يبتلع زلزال قرية ، ولكن عجــوزة خاوية تســتخرج من تحت الأنقــاض بعد عشرة أيّـام سـالمة ، وحـتى عند هلاك ثمـود وعـاد وقـوم لوط وقوم نـوح ، بقي الرجـال الصـالحون يـروون لنا تلك المثلات ، وليكونوا شهودا على أنّ الأمور بيد الله.

(**وَمَتاعاً إِلى حِينٍ**)

الذين أنقذوا من هذه الحادثة ليسوا أنصاف آلهة ، بل إنّما تـأخّرت آجـالهم لحين ، فـإذا جـاء أجلهم فـإن أبسط الأسباب كفيل بهلاكهم.

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيـاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (46) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُـوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللـهُ قـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (47) وَيَقُولُونَ مَتى هـذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ (48) ما يَنْظُـرُونَ إِلاَّ صَـيْحَةً واحِـدَةً تَأْخُـذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّـمُونَ (49) فَلا يَسْـتَطِيعُونَ تَوْصِـيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَـإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ

---

49 [يخصمون] : يختصمون في أمورهم ، من خصّم وأصله اختصم.

51 [الأجداث] : جمع جدث وهو القبر.

[ينسلون] : يخرجون سـراعا إلى الموقف ، فـإنّ النسـول هو الإسـراع في الخروج.

(51) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَـدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كـانَتْ إِلاَّ صَـيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئاً وَلا تُجْـزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (54) إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِـــؤُنَ (56) لَهُمْ فِيها فاكِهَـةٌ وَلَهُمْ ما يَـدَّعُونَ (57) سَـلامٌ قَـوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58) وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُـونَ (59)

---

56 [الأرائك] : جمع أريكة وهي السرير الذي يصنع للعروس.
59 [امتازوا] : انفصلوا عن جماعة المؤمنين.

هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ

هدى من الآيات :

بعد أن ذكّرتنا الآيات بربنا العزيز الرحيم ، جاءت تفنّد شبهات الكفّار (لنتحصن ضدّها) فإذا قيل لهم : اتقوا عذاب الدنيا وعقاب الآخرة ، وجيء إليهم بالآيات أعرضوا ، وإذا قيل لهم : أنفقوا بـرّروا بخلهم بأنّ الله لو شاء أطعم الفقراء (وإذا خوّفوا بالساعة) يقولون : متى هذا الوعد؟ (ولكي تخشع القلوب ، وتستعد لفهم الحقائق ، وتنقشع عنها سحب الغفلة ، يذكّر السياق بالساعة ، ويقول :) ماذا ينتظر هؤلاء (وماذا يستعجلون؟) إنّها ليست إلّا صيحة واحدة تأخذهم وهم في جدالهم الفارغ (حول حقائق الرسالة) فتأتيهم بغتة بحيث لا يستطيعون كتابة توصية ولا إلى أهلهم يرجعون (وبعد أن يمكثوا ما شاء الله في القبور) ينفخ في الصور فإذا هم يخرجون من أجداثهم ، وبصيحة واحدة تراهم حاضرين أمام ربهم (وهم يزعمون أنّهم كانوا نياما) ويتساءلون : (**مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا**)؟! فيأتيهم الجواب : (**هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**) ، ويكشف السياق عن مشهدين من

مشـاهد القيامة ، بعد أن يثبت عدالة الجـزاء : فهنا تـرى أصـحاب الجنة في شـغل (يتلـذذون وهم) فـاكهون ، بينما ينفصل المجرمون عنهم.

بينات من الآيات :

[45] بصـائر القـرآن تهـدي الى أنّ حيـاة البشر هي نتيجة ثقافته وسـلوكه ، عقيدته وعمله ، وهكـذا تجعل ــ هذه البصـائر ــ لكل ظـاهرة أو حـدث سـببا متصلا بـإرادة البشر واختياره ، وبعكسها تماما أفكار الجاهلية ــ قـديمها وحديثها ـ فهي تفضل في ربط حياة البشر بسـلوكه ، لأنّها لا تؤمن بالغيب ، ولا تعترف بإله يقدّر ويدبّر ، بـربّ يهيمن ويسـيّر ، فلا تقـدر على ربط ما يجـري على الإنسـان بما يفعله ، فإذا أصيب المـؤمن بمـرض أو فقر أو ذلة ، فتّش عن سبب ذلك ، وعـادة يجـده في ذنب ارتكبه فعاقبه الله بذلك البلاء ليطهره ، بينما يبقى الكافر سادرا في غيّه ، إذ لا يعتقد بأنّ هناك مدبرا لشـؤون العبـاد ، وبالتـالي ينسب كلّ شيء للصدفة ، أو لأسـباب ظـاهرة لا تغنيه علما ، ولا تفيده حكمة ورشدا.

وهكذا كانت ثقافة المؤمـنين عقلانية ، وثقافة غـيرهم جاهلية ، أنّى زعموا العلميّة والعقلانيّة.

وهكـذا نـرى السـياق القـرآني هنا يـذكّر بـالتقوى بعد سرد آيات الرحمن ، لأنّ معرفة الرب وسلطانه هي صـلة الربط بين عمل البشر وجزائه.

أمّا الكفّار فإنّهم يعرضون إذا أمروا بالتقوى ، لأنّهم لا يؤمنون بـربّ يـدبّر شـؤونهم ، فلا يعلمـون أن ما يصـيبهم من ضـــرّاء وبأســاء فإنّما بما كســبت أيـــديهم ، فكيف يتقونهما؟

(**وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ**)

من عـذاب الـدنيا ، من صـيحة واحـدة تصـيبكم كما أصابت قوم المرسلين في أنطاكية ، من غرق أو حرب أو أيّ بلاء آخر.

(**وَما خَلْفَكُمْ**)

من عذاب الآخرة الذي لا يبقي ولا يذر.

وفي الحـديث المـأثور عن الإمـام الصـادق ــ عليه السلام ـ أنّه قال :

«**اتّقـوا ما بين أيـديكم من الـذنوب ، وما خلفكم من العقوبة**» [1]

(**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**)

فإذا اتقيتم العذاب باجتناب المعاصي فـإنّ ذلك يـوفّر لكم فرصة رحمة الله.

[46] ولكنّهم يعرضـون لجهلهم بـربهم ، ولا ينتفعـون بالآيات التي تترى عليهم ، وكلّها تنطق بضرورة التقوى.

(**وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ**)

وهل تنفع الآيات من يعرض عنها؟

[47] ويضـرب السـياق الأمثـال لإعراضـهم عن آيـات التقـوى ، والمعـاذير الـتي يلقونها أمـام من يـأمرهم بها ، فحين يؤمرون بالإنفاق على الفقراء ، تـراهم يزعمـون أنّ الله ــ سـبحانه وتعـالى ــ قد خلق بعض النـاس أغنيـاء وبعضهم فقراء ، بعضهم

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (389).

سادة والبعض عبيدا ، فلا ينبغي السعي لردم الفجــوة بين الطبقات ، أو لتحقيق المساواة بين الناس. هكـذا يـبرّرون اســـتئثارهم بـــالخيرات في كل عصر ، فالمســـتكبرون يزعمون أنّ تخلّف البلاد المستضعفة شأن مفروض عليهم من الله ، أمّا تقـــدّمهم الاقتصـــادي فإنّه من أنفســـهم ، والطبقات المترفة تـزعم أنّ غنـاهم آت من سـعيهم ، أمّا فقر الآخرين فهو من ربهم.

(**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ**)

وسواء كـان القائل هو الله ، أو المؤمنـون النـاطقون عن ربّهم ، فـإنّ إجـابتهم واحـدة وهي الـرفض ، ولكن ألا يعلمون أنّ ما بأيـديهم من الغـنى هو ــ في الواقع ــ رزق الله ، ولو شــاء الله لمنعهم منــه؟ أو لا ينظــرون الى أنّ توزيع المعــادن على أقطــار الأرض تمّ بــأمر الله ، وأنّ خصــوبة الأرض كـانت بـأمر الله ، وحــتى تــوفر المنــاخ المناسب لنموّ الصناعة كان بإذن الله؟ ولو تدبّر كـلّ غـنيّ في الأسـباب الخفيّة لنمـوّ ثروته لـرأى يد الغيب وراءها ، فأولى بهم الإنفاق ممّا رزقهم الله ، ما دام الله يـأمر به ، وهو الذي استخلفهم فيما رزقهم ليبتليهم به. ألّا يـرون أنّ كلّ شيء في عالم الإنسـان يـوحي بأنّه جـاء لهـذه الـدنيا لكي يمتحن؟ فقد جعل الله امتحـان الفقـير بـالغني لـيرى هل يصـبر ، وامتحـان الغـني بـالفقير ليعلم من ينفق ومن يبخل ، وافتتن العالم بالجاهل وأمره بـأن يعلّمه كما ابتلى الجاهل بالعالم وأمره بـأن يتعلّم منه ، وجعل الحكّـام فتنة للنــاس وافتتن النــاس بحكـامهم وقــال عــزّ من قائل : «**وَجَعَلْنا بَعْضَـكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَـةً أَتَصْـبِرُونَ وَكـانَ رَبُّكَ بَصِيراً**» (2).

ولكنّ الكفّــار زعمــوا أنّ غنـاهم وعـدم الفقـراء أمر حتمي من عند الله.

(**قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا**)

(2) الفرقان / (20).

وهكذا خاطب الكفّار الذين آمنوا لأنّهم الذين أمـروهم بالإنفـاق ، ولأنّهم المؤمنـون بالله ، فكـان الأحـرى بهم ـ حسب زعمهم ـ أن يؤمنوا بالقدر ، فقالوا :

(**أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ**)

ولم يقولـوا أننفق ، لأنّهم منعـوا عن الفقـراء حـتى الطعـام الـذي هو حق كل حي ، فكيف بالإنسـان الكـريم عند ربه.

أنظر الى مـدى إمعـانهم في البخل ، والإعـراض عن التقـوى؟ بلى. الله يطعم من يشـاء من رزقه الواسع ، ولكنّه جعل رزق هؤلاء الفقـراء على أيـديكم ، لينظر كيف تعملون ، وهو القائل – حسب حديث قدسي ـ :

«**المـال مـالي ، والفقـراء عيـالي ، والأغنيـاء وكلائي ، وخيرهم خيرهم لعيالي**»

ثم أنّ ربنا سبحانه أكرم بـني آدم فجعلهم أحـرارا في الـدنيا ، ووفّر في الأرض ما يزيد على رزقهم ، إلّا أنّ كسل البعض عن السعي بأفكار جاهلية ، واسـتئثار البعض بـرزق الآخـرين تحت مظلة من القـوانين الجـائرة ، هما السببان الرئيسـيان لانتشـار الفقر ، ومن أسـاليب محاربة الفقر نبذ الثقافة الجاهلية ، وإصـلاح الأنظمة الجـائرة ، والإنفـاق واحد من أهمّ السـبل لمحاربة الفقر لأنّه علاج فـوري ، ووسـيلة مسـتقبلية أيضا لتوزيع الـثروة وتـدويرها وتحريك الطاقات بها.

ولكن الكفّـار جمّـدوا الـثروة ، وزعمـوا أنّها حقّهم الإلهي بل قالوا لمن أمرهم بالإنفاق :

(**إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

لأنّكم تريدون تغيير سنن الله ، وجعل الفقراء أغنياء ، وهم قد خلقوا فقراء.

وترك السياق لقارئ القرآن الحكم على هـذه العقلية ، ولا ريب أنّه يحكم عليها بالضلال المـبين ، ولـذلك احتـار المفسرون في معرفة قائل هذه الكلمة ، فمنهم من قـال : إنّهم الكفّار ، ومنهم من قـال : بل هم المؤمنـون قالوها للكفار ، وقال بعضهم : بل الله قالها للكفّار.

والظــاهر أنّها كلمة الكفّــار للمؤمــنين ، ولكنّها تــردّ عليهم بطبعها ، فبمجـرد أن يقـول المجنـون للـذي يـأمره بالحكمة : إنّك مجنون ، نعرف أنّ المتكلم بنفسه مجنون. أليس كـذلك؟ هكـذا نعـرف ضـلالة الكفـار بمجـرد أنّهم يقولون لمن يأمرهم بالإنفـاق : إنّك في ضـلال مـبين ، كلّا ... إنّهم هم في ضلال مبين!

[48] من التبريرات النفسية التي يتشـبّث بها الكفّـار هو استبعاد الجزاء زمانيا ، ونجد في آيـات الـذكر ردّ هـذه الشـبهة بكلمـات بليغة نافـذة ، فـالجزاء ليس لعبا حـتى يسـتخفّ به ، إنّه السـاعة الـتي ثقلت فيّ السـموات والأرض ، فما ذا ينتظرون؟ وبهم يستهزءون؟

(**وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ**)

وبالرغم من أنّ كلمة «متى» أصلا للاستفهام ، إلّا أنّها هنا جاءت للاستنكار بدليل قولهم :

(**إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

فهم كانوا يتوقّعون جزاء عاجلا بعد أن أنذروا بالعذاب ، وأمـروا باتقـاء ما بين أيـديهم من عـذاب الـدنيا ، وما خلفهم من عذاب الآخرة.

[49] إنّ النفس البشـرية لا تـرى بطبعها إلّا ما أمامها من الحقائق المشهودة ،

ولا تتـأثّر بالمسـتقبل البعيد حـتى ولو كـان من الحقـائق المعلومة يقينا ، وبضـــــغط من الشـــــهوات العاجلة ، وبوســاوس إبليس تعــرض النفس عن الغيب للشــهود ، وعن المستقبل للحاضر ، ولا بد من تصوير الغيب ، وإبراز مشاهد من المسـتقبل حـتى تهتّم النفس بها ، ولعل منهج القرآن في تصوير مشـاهد البعث والجـزاء باسـتثارة قـوة الظن والخيال يتم لهـذه الغاية ، فهو ليس مجـرد أسـلوب في البيـان ، بل هو منهج علمي لإصـلاح النفس ، وإيجـاد التوازن بين قوة الشهود وحقائق الغيب ، وإنّما المؤمنـون الذين يستشرفون المستقبل ، وينظرون الى الغيب بقــوة الظن ، ويســتثيرون كــوامن الخــوف والرجـاء بالتــذكرة الذاتية.

والسياق هنا يصوّر جانبا من مشاهد الهلاك ثم النشور والجنة والنار.

(**ما يَنْظُــرُونَ إِلَّا صَــيْحَةً واحِــدَةً تَأْخُــذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**)

إنّهم يستعجلون العذاب ، ويقولون : متى هذا الوعـد؟ بلى. ولكنّهم ينتظرون بذلك أمرا عظيما ، إذا جاء لا يمكن ردّه أو تأجيله ، فإنّما هو صــيحة واحــدة لا ثانية لها ، لأنّها القاضـــــية ، وهي تعمّهم بالأخذ بغتة في وقت تـــــراهم يخوضون في جدليّاتهم التي لا تغني شيئا.

والإنسان يتمنّى ـ عـادة ـ لو يغيّر الحقـائق بالجـدل ، زاعما أنّه لو نفى شيئا فإنّه ينتفي أو أنّه لو أسكت صاحب الحق فـإنّ الحق يـزول ، كلّا ... فحـتى في حالة جـدالهم وخصامهم تأخذهم الصيحة.

[50] والمباغتة سـريعة الى درجة أنّها تمنعهم من أن يخلّفـوا وصـيّتهم ، بـالرغم من أنّهم لا يعـودون الى أهلهم فهم أحوج ما يكونون الى التوصية.

(**فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً**)

بـأيّ شـكل كـانت التوصـية قـولا أو إشـارة ، وإذ لا يستطيعون حتى التوصـية وهي أسـهل الأشـياء ، وأشـدّها ضرورة ، فهم لا يستطيعون ـ بالطبع ـ إصـلاح ما أفسـدوه من واقعهم!

(**وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**)

فهم ليسوا على سفر سرعان ما يعودون منه حـتى لا يحتاجوا الى وصية.

ويبدو أنّ الآيات تصوّر مشهد العذاب الدنيوي المتمثل في الهلاك بالصـــيحة ، مثل ما أصـــاب الـــذين كـــذبوا بالمرسلين الثلاثة في القصة الماضية.

وقال البعض : إنّها تصـوّر قيـام السـاعة ... والسـاعة أدهى وأمرّ ، وجاء في الحديث عن الرسـول ـ صـلّى الله عليه وآله ـ :

«**تقـــوم الســـاعة والـــرجلان قد نشـــرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حـــتى تقـــوم ، والرجل يرفع أكلته الى فيه ، فما تصل الى فيه حـــــتى تقـــــوم! والرجل يليط حوضه (3) ليســـــقي ماشـــــيته فما يسقيها حتى تقوم**» [4]

ولعل الحديث القرآني يشمل الجزاء بصـفة عامة في الدنيا بعذاب الاستئصال أو في الآخرة عند قيام الساعة.

[51] ويمكث الكفّار في قبورهم ما شـاء الله ، حـتى ينفخ في الصـور الملك الكـريم إسـرافيل ، وبمجـرد النفخ تراهم يسرعون الى ربهم حيث وضع الميزان العادل.

(**وَنُفِخَ فِي الصُّـــورِ فَـــإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْـــداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ**)

---

(3) يسوّي حوضه بالطين حتى لا يتسرب منه الماء.

(4) نور الثقلين / ج (4) / ص (388).

ونجد في بعض الآيات أنّهم عند النفخ قيام ينظـرون ، بلى. فهم قيـام في لحظة ، ولكن سـرعان ما يتحركـون حيث يريد الله.

ونقل عن الرغب في مفرداته : إنّ النسل في الأصل الانفصال ، وإنّما سمّي ولد الإنسان نسلا لأنّه ينفصل عنه. ولعلنا نستوحي من هذا أنّ القبر يضحى كـرحم الأم ينسل منه أبناء آدم نسلا.

[52] وهنالك يعـترف هـذا الإنسـان الخصـيم الـذي استهزأ بكلّ المرسلين ، وأعرض عن كلّ الآيـات ، وينـادي بالويل لنفسه ، ويزعم أنّه كان نائما ، ويتساءل : أيّة قدرة استطاعت بعثه من محلّ نومه بعد طول الرقاد؟!

(**قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا**)

وهنالك يأتيه النداء من الملائكة :

(**هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ**)

إنّه الله الذي أنجز وعـده ، لـيرحم عبـاده المؤمـنين ، «**إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا**».

ويمكن أن يكـون القائل هم الكفّـار ، فيكـون اعترافا منهم بوعد الله ، ويمكن ألا يكـــون لهـــذه الكلمة أساسا قائل خاص بل يكون مقتضى المقام هـذا المقـال ، سـواء وجد قائل أم لم يوجد.

(**وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**)

الذين أنبأوا عن الرحمن وعده.

إنّ سـورة يس قلب القـرآن ، وهو يعبّر عن ضـمير الخليقة ، الذي يتمثل في رحمة

الله ، ولعله لذلك تتكرر كلمة «الرحمن» فيها.

[53] بصيحة أهلك القوم جميعا ، وبصيحة ابتعثوا جميعا ، وبصيحة يحضرون في مقام الحساب عند ربهم.

(**إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ**)

ويبدو أنّ التعبير هنا يوحي بما يوحيه قوله ـ سبحانه ـ في خاتم السورة : «**إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**» ولكن هذا التعبير جاء في مقام الشدة فناسب الحديث الصيحة ، وهي تدل على سرعة نفاذ أمره ، وأنّ كلّ شيء مستجيب لإرادته.

[54] هنالك يتجلّى العدل الإلهي الذي قامت به الخليقة جميعا ، فلا يظلم أحد شيئا ، بل حتى جزائهم إنّما هو ذات أعمالهم التي تتجسد ، فإن كانت صالحة فهي الجنات والفواكه وحور العين ، وإن كانت الأخرى فعذاب شديد.

(**فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً**)

والله ليس بظلام للعبيد ، لا في ذلك اليوم ولا في أيّ يوم ، بلى. إنّه أعطى الحرية المحدودة للناس في الدنيا ليبتليهم بها فظلموا أنفسهم ، ولو لا أنّه جعل دار البقاء (الآخرة) وجعل فيها جزاء وافيا للظالم والمظلوم لما سمح لأحد بظلم أحد حتى في الدنيا ، لأنّه ليس بظلّام للعبيد ، وأساسا إنّنا نعرف وجود الدار الآخرة من خلال معرفتنا بأمرين : أوّلا : إنّ الله عزيز رحيم فلا يمكن أن يظلم بحضرته أحد من عباده دون أن يغيثه ، ثانيا : إنّه قد يدع الظالم يوغل في ظلمه في الدنيا فنعرف أنّ هناك دارا أخرى يجازي فيها الظالم وينتصر منه للمظلوم.

(**وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

فـإن كـان هنالك جـزاء سـيء فهو أعمـالكم الـتي تجسّـدت. أرأيت الـذي يشـرب مـاءا قـذرا فيمـرض ، هل ظلمه الطـبيب الـذي نهـاه وحـذّره من العاقبة ، أم أنّ مرضه هو ذات الماء القذر الذي شربه؟

[55] أمّا أصـحاب الجنة الـدين فـازوا بصـحبة الجنة وامتلاكها ووراثتها في الدنيا بأعمالهم ، فهم في شغل عما يجري في الطرف الآخر عند أهل النار فلا يحـزنهم شـيء ما ثمة ولا يفزعهم.

(**إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ**)

والشـغل بذاته نعمة لأنّه ينشّـط الجسم ، وينفس عن النفس ، إلّا أنّ الإشـــتغال بما يفكّه أعظم نعمة وأشـــدّ راحة.

[56] بماذا يشـتغل هـؤلاء في الجنة ، وكيف يقضـون ساعاتهم التي لا تنتهي ، ولماذا لا يملّون ...؟

يبـدو أنّ أعظم اللـذات الجسـدية والروحية الإشـتغال بـالأزواج المطهـرة ، لأنّه إنس معنـوي ، وسـكن روحي ، ولذّة جسدية مركّزة.

(**هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ**)

فهم في ظلال يحسـون بالسـكن ، وهم على الأرائك يسـتريحون بلا تعب ، وهم متكئـون لأنّه لا يشـغلهم شـيء يتحفّـــزون لأدائه ، فهم في كامل الراحة ، وقد روي عن رسول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ـ قوله (عن صـفة أهل الجنة) :

«والمــؤمن ســاعة مع الحــوراء ، وســاعة مع الآدميّة ، وســــاعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئا ينظر بعض المؤمنين إلى بعض» [5]

[57] وبعد لــذّة الإنس مع الأزواج في مقعد مــريح تأتي لذّة الطعام ، وأفضل الطعـام ما يتفكّه به الفـرد بعد قضاء حاجته الضرورية من الطعام ، لأنّ أصـحاب الجنة لا يعدمون الطعام حتى يحسّـوا بـالجوع ويتـألّموا به حينا من الوقت مثلما البشر في الدنيا.

(**لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ**)

فكل ما تشتهيه أنفسهم يجدونه أمامهم.

[58] وأعظم النعم جميعا نعمة الحضــــور عند ربّ الرحمة الحنّان الكـريم ، فـأيّ نعمة أسـمى من الجلـوس عند المليك المقتـــدر ، وتلقّي الســلام القــولي منه ، بالاضـافة الى حالة السـلام الـتي يعيشـون فيها ، ذلك ان حالة الأمن والسكينة والسلام الفعلي هي من نعم الجسم غالبا بينما السلام القولي نعمة للروح أيضا.

(**سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ**)

[59] ولا يشـترك في مهرجـان النعم المتنوعة أولئك المجرمــون ، الــذين يفصــلون عن النعم ، وأيّ حرمــان أعظم من طردهم عن مائدة الكريم حقّا؟! أيّ ربّ رحمن وأيّ مائدة غنية؟! يا للخسارة الكبرى خسارتهم.

(**وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**)

جاء في تفسير علي بن إبراهيم حول هذه الآية :

---

(5) المصدر / ج (4) / ص (390).

إذا جمع الله الخلق يـــوم القيامة ، بقـــوا قياما على أقـدامهم حـتى يلجمهم العـرق ، فينـادون : يا ربّ حاسـبنا ولو إلى النـار ، قـال فيبعث الله عـزّ وجـلّ رياحا فتضـرب بينهم ، وينادي مناد : «**امْتازُوا الْيَـوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُـونَ**» فيميّز بينهم ، فصار المجرمـون في النـار ، ومن كـان في قلبه الإيمان صار إلى الجنة [6]

(6) المصدر / ص (290).

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَــدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُــدُونِي هــذا صِــراطٌ مُسْــتَقِيمٌ (61) وَلَقَـدْ أَضَــلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِـيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْــلَوْهَا الْيَــوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُـرُونَ (64) الْيَــوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْــهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كـانُوا يَكْسِــبُونَ (65) وَلَـوْ نَشـاءُ لَطَمَسْـنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِـرُونَ (66) وَلَـوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ

---

62 [جبلا] : خلقا.

66 [لطمسنا] : أي لأعميناهم ، يقـال طمس على عينه إذا محاها حـتى لم يبق منها أثر.

67 [لمســخناهم] : قلب الصــورة إلى خلقة مشــوّهة كما المسخ إلى قردة وخنازير.

عَلى مَكـانَتِهِمْ فَمَا اِسْـتَطاعُوا مُضِـيًّا وَلا يَرْجِعُـونَ (67) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْـهُ فِي الْخَلْـقِ أَفَلا يَعْقِلُـونَ (68) وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُـوَ إِلاَّ ذِكْـرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كـانَ حَيًّا وَيَحِـقَّ الْقَـوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (70)

---

68 [ننكسه في الخلق] : ننكّس قواه وخلقته فيصير بعد القوة ضعيفا ، وبعد العقل خرفا ، وبعد النضـارة ذابلا ، وبعد العلم جـاهلا ، وهكـذا فهو راجع الى حالة الطفولة والضعف.

وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ

هدى من الآيات :

لقد أكّد الله عهده مع بـني آدم بـألّا يعبـدوا الشـيطان لأنّه عدو مبين ، وأن يخلصـوا عبـادتهم لله ربّ العـالمين ، ليكونـــوا على صـــراط الله المســـتقيم ، (ودليل عـــداوة الشـيطان أنّه :) أضـلّ خلقا كثـيرا (حـتى ظهر انحـرافهم وهلكوا وأمسوا عبرة لنا) ولكنّ الناس لم يكونـوا يعقلـون ذلك (ثم استحقوا بعد العذاب في الـدنيا النـار ، وقيل لهم :) ادخلـــــوا جهنم ، وأصـــــلوا بنارها ، وهنالك (لا يمكنهم الجدل بل :) يختم الله على أفواههم ، ويستنطق أيديهم ، ويشهد عليهم أرجلهم بأعمالهم.

(وإنّ نعمة الهداية من الله كما نعمة العين والأذن والإحساس) ولو شاء الله لأمحى أعينهم حتى يتبادروا الى الصراط فلا يبصرونه ، أو يمسخهم وهم في مكانهم حـتى لا يقدرون على التقدم أو العودة.

(وشـــاهد آخر على أنّ الهـــدى من الله العقل الـــذي يسلبه الله ممّن يعمّر حتى يعود

طفلا) فمن بلغ من العمر أرذله نكّسه الله في الخلـــــق. أفلا يعقلون؟

(وكذلك الرسالة من الله وهي ليست شعرا) فالله لم يعلم نبيّه شـعرا ولا ينبغي له (فالشـعر يحتـوي على ثقافة باطلة وغامضة ، وهي تـــبرير وتكـــريس للواقع الفاسد ، بينما الكتاب بخلاف ذلك كلّه) فما جاء الرسـول إلّا بالـذكر (الـذي تصـدّقه الفطـرة والعقـل) وقـرآن مـبين (واضح لا غمـوض فيـه) وهو نـذير لمن كـان له قلب حي (فهو تحـدّ للفساد والطغيان) وهو بالتالي حجة على الكافرين.

بينات من الآيات :

[60] حينما نشر الله ذرية آدم في صـورة (ذر) وقـال لهم : ألست بربّكم؟ فقالوا : بلى ، أخذ منهم عهدا بعبادته ، ورفض الأنداد من دونه.

وهكذا عند ما فطرهم على معرفته ، وأودع ضمائرهم عقولا تهديهم الى ربهم.

ثم بعد ذلك بعث إليهم رسـله منـذرين ومبشـرين ، يسـتأدونهم ميثاقه ، ويسـتثيرون عقـولهم بالتـذكرة به سـبحانه ، وكـان في ذلك عهد الله الى بـني آدم بعبادته ، وترك عبادة الشـيطان ، ولكن هل يمكن أن تجتمع عبـادة الله مع عبادة الشيطان؟

كلّا ... فلا بدّ من رفض الشيطان لتتمّ عبادة الرحمن.

(**أَلَمْ أَعْهَـــــدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُـــــدُوا الشَّيْطانَ**)

أين هو الشيطان؟ إنّه يجري مع ابن آدم مجرى الـدم ، ولكنّ القلب ينتبه بإذن الله وبما ألهمه الربّ من فجوره وتقـواه الى وجـوده ويميّز وسـواس الشـيطان عن وحي العقل.

وعند ما يعقد الإنسـان العـزم على محاربة الشـيطان يتميّز في قلبه أكثر فأكثر نداء الغواية عن فطرة الهداية.

ثم يأتيه الـوحي عـبر رسل الله ورسـالاته لتتمّ الحجة عليه ، فـإذا بنـداء الـرحمن في قلبه يلتقي بندائه على لسان النبي وكتاب الله الذي أرسل به.

وهكذا يمتلك كل شخص مقياسين لمعرفة الشيطان. الاول : ما بقلبه من العقل ، والثاني : ما أوحي به الرسل.

(**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**)

يسـعى الشـيطان لخـداع البشر بأنّه صـديقه ، وأنّ ما يشـير إليه من الضـلالة محض نصـيحة ، وقد يسترسل البعض معه بحجة أنّهم خـدعوا به ، ولكن ربّنا يقـول : إنّه عـدو واضح ، ولا عـذر لأحد في اتبـاع عـدوّه ، إلّا إذا خـدع نفسه ، وسرّ عداوته أنّه يأمر بما يعلم الإنسان أنّه مضر.

أولا يـأمر بالإسـراف والتبـذير ، وبالفحشـاء والمنكر ، وبالاعتداء والظلم والبغي ، مما يسـتقبحه البشـر؟! لا أقل عند ما يصدر من الآخرين ، ومما يـرفض أيّ عاقل نسـبته إليه.

كلّنا نعـرف أنّ مآسي البشـرية آتية من الظلم والعـدوان والاسـتئثار والبخل والكسل والاختلاف ، ونحن جميعا نعـرف أنّ ذلك هو من وحي الشـيطان. أفلا نتخـذه عدوا؟!

وعبـادة الشـيطان لا تعـني السـجود له ، إنّما طاعته بوعي ، والتسليم التام لإغوائه.

وتتجسّـــد عبـــادة الشـــيطان في طاعة أوليائه من سلاطين الجور ، وطغاة السلطة والثروة.

ويقـــول الفخر الـــرازي في قوله : «**لا تَعْبُـــدُوا الشَّـيْطانَ**» معنـاه : لا تطيعـوه ، بـدليل أنّ المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب ، بل الانقيـاد لأمـره والطاعة له ، فالطاعة عبـادة ، لا يقـال : فنكـون نحن مـأمورين بعبـادة الأمـراء حيث أمرنا بطـاعتهم في قوله تعـالى : «**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـولَ وَأُولِي الْأَمْـرِ مِنْكُمْ**» لأنّا نقول : طاعتهم إذا كانت بـأمر الله لا تكـون إلّا عبـادة لله وطاعة له ، وأضاف : وإنّما عبادة الأمراء هو طـاعتهم فيما لم يأذن الله فيه. [1]

[61] رفض عبـادة الشـيطان تهيأ لعبـادة الله ، بل مجرد الكفر بالأنـداد عبـادة الله ، كما أنّ من ضـيّع عبـادة الرحمن وقع في شـرك الشـيطان ، لـذلك قـارنت الآيـات بين رفض هـذه والالـتزام بتلك ، كقوله سـبحانه : «**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى**» [2]

وهنا يقول ربّنا :

(**وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ**)

واستقامة الصراط نابعة من أن الله الـذي رسـمه لنا تعالى عن الميول الـتي تضـلّل البشر يمنة ويسـارا ، وعن الجهل الذي يتطرّف صاحبه ناحية الإفراط أو التفريط.

ومن أبـــرز مظـــاهر الاســـتقامة في الصـــراط أنّ المؤمنين يؤيّدون على السير فيه ، متحدّين ضغوط الهوى والشهوة والسلطة والثروة والتزييف والتلبيس بإذن ربهم.

---

(1) التفسير الكبير للفخر الرازي / ج (26) / ص (96).
(2) البقرة / (256). المصدر.

ولعل الفـــرق بين القـــويم والمســـتقيم يكن في أنّ المستقيم يوحي بأنّ صاحبه يسـتقيم عليه متحـدّيا عوامل الانحراف.

وعبــادة الله تعــني طاعته ، وطاعته لا تتجــزأ ، فمن صلّى دون أن يؤتي الزكاة ، أو خضع للإسـلام في شـؤونه الشخصية دون نظامه الاقتصادي والسياسي ، فإنّه لا يعبد الله ، بل إنّه يعبد الشيطان.

إنّ جذر الشرك بالله هو الاستسلام أمام الضـغط أنّى كـان مصـدره ، وهـذا يخص فقط مـوارد الضـغط ، وإنّما المؤمن الذي يتحدّى الضغط ، أمّا من جعل القرآن عضين فقـال : نـؤمن ببعض ونكفر ببعض ، وأراد أن يـؤمن فقط بما يتفق ومصالحه ، وأمّا عند ما تضـرب مصـالحه يـذهب معها فإنّه بالذات الذي يحاربه القرآن.

فالقرآن لا يواجه إلّا قليلا أولئك الذين يكفرون بالدين رأسا ، وإنّما يحادد في الأكثر أولئك الذين يشركون بالله ، فيخضعون لشهواتهم وسـلاطينهم والمـترفين ، ويخـدعون أنفسهم بعبادة الله فيما لا تتنـافى ومصـالحهم وشـهواتهم وكبرائهم.

[62] عند ما يتعظ المـرء بتجـارب غـيره يهتـدي الى الطريق ، وإنّما ينتفع بها من يعقلها ويجعلها وسـيلة لإثـارة دفائن عقله ، وكوامن فطرته.

وإنّ من أظهر الحقـائق الـتي يعقلها من شـاء الهـدى هي : أنّ بعض النـــاس في ضـــلال ، فـــأنّى ذهبت ، وأيّ شـخص سـألت ، قـال لك : إنّ بعض النـاس على خطأ ، ولكن لا تقودهم هذه الحقيقة الى معرفة حقيقتين أخريين هما : أولا : إنّه كما أضلّ الشيطان كثيرا من الناس كـذلك يضلنا فلنحذر منه ، وثانيا : مـاذا كـانت عاقبة الضـالين. أو ليس الهلاك؟! فلما ذا لا نعتبر بذلك؟!

(**وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً**)

فـإذا كـان الشـيطان قد نجح في إضـلال خلق كثـير منكم فلما ذا لا يحذر منه؟!

(**أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**)

فهذا فريق أضلّه الشيطان ، وهداه الى سبيل البوار ، وأهلكه أمـــام أعينكم ، ثم لم يصـــبح عـــبرة لفريق آخر ، وهكذا استمر الشيطان يضـلّ منكم فئاما بعد فئـام ، دون أن يعقل اللاحقون ، ويعتبروا بمصير الغابرين.

بينما كـــان مقتضى وجـــود العقل عند البشر هو أن يســـتفيد منه في تحديد طريق النجـــاة ، وتجنّب ســـبل الهلاك.

ومن أبــرز ما يســتفيده العاقل من مصــير الغـابرين كيفية إضلال الشيطان لهم ، ذلك أنّ الشـيطان ليس خلقا غريبا يقتحم عليك بينك حـــتى تتحـــذر منه ، كلّا ... إنّه في عروقك ، في أعماق فؤادك ، في أقـرب الأصـدقاء إليك ، في زوجك وأخيك ، في تربية أمّك وأبيك ، في كلمـــــات معلمّك ، وحتى في توجيهات من نصب نفسه عــالم دين ، وأولئك الذين هلكوا جاءهم الشيطان من بين أيـديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشـمائلهم ، وشـبّه لهم ، وزيّن لهم ، وبـرّر لهم بوسـائل شـتى ، فـإذا أردنا أن نمنعه فلا بد أن نكون في أقصى الحذر والعقل.

[63] إنّنا رأينا هلاك الغابرين ، ولا تزال آيات دمـارهم مكتوبة على آثارهم ، ومحفورة في أفئدة الأجيـال ، ولكنّ الأدهى من هلاكهم النار التي وردوها.

(**هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**)

[64] إنّهم سوف يدخلونها ، ويصـطلون بنارها بسـبب كفرهم.

(**اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**)

[65] إنّهم كـــانوا يـــبرّرون كفـــرهم بأعـــذار واهية ، ويجـــادلون بالباطل ليدحضـــوا به الحق ، ويزعمـــون أنّ جدالهم يغني عنهم شيئا ، ولكن في ذلك اليوم الـرهيب لا يسـمح لهم بـالكلام ، وإنّما تنطق عليهم جـوارحهم بـدل ألسنتهم.

(**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ**)

فلا يعتذرون ولا يجادلون.

(**وَتُكَلِّمُنا أَيْـــدِيهِمْ وَتَشْـــهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كـــانُوا يَكْسِبُونَ**)

فالأيدي والأرجل تشـهد بأعمـالهم ، فلا سـبيل إذا الى الإنكار أو الاعتذار أو حتى الى الجدال.

ولعل الشهادة هنا تصويرية. أو لسنا قد اكتشفنا ـ بما أوتينا من علم قليل ـ كيف نسـتنطق أصـابع اليد لنعـرف المجرمين بطبع الإبهـام؟ أولم نبتـدع جهـاز كشف الكـذب المعتمد على نبضــات القلب؟ أولم نهتــدي الى مرتكــبي الجرائم بآثارهم الخفية؟ ولا ريب أنّه كما تنعكس الأعمـال على الطبيعة ، تنعكس آثارها على الجـــوارح ذاتها ، بيد أنّا لمّا نكتشف وسيلة لمعرفة أبعادها.

ولكن الربّ ـ سـبحانه ـ يظهر الخفايا في ذلك اليـوم الرهيب ، فيرى الإنسان شـريطا مسـجّلا على يـده ورجله يعرض صورا ناطقة بكل ما جرى.

[66] كيف يسـتنطق الـربّ الأيـدي والأرجل في ذلك اليوم؟ لنعد الى هذه الحياة ونتسـاءل : من ذا الـذي رزقنا الجوارح أو ليس الله؟! فهو القـادر على أن يجعل الأيـدي تنطق كما جعلها هنا تبطش.

ولعل هذه هي المناسبة لتـذكرة السـياق بنعمة البصر والإحساس والعقل في

الآيـات الثلاث التالية ، وهي في ذات الـوقت تمهيد لبيـان نعمة الهداية ، فالله الـــــذي آتانا نعمة العين ولو شـــــاء لطمسـها ، والـذي رزقنا سـائر النعم الـتي نهتـدي بها من سـمع ولمس وذوق وما أشـبه ولو شـاء لمسـخهم على مكانتهم فلا يتقدمون ، فلا يستطيعون مضيّا الى الأمام ولا عـودة الى الـوراء ، والـذي أعـاد البشر الى حالة الضـعف عند ما يعمّـره طـويلا ، هو الــذي أرسل الى النـاس من يهديهم الى صراط العزيز الرحيم.

(**وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ**)

أرأيت كيف تمسح الكف حفنة من الرمل حـــــتى لا تبقي لها أثرا على البسيطة؟ كـذلك لو شـاء الـرب لمسح على الأعين حتى لا يبقي لها أثرا على الوجه.

(**فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ**)

فـإذا هم يتبـادرون الى الطـرق لعلهم يهتـدون الى سبيلهم.

(**فَأَنَّى يُبْصِرُونَ**)

ربما تشير الآية الى أنّ الـذي يفقد عينه يحسّ بعقـدة الضلالة ، فيبادر لمعرفة الصـراط ، وتلمّس الطريق ، لأنه يخشى الانحـراف عنه والوقـوع في المهالك ، ولكن دون جدوى إذ لا يملك ما يرى به طريقه.

وقـــال البعض : إنّ الاســتباق هو تجـــاوز الطريق والانحـراف عنه ، بينما قـال آخـرون : إنّه التـدافع على الطريق شأن العميان الذين يتزاحمون على الطريق لعدم رؤية بعضهم.

وأنّى كان فإنّ المبـادرة والتسـابق لا يجـديانهم نفعا ، لأنّهم فقدوا وسيلة الرؤية

وهي الأعين.

وهكذا من لم يرزقه الله الهـدى فإنّه لا يجد من يهديه سبيلا حتى لو بادر الصراط وتدافع عليه.

[67] أعظم النعم في مجــال التحــرك العين ، ولكن هناك نعم أخرى كاللمس والشم والإحسـاس يتوسّـل إليها فاقد البصر ، ولكن من الـذي أسـبغ هـذه النعم؟ أو ليس الله؟! ولو شاء لسلبها ، وجعل الإنسان مسخا جامدا على مقامه كالحجر.

(**وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ**)

فإذا بهم كالأحجار.

(**فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا**)

نحو الأمام.

(**وَلا يَرْجِعُونَ**)

إلى الخلف ، وبمـاذا يتقـدم الإنسـان أو يتـأخّر؟ أليس بالسمع والإحساس؟! فـإذا فقـدها جميعا فهو أضـعف من أحقر حشرة.

[68] إذا فقد الشــخص بصــره لم يهتد الى طريقه ، وإذا فقد سائر الجوارح لا يستطيع مضيّا ولا عـودة ، ولكنّه يبقى يملك العقل ، بيد أنّ العقل بــــدوره موهبة إلهيّة إن شــــاء وأراد الله ســــلبها ، وفعلا إنّه يســــلبها عند ما يبلغ الإنسان أرذل العمر فلا يعلم بعد علم شيئا.

(**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ**)

فبدل أن ينمو ويتكامل باستمرار تراه يبلغ قمة رشده البـدني والعقلي في حـدود الأربعين ، ولا يلبث أن يسـير القهقرى ، لأنّ خلايا المخ الـتي تنتشر في أطـراف الجسد في صـورة أعصـاب ، وتقـوم بالـدور الرئيسي في بنـاء الجسم ، إنّها تستهلك مع الزمن ولا تعـوّض أبـدا ، ويقـول العلم : إذا بلغ المـرء الثمـانين من عمـره فقد نصف خلايا مخّه.

والتنكيس الذي يصيب البشر يشمل الجـوانب المادية ، كطريقة مشيه ووقوفه وفقد أسنانه وضـعف قـواه ، كما يطـــال الجــــوانب المعنوية ، فهو يفقد قدراته العلمية وخصائصه النفســية فــتراه يرجع طفلا يحـــرص على ما يخصه ، ويعضّ بنواجذه على حياة ، ويضـحى خائفا يلاحقه هاجس الزائر المخيف الذي قد يـدخل عليه في أيّة لحظة وبلا استئذان ألا وهو الموت.

(**أَفَلا يَعْقِلُونَ**)

ليـــذعنوا لله الـــذي أســـبغ عليهم تلك النعم الآن ، ويسلبها منهم عند الشيخوخة.

[69] والله الذي أعطانا جوارح لنهتــدي بها في حياتنا من سـمع وبصر وعقل هو الـذي أنـزل الكتـاب ليهـدينا به الى الصراط المستقيم.

ونحن بحاجة إليه ، ولا يمكننا الاستغناء عنه بالثقافـات الموجودة لدينا التي هي أقـرب الى الشـعر منه الى بيـان الحقائق.

بينما القرآن جاء ذكرا وبيانا وإنذارا وتبشيرا.

(**وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْـرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**)

ذلك أنّ الشعر يتميّز بالخصائص التالية :

أوّلا : يعكس ثقافة المجتمع السـائدة ويسـير بها دون أن ينتقدها أو يثور عليها.

ثانيا : يكـرّس الواقع الفاسد بتـبريره وتلميع رمـوزه وستر اخطائه.

ثالثا : يخدّر الإنسان ويرضيه بوضـعه بإثـارة مشـاعره الجاهلية من الفخر والعصبية والاعتزاز بالإثم.

وبكلمة إذا كـان للإنسـان بعـدان : بعد جـاهلي يعكس شهواته وأمنيّاته ونوازع الشر عنده ، وبعد رسـالي يعكس عقله وعواطف الخـير فيه ، فـإنّ الشـعر إفـرار للبعد الجـاهلي وتكـريس له ، سـواء عبّر عنه بقصـائد موزونة ومنسـقة أو بتعـابير نثرية وعادية ، ولكن بما أنّ الباطل مرفـوض عند البشر بذاته فـإنّ أصـحاب الثقافة الجاهلية يزينونها للناس تارة بأنغام الشـعر ، وأخـرى بـأنواع البـديع والبلاغة.

بينما الحق ليس بحاجة الى كل ذلك ، وإن كان الأدب الرفيع والحلة القشـيبة ، والبلاغة النافـذة يزيـدها جمـالا وبهـاء ، إلّا أنّ قدرته ليست في حلته إنّما في محتـواه ، بينما قـدرة الثقافة الجاهلية في التعبـير عنها ، ولـذلك سـمّي شـعرا ، إشـارة إلى أنّه لو لا وزنه وقافيته والتشـبيهات الخيالية فيه لا يعتـني به أحد ، حـتى قـالوا : الشعر أعذبه أكذبه.

وهكـذا جـاء في الحـديث في تفسـير قوله تعـالى في سورة الشعراء : «**وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ**» قال :

«نزلت في الذين غيّروا دين الله ، وخـالفوا أمر الله عزّ وجل. هل شاعرا قط يتبعه أحـد؟ إنّما عـنى بذلك الـذين وضـعوا دينهم بـآرائهم فيتبعهم النـاس على

ذلك» [3]

وفي رواية مـــأثورة عن أبي جعفر البـــاقر (ع) في تفسير ذات الآية قال :

«هل رأيت شـــاعرا يتبعه أحـــد؟ إنّما هم قـــوم تفقّهوا لغير الدين فضلّوا وأضلّوا» [4]

هــذا عن الثقافة الجاهلية أمّا عن رســالات الله فإنّها تتميز بما يلي :

أولا : إنّها تذكرة ، فهي إثارة للعقل ، وإيقاظ للضـمير ، وتحـريض للفكر ، وأبلغ حجة لصـدقها أنّها تتوافق وعقل الإنسان وما أودعه الله فيه من فطرة التوحيد.

ثانيا : إنّها بلاغ مـــــــــبين ، فليس فيه لف ودوران ، وتعابير غامضة ، وكلمات جوفاء ، وتشـبيهات خيالية ، إنّما بيان للحقائق بوضوح شديد.

ثالثا : إنّها تنذر بالأخطار التي تهـدّد الفـرد والمجتمع ، فهي تفجّر الطاقة بدل أن تخــدّرها ، وتنتقد الواقع الفاسد بــدل أن تــبرّره ، وتواجه الانحــراف والضــلال ، وتتحــدى الظلم والطغيان.

والرسول الـذي حمل مشـعل الهداية ، وتحـدّى قـوى الكفر والضــلال ، وأعلن منذ البــدء أنّه النــذير المــبين ، والـذي جـانب ومنذ صـباه اللهو والعبث ، واتسـمت حياته الرسالية بأقصى درجـات الصـراع ضد الباطل ، والاجتهـاد في إبلاغ الدعوة ، والجهاد والقتـال في سـبيل إعلاء كلمة الله ، إنّه لا تتناسب حياته والشعر (تلك الثقافة الجاهليــة) فكلّ شيء في حياته مناقض للشعر ، لذلك قــال ربنا عنه : «**وَما يَنْبَغِي لَهُ**».

---

(3) نور الثقلين / ج (4) / ص (70) نقلا عن تفسير علي بن إبراهيم.
(4) المصدر.

ولذلك فقد ترك الرسول حتى هـذا الشـعر المعـروف والكلام المقفّى ، لأنّه أضحى لباسا للفكر الجاهلي يومئذ ، وكان إذا قرأ شيئا منه غيّـره بما يتناسب والحقيقة ، ولكن ذلك لا يعــني أنّ الرســول كــان مخالفا أساسا للــوزن والقافية ، كلّا ... بل نجده يشـجّع بعض أصـحابه على ذلك تشجيعا كبيرا.

[70] بلى. الرسول منذر يصدع بـالحق ، ويقـاوم أهل الباطل ، ويتحدّى الثقافة الجاهلية.

(**لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا**)

فهو النذير المـبين لمن كـان في قلبه إحسـاس بتقبل الإنذار.

أمّا بالنسبة الى غيرهم فإنّ الكتـاب حجّة بالغة عليهم تمهّد لإنزال العقاب عليهم.

(**وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ**)

وهم الـذين لا حيـاة لقلـوبهم ، ولكن لا يعـني ذلك أنّ الله أجـــبرهم على الكفر ، كلّا ... بل هم الـــذين كفـــروا ففقدوا حياة الإيمان فلم يستجيبوا للنذر.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (71) وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (73) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (76) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (81)

---

78 [رميم] : بالية متفتتة.

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُـونَ (83))

---

83 [ملكـــوت] : هو الملك ، وزيد فيه التـــاء للعظمة نحو جـــبروت ، وملكوت كلّ شيء ما يقوم به ذلك الشيء.

قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ

هدى من الآيات :

تنبض سورة يس بالحقائق الكبرى التي تذكّر بها آيات الـذكر في نسق بـديع. أو ليست هي قلب القـرآن الحكيم ومحـــور الحـــديث فيها الرســـالة ، ولكنّ الرســـالة تتصل بحقيقة البعث ، لأنّها تـــــذكّر به ، ولأنّ الرســـــالة دليل المسؤولية ، وتتجلّى مسئولية الإنسان في الآخرة.

وفي الـدرس الأخـير من سـورة يس تـذكّرنا الآيـات بهذه الحقيقة عبر بيان شواهد تدبير الله لحياة البشر.

بينات من الآيات :

[71] ظواهر كثيرة نتعامل معها يوميا ، ولكن دون أن نتبصّر ما وراءها من حقـائق ، وأعظمها نعم الله السـابغة التي تهـدينا الى حبّه وشـكره ومعرفة أسـمائه الحسـنى ، ومن أبرزها قدرته وحكمته ، وهما اسـمان كريمـان يـدلان على يوم البعث.

من تلك الظـواهر امتلاك ناصـية الأنعـام ، فلقد خلقها الله بيد قدرته خلقا ، ثم أودع فيها منافع شتّى ، وسـخّرها للإنسان ، ولو شـاء لجعلها وحشـيّة صـعبة المـراس ، كما جعل في البشر حبّ التملك وقـدرة التملـك. أرأيت لو لم يكن البشر يحب السـيطرة هل كـان يسـخّر شـيئا مما حوله؟!

(**أَوَلَمْ يَرَوْا**)

هـذه الظـاهرة المتكـررة الـتي يمـرون عليها دون أن يتفكروا فيها ، وإذ هم لا يتفكرون فكأنّهم لا يرون شيئا.

(**أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا**)

والله لم يخلق الأنعام خلقا مباشـرا ، بـأن يقـول لها : كوني فكانت ، إنّما خلقها عبر شبكة من الأنظمة والسـنن لا تحصى عددا ، ولعل قوله تعالى : «**مِمَّا عَمِلَتْ أَيْـدِينا**» إشارة الى هـذه الحقيقة الـتي تجعلنا أكـثر امتنانا لبارئنا ، وأكـثر وعيا بقـدرة ربنا وحكمته ، وبالتـالي بيـوم الجـزاء الأوفى.

(**أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ**)

فهم الآن يملكون تلك الأنعام فعلا ، ويسيطرون عليها ويسخّرونها لمنافعهم.

[72] تكاملية نعم الله دليل علمه وقدرتـــه. إنّك تجد الإبل ـ مثلا ـ يقوم بذات الحاجـات المتنوعة الـتي يعيشـها البشر ، فهو يحمله مسـافات شاسـعة دون كلـل. أرأيته كيف يقطع الربع الخالي في الجزيرة العربية معتمدا على ما فيه من اشواك حـادة ومـاء قليـل؟! أرأيته كيف يتحمّل وعثـاء السـفر والعواصف الرملية الهـوج ، ويجـري في الرمـال المتحركة كما تجـري السـفن بين الأمـواج؟! وفي ذات الوقت تراه

يســقي الإنســان لبنا ســائغا ، وإذا اشــتهى لحما نحــره واستفاد منه ، وفيه بعد كل ذلك جمال وعـزّة ، وكما الإبل سائر نعم الله.

(**وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ**)

[73] وتجد في أوبارها وأشـــــــعارها وجلودها متاعا ولباسا وبيوتا خفيفة.

(**وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ**)

والهدف الأسمى من نعم الله ليس مجرد الانتفـاع بها ولكنّه التسامي الروحي الى معرفة الرب وشكره.

(**أَفَلا يَشْكُرُونَ**)

[74] والبشر يبحث عن قوّة ، ولقد أودع في ضـميره الإحساس بالضعف الـذي يهديه ـ إن أحسن التفكّر ـ الى ربه ، ولكنّ الشيطان يغويه عن السـبيل القـويم ، ويـوحي إليه أنّ القوة عند الآلهة التي تعبد من دون الله.

(**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ**)

فهم يعبــدون القــوة السياســية والقــوة الاقتصــادية والـوطن والعشـيرة والحـزب والشـمس والقمر والنجـوم والأحجـار الـتي ترمز إليها ، ويبتغـون عنـدهم القـدرة عند الصراع ، لعلهم ينصرونهم أمام القوى المعادية.

هكــذا بيّنت الآية الكريمة خلفية الشــرك بالله ، وهي البحث عن قوة تنصرهم في مواجهة الطبيعة أو الأعداء.

[75] ولكن من ينصر من؟ هل الآلهة تنصــرهم أم هم ينصرونها؟

(**لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ**)

يقــول ربنا بصــراحة بالغة ، ولو لم يكن في القــرآن إعجاز إلّا هذه الآية لكانت شاهدة صدق على أنّه من عند الله ، إذ يـزعم النـاس ــ إلّا قليل ممن هـداهم الله ــ أنّ الطاغوت أو أولي الثروة والجـاه والعشـيرة ينصـرون من يشرك بهم ، بينما يؤكد ربنا أنّ العكس هو الصحيح ، وعند ما نتفكر جيدا نعرف أنّ الآلهة هم الـذين يتبعـونهم ، فمن الطـاغوت لو لا اتباعه الـذين استسـلموا له رغبا ورهبا أو ضلالة؟ الأثرياء فظلمهم واستضعافهم إنّما بسكوت الناس عنهم أو طمعهم في أمـوالهم ، وهكـذا العشـيرة والـوطن والحزب.

(**وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ**)

ولعل هذا التعبير يـوحي بـأنّ قـوة الآلهة هي مجمـوع قوة التابعين ، فهم رمز التجمع لا أكثر ولا أقل.

وقال المفسـرون : إنّما عـنى الله بـذلك يـوم القيامة حيث يصـــــطف المشـــــركون خلف آلهتهم المزعومة ويسـاقون الى النـار زمـرا ، ولا ريب أنّ الأمر لكـذلك ، ولكن ـــ يبـــدو لي ـــ أنّ الآية تشـــمل الـــدنيا أيضا ، إذ المشــركون هم أنصــارها هنا ، وفي الآخــرة تتجلّى هــذه الحقيقة أكـثر فـأكثر ، قـال ربنا سـبحانه : «**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللـهِ آلِهَـةً لِيَكُونُـوا لَهُمْ عِـزًّا* كَلَّا سَـيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا**» [1]

وكلمة أخـيرة : إنّ العوامل المـؤثرة في حيـاة البشر ليست جميعا ظـــــاهرة بل هي عوامل غيبية ، وحــــتى العوامل الظاهرة كالسياسة والإقتصاد وما أشبه فهي ـ لو أمعنا النظر ــ تتصل بعوامل غيبية ، وبالتـالي لا تسـتطيع القوى المعبودة من دون الله

---

(1) مريم / (81 ـ 82).

أن تؤثر فيها شـيئا ، ثم إنّ قوتها الموهوبة محـدودة بعـالم الدنيا ، وهي وبال في العـالم الثـاني. إنّ الغبـاء يبلغ مـداه حين يتخذ الإنسان نظيره الإنسان إلها من دون ربّ العزة لينصره أمام سنن الله وقدره وقضـائه ، ولكنّ هـذا الغبـاء هو بالضبط ما يركبه الإنسان إلّا من عصـمه الله ، فـأغلب الناس يشركون بربهم ، ويعبدون بنسـبة معينة آلهة القـوة والثروة والجاه ، فيفقدون بذات النسبة قوتهم الـتي وهبها الله لهم لمصـــــلحة تلك الآلهة ، وهم يزعمــــــون أنّهم يكتسبون منها قوة ومنعة وعزا.

كما أنّهم بشــركهم يفقــدون نصر الله لهم ، ولو أنّهم توكّلوا على الله ، وتوجّهوا تلقاء نعمه الـتي أسـبغها عليهم ظـــاهرة وباطنة ، وفجّـــروا طاقـــاتهم الــتي لا تحـــدّ ، واستخرجوا من أنفسـهم كنوزها الـتي لا تنفد ، إذا حقّقـوا المزيد من تطلعاتهم بتأييد ربهم وتسديده.

ولعمــري هــذا سر العظمة ومفتــاح الفلاح لو كــانوا يعقلون.

[76] وحين يتخلّص الإنسان من حجـاب الشـرك يتهيّأ نفســيا ومن ثم عقليا لتقبّل المســؤولية ، لأنّ أعظم دافع للبشر نحو الشــرك الهــروب منها ، والتخلّص من جــزاء أعماله حسب زعمه ، وهكذا يذكّرنا السـياق بيـوم الجـزاء الأوفى بعد أن يرفع شـبهة المجـادلين فيه ، القائلة : كيف يحيي الله الموتى؟ إنّ هذه الشبهة آتية من نسـيان الخلق ، وعظمته التي تدل على عظمة الخـالق ، أمّا إذا تـذكّرناه فإنّ الشبهة تتلاشى.

ويبــدأ الحــديث ببيــان أنّ كلامهم الجــدلي يجب أن لا يحزن أصحاب الرسالة ، لأنّه محفوظ عند الله ، يعلم الله خباياه كما يعلم ظــاهره ، فلا ينبغي أن يقرّبه ويؤخذ مأخذ الجد.

(**فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ**)

ويبدو أنّ الحزن بالكلام قد يجر الى التنازل لهم تحت ضغطة فلذلك نهي عنه.

(**إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ**)

من نيّـــات مغـــايرة للكلام حيث أنّهم يعلمـــون أنّهم كاذبون وإنّما يتكلمون جدلا.

(**وَما يُعْلِنُونَ**)

فيسجل عليهم للجزاء.

[77] ثم يعرف ربنا أكبر شبهاتهم التي تشكّك بقدرته ـ تعالى ـ ويقول :

(**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ**)

قـالوا : إنّ الرؤية هنا تعـني العلم ، أي أو لم يعـرف الإنسان ، ونقول : نعم. ولكن مثل هذا العلم لا يحتـاج الى أكثر من نظر ، ونحن لم نشهد خلق أنفسنا ، ولكنّا شـهدنا كيف خلق نظراؤنا من النـــاس حـــتى لكأنّنا شـــهدنا خلق أنفسنا.

(**أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ**)

هذا الماء المهين هذا ما نراه ، أمّا ما نعلم فإنّ الخلق تمّ بجزء بسيط جدا من هـذه القطـرة الدافقة من المـاء. انها الخلية المتناهية في الصـــغر من مـــاء الرجل ومـــاء المرأة.

وبعد أن خلق من المـــاء المهين ربّـــاه الله من خلق لخلق ، ومن طور لطور ، ومن مرحلة لأخرى حـتى سـوّاه رجلا ناطقا.

(**فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ**)
وقد بلغ به الكمال مداه حتى اغترّ به ، وأخذ يجادل ــ وبوضوح تام ـ خالقه ورازقه!
[78] ومن مظــاهر جــدلهم الباطل أنّ الواحد منهم يأتي بقطعة عظم بالية ، ويسعى الى رسول الله ، ويزعم أنّه سوف يخصمه به.
(**وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً**)
يبــدو أنّ المثل هو الواقعة الــتي يستشــهد بها على فكــرة أو حقيقة ، وإنّما يقــال ضــربه لأنه يشــبه غــيره والضرب هو الشبيه.
(**وَنَسِيَ خَلْقَهُ**)
ولو لم ينسه خلقه لما ضربه مثلا.
أفلم ير أنّه قد خلق من غــير مثــال يحتــذي؟! فكيف يستعبد قدرة الله على الخلق؟
(**قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**)
لقد جـاء أبيّ بن خلف الجمحي معه عظم نخر ففركه ثم قال : يا محمد من يحيي العظام وهي رميم؟! فــأنطق الله محمــدا بمحكم آياته وبهته ببرهــان نبوته قـال : «**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُــلِّ خَلْــقٍ عَلِيمٌ**» فانصرف مبهوتا.
[79] لقد كانت إزالة الشبهة قد بــدأت مع بداية هـذه المجموعة من الآيات حيث مهّد الله لها بالنهي عن الحزن لما يقولونه لأنّه بعلم الله ، ثم ذكّر الإنســـان بأصل خلقه من النطفة مشــيرا الى تلك البداية البســيطة الــتي يراها الإنسان ، ثم نوّه بذلك مرة أخرى حين قال : ونسي خلقه ، ثم قال :

(**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ**)

هنالك أنشأها إنشـاء وابتـدعها ابتـداعا من غـير مثـال يحتـــذي ، ولا أدوات تســـتخدم ، ولا أنصـــار وشـــركاء يساهمون. إنّ تذكّر هذه الحقيقة تذهب أيّ شك في قدرة البـارئ في ذلك ، بلى. يبقى تسـاؤل قد يلقيه الشـيطان في قلب الإنسـان الـذي يسـعى بـدوره للتخلص من ثقل المسـؤولية وهـاجس الجـزاء ، والتسـاؤل هو : كيف يجمع الله الأجزاء المتناثرة في أقطار الأرض حول هذا البدن؟

فيقـــول ربنا وهو يشـــير الى تنـــوّع خلق الله ، الـــذي يهدينا الى علمه المحيط :

(**وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**)

فأنّى ألقيت بصرك وأدرت بصيرتك رأيت خلقا عجبا ، حسن التقدير ، جميل الظاهر ، متين الصـنع ، متناسـبا مع هدفه ، متناغما مع نظـائره ، ثم رأيت من أنـواع الأحيـاء ، وألوان النباتات ومختلف المعـادن ، وصـنوف الجمـادات ، ما لا يـدع عنـدك شـبهة في سـعة قـدرة بارئها ، ومحيط علمه وقـــديم خـــبره ، فكيف يشك في إمكانية إعـــادة الخلق؟!

جاء رجل الى الإمام الصادق (ع) وقال منكرا للبعث : وأنّى له بـالبعث والبـدن قد بلي ، والأعضـاء قد تفـرّقت ، فعضو ببلدة يأكله سباعها ، وعضو بـأخرى تمزّقه هوامها ، وعضو قد صار ترابا يبنى به مع الطين في حائط؟!

قال الإمام مجيبا :

«**إنّ الذي أنشـأه من غـير شـيء ، وصـوّره على غير مثال كان سبق إليه ، قادر أن يعيده كما بدأه.**

قال : أوضح لي ذلك؟

قال : إنّ الروح مقيمة في مكانها ، روح المحسن في ضياء وفسحة ، وروح المسيء في ضيق وظلمة ، والبدن يصير ترابا كما منه خلق ، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها ، فما أكلته ومزّقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ، ويعلم عدد الأشياء ووزنها ، وإنّ تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب ، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور ، فتربو الأرض ، ثم يمخض مخض السّقاء ، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء ، والزبد من اللبن إذا مخض ، فيتجمع تراب كلّ قالب الى قالبه فينقل بإذن الله تعالى القادر الى حيث الروح ، فتعود الصور بإذن المصوّر كهيئتها ، وتلج الروح فيها ، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئا» (2)

ولعل إشارة القرآن الى بداية الخلقة توحي بنظرية تقول : إنّ الخلية الأولى التي تلاقحت في الرحم تبقى على حياتها ثم تنمو في رحم الأرض كما نمت أولا في بطن الأم ، ولكنّ الحديث المذكور آنفا صريح في أنّ ذرأت البدن المتناثرة في الأرض تلتحق به أنّى كانت عن طريق المخض ، ولنا أن نشبّه ذلك بقطعة مغناطيس إذا حرّكت في تراب مخلوط بذرات الحديد. كيف تجتمع عليها تلك الذرات؟!

[80] ثم يمضي السياق قبلا في أنّ البعث حق ، ويضرب مثلا من الشجر الأخضر الذي جعل الله للناس منه نارا ووقودا ، ويقول :

(**الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ**)

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (395).

ويقف الإنسان حائرا : لمـاذا ضـرب الله مثلا بالشـجر الأخضر ، وما هي صلته بواقع النشور؟

قــالوا : إنّ العــرب كــانوا يســتخدمون نــوعين من النباتات كالزناد لإنشاء النار كما نسـتخدم نحن الكـبريت ، وســـمّيا ب (صـــرخ) و (عفـــار) وكانا رطـــبين ، إلّا أنّ احتكاكهما كــان يولّد النــار ، فضــرب الله بهما مثلا على قدرته أو على انبعـــاث النـــار الخفية كما ينبعث الجسد الميت حيّا يوم النشور.

وقــال البعض : إنّ البحث العلمي أكّد أنّ كــلّ أنــواع الوقود من أشعة الشـمس ، وحـتى اتقـاد الخشب إنّما هو بتخزّن هذه الأشعة فيه ، وإلّا فإنّ عناصره الأخرى كالمــاء والتراب لا نار فيها.

ذلك أنّ كـــــلّ عملية تـــــركيب كيماوية بحاجة إلى امتصاص الطاقة أو بثّها ، وعملية امتصاص الأشجار لثـاني اكسيد الكربون بحاجة ـ حسب هذا القـانون ـ الى الطاقة ، وهكــذا فهي تســتفيد من الطاقة الشمســية ، وتســتمر الأشجار في اختزان الطاقة بصورة منتظمة.

وهذه العملية لا تقوم بها الأخشاب اليابسة بل الشجر الأخضر ، ولذلك ركّز الحديث حوله ، بالرغم من أنّ الناس يعرفون أنّ الخشب اليابس أسرع اشتعالا إلّا أنّه لا يحــزّن الطاقة. [3]

ولكن يبقى الســؤال : لمـاذا ضـرب الله بهـذا مثلا؟!

الجواب :

أولا : إنّ ذلك يهدينا الى قدرة الله الـذي ضـغط النـار في المــاء. أو ليس الشــجر الأخضر ينضح بالمــاء؟ فأبصر بربّ يحزن الوقود في الماء!

---

(3) بتصرّف من تفسير نمونه / ج (18) / ص (464).

ثانيا : إنّ السـنن الإلهية الخفيّة أكـثر من الظـاهرة للإنسان منها ، وما أوتينا من العلم إلّا قليلا ، وإنّنا نسـتبعد أشياء لأنّنا لا نعـرف الأنظمة ، فلو قيل لأحد من أجـدادنا : سيأتي يوم يطير جهـاز بعشـرات الأطنـان من الحديد في الفضـاء ، بسـرعة فائقة لما صـدّق ، لأنّه لم يكن يعـرف قوانين فيزيائية يعرفها الإنسان اليوم ، وقديما قال الإمـام علي (ع) :

«**الناس أعداء ما جهلوا**» [4]

وكـذلك البشر ينكر البعث لأنّه لا يعـرف ما أودع الله في ضمير الوجود من أنظمة ، كما لم يكن يعرف الإنسان كيف يجعل الله من الشـجر الأخضر نـارا ، فلعل ذرّات البدن التي تنفصل عنه بعد المـوت تبقى ذات صـلة خاصة به إلى أن يبعث الله من في القبـور ، أو تطبع عليها سمات تشير الى مصدرها.

ثالثا : إنّ ذرّات الحـرارة الـتي تنفصل عن الشـمس وتخزن في الشجر الأخضر تبعث مـرّة أخـرى إليها ، ولكن دون أن يعـدم منها شـيء كما يحسب الجاهل ، كـذلك ذرأت الجسم.

رابعا : ولعلّ في الآية إشـارة لطيفة الى قـانون الهيّ في الوجـود أنّ فيه الغيب والشـهود ، فهنـاك الشـجر الأخضر تحسـبه لجة مـاء ، فـإذا فيه كتلة وقـود مختزنة ، كذلك الدنيا شهود الآخرة ، بينما الآخرة غيب الدنيا ، فأنت تـرى جسد الميّت المسـيء بينما هو في النـار كما الزنـاد احتوى على نـار مختزنة ، كما أنّ آكل مـال اليـتيم يحسب أنّه يتناول طعاما شهيّا ، ولكنّه ـ في الواقع ـ إنّما يأكل في بطنه نارا ، والذي يكـذب لا يعـرف أنّ نتنا خبيثا يخـرج من فيه يلعنه به الملائكة ، وهكذا.

(4) نهج البلاغة / خ (172) / ص (501).

وهكذا يأتي رجل الى الإمـام أمـير المؤمـنين (ع) وقد جاء بعظم كافر فيقول : أنتم تقولون أنّه معذّب فأين النار الـتي يعـذّب بها الآن؟! فيـأتي إليه الإمـام بزنـاد فيقدحه فيقول : أين كانت النار في هذا الزناد؟!

[81] البعث والنشور حقيقة فطرية. أو ليست نفوس البشر تنزع الى الخلود؟ وهذه الجهـود الهائلة الـتي يبـذلها البشر من أجل الخلـود ، دليل عمق الإحسـاس بـالخلود ، وما أكــره المــوت في نظر الإنســان إلّا ايمانه بأنّه جــاء ليبقى ، وفقط أولياء الله الذين يظنـون أنّهم ملاقـوا ربّهم لا يهــابون المــوت ، ولو أحصــيت أهــداف النــاس من مسـاعيهم المختلفة لكـان لهـدف اسـتمرار البقـاء حصة الأسد فيها ، يقــول الله تعــالى لبيــان هــذه الحقيقة : «**وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**» (5)

وحيث علم البشر أنّه لا محالة ميت ، فتّش عن بقــاء اعتبــاري أن فقد القــدرة على البقــاء الحقيقي ، فــإذا به يسعى للامتداد عبر أبنائه أو آثـاره أو حـتى تحنيط جسـده الميت وبناء المقابر الضخمة عند رفاته.

وحين أراد إبليس إغـــــواء أبينا آدم وزوجه حـــــوّاء وإخراجهما من الجنة ، قـــال لهما : «**هَـــلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى**» (6)

هكــذا تــراه يثــير فيهما حبّ الخلـــود ، ويربطهما بالمعصــية ، وكــذلك يصــنع بأبنــاء آدم ، فإنّه من أعظم أسباب الذنوب حبّ الخلود.

ومن هنا فإنّ الإمام علي (ع) حين يسأله أحـدهم : ما هو الحق الشـبيه بالباطـل؟! يقـول : المـوت ، لأنّ نزعة الخلود لا تدعه يذعن للموت هذا الذي لا ينجو

---

(5) الشعراء / (129).
(6) طه / (120).

منه حي أبدا ، وقد قال ربنا سبحانه : «**كُـلُّ نَفْسٍ ذائِقَـةُ الْمَوْتِ**».

إنّ هذا الإحساس الفطـري العميق بـالخلود لا يتحقّق في الدنيا ، فهو إذا يتحقّق بالبقاء في الآخرة ، فما الموت إلّا قنطـــرة ، وما الـــدنيا إلّا مزرعة ، وإنّ الآخـــرة لهي الحيوان.

ولكن تبقى العقبة الرئيسية أمـام البشر جهله بقـدرة الله واحتجابه بما يراه عما لا يراه ، بالشهود عن الغيب.

لذلك نرى آيات القرآن تذكّرنا بآيات قدرة الله ، فهذه السـموات الـتي لا تحصى أقمارها وشموسـها ، وهـذه الأفلاك التي لا تحدّ اتساعا ، ولا تنحـرف عن مسـيرها قيد شـعرة ، طوعا لربها وتسـليما ، وهـذه الأرض الـتي لا تنقضي عجائبها ، وهـذه الأحيـاء المتنوّعة الـتي تتجلّى في كـلّ واحد منها عظـائم قـدرة ربنا الجبّـار. أو ليست جميعا دليل قدرة الله؟!

(**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ بِقـادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**)

بلى. إنّه القـــادر ، وكيف يخلق إن كـــان عـــاجزا سبحانه؟!

بلى. إنّه القـــادر ، ودليل ذلك تنـــوّع الخلق ، فمن البعوضة المتناهية في الصـغر ، الى الفيل الـذي يشـبه البعوضة ولكن بحجم أكـبر ، الى الحـوت الـذي قد تكـون عين واحـدة منه أثقل من فيل ثم يجـوب البحـار بسـرعة هائلة ، الى عجـائب البحـار ورواسي الجبـال ونباتـات السهول ، حتى أنّك لو قضيت عمرك في معرفة آيات الله في أصـغر نبتة : كيف تسـتقي الأرض وتمتص أملاحها ، وكيف تمثّل من الشـمس ضـوءها ، وكيف تحافظ على نفسـها ضد الآفـات والعواصف ، وكيف تحقّق هـدفها في هذا

الكون الأرحب ...؟ نعم. لو فعلت ذلك وعشـرات البـاقين لما انقضت عجائب تلك النبتة الصـغيرة ، وهكـذا الحيـوان الصـــغير كالنملة ، فـــإذا زرت مكتبة كبـــيرة فلعلك تجد عشــرات الكتب في نبتة متواضــعة! وربما فــوجئت بــأنّ النملة الـتي تسـحقها برجلك قد حظيت بـاحترام العلمـاء فألّفوا فيها عشرات الألـوف من الكتب والدراسـات حـتى الآن.

هذا التنوّع الكبير الـذي لا يحصى أفـراده دليل خلّاقية الرب ، وأنّه لا يعجزه شـيء في السـموات والأرض ، وأنّه عليم كيف يصنع ما يصنع؟

(**وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**)

ولعل التعبـير ب «مثلهم» هنا للدلالة على أنّ القـدرة تتعلق بجنسهم عموما ، وليس بأشخاصـهم فقط ، فالـذي يستطيع على مثل الشـيء يسـتطيع عليه ، دون العكس ، ولسنا بحاجة الى بعض التكلّفات البعيـدة الـتي ذهب إليها المفسرون لزعمهم أنّ «مثلهم» تـدل على عـودة النـاس ليست بأبدانهم بل بأرواحهم فقط.

[82] من أصغر خلية الى أعظم مجرة ، كـلّ مخلـوق يــؤدي دورا ويحقّق هــدفا ، بينما يســتوي الإنســان على عــرش الســلطة ، فقد أوتي ما يســخّر به ما في الأرض جميعا ، وتـوفّر فرصة العيش الرغد لهـذا المليك المكـرّم. أو لم يقل ربنا ســــــبحانه : «**وَسَــــــخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**» «**وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنــاهُمْ فِي الْبَــرِّ وَالْبَحْــرِ**» وعند ما نتفكّر في وجود الإنسان نرى كلّ شيء فيه يحقّق هـدفا ، من أعظم جارحة كالمخ والقلب الى أصغر نسيج.

تعــالوا إذا نفكّر : أليس لوجــود الإنســان في الأرض بذاته هـدف؟ وهل خلقه الله عبثـا؟ فـأين إذا حكمة الله ، التي تتجلّى في كلّ شيء؟! وأين عدالته التي نرى

آياتها في السموات والأرض؟!

كلّا ... إنّما خلق الإنسان لهدف أيضا ، وهو أن يتكامل الى الله ، وقد جاء في الحديث القدسي المعروف :

«**خلقت الأشياء لأجلك ، وخلقتك لأجلي**»

وقال ربنا سبحانه :

«**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ**».

«**وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**».

وحين تفكر أولو الألباب في خلق السموات والأرض عرفوا أنّ الخلق ليس باطلا فقالوا : «**رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ**».

ولكن هناك من يعرف هذه الحكمة ولكنّه ينكر المعاد أيضا ، كالفلاسفة المتأثّرين بآراء اليونانيين القدماء. لماذا؟ لأنّهم جهلوا كيف خلق الله الخلق ، فقال بعضهم : الخلق صادر عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما يتدفّق الماء من العين. فكيف يعود الماء الى العين تارة أخرى؟!

وقال آخرون : بلى يعود ، ولكن لا ليعذّب أو يجازى على أفعاله ، بل ليلتحق بالمصدر ، كما تعود المياه الى البحار بعد تطواف كبير!

وقد أنكر هؤلاء البعث بالصورة التي جاءت بها كتب الله لجهلهم بكيفية

الخلق ، يقول ربنا وهو يوضح قدرته في أمر الخلق :
(**إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)
فليس فيضا أو صـــــدورا ، وليست دورة وجودية كما تقـول الدهرية والـذين تـأثروا بهم من الفلاسـفة ، إنّما هو فعل محــدث لــربّ القــدرة ، فحيث أراد خلق المشــيئة بعظيم قدرته فخلق الأشــياء بالمشــيئة ، حسب حــديث مأثور.
والتعبير ب «يقول» لبيـان حـدوث الإرادة ، وإلّا فربنا غني عن احداث تحول لفعل الأشياء وهكـذا جـاء في كلام أمير المؤمنين (ع) :
«**يقــول لما أراد كونه (كن) فيكــون ، لا بصــوت يقـرع ، ولا بنـداء يسـمع ، وإنّما كلامه سـبحانه فعل منه أنشـــأه ومثّله ، لم يكن من قبل ذلك كائنا ، ولو كان قديما لكان إلها ثانيا**» [7]
إنّ الكلمــات تقف دون تبيــان الغيب الإلهي عــاجزة كليلة ، وإنّما تقرّب إلينا ـ قدر المستطاع ـ حقـائق الغيب بما هي قريبة منها في عـالم الشـهود ، فإنّنا ـ مثلا ـ حين نريد شيئا نـأمر به والأمر عـادة يكـون بـالتعبير عنه قـولا ، لذلك نجد القرآن يعبر أن أمر الله بالكلمة أو بالقول.
وقد وهب الله هذه القدرة لأهل الجنة ، فقال في آية مضت : «**وَلَهُمْ ما يَـدَّعُونَ**» وقـال في قصة سـليمان : «**قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ**».
هكــذا بمجــرد أن يشــتهي أهل الجنة شــيئا يجدونه عندهم بإذن الله ، كذلك بمجرد

---

(7) نهج البلاغة / خ (186) / ص (274).

إرادة خليفة سليمان عرش بلقيس وجده عنده.

[83] وفي ختـام السـورة وبعد أن يصف القـرآن ربنا بما ينبغي من القدرة والعلم يقدّسه من كل نقص أو عجز أو فقر فيقول :

(**فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**)

أولا ترى آثار الفقر والحاجة والضعف في كلّ شـيء؟ إنّ ذلك شـاهد مملوكية لمالك غـنيّ مقتـدر قـوي ، هكـذا ينطق كـلّ شـيء بـأنّ ربنا سـبحانه القـدّوس المبـارك المتعالي.

وإذا عرفنا قدسية الرب وقدرته وحكمته آمنّا بالنشور ، وكلّما ازداد المرء معرفة بربّه ازداد إيمانا باليوم الآخر.

(**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

سورة الصافّات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

1 ـ في كتاب ثواب الأعمال بإسناده إلى عبد الله (ع) قال : «**من قرأ سـورة الصـافات في كل يـوم جمعة لم يزل محفوظا من كل آفة ، مـدفوعا عنه كل بلية في الحيـاة الـدنيا ، مرزوقا في الـدنيا في أوسع ما يكون من الرزق ، ولم يصبه الله في ماله وولده ولا بدنه بسوء من شـيطان رجيم ، ولا جبـار عنيد ، وإن مـــات في يومه أو ليلته بعثه الله شـــهيدا وأماته شـــهيدا وأدخله الجنة مع الشـــهداء في درجة من الجنة**»

تفسير نور الثقلين / ج 4 / ص 399.

الإطار العام

تهـدينا سـورة الصـافات بآياتها السـامية الى ذات الأفكار والحقائق الـتي كـانت الآيـات السـابقة في سـورة (يس) تؤكد عليها بإضافات أخـرى ، وأسـلوب أدبي نفسي جديد.

تبـدأ آياتها بـذكر الملائكة الـتي تصـطف انتظـارا لأمر الله ، وبـذلك سـميت بسـورة «الصـافات» كما يحـدثنا الـدرس الأخـير منها عن الجن والملائكة ، وشبهات الجاهليين حول علاقتهما بربهما ، فقد زعموا بأن لهما علاقة نسبيّة بالله ، وذهب بعضهم بعيدا إذ قـالوا بـأن الجنّ نتيجة مباشـرة لعلاقة زوجية بين الملائكة وربهم ـ تعالى عما يشركون ـ.

بينما تحـدثنا الـدروس الوسـطى عن الأنبيـاء (ع) والعلاقة بين السياقين أن القرآن حينما بيّن خطأ الجاهلين الفظيع في تصورهم حول علاقة الملائكة والجن بالله كان لا بدّ من الإشارة لنفس الخطأ الذي وقع فيه الآخرون عند ما تصوروا بأن هناك

علاقة مشـــابهة بين الله والرسل ، انطلاقا من تقـــييمهم للمعجز الذي طالما تكرر على يد الأنبياء من دون الآخرين ، فاتخذوا ذلك دليلا على انهم أبناء الله ، ولهذا نجد الآيات تطيل الحديث حول هذا الموضوع مؤكدة بـأن نبـوّة هـؤلاء لم تكن بأسـباب ذاتية تكوينية فيهم ، انما أعطـاهم الـرب هـذه المنزلة الرفيعة لما وجـده فيهم من عمق الإيمـان ، وصدق العمل ، وشجاعة الإقدام ، والإحسان إلى النـاس ، ولعل الحديث عنهم (ع) في هـذه السـورة المباركة يتصل بهذا الجانب من حياتهم ، نفيا للبدع الجاهلية.

من هنا نسـتطيع القـول بـأن الخط العـام لسـورة الصافات هو بيان العلاقة السـليمة بين الله ـ عـزّ وجل ـ وسائر خلقه ، التي تتجسد من جهته في الإنشاء ، والخلق ، والإبداع ، والـرزق ، و... و... ، اما ما دون هـذه العلاقة ، فإن هناك معراجا واحدا يتقـرب من خلاله الخلق لـربهم ، وهو الايمان والعمل الصالح.

وحين نتـــدبر في جمل بصـــائر الســـورة تتجلى لنا المسؤولية بأظهر صورها ، والتي تصعقنا عند قول الرب : «**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ**».

ومحـور المسـؤولية هو الـذي يوصل محـاور السـورة ببعضها ، وأبرزها ثلاثة محاور :

الأول : نفي الأنـداد الـذين يتخـذهم الجـاهلون آلهة لعلهم ينصـرون. ان غـايتهم من عبـادة الآلهة التنصل من جزاء أفعالهم ، ولكن هيهـات! ان الملائكة صـافون لـربهم صـفا ، والشـياطين محجوبـون عن السـماء ، وتترصـدهم الشهب ، والمستكبرون محضرون لحساب عسير.

الثـاني : الأنبيـاء والأوليـاء عبـاد الله المكرمـون ، فلا يشـــــــفعون إلا لمن ارتضى ، ولا يمكن التعويل عليهم لمواجهة سنن الرب ، كيف وإنما بلغوا درجاتهم هذه بأنهم

عباد الله المخلصون.

الثـــالث : نسف قواعد التـــبرير الـــتي يعتمد عليها المجرمون في اقتراف المآثم ، حيث يزعمـون أنهم كـانوا مجبورين.

وتتصل الصـــور الـــتي ينقلها القـــرآن إلينا من يـــوم المسؤولية والجزاء بهذا المحور.

والنسق القـــرآني يجعل المحـــور الأول والأخـــير متـدرجين ، ثم يـذكّر بـالمحور الثـاني الـذي يـأتي كشـاهد مبين لهما ، ذلك أنّ القرآن يضرب للحقائق الأمثال ، ومن أروع أمثلته حيـاة الأنبيـاء ، الـذين أمرنا بـأن نسـلّم عليهم بكرة وعشيّا ، ليتّخذهم المؤمنون قدوة ومنارا.

سورة صافات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالصَّــافَّاتِ صَــفًّا (1) فَــالزَّاجِراتِ زَجْــراً (2) فَالتَّالِيــــاتِ ذِكْـــــراً (3) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِــــدٌ (4) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (6) وَحِفْظاً**

1 [والصافات صفا] : كـلّ شـيء بين السـماء والأرض لم يضـمّ قطريه فهو صاف ، ومنه الطير صافات إذا نشـرت أجنحتها ، وقيل جمع صـافة وهي الملائكة الـتي تصف أقـدامها للصـلاة والإطاعة أو أجنحتها حـال الصعود والهبوط. وصفّا تأكيد له.

2 [فـالزاجرات] : الزجر الصـرف عن الشـيء ، وهنا يقصد بها الملائكة التي تزجر الكفار حين قبض أرواحهم أو تزجر من أمر الله.

مِنْ كُـلِّ شَـيْطانٍ مـارِدٍ (7) لا يَسَّـمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْـذَفُونَ مِنْ كُـلِّ جـانِبٍ (8) دُحُـوراً وَلَهُمْ عَـذابٌ واصِـبٌ (9) إِلاَّ مَنْ خَطِـفَ الْخَطْفَـةَ فَأَتْبَعَـهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (10) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقـاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْنـاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (11) بَـلْ عَجِبْتَ وَيَسْـخَرُونَ (12) وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَـذْكُرُونَ (13) وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقـالُوا إِنْ هـذا إِلاَّ سِـحْرٌ مُبِينٌ (15) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (18)

[مارد] : المارد الخارج إلى الفساد العظيم ، وهو من وصف الشـياطين وهم المردة ، وأصله الانجراد ، ومنه الأمرد الـذي لا شـعر له ، فالمـارد المنجرد من الخير.

9 [دحورا] : الدحور الدفع بالعنف يقال دحر يدحر دحرا ودحورا.

[واصب] : الدائم الثابت.

10 [الخطفة] : الخطف هو سلب الشيء خلسة بسرعة.

11 [لازب] : اللازب واللازم بمعـنى واحد ، أي طين يلصق باليد وهو الطين الصافي.

18 [داخرون] : صاغرون أذلّاء ، من دخر بمعنى صغر وذلّ.

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ

هدى من الآيات :

ينصبّ الحديث في هـذا الـدرس حـول الملائكة ويـوم البعث ، ويربط الموضوعين ببعضهما أنّ الإنسـان قد يكفر بـالجزاء رأسا حين لا يـؤمن بيـوم الجـزاء ، وقد يكفر به بصـــورة غـــير مباشـــرة ، وذلك حين يـــزعم أنّ الملائكة يشفعون له عند الله لأنّهم أبناؤه سبحانه.

وما دام السـياق يكـرّس روح المسـؤولية فلا بد من معالجة هــــذين المـــوقفين معا ، لأنّهما يشـــتركان في المحصّلة النهائية ، وهي التنصّل من المسؤولية.

فالشــرك بالله من خلال الاعتقــاد بربوبية الملائكة أو الجن أو الآلهة المزيفة الأخـــــرى ، له مـــــبرّر نفسي هو محاولة التملّص من المســـؤولية. إنّ من الصـــعوبة على الناس تحمّلها ، مع علمهم بها ، فلكي يتخلّصوا ـ بـزعمهم ـــ من حدّية أوامر الله ، ويتهرّبــوا من الالــتزام بالــدين ، تــراهم يبحثــون عن مــبرّر نفسي لأنفســهم مما يــدفعهم للتصــوّر بــأنّ الملائكة أو الجن أو الصــالحين كعيسى (ع) سوف يدفعون سخط الرب

وعذابه عنهم بالشفاعة أو الفداء.

ويـوم القيامة هو يـوم تتجلّى فيه المسـؤولية بشـكل واضح وأكيد ، وتأليه هؤلاء للملائكة والجن والأنبيـاء ، يـأتي لحل إشكالية ذلك اليوم ، ولكن هيهات ، لهذا أكّد ربنا في نهاية هذا الدرس مسئولية الإنسان الحتميّة بقوله : «**قُـلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ**».

بينات من الآيات :

[1 ـ 3] يصـوّر لنا السـياق في مطلع هـذه السـورة الكريمة مشـــهدا من الغيب حيث تصـــطّف الملائكة في السـماوات العلى ، بما لا يعلم عـددها إلّا الله عـزّ وجل ، انتظـــارا لتلقّي الـــوحي من ربها ، ثم تـــنزل به الى حيث يأمرها زاجرة ما يعترضها من العقبـات ، تتـنزل به وتتلـوه على النبي ، ومن هنا يمكننا القول بأنّ تنزيل الوحي ليس مخصّصا بجبرئيل إنّما يوجد معه ملائكة آخـــرون يـــؤدّون نفس الـدور ، وفي القـرآن نجد تعبـير رسل الله ، يعـني تـارة الملائكة الـتي تهبط بـالوحي ويعـني تـارة أخـرى الملائكة الذين يتوفّـون الأنفس ، بينما يقـول الله تعـالى : «**قُـلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَـكُ الْمَـوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**» [1] يعـني بـذلك عزرائيل ، وبجمع الآيـات الى بعضها نستوحي بأنّ ملك المـوت الأعظم زعيم لنزعة الـــروح ، أمّا بقية الملائكة فهم أعوانه على ذلك ، كما أنّ جبرئيل الملك الأعظم ـ الذي يتـنزل بـالوحي على الأنبيـاء والرسل ـ زعيم لطائفة من الملائكة الـذين يـؤدّون نفس المهمة.

(**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا**)

يقسم الله بالملائكة الـتي تصـطّف انتظـارا لأمـره ووحيه ، ثم تهبط لإنفاذ أمر

---

(1) السجدة / (11).

الرب ، زاجرة العقبات في طريقها ، كالطبقات الموجودة بين الأرض والسـماء ، والشـياطين الـتي تحـاول اسـتراق السمع ، أو حجب الله عن أنبيائه ورسله.

(**فَالزَّاجِراتِ زَجْراً**)

كما أنّ من صفاتها تلاوة الوحي على الأنبياء ، والتلاوة من التتـالي أي التتـابع مما يـدل على أنّ وحي الله لهم لا ينزل مرة واحدة ، إنّما يتنزّل مفرّقا ، وذلك مما تسـتدعيه الحكمة في التغيير.

(**فَالتَّالِياتِ ذِكْراً**)

[4] فالملائكة إذن ليسـوا آلهة من دون الله ، إنّما هم مســـلّمون لأمـــره ، وحملة وحيه الى الخلق ، فلا تصح عبــادتهم ، وإنّما عرّفنا الله بجــانب من دور الملائكة وهو شيء من الغيب ، لأنّ إشراك طائفة من النـاس بالملائكة نابع من جهلهم لحقيقة هذا الخلق ، لهـذا نجد القـرآن بعد هـذا التعريف المختصر والبليغ في نفس الـوقت ، ينطلق لتأكيد حقيقة التوحيد قائلا :

(**إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ**)

ويلاحظ ورود ثلاثة تأكيـــدات على هـــذا الأمر ، هي القسم وهو أعظمها وإنّ التوكيديّة واللام في عبارة لواحد ، الواقعة في جواب القسم.

[5] ولكي لا يشــــبع الإنســـــان ميوله الفطرية نحو العبودية للـــرب باعتقـــادات باطلة تجـــاه الكـــون وبعض المخلوقـات يـبيّن الله بـأنّ كـلّ ما في الكـون هو مخلـوق مفتقر اليه في وجوده ، وهذا البيـان يعطي البشر شـعورا بالانســــــجام مع الطبيعة من حوله وهو يعبد ربه ، وعلى العكس من ذلك لو أشرك بالله.

(**رَبُّ السَّـــــــــــماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ**)

ولعل الحقـائق العلمية القائلة بـأنّ لكل نجم وكـوكب مداراً خاصّا به ، فمشـرقه ومغربه يختلف فيه عن غـيره ، تكشف عن جـــانب من هـــذه الآية الـــتي جـــاءت كلمة المشارق فيها جمعا.

وهنـــاك احتمـــال آخر لمعـــنى الكلمة هو : إنّ رحلة الشمس من عام لعام (أو بالأحرى حركة الأرض السـنوية حـول الشـمس) تسـتدعي وجـود مشـارق لها بعـدد أيّـام السنة.

ولعل تخصيص المشارق دون المغارب بالذكر إنّما هو بسبب أنّ عبّاد الشمس يسحرهم شروقها فيعبـدونها فيها ، ولذلك استدعى التأكيد على أنّ الله هو ربّ المشارق.

[6] أمّا عن الكـواكب الـتي يتخـذها فئـام من النـاس معبـودا من دون الله ، إمّا لما يـرون من اعتقـادهم أنّ ظهورها وغيابها يؤثّر في حياة البشر ، أو لأنبارهم بروعتها ، فإنّ القرآن يوضح دورها في السماء فيقول :

(**إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا**)

القريبة من الأرض ...

(**بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ**)

هـذه الكـواكب قد تكـون موجـودة في السـماوات الأخـــرى ، ولكنّها لا تكـــون زينة لها ، بســـبب انعـــدام الأوكسجين والهواء من فضائها ، مما يمنع بقـاء الضـوء أو انعكاسه.

[7] وبالإضـافة الى هـذا الجمـال يشـير السـياق الى القـوة والمتانة في خلق السـماء ، حيث جعل فيها الرصد والحرس ، يمنعون نفوذ الشياطين الى الملأ الأعلى.

(**وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ**)

[8] وتهدم هذه الآية الكريمة العقيـدة الباطلة ، الـتي تقول بمعرفة الجن لجميع الأقدار التي جـرت في الماضي ، وما تجــري الآن ، وما سـتقع مسـتقبلا ، لأنهم يتصـلون بـالغيب ويطّلعـون عليه ، وينفي القـرآن ذلك نفيا مباشـرا بقوله :

(**لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى**)

لا يستطيعون التجسّس أو اسـتراق السـمع من الله ، وهو يـوحي للملائكة بما يقـدّره ويقضـيه ، لتباشر تنفيـذها بإرادته تعالى.

(**وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ**)

يقذفهم حـرس السـماء بأسـلحتهم لو حـاولوا النفـوذ واختراق الحجب ، فهم في يقظة دائمة.

[9] ويدحرون الشياطين.

(**دُحُوراً**)

عند تسلّلهم لاسـتراق السـمع ، كما يكتب عليهم ذنبا يجمع الى جــرائمهم الأخــرى ، فينــالون بــذلك العــذاب الشديد في النار بعد الحساب.

(**وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ**)

قال الإمام الباقر (ع) :
«**عـــــذاب واصب أي دائم موجع ، قد وصل الى قلوبهم**» [2]

[10] والشياطين يسعون جهدهم للحصول على بعض المعلومـات من السـماء من أجل إضـلال أهل الأرض بها ، بعد تضـمينها الأفكـار الباطلة ، وما عند الكهنة والمنجّمين من الأخبار الصـائبة هو من هـذا النـوع ، فهم يجلبـون ثقة النـاس بهم ، من خلال الجزئيـات الصـحيحة حـتى يثقـون بكل ما يصدر عنهم من الباطل.

(**إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ**)

وفي الآية وآيــــات أخـــــرى مشـــــابهة دلالة على أنّ الشـياطين تتمكّن من الحصـول على بعض الأخبـار ، من خلال مغامراتها المستمرة.

كما نستوحي من الآية وآيات أخـرى أيضا في القـرآن أنّ حـديثا يـدور لـدى الملأ الأعلى عما يجـري في الـدنيا ، متى ينزل المطر ، متى تحدث الزلازل ، و... و... ولا ريب أنّ للظـواهر الواقعة مسـتقبلا إرهاصـاتها ودلالاتها ، ولعل الحاسة السادسة ، والنظر المغناطيسي ، والانتقـــــــال التلقـائي ، والتنبّـؤات الصـحيحة ، والأحلام ، وحـتى بعض أبعـاد السـحر والكهانة والعرافة و... و... تـدل على وجـود مبشّرات ومنذرات قبل وقوع الحوادث.

أمّا الـذين يزعمـون بـأنّهم يتبعـون الجن والشـياطين فــإنّهم خــاطئون ، لأنّ الجن أساسا لا يملكــون من علم الغيب شيئا ، حيث يمنعهم حرس السماء من ذلك.

[11] وبعد هـــــذه المقدمة البليغة الـــــتي حطّمت أسطورة الشرك بالجن ، والتصوّر

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (400).

بأنّها آلهة من دون الله ، يخلص السـياق الى تسـاؤل من شأنه أن يهزّ نفوس الكفار والمشركين وعقائدهم من الأعمـاق ، ويبعثهم على التسـليم للرسـالة وعقائـدها الصائبة لو أرادوا ذلك.

يقول تعالى :

(**فَاسْتَفْتِهِمْ**)

أيّها الرسول واسألهم. والاستفتاء هو استطلاع الـرأي ...

(**أَهُمْ**)

يعني الكفار والمشركين ...

(**أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ**)

ولتفسير هذه الآية ثلاثة أوجه :

الأول : أنّ المعـني بالتسـاؤل هم الملائكة ، ولا يملك الإنسـان إجابة سوى الاعـتراف بتفوّقها الـذاتي عليه من حيث القوة ، فهي أقوى حتى من الجنة ، الـتي يتصوّرها الإنسـان لضـعفه أنّها آلهة ، فهي من جهة القيـاس أولى بادّعاء الالوهية والتمرّد على الله ، لكنّنا نجـدها خاضعة له مسلمة لأمـره ، فلما ذا إذن هـذه النزعة نحو الربوبية في بعض بني البشر أو التكـبر ، وهم ضـعفاء في الخلقة حيث عنصرهم الطين اللازب؟!

الثاني : إنّ المقصود بالخلقة الشديدة هم الجن ، وما داموا أضعف من مقاومة قدرة الله وعذابه فلما ذا يشرك البعض بهم ، وهذا الأمر يستوجب العذاب الأليم

الذي لا تحتمله أبدانهم الطينية الضعيفة؟!
الثالث : إنّ الآية تشير الى سائر خلق الله في الكون ، كالسـماوات والأرض والكـواكب حيث تتجلّى آثـار قـدرة الله ، التي دفع التشكيك فيها بالإنسـان الى الكفر بـالبعث ، فـــإذا ما تفكّر الإنســـان في خلقها وثق بقــــدرة ربه ، وبالتالي آمن بيـوم البعث ، وهـذا أظهر الوجـوه فيما يبـدو لي.

[12] ومشكلة الإنسـان تجـاه الحقـائق الكبـيرة أنّه لا يستوعبها إلّا إذا اتصف بسـعة الأفق والتعقّل ، وكلما كـان العقل كبـيرا كـان صـاحبه أقـدر على اكتسـاب المعرفة ، وعقل الحقائق ، والإمام علي (ع) يقول :

«**يا كميل ابن زيــاد : إنّ القلــوب أوعية فخيرها أوعاها**» [3]

والعاقل حينما يصــغي للحقــائق أو يشــاهدها يتعجّب منها ولكنه يصـدّقها ، فلا يكـذبك لو قلت له بـأنّ الـدلفين يستخدم الآن في عمليات التجسّـس أو أنّ العلم الحـديث اخــترع جهــازا فلق به رأس البعوضــة. أمّا الجاهل فهو لا يكذّب الحقائق وحسب ، بل ويستهزئ بصـاحبها ، ويسـخر منه ، وقد يوصــمه بالجهل والجنــون ، وفي الــوقت الــذي يـدل موقف الإعجـاب على نمـوّ العقل ، وسـعة الصـدر ، واستيعاب الحقيقة ، فإنّ موقف السخرية دليل على ضيق الأفق ، وجمود الفكر ، والقرآن يصف الرسول بالإعجاب ، بينما يصف الكفار والمشركين بالسخرية.

(**بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ**)

[13] ومن شواهد تحجر قلـوبهم ، وجمـود عقـولهم ، أنّهم لا ينتفعــــون بالــــذكر ، وقد يتعمّــــدون التغافل عن الحقيقة.

---

(3) نهج البلاغة / ح (147) / ص (495).

(**وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ**)

والتذكير هو إثـارة معلومـات الإنسـان في ذاكرته ممّا يدلّ على أنّ عقل الإنسان يحتـوي على حقـائق كثـيرة لو استثاره صاحبه.

[14] وهـؤلاء ليس فقط لا يعـودون الى ذاكـرتهم إذا استثيرت ، إنّما يرفضون الانصياع للحق مع ظهـور الآيـات والشـــواهد عليه ، وأعظم من ذلك جـــرأة على الله أنّهم يستثيرون الناس للسخرية على الحق.

(**وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ**)

وقد تكون في الآيات إشـارة الى ثلاث مراحل يمر بها هؤلاء في رفضهم للحق : الأولى : السخرية بالحق لمجرد رؤيته ، والثانية : قســـوة القلب ، وهي نتيجة للســـخرية حيث تـتراكم عليه الحجب ، فلا يعـود صـاحبه قـادرا على التفاعل مع التذكرة ، ومطابقة الحق الخارجي مع الفطرة البشـــرية والعقل ، والثالثة : محاربة الحق ومحاولة صـــدّ الناس عنه.

[15] ومن أجل أن يـــبرّر هـــؤلاء كفـــرهم بالحقيقة ، ويضـلون النـاس عنها يلجـأون الى إثـارة الشـبهات حـول الحقائق ، الشبهة الأولى حاولوا من خلالها تشكيك النـاس في أصل الرسالة.

(**وَقالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**)

واختاروا تشبيهها بالسحر ، لأنّه أقرب الأمور وأشـبهها للحق ظاهريا ، ومن قصة النـــبي موسى (ع) يتضح لنا أن حبال السحرة خيّلت للناس أنّها تسعى ، إلّا أنّ الفرق بين الســـحر والحق أنّ الســـحر لا واقع له ، بينما الحق واقع قائم.

[16] والشبهة الثانية قـالوا : كيف يبعث الإنسـان بعد أن يصـير ترابا وأعضـاء ممزّقـة؟! لأنّهم يريـدون حيـاة لا مسـئولية فيها ، وهـذا الاعتقـاد يلتقي مع عبـادتهم للجن وسائر الشركاء الذين يعبدونهم لـيرفعوا عنهم المسـؤولية بالشفاعة.

(**أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**)

[17] ثم يضيفون استهزاء وسخرية :

(**أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ**)

الذين تلاشوا في التراب؟!

[18] فيجيبهم الله على لسان نبيه (ص) إذ يترفّع عن مخاطبتهم تحقيرا لهم وإصغارا ، وهكذا لا نجد في القـرآن ولا أيّة واحـــدة ، تشـــتمل على خطـــاب مباشر من الله للمشركين والكفار على صعيد الدنيا :

(**قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ**)

أي ساجدين مستسـلمين للإرادة الإلهية ، حيث تنتهي الحياة الـدنيا وحرية الإنسـان تباعا لها ، ولا يبقى هنـاك إلّا العمل والحساب ، حيث تتجلّى المسؤولية الـتي لا محيص منها تجليّا تامّا.

فَإِنَّما هِيَ زَجْـرَةٌ واحِـدَةٌ فَـإِذا هُمْ يَنْظُـرُونَ (19) وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (20) هذا يَوْمُ الْفَصْـلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِـهِ تُكَـذِّبُونَ (21) احْشُـرُوا الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كـانُوا يَعْبُـدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللـهِ فَاهْـدُوهُمْ إِلى صِـراطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُـوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْـؤُلُونَ (24) ما لَكُمْ لا تَناصَـرُونَ (25) بَـلْ هُمُ الْيَـوْمَ مُسْتَسْـلِمُونَ (26) وَأَقْبَـلَ بَعْضُـهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28) قالُوا بَـلْ لَمْ تَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ (29) وَما كـانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَـذائِقُونَ (31) فَأَغْوَيْنـاكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (32) فَـإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَـذابِ مُشْـتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِـالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كـانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلـهَ إِلاَّ اللـهُ يَسْـتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُـونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ

لَذائِقُوا الْعَـذابِ الْأَلِيمِ (38) وَما تُجْـزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39)

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ

هدى من الآيات :

يحـدثنا السـياق في هـذه المجموعة من الآيـات عن جـوانب من اليـوم الآخر ، حيث الصـيحة العظيمة فـإذا بالظالمين قيـام ينظـرون وينتظـرون عـذاب اللـه. وهنـاك تتجلّى المسـؤولية ، الـتي طالما تهرّبـوا منها في الـدنيا ، فتسقط تبريراتهم التي زعمـوا بـأنّهم قـادرون على جعلها وسيلة للتخلص من جزاء أعمالهم.

والتي من بينها إلقاء المسؤولية واللوم على الآخـرين ، إذ يـدّعي البعض بأنّه كـان مكرها ومجبـورا من قبل السلطات أو القوى الاجتماعية.

ومن أبرز أدلّة المسـؤولية في الـدنيا وجـود الجـزاء ، فالذي يركب سفينة ثم تغرق يكـون مسـئولا بنسـبة معينة عن غرقها ، مهما بـرّر الأمر بغفلة ربّانها مثلا ، وهكـذا لو كنا في مجتمع يحكمه الظالم ثم سكتنا عنه فشملنا الـذل والبلاء ، فـإنّ ذلك دليل مسـئوليتنا عن الوضع ، حـتى لو برّرنا بثقافة الجبر أو فلسفة الانتظار.

ولكي يعمّق القـرآن شـعورنا بالمسـؤولية ، ولا يـدع التـبريرات تحجبنا عن هـذا الأمر الخطـير ، والأساسي في حياة البشر ، يصوّر لنا مشاهد من يوم القيامة ، ويثير فيها جانبا من التبريرات ، التي يتشـبّث بها الظـالمون آنـذاك ، مع ردّها ردّا قاطعا ، وكلّ ذلك في صورة حوار بينهم وبين الله والملائكة ، وإنّما يرينا السـياق هـذه المشـاهد من الآخـرة لكي تنعكس على حياتنا الدنيويّة في صـورة إحساس نفسي وعمليّ عميق بالمسؤولية.

بينات من الآيات :

[19] (**فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ**)

الزجـرة تعبـير آخر عن النفخة ، وهي صـوت يصـدره أحد الملائكة بـإذن الله فيميت النـاس أو يبعثهم للحيـاة ، كيفما أراد تعـالى ، وقد يفهم من ذلك أن انبعـاث الحيـاة في الأرواح والعظـام الميتة بحاجة الى تفـاعلات سـريعة جدا ، وهـذا ما تـوفّره الزجـرة ، الـتي تبعث النـاس أحيـاء وفي كامل وعيهم للحساب ، وإذا كان الإنسـان في الـدنيا يخلق جـاهلا ثم يتـدرّج في المعرفة ليصل الى حد من الكمال ، فإنّه يوم البعث وبعد الزجرة ينهض بقوة كاملة ، ووعي تام.

[20] وأول نظـرة يلقيها الظـالمون الى ما حـولهم ، تكفيهم علما بمصـيرهم ، حيث الويل والثبـور ، وقد كـانوا محجـوبين عن هـذه الحقيقة في الـدنيا ، بسـبب ذنـوبهم وتكذيبهم بالرسالة الإلهية.

ومن طبيعة البشر أنّه لا يعـترف بوقوعه في الخطأ والهلكة إلّا قليلا ، وفي اللحظـات الـتي ييـأس ويفقد فيها أدنى أمل بإمكانية التبرير.

فالظـالمون إذن يحـاولون أن لا يعـترفوا بخطئهم أو ضعفهم ، وهلكتهم في الدنيا ،

ولكنّهم يومئذ لا يملكون سوى الاعتراف ، ونبذ التـبريرات التي تشبّثوا بها في الدنيا للفرار من المسؤولية.

(**وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ**)

والدين هو مجموع الفروض والواجبـات الـتي فرضـها الله على الناس ، كإقامة الصلاة والعدل و... و... وبالتالي فـإنّ الـدين هو المسـؤولية ، وقد تهـرّب هـؤلاء منها ولم يتحمّلوها ، لكنّهم وجـــدوها يـــوم البعث هي الحاكمة ، فعلموا بأنّهم هالكون وخاسرون ، وقد يكون معـنى الـدّين هنا خصوص الجزاء.

[21] ويؤكّد لهم المنـــادي من قبل الله ـــ وهو أحد الملائكة ــ هـذه الحقيقة ، وأنّ هـذا اليـوم ليس للجـزاء وحسب ، إنّما هو يـوم الجـزاء العـادل ، الـذي يفصل فيه بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.

(**هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**)

وفي الآية إشارة صريحة بـأنّ التكـذيب هو الـذي دفع بهؤلاء الى عدم تحمّل المسؤولية ، بل الى الظلم والجـور ، فمن الطـبيعي أنّ الإنسـان الـذي يشـعر بأنّه لا يجـازى على أعماله السـيئة سـوف يتمـادى فيها ، ومن هـذا المنطلق يكـون الإيمـان بـالآخرة حجر الزاوية في تـوازن فكر وسلوك الإنسان.

[22 ـ 23] ثم يأمر الله بجمع العاصـين الى بعضـهم ، وإدخالهم النار ، وهم ثلاثة أنواع :

1 ـ الظـــالمون ، وهم الـــذين يظلمـــون أنفســهم ويظلمون الآخرين.

2 ـ الآلهة المزيفة الـتي يعبـدها الظـالمون من دون الله ، كالأصنام الجامدة ،

والأخـرى المتحركة ، أمثـال الطغـاة ، وأصـحاب المـال ، وعلماء السوء.

3 ـ الأزواج ، وقد قال بعض المفسرين : إنّ المقصود بالكلمة ظاهرها وهي الزوجة ، وهــذا يعــني أنّ الزوجة لا يمكنها أن تبرر عدم تحمّل المسـؤولية بـأنّ زوجها لا يقبل أو لا يســمح لها بــذلك ، وإلّا فإنّها ســوف تلقى العــذاب وتدخل معه الى النار.

وثمّة تفسير آخر للكلمة وهو : إنّ المقصـود بـالأزواج هم الأشباه والنظائر ، ويعـني ذلك أنّ كل جماعة تتجـانس مع جماعة أخرى في عملها فإنّها تحشر معها ، كالخمّارين والنمّامين فإنّهم يحشرون مع أمثالهم.

ويبدو أنّ الأزواج هم النظائر المكمّلة لبعضها ، ويقـال لمثنى الحذاء والنعل زوج ، لأنهما يتكاملان ويؤلّفـان شـيئا واحـدا ، ومن هنا فـإنّ كلمة الأزواج تشـمل أولئك الـذين يسكتون عن الظلم ويرضـون بأفعـالهم ، لأنّ الظلم زائـدا السـكوت عنه والرضى به يتكـاملان ويلـدان واقع الظلم والتخلّف والإرهـاب ، وإذا صح هـذا التفسـير فـإنّ القـرآن يقسّم الناس الى ثلاث فئات :

الأولى : أئمة الظلم والجــــــور وما يرمز لهم من الأصنام الجامدة.

الثانية : أتباع أئمة الظلم ، وأشـياعهم الـذين ينفّـذون الظلم مباشرة ، كالجند وأجهزة الاستخبارات والاعلام و... و...

الثالثة : الساكتين عن الطواغيت وأعوانهم من سـائر الناس ، وهؤلاء جميعا يجمعـون ويسـاقون الى النـار بـأمر الله إذ يقول يوم القيامة :

(**احْشُـــرُوا الَّذِينَ ظَلَمُـــوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كـــانُوا يَعْبُدُونَ* مِنْ دُونِ اللهِ**)

ونستلهم من هذه الآية ـ كما من آيات عديدة أخرى ـ أنّ أعظم ما يسأل عنه الناس يوم القيامة الولاية ، فهم مسئولون عن القيادة التي كانوا يتبعونها ، والآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله ، كالطاغوت السياسي والثقافي والاقتصادي ، وبالتالي النظام الاجتماعي الذي كانوا يخضعون له.

(**فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ**)

ولعلنا نفهم من قوله تعالى : «فاهدوهم» أنّ الذين تقدّم ذكرهم يحشرون الى جهنم عميانا عمى ماديا ، تجسيدا للعمى المعنوي الذي اختاروه لأنفسهم في الدنيا ، وفي ذلك قوله تعالى : «**وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**» [1] ، فهم بحاجة إذن الى من يدلّهم على صراط النار ، ويهديهم الى حيث يستقرّ بهم المصير.

[24] ولكن هل ينتهي كل شيء؟ كلّا ... إنّما يوقف هؤلاء للحساب ، والحساب أبرز تجليات العدالة الإلهية والمسؤولية البشرية ، فمن جانب يدخل العصاة الجحيم وهم قانعون بعدالة الله ، وأنّ هذا المصير جاء نتيجة لعملهم لا نتيجة لظلم ، ومن جانب آخر يصلون الى اليقين بالمسؤولية التي أنكروها في الدنيا.

(**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ**)

عن أفكارهم ، وأقوالهم ، وأعمالهم ، وقبل كلّ ذلك عن إمامهم وخطّهم الديني والسياسي العام.

[25] وأول الأسئلة التي توجّه إليهم :

---

(1) الإسراء / (72).

(**ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ**)

فمن عـادة الإنسـان في الـدنيا أنّه يقـدم على الظلم وعموم الخطيئة اعتمادا على الآخرين ، فالشـرطي الـذي يعتقل المجاهدين يعتمد على مسئول فرقته ، وهـذا الآخر بدوره يعتمد على مدير الشرطة ، وهكذا دواليك ، ويشكل الجميع شيئا واحدا هو جهـاز ما يسـمّى بـالأمن أو الحـزب الحاكم الذي يعتمد أفراده في الظلم على بعضهم.

وهـؤلاء تتقطّع بهم الأسـباب والروابط يـوم القيامة ، كما تقدّمت بذلك الآية الكريمة ، وهذه الفكرة ليس تنفعنا على صعيد ذلك اليوم وحسب حيث نطّلع على مشهد منه ، بل يجب علينا في الـدنيا ـ وانطلاقا من هـذه المعرفة ـ أن لا نظلم أحدا اعتمادا على أحد.

[26] إنّ من نعتمد عليهم في ظلمنا لن ينفعونا بشـــيء في الآخـــرة ، بل لن ينفعـــوا أنفســـهم ، إذ سيستسـلمون أمـام الإرادة الربانية ، الـتي طالما تمـرّدوا عليها بجهلهم في الدنيا ، وهـذه إشـارة الى حاكميّة الـرب المباشرة في ذلك اليوم.

(**بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**)

ومن لا يستســلم لإرادة الله باختيــاره فإنّه يخضع لها بالرغم منه.

[27] ولأنّ الظلمة وأعوانهم اعتادوا على حياة التبرير ، ولعلّها أنقذتهم من الجزاء في بعض المواضع من الحيـاة الـدنيا ، فـإنّهم يحـاولون التشـبّث بها في الآخـرة أيضا ، طمعا في التنصّـل من المسـؤولية ، ومن ثم الهـرب من الجزاء والعدالة الإلهية ، وأنّى لهم ذلك؟

والقـرآن يصـوّر تجليّا للتلاوم ، ومحاولة التـبرير ، من خلال عرضه الرائع لحوار يدور

بين المستضعفين والمستكبرين ، التابعين والمتبوعين.

(**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ**)

وهم التابعون ...

(**عَلى بَعْضٍ**)

وهم المتّبعون وأئمة الظلم ـ حسبما يبدو ـ ...

(**يَتَساءَلُونَ**)

من أجل معرفة المسؤول عن الظلم ، وبالتالي عن المصير السيء الذي صار إليه الجميع ...

[28] أمّا المستضعفون فقد خاطبوا المستكبرين :

(**قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ**)

هنا يحاول التابعون رفع المسؤولية عن كاهلهم بعذرين :

الأول : قالوا إنّنا لم نكن نبحث عن الكفر والظلم ، ولا نسعى إليهما إنّما أنتم الذين حملتم الوزر إلينا ، فكنتم تأتوننا ولم نكن نأتيكم.

الثاني : ثم ادّعى هؤلاء بقولهم «عن اليمين» أنّهم كانوا مجبرين على اتباع الظلمة ، ولعل اليمين تشير الى القوة لا الى الجهة اليمنى التي تخالف الشمال ، وقد استخدم القرآن هذه الكلمة تعبيرا عن القوة ، قال تعالى : «**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ* لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ**» [2] يعني القوة ، وإنّما استخدمت اليمين للتعبير

(2) الأحقاف / (44 ـ 45).

عن القوة لأنّ قوة الإنسان تتجلّى عادة في يمينه.

[29 ـ 30] وأمام هذا الموقف من المستضـعفين ضد المستكبرين يـدافع الآخـرون عن أنفسـهم ، وفي دفـاعهم بيـان للواقع كما هو ، كما كـان في اتهـام أولئك إشـارة لأسلوب الطغاة في تضليل الناس.

فأئمة الكفر والظلم يرفعـون التهمة عن أنفسـهم بـأمرين ينطويـان على الإشـارة لقابلية الانحـراف عند الإنسان :

الأول : (**قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**)

وحينما لا يكون الإنسان مؤمنا بعقيـدة ما ، ولا ملتزما بمبدإ ما ، إنّما يعيش خور العزيمة وضعف الإرادة والفراغ الثقافي والقيادي في ذاته ، يكـون عرضة للانحـراف ، أولا : لأن الطغاة يستخدمون شـتى ألـوان الضـغط عليه حـتى يخضـعوه لأهـوائهم ، يرغّبونه ويمنّونه ثم يهدّدونه ويتوعّدونه ثم يضـلّونه ويغوونه ، فكيف يصـمد ـ من دون الإيمان بالله والثقة بنصره ـ أمام كل هـذا الضـغط؟ ثانيا : يسـتحيل على البشر بطبيعته أن يعيش الفـراغ ، فهو إن لم يعتقد بالإسـلام مثلا ويصـرف ماله وطاقاته من أجله ، فإنّه سوف يعتقد بمبدإ آخر وسيصـرف طاقاته في سـبيله ، وفي الحديث قال الإمام الباقر (ع) :

«ما من عبد يبخل بنفقة ينفقها فيما يرضي الله إلّا ابتلي بأن ينفق أضعافها فيما أسخط الله» [(3)]

أمّا المـؤمن فهو يتحـدّى الإعتقـادات الباطلة بإيمانه ، ويقاوم الأفكار التبريرية والثقافة السلبية بثقافته الرسالية ، ويرفض الانتماء لحزب الشيطان وقيادة

(3) بح / ج (78) / ص (173).

الطـاغوت بانتمائه لحـزب الله والقيـادة الرسـالية ، فيجد قوّة مادية ــ الى جـانب قوته المعنوية ــ لمواجهة ضـغوط المستكبرين.

الثـاني : نفى المسـتكبرون أن تكـون لهم سـلطة لا تقهر على المستضعفين من أتباعهم.

(**وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ**)

إنّ ما يكمّل مسـيرة الطغـاة هو قابلية الاسـتغلال الموجـودة عند النـاس ، فالطـاغوت هو عامل خـارجي للظلم والانحـــــراف ، أمّا العامل الأساسي فيكمن في الواقع السلبيّ السائد في المجتمع ، كـالخوف ، والجهل ، والتفـرّق ، والظلم الاجتمـاعي ، أمّا الله فإنّه لم يفـرض سيطرة أحد من الناس بصورة تكوينية أبدا.

الثـالث : المجتمع الـذي يظلم بعضه بعضا ، فيأكل قويّة حقوق ضعيفة ، ويستغل الغنيّ الفقير ، ويبـتز تجـاره المسـتهلكين فيه ، يكـون تربة مناسـبة لنمـوّ الأنظمة الجائرة فيه ، لأنّ المجتمع الـذي يقـوم أساسا على الظلم لا يسلم فيه أحد منه ، بل سوف يتصـاعد الظلم فيه حـتى يبلغ قمته المتمثلة في النظـام السياسي فيـولي أعـتى الظلمة أموره ، ويكون مصـداقا للآية الكريمة : «**وَكَـذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً**».

إنّ النظـام السياسي هو الجـانب البـارز من العملة بينما جانبها الآخر هو الفكر والسـلوك ، والعاديـات والأعراف الاجتماعية.

والطاغوت يشعر ـ بدوره ـ أنّه قائم بسلبية مجتمعة ، ولهذا يقوم بتعميقها ونشرها.

(**بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ**)

وتفسّــر هــذه الآية تفســيرا عميقا الحكمة المعروفة «كما تكونــون يــولّى عليكم» ، وربما لــذلك حــذّر أمــير المؤمنين (ع) في وصيته المعروفة قائلا :

«**لا تــتركوا الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكر فيولي عليكم شراركم**» [4]

[31] وهنالك لا يجد الظــالمون بــدّا من الاعــتراف باستحقاق العذاب ، وهذا هو معنى المسؤولية في قول الله : «**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ**» فـالتبرير في الـدنيا لا ينفع الإنسان في الآخرة إنّما يورده النار.

(**فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ**)

لقد ســبقت كلمة ربنا على المســتكبرين بالغواية والضلالة ، والعذاب بالنار ، ولا يمكن لمن يتحدّى رسالات ربه الاهتـداء الى الحق ، لأنّ المصدر الوحيد لنور الهداية فضل الله ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور.

[32] ثم بيّن المستكبرون أنّهم بدورهم كانوا غاوين ، وأنّ اتباع المستضعفين لهم كان يؤدي بهم الى الغواية. وهكــذا يتحمّل المستضــعفون كامل المســؤولية عن ضلالتهم لأنّهم اتبعوا رجالا ضالين. وهل ينتظر لمن اتبع ضالا أن يهتدي السبيل؟

(**فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ**)

إنّ أبسط أحكـام العقل وأوضـحها هو ضـرورة اتبـاع الهداة المهديين ، وهؤلاء الذين يقلّدون أو يتبعون الضالين يحتجّ عليهم ربّهم بهــذا الحكم الــذي هــداهم اليه العقل بوضوح شديد.

---

(4) نهج البلاغة / وصية (47) / ص (422).

[33] وردّا على تـبريرات هـؤلاء وأولئك يؤكّد القـرآن بأنّ الظلم المشترك بين المستكبرين بجورهم ، والمجتمع بسـكوته وسـلبيته ، سـوف يـؤدّي الى المصـير الواحد ، والجزاء الجامع ، وهذا بالضبط معنى المسؤولية.

(**فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ**)

ولعلّ الآية الكريمة تشير الى فكرة هامة ، من شـأنها ـ لو فهمها الإنسـان ، وتعمّق فيها ، وعمل بها ــ أن تـزكّي نفسه وتربيّها على الإيمان ، وهي أن يحمّل كلّ فرد نفسه المسـؤولية ويتّهمها باسـتمرار ، أنّى كـان دور الآخـرين ، وهذه من صفات المتقين الذين وصفهم إمـامهم علي (ع) بقوله :

«**ولقد خـالطهم أمر عظيم! لا يرضـون من أعمـالهم القليل ، ولا يسـتكثرون الكثـير ، فهم لأنفسـهم متّهمـون ، ومن أعمـالهم مشـفقون ، إذا زكّي أحد منهم خـاف مما يقـال له ، فيقـول : أنا أعلم بنفسي من غـيري ، وربي أعلم بي مـني بنفسي! اللهم لا تؤاخـذني بما يقولـون ، واجعلـني أفضل مما يظنّون ، واغفر لي ما لا يعلمون**» [5]

ونعرف دور هذه النظـرة من المـؤمن تجـاه نفسه إذا عرفنا طبيعة النفس البشرية التي تعيش التبرير والأعـذار وتسـعى للفـرار من ثقل المسـؤولية ، وبكلمة : لا بد أن نعرف بأنّ ذهـاب الظـالمين الى النـار ، وتحمّلهم العـذاب الأليم ، لا يعـني براءتنا ، بل قد يكـون دليلا على العاقبة الواحـدة لهم ولنا ، إن كنّا سـاكتين عنهم ، راضـين عن فعالهم.

[34] وحـتى لا يتصـوّر الإنسـان بـأنّ هـذا الحـديث ينصرف الى جماعة كانت في

(5) نهج البلاغة / خ (193) / ص (304).

التاريخ الغابر ، بالذات وأن الإشـارة إليهم كـانت بالضـمير الغائب «فإنّهم» يلحق القرآن حديثه عنهم بتأكيد مســتقل على أنّ هذا المصير يشـمل كـلّ مجـرم ، فعاقبة المجـرم الذي يخالف سـنن الله ، ويتبع هـوى النفس ، ويعبد ذاته ، ويلحق الأذى بغيره ، العذاب الأليم.

(**إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**)

[35] من هم هـؤلاء المجرمـون؟ وما هي صـفاتهم؟ وكيف نتقي مصيرهم الأليم؟

يناسب الســياق في بيــان ذلك تمهيــدا لبيــان من يخالفهم وهم المتقون ، لتكتمل الصورة لمن أراد النجاة ، ويحق القول على الجاحدين.

وأعظم ميزات المتقين التوحيد ، كما أنّ الشرك بالله أخطر ذنـوب المجـرمين ، الـذين يرفضـون التسـليم للإله الواحد ، ويتخـــذون الأنـــداد من دون اللـــــه. إنّ رفض الســـــلطات الفاســـــدة ، والأنظمة المنحرفة ، والتقليد الأعمى لرجال ضالّين ، الشرط الأول لرسالات الله.

(**إِنَّهُمْ كـــانُوا إِذا قِيــــلَ لَهُمْ لا إِلـــهَ إِلَّا اللـــهُ يَسْتَكْبِرُونَ**)

فهم ليســـوا على الخطأ وحسب ، إنّما ويتصـــورون أنفسهم على الحق ، ولو جاءهم من يبيّن خطأهم رفضـوه ، وأخـــذتهم العـــزّة بـــالإثم ، وهـــذه من العقد النفســية الخطيرة التي ينبغي للإنسـان اجتنابها ، ذلك أنّ المقيـاس في الإيمان بالله هو التسليم للحق في كـلّ الأحـوال مـتى تـبيّن ، ولو خـالف العـرف الاجتمـاعي أو اعتقـادات الفـرد وسيرته السـابقة. ولا شك أنّ اعـتراف الإنسـان الفـرد أو الأمة بخطئه والذي قد يستتبع التغيير الجـذري في الحيـاة أمر صعب جدا ، ولكنّه يأخذ به الى العاقبة الحسنة

في الـدنيا والآخـرة ، ومن أمثلة هـذه الحقيقة على صـعيد الأمم قـوم يـونس (ع) الـذين قـال الله عنهم : «**فَلَـوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَـوْمَ يُـونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَـذابَ الْخِـزْيِ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ**». [6]

ومن أمثلتها على صعيد الأشخاص والتي تبيّن صـعوبة الأمر نـذكر هـذه القصة المـؤثرة من التـاريخ ، ففي بحـار الأنوار :

عن علي بن أبي حمـزة قـال : «كـان لي صـديق من كتّاب بني أميّة ، فقال لي : استأذن لي على أبي عبد الله ، فاستأذنت له ، فلمّا دخل سلّم وجلس ، ثم قال : جعلت فـداك! إنّي كنت في ديـوان هـؤلاء القـوم ، فأصـبت من دنياهم مـالا كثـيرا ، وأغمضت في مطالبه ، فقـال أبو عبد الله : لو لا أنّ بني أميّة وجدوا من يكتب لهم ، ويجبي لهم الفيء ، ويقاتل عنهم ، ويشهد جماعتهم ، لما سلبونا حقّنا ، ولو تركهم النـاس وما في أيـديهم ما وجـدوا شـيئا إلّا ما وقع في أيديهم ، فقال الفـتى : جعلت فـداك فهل لي من مخرج منه؟ قال : إن قلت لك تفعل؟ قال : أفعل ، قال : أخـرج من جميع ما كسـبت في دواوينهم ، فمن عـرفت منهم رددت عليه ماله ، ومن لم تعـرف تصـدّقت به ، وأنا أضـمن لك على الله الجنة ، قـال : فـأطرق الفـتى طـويلا فقـال : قد فعلت جعلت فـداك ، قـال ابن أبي حمـزة ، فرجع الفـتى معنا الى الكوفة ، فما تـرك شـيئا على وجه الأرض إلّا خـرج منه ، حـتى ثيابه الـتي كـانت على بدنه ، قـال : فقسـمنا له قسـمة ، واشـترينا له ثيابا ، وبعثنا له بنفقة». [7]

[36] ولأنّ العمل بمضامين التوحيد صعب هكذا ، نجد الكثـير من النـاس يسـتكبرون ولا يسـتمعون للموعظة ، وتأخـذهم العـزة بـالإثم ، بل يتهمـون صـاحب الرسـالة بأرخص التهم ، كما قالوا للأنبياء أنّهم شعراء (ونفوا بـذلك منهم الحكمة

---
(6) يونس / (98).
(7) بح / ج (75) / ص (375).

والاهتداء) ثم قالوا أنهم مجانين ، كما أنهم اتهمــوا الرسل بحب الرئاسة ، وأنّ دعوتهم الى الله ليست سوى وسـيلة للتأمر عليهم.

(**وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ**)

وهكـذا يجب ان يعـرف الرسـاليون صـعوبة الإصـلاح الحقيقي المتمثّل في التوحيد ، ويتفهّمــوا العقبـات الــتي تعترضهم في الوصـول اليه ، حـتى لا يصـيبهم الإحبـاط أو اليــأس حينما يصــطدمون بــالرفض في بــادئ الأمر ، فالأنظمة الطاغوتية وحتى بعض النـاس سـوف لا يكتفـون بـرفض دعــوتهم ، بل ســوف يثــيرون الشــبهات حــول أشخاصهم.

[37] ويجب على الرســاليين أن يقيّمــوا مســيرتهم على مقياس الحق ، وهو القرآن وسنة الرسول وأهل بيته ـ صلوات الله عليهم ـ ، ليزدادوا ثقة برسالتهم ، وليعرفـوا أخطاءهم حتى لا يعتـبروا موقف النـاس والأنظمة مقياسا لمعرفة الحق ، لأنّ النـاس بجهلهم وسـلبيتهم النفسـية ، والأنظمة بعــدائها ، ســوف يثــيرون زوابعا من الشــتائم والدعايات المغرضة ضدهم.

(**بَلْ جاءَ بِالْحَقِ**)

والحقّ يدل بذاته على ذاته ، فـإنّ لكـلّ حـقّ حقيقة ، وعلى كلّ صواب نورا.

وفرق واضح بين الحق الذي يدعو اليه النبي والشــعر الــذي لا يـدعو الى شـيء ، وليس سـوى إثـارة الخيـال ، وترديد الأفكار الشائعة ، وتمجيد العادات الجاهلية.

ولأنّ مقيــاس الجـاهليين لم يكن الحــقّ إنّما الــتراث والواقع القديم لم يجدوا التقـاء ولا انطباقا بين ما عنـدهم وبين الرسالة الالهية.

(**وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ**)

وعـــادة يـــدّعي أصـــحاب الباطل أنّهم ينتمـــون الى الرسـالات الأولى ، وإنّما ينتمـون الى أهـوائهم ، والقـرآن يردّهم بأنّ النبي يصدّق المرسلين ، فرسالته ليست سوى تجديد لتلك الرســالات ، ولو صـــدقوا في انتمــائهم إليها لآمنوا بهذه أيضا.

وبالتدبر في الآيتين (35 ـ 36) يمكننا القول بأنّ هناك سببين رئيسين وراء كفر هؤلاء بالرسـالة ، هما الاسـتكبار على الحق ، والمقاييس الخاطئة لمعرفته.

[38] وفي نهاية الدرس يؤكّد الله للكفّار والمشركين (المجرمين) أنّهم سوف يذوقون العذاب.

(**إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ**)

والآية تشـير الى أنّ الله يحشر المجـرمين في تمـام وعيهم وإحساسـهم المـادي والمعنـوي ، من أجل تـذوّق العذاب بأعمق ما يمكن للإنسان.

[39] والى جـــانب هـــذا التأكيد على العـــذاب ، نجد تأكيدا آخر على العدالة الإلهية ، وأنّ الجـزاء بقـدر أعمـال البشر بل هو ذات أعمالهم.

(**وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

والآية تعمّق وتؤكّد في نفس الإنسان مسئوليته التامة عن كل ما يصـدر عنه ، من قـول وعمل وسـلوك. قـال الرسول (ص) :

لمّا أسـري بي الى السـماء دخلت الجنة فـرأيت فيها الملائكة يبنـــــون لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وربما أمسكوا ، فقلت لهم : ما لكم ربما بنيتم وربما

أمســـكتم؟ فقـــالوا : حـــتى تجيئنا النفقة ، فقلت : وما نفقتكم؟ فقالوا : قول المؤمن في الدنيا : «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر». فإذا قــال بنينا ، وإذا أمسك أمسكنا [8]

والذي يشعر بهذه الحقيقة ـ أنّ مســتقبله رهين عمله ــ ســوف يســعى جهــده لتصــحيحه وإتقانه وبنائه وفق ما يريده الله سبحانه.

---

(8) بح / ج (93) ص (169).

إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَواكِـهُ وَهُمْ مُكْرَمُـونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (44) يُطـافُ عَلَيْهِمْ بِكَـأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضـاءَ لَـذَّةٍ لِلشَّـارِبِينَ (46) لا فِيها غَـوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْها يُنْزَفُـونَ (47) وَعِنْـدَهُمْ قاصِـراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُـونٌ (49) فَأَقْبَـلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَسـاءَلُونَ (50) قـالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَـدِّقِينَ (52) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَـدِينُونَ (53) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ

---

45 [معين] : المعين الماء الجاري النابع من العين.

47 [ينزفون] : أي يسكرون فليس في خمر الجنة سكر ، من نـزف إذا ذهب عقله ، أو بمعنى يطـردون من نـزف بمعـنى طـرد فالشـرب لهم دائم لا ينقطع مهما أرادوا.

53 [المدينون] : أي مجزيّون بأعمالنا ، من دانه بمعنى حاسبه وجازاه.

الْجَحِيمِ (55) قالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَـوْ لا نِعْمَـــةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَـــرِينَ (57) أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَـــذَّبِينَ (59) إِنَّ هـذا لَهُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْـلِ هـذا فَلْيَعْمَـلِ الْعـامِلُونَ (61) أَذلِـكَ خَيْـرٌ نُـزُلاً أَمْ شَـجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَـــةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّها شَـــجَرَةٌ تَخْـرُجُ فِي أَصْـلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65) فَـإِنَّهُمْ لَآكِلُـونَ مِنْها فَمـالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُـــونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَـــوْباً مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَـرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (69) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)

---

62 [شجرة الزقوم] : هي شـجرة صـغيرة الـورق مـرّة تكـون بتهامة ، شبهت بها الشجرة التي تنبت في النار لتكون ثمرتها قوتا لأهل النار.
67 [لشـوبا] : الشـوب هو خلط الشـيء بما ليس منه وهو شـرّ منه ، والمعنى شرابا مشوبا ليس بصاف.
70 [يهرعون] : أي يسرعون في تقليدهم.

إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ

هدى من الآيات :

بعد تكـريس المسـؤولية المتجلية في الجـزاء يـوم القيامة ، وقطع الأعـذار الواهية الـتي يتشـبّث بها المستضعفون ، يبيّن القـرآن حـال عبـاد الله المخلصـين ، الذين أخلصوا ولاءهم لقيادتهم الشـرعية ، وأخلصـهم الله من شوائب الشرك وآثار الضغوط التي تنقسم الى نوعين : الأوّل : ضـغط المجتمع المتجلّي في قـرين السـوء ، الثاني : الضغط التاريخي المتمثّل في الآباء.

لهؤلاء عباد الله المخلصين رزق معلـوم (غـير منقطع وهو جـزاء أعمـالهم المعلومة عند ربهم) فواكه (كـرزق مـادي) وهم مكرمـون (كـرزق معنـوي) وهم في جنـات النعيم يجلسـون على سـرر متقـابلين (يتجـاذبون أطـراف الحديث لفراغ بالهم ومشغولون بالتـالي بلـذة المؤانسـة) يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها هلاك ومـرض ، والى جنبهم الحـور كـأنهم بيض مكنـون (تتلألأ بشرتهن إشراقا).

وتكتمل النعم عندهم حين يطلعون على قرناء السوء الذين حـاولوا عبثا إغـواءهم ، وبعد ان يـبين السـياق هلاك أولئك من كفــرهم بالجنة ، ينقل خطــاب المخلصــين لهم بأنه لو لا نعمة الله لكانوا من المهلكين ، ثم يسدل الستار على هـذا المشـهد بعد أن يقـرّروهم أفما نحن بمعـذبين؟ ويــذكرنا القــرآن بــان ذلك هو الفــوز العظيم الــذي لمثله فليعمل العاملون.

ويكشف عن مشهد آخر حيث شـجرة الزقـوم ، الـتي هي حسب الظاهر ذنوب أهل النار تصبح طعاما لهم هناك وهي فتنة (في الـــدنيا) للظـــالمين وهي تنبت في أصل الجحيم ، ولكن فروعها في بيـــــوتهم ، اما طلعها فكأنه رؤوس الشـياطين (الـذين خـدعوهم بها في الـدنيا). انهم يــأكلون منها حــتى يملأوا بطــونهم (كما أكلــوا المــال الحـرام) ، ثم يشـربون عليها مـاء حميما يقطع أمعـاءهم (كما شــربوا الشــراب الحــرام في الــدنيا) ، ثم يعــودون جميعا الى الجحيم (كل ذلك) لأنهم اتبعوا آبـاءهم وهرعـوا الى آثارهم يقلدونهم فيها على غير هدى.

بينات من الآيات :

[40] بعد حديثه عن مصير المجرمين ، يذكرنا القرآن بمشـهد مشـرق من الآخـرة حيث عبـاد الله المخلصـون ، في جنة ملؤوها النعيم والرحمة والــتي لا تعطى عبثا انما بثمن ، وأول وأهم ثمن يشتري به العبد الجنة هو الإخلاص ، وإذا كـان العمل بذاته صـعب ، فـالاخلاص فيه أصـعب ، لأنه يعني الانقطـاع نفسـيا واجتماعيا واقتصـاديا وسياسـيا و... و... عما سوى الله ، حفاظا على حقيقة التوحيد.

فقد يصــلي الإنســان لان الصــلاة تــدر عليه الــربح ، وترفعه درجة في النـــاس ، وتعطيه قـــوة في الجسم وما أشـبه ، فهو يصـلي نتيجة لتفاعل عـدة عوامل دفعته بهـذا الاتجـاه ، فـاذا انعـدمت هـذه العوامل ، أو وجـدت اخـرى تعاكس مسيرة الصلاة كما

لو وجد نفسه في بلد اجنـبي لا يصـلي أهلها ، أو صـعبت عليه الصلاة لنعاس شـديد أو بـرد أو حر فانه يتركها وربما يحاربها ، لان الذي يصلي لارضاء النـاس ، سـوف يشـرب الخمر حين يكـون فيه رضا النـاس ، ومن هـذا المنطلق صار الإخلاص أهم من العمل وكميته.

قال الامام علي (ع) :

«**تصفية العمل خير من العمل**» [1]

وقال (ع) :

«**تصـفية العمل أشد من العمل ، وتخليص النية عن الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد**» [2]

والإخلاص هو ان تعمل في كل الظروف وبنية صـافية بعيـدا عن التـأثر بالعوامل المضـادة للعمل ، وهـذا ما لا يدركه أحد الا حينما تكـون شخصـيته (ثقافة وسـلوكا) مصـاغة بـالقيم الرسـالية الصـحيحة ، وليس بـالظروف والضغوط أو ردود الفعل والمصلحة.

وربما لـذلك قـال القـرآن «المخلصـين» بفتح اللام ، وليس المخلصين بكسرها ، والقرآن لم يسـتخدم الصـيغة الثانية أبدا ، والمخلص هو الذي أخلصه الله وصـفي نفسه وحياته من الشـوائب والمـؤثرات ، حـتى أصـبحت أعماله كلها لوجه الله وحـده لا شـريك له ، ولعل الآية الكريمة : «**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**» [3] تهدينا الى ذات

---

(1) بح ج / (71) ص (90).
(2) بح ج / (77) ص (288).
(3) المائدة / (27).

المفهوم.

والشيء الذي يبني عليه الإسلام أساس الإخلاص هو الاستمرار فيه ، والا فأن الإنسان كل إنسان قد يعيش لحظة يخلص فيها لله عمله ودعاءه ، فالعمل الواحد لا يقبل منفردا ، انما يضم الى عموم مسيرة الإنسان ، والذي لا شك فيه ان الواحد لا ينعت بخلق ما الا إذا صار عادة له وسلوكا.

فالذي يصوم شهر رمضان المبارك ، وفي الأثناء ، أو بعده وقبله يغتاب الناس ويأكل المال الحرام ، أو يترك جانبا من الدين كالجهاد لا يكون متقيا ، فصومه لا يقبل ولا يكون مخلصا من هذه صفته ، لان تأثره بدوافع الغيبة يشير الى أن شخصيته لم تزل مزيجا من الايمان والكفر ، فبينما ينطلق صومه من قاعدة الايمان في نفسه ، تنطلق الغيبة من دوافع الكفر.

وانما يدخل الله الجنة الذين أخلصوا ايمانهم وعملهم بالمعنى المتقدم بغير حساب ، ومن سواهم يدخلهم بعد الحساب والتطهير ، وعلى هذا جاء في الاخبار : ان من المؤمنين من يلبث في النار مئات ، وبعضهم عشرات السنين ، كل بنسبة انحرافه ، ورواسب الكفر التي يجب ان تطهر قبل الدخول في الجنة. وفي الرواية قيل للإمام موسى بن جعفر (ع) : مررنا برجل في السوق وهو ينادي : انا من شيعة محمد وآل محمد الخلص ، وهو ينادي على ثياب يبيعها : من يزيد؟ فقال موسى (ع):

«ما جهل ولا ضاع امرء عرف قدر نفسه ، أتدرون ما مثل هذا؟ هذا شخص قال : انا مثل سلمان وأبي ذر والمقداد وعمار ، وهو مع ذلك يباخس الناس في

بيعه ، ويدلس عيوب المـبيع على مشـتريه ويشـتري الشـيء بثمن فيزايد الغـريب يطلبه فيـوجب له ، ثم إذا غاب المشتري قـال لا أريـده الا بكـذا ، بـدون ما كـــان طلبه منه ، أيكون هذا كسلمان وأبي ذر والمقداد وعمار؟ حاشا لله ان يكون هذا كهم» [4]

(**إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ**)

[41] والقـرآن يحـدثنا عن جـانب من الـرزق ، الـذي يصـير اليه المخلصـون لا حصـرا انما اشـارة ، والا ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على بـال بشر.

(**أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ**)

والمعلـوم هو الشـيء المعـروف المحـدد بالمعرفة ، ويبـدو ان رزق المخلصـين يكـون معلوما بالجنة فلا ينقطع حينا ويتصل حينا ، ويكون معلوما لأنه جـزاء أفعـالهم وهي معلومة عند ربهم ، وقــالوا ان معــنى ذلك ان رزق المخلصين يأتيهم كـاملا كما يريـدون ويتصـورون بعلمهم ، وهذه الارادة والميول تنتقل بإرادة الله الى أذهان الخدم ، فيـأتونهم بما يريـدون قبل ان يطلبـوه ، قـال رسـول الله (ص) : «**أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ**» :

«**يعلمه الخـدام فيـأتون به أوليـاء الله ، قبل ان يسألوهم إياه»** [5]

[42] ويفصّـل القـرآن في ذكر الـرزق ، تشـويقا لنا للإخلاص ، وللمخلصين على الاستقامة.

---

(4) بح ج / (68) ص (157).
(5) نور الثقلين / ج (4) ص (403).

(**فَواكِهُ**)

يشـــبعون بها حاجـــاتهم الكمالية ، أما حاجـــاتهم الضرورية فقد قال البعض ان أجسـامهم خلقت للبقـاء فلا تحتاج الى طعام حاجة ضرورية ، ويحتمل ان يكـون تـوفر الفواكه لديهم يغنيهم عن الطعام الضروري ، أو ليس أكل الجنة دائما وظلها؟

وتنضم الى هـــذه اللّـــذات أعظم نعمة يشـــعر بها المؤمنـون المخلصـون ، وهي الكرامة من عند الله ، فهم يأكلون الفواكه وشعورهم عميق برضى الله عنهم.

(**وَهُمْ مُكْرَمُونَ**)

ولعلنا نســتوحي من كلمة مكرمــون ان المخلصــين يفــدون الى الجنة على رزق معلــوم ومحــدد ، لكن الله يكرمهم كل حين ليزدادوا فضلا من عنده. وفي الحديث :

«**فـإنهم لا يشـتهون شـيئا في الجنة الا أكرمـوا به**» [6]

[43] (**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**)

والجنة هي البساتين الكثـيرة الـزرع والشـجر ، بحيث تلتقي فيها الاغصان والأوراق فتختفي أرضها ، تحت ظلال الأوراق والكلمة تفيد التنــــوع ، لان الجنة لا تطلق على النــوع الواحد من الــزرع. أما كلمة النعيم فهي مبالغة في النعمة للكثرة والجودة.

[44] ولان المــؤنس من الحاجــات النفســية للبشر ، فقد جعل الله المؤمنين يأنسـون ببعضـهم في الجنة فـاذا بهم كما يصفهم القرآن :

---

(6) المصدر.

(**عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ**)

[45] وفي الأثناء حيث يدور الكلام بين عباد الله.

(**يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ**)

وهو الذّ الشراب ، خمرا كـان أو مـاء أو غيرهما ، كما ان المعين الذي لا ينضب ، فتارة يكون الشيء لذيـذا لكنه ينتهي بسرعة ، وتارة يكون لذيذا ولا ينتهي.

[46] ويجتمع الى لـذّة الشـراب جماله وجمـال كأسه تأكيدا لها ، فالكأس من الفضة اللامعة.

(**بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ**)

وقد يكون البيـاض وصـفا للمعين ، ففي الحـديث عن الامام الحسن (ع) :

«**خمر الجنة أشد بياضا من اللبن**» [7]

[47] وهــذا الشــراب خــال من العيــوب فلا يملّه المؤمنون أو يرفضونه.

(**لا فِيها غَوْلٌ**)

وهو السكر أو الارهاق الـذي يلحق بالشـارب فيغتـال عقله وقواه ، أو المرض الذي ينتهي به الى الموت ، ومنه الاغتيال وهو القتل سرا ، هذا من جانب ، ومن جـانب آخر لا يبعد المؤمنــون عن شــراب الجنة بنضــوبه ، أو بــإرادة اخرى تفرض عليهم.

---

(7) المجمع / ج (7 ـ 8) / ص (443).

(**وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ**)

ويقال نزف الماء إذا أبعد وأزيح عن العين.

[48] ومن نعيم المخلصـــين الأزواج المطهـــرة في القصور.

(**وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ**)

وللقصر ثلاثة تفاسير :

الاول : ان القاصـــرات هن النســـاء اللاتي ينحصر نظـــرهن الى أزواجهن ، وبالتـــالي تحد شـــهوتهن في أزواجهن ، فانظارهن قاصرة عن غيرهم.

الثـــاني : القاصـــرة الطـــرف هي قليلة الشـــعر في حاجبيها ، وهذه من جمال المرأة.

الثالث : وقال المفسرون قاصـرات الطـرف اللـواتي ارسـلن نظـرهن الى الأرض تواضـعا وحيـاء ، وهـذه من الصفات الحسنة في المرأة.

اما العين فهي جمع عينـاء ، والعينـاء واسـعة العين شديدة وكبيرة السواد فيها ، وناصـعة البيـاض ، وهـذه هي الاخرى من الصـفات الجمالية الحسـنة في المـرأة. ولعله لـذلك كـان شـعراء العـرب قـديما ، يشـبهون في غـزلهم عيون النساء بعيون البقر الوحشي (المها) ، التي تشـتمل على نسبة من هذه الصفات.

[49] (**كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ**)

والمكنون هو المحفوظ ، فهن محفوظات لم يمسهن أحد قبلهم ، ومن صفات الـبيض عند ما يجمع الى بعضه ، انه ينصع بالبياض ، حـتى ليكـاد يضـيء ، وفي ذلك اشـارة لجمال بشرتهن.

والملاحظ ان الآيـــــات الكريمة تعرضت بالــــــذكر لمجموعة غرائز في الإنسان بينها غريـزة الاكل والشـرب والجنس ، الـــتي يجد الإنســـان حـــوافز ودوافع داخلية وخارجية على اشــباعها ، وربما اشــبعها بــالحرام ، وذلك تطميعا لنا فيها عند الله ، حـتى نـترفع عن الاكل الحـرام المشوب بالذلة بـذكر رزق الجنة وكرامته ، وعن الشـرب الحـرام بالرغبة في شـرابها ، وعن اللّـذة المحرمة بـذكر حورها الحسان.

جاء في بيان دعـائم الايمـان على لسـان الامـام علي (ع) ما يدل على ذلك إذ قال :

«**فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات**»

[50] ويعـرّج القـرآن من الجـانب الآخر ليطلعنا على حال المكـذبين بالرسـالات ، العاصـين لله ، ليشـجعنا ذلك الرجاء على الطاعة ، وليمنعنا هذا الخوف عن المعصــية ، ويــدخل الســياق الى هــذا الموضــوع ، من خلال عرضه لجانب من حديث المخلصين الـذين جلسـوا على سـررهم يستريحون لبعضـهم البعض ، بالحـديث عن النعيم الحاضر وعن الحياة السابقة.

(**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ**)

والإقبال هنا دلالة على الاشتياق لبعضـهم ، وللحـديث الذي يدور بينهم.

[51] (**قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ**)

يعني الرفيق.

[52 ـ 53] ولم يكن صالحا ، بل كان يدعو الى النار ، وليس شرطا ان الصديق الذي يعنيه القـرآن بهـذه الآيـات هو الذي يصرح بكفره وضلاله فيدعو لنبذ الـدين واقـتراف المعصــية ، بل يشــمل المعــنى كل قــرين تــوحي رفقته وسلوكياته أو

أقواله الى الكفر.

(**يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ* أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ**)

اي مسـئولون ومجـازون ، وهـذا الاعتقـاد هو الـذي يسوق البشر للظلم والانحـراف ، لأنّه لا يعتقد بمسـؤولية تجاه أقواله وأعماله.

[54] ومن كمال النعم وتمام السرور معرفة الإنسان بأنه قد نجّي من شر عظيم ومهلكة لم ينج منها الآخرون ، فما أعظم لذة من تحطمت به السـفينة في عـرض البحر وابتلعت أمواجه الهـادرة كل من فيها سـواه حيث تعلق بخشبة وقاوم الأمواج ، واستبسل في السباحة حتى نجّـاه الله في اللحظة الاخيرة. انه سوف يزداد إحساسا بالراحة كلما تـذكر الحادثة ، ويكـاد يطـير فرحا عند ما يتصـور الأمـواج الـتي كـانت تتلاحق على خشـبته ، وكـان ينـادي أصـحابه إليها فرحا عند ما يتصـور الأمـواج الـتي كـانت تتلاحق على خشـبته ، وكـان ينـادي أصـحابه إليها فلم يسـتجيبوا له ، وشـهد مهلكهم بغيّهم. أليس كـذلك؟ هكـذا يتم الله نعمته على المؤمن وهو يتذكر قرناء السوء الذين قاوم تضليلهم وضغوطهم فـذهبوا الى النـار ، ونجّي منهـا. وها هو يـراهم يتقلبـون فيها يائسـين وهو في الجنة من المكرمين.

(**قالَ**)

لرفاقه المخلصين.

(**هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ**)

اي هل أنتم تتكلفون الاستطلاع حتى نعرف مصيره؟

[55] ولكنه لفرط شوقه أخذ يبحث عنه شخصيا دون انتظارهم.

(**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ**)

يعني وسطها ، حيث يتركز العـذاب والحريق وتحوطه النـار من كل جـانب كما كـان في الـدنيا محاطا بالـذنوب والمعصـــية ، ولعل التطلع هنــاك هو تكلف الـــذهاب الى ناحية والا فأهل الجنة لا يسمعون حسيس النار.

[56] وهناك يكتشف المؤمن مـدى خطـورة الصـديق السيء.

(**قالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ**)

والتردي هو السـقوط من شـاهق ، وفي هـذا اشـارة الى ان المخاطب في واد سحيق من النار.

[57] (**وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**)

في العذاب ، وتتمثل النعمة الالهية هذه في الأسـباب التي تـؤدي بالإنسـان الى النجـاة من الانحـراف ، ومن ثم من عواقبه ، كالعقل والرســالة والمرشـــدين للحق ، ولا شك ان أعظم نعم الله على البشر هي نعمة الهداية.

[58 ـ 59] ويشير القـرآن على لسـان المؤمـنين الى اخطر فكرة يحاول المنحرفون من خلالها إضلال النــاس ، والتأثير على المؤمـنين ، وهي فكـرة الكفر بـالآخرة حيث الجزاء الأوفى.

(**أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ* إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**)

على الاخطاء والذنوب؟!

[60] ولعل الله هو الـذي يلقي في قلـوب أوليائه من أهل الجنة ، ان يشرفوا على

النار للاطلاع على أهلها ، لكي يشعروا عميقا بلـذة الهداية والطاعة والنعيم ، ذلك ان من طبيعة الإنســـان إحساسه بالحقـائق عن طريق معرفة نقائصـها ، لهـذا نجد المـؤمن وقد اطلع على قــرين الســوء في العــذاب ، بينما يتعمق وعيه بعظمة نعم الله عليه يقول :

(**إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

نعم ان طريق الحق مليء بالعقبــات والمصـــاعب ، ولكنه الأفضل ما دام ينتهي الى الجنة ورضى الله.

[61] وكخلاصة لكل ما تقــدم من ذكر الجنة والنــار ، يؤكد القــرآن بــان الهــدف الصــحيح ، الــذي يجب على الإنسـان العمل له ، هو الوصـول الى الجنة ، لأنها الهـدف الأعظم الذي إذا حققه الفرد فقد فـاز ، والا فهو لم يحقق شيئا. قال الامام علي (ع) :

«**ما خـير بخـير بعـده النـار ، وما شر بشر بعـده الجنة ، وكل نعيم دون الجنة فهو محقور ، وكل بلاء دون النار عافية**» [8]

ويقول تعالى :

(**لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ**)

وقد نســتوحي من التــدبر في الآيــات الكريمة : ان الإنسان يواجه في حياته نوعين من الضغوط :

الاول : الضغط القادم من المجتمع المعاصر ، والـذي يتجلى بصورة واضحة في

---

(8) نهج الحكمة / (387).

قرين السوء ، فمثلا إذا عاش المؤمن في مجتمع يستخف بالصلاة فلا بد ان يتعرض لضغط هذا المجتمع باتجاه تـرك الصلاة ذلك ان للمجتمع ــ اي مجتمع ــ قـوة هائلة باتجـاه التجانس معه ، وفرض قيمه الخاصة على افــراده بالتربية والتثقيف أو بـــــالترغيب والــــترهيب ، ولكن ما هو رأس الحربة في ضــغط المجتمع على الفــرد؟ انه الصــديق إذ يكون حلقة الوصل بينه وبين سائر أبناء المجتمع.

وهكذا ينبغي ان يصمد الإنسان امام ضغوط اصـدقائه وقرنائه ولو كــان على حســاب صــداقتهم ، فهــذا أمــير المؤمنين عليه السلام يقول :

«**ما ترك الحق لي من صديق**»

[62] الثاني : الضـغط القـادم من الأجيـال السـابقة ، ويتجلى هـذا الضـغط بصـورة مركـزة في الأب ، ذلك ان الإنســان لا يـرى الأجيـال السـابقة ولا التـاريخ الماضي ، ولكن ذلك يصله عبر أبيه.

ويبدو ان القرآن حتى الآية السابقة حدثنا عن الضغط الاول ، اما بقية الآيـات من هـذا الـدرس فهي اشـارة الى الضغط الآخر ، يقول تعالى :

(**أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً**)

اي الجنة التي هي عاقبة المؤمنين المخلصين.

(**أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**)

التي هي عاقبة المكذبين؟!

وكـأنّ القـرآن بهـذا التسـاؤل الـذي جـاء بعد عـرض العاقبتين ، يخيّرنا بين الجنة

والنار ، بأثارة تفكيرنا نحو الاجابة على هـذا التسـاؤل ، اما عن معنى شجرة الزقوم ففيه تفسيران :

الاول : ان قريشا لما سـمعت هـذه الآية ، قـالت : ما نعرف هذه الشـجرة ، فقـال أبو جهل لجاريته : يا جاريـة! زقمينـا. فأتته الجارية بتمر وزبد ، فقـال لأصحابه تزقمـوا بهذا الذي يخوفكم به محمد ، فيزعم ان النار تنبت الشجر ، والنار تحرق الشجر فـانزل الله سـبحانه : «**إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ**». [9]

الثاني : وهو الأقرب ، ان الإنسان يأكل في الـدنيا من هـــذه الشـــجرة ، ولكنه لا يشـــعر انه يأكل منها ، الا في الآخـــرة حيث يكشف الله عن بصـــره ، ويـــرى الحقـــائق بواقعها ، فالكذب ، وأكل اموال النـاس ، وشـرب الخمر ، ... كل ذلك ورق في شجرة الزقـوم الـتي يطعم منها أهل النار.

وفي سورة الواقعة التي تعالج جانبا من موضوع هذه السورة اشارة واضحة لهذا المعنى إذ يقـول تعـالى : «**ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ، لَآكِلُونَ مِنْ شَـــجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ* فَمـالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُـونَ* فَشـارِبُونَ عَلَيْـهِ مِنَ الْحَمِيمِ* فَشـــارِبُونَ شُـــرْبَ الْهِيمِ**» [10] ثم يؤكد هـــذا المعـــنى في آخر السـورة إذ يقـــول عـــزّ وجـــلَّ مخاطبا المكـذبين بـالقرآن والضـالين : «**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**». [11]

[63] ولا ريب ان الكذب وأكل امـوال النـاس وسـائر الشـــهوات الـــتي يواجهها الإنســـان ، تجعله على مفـــترق الطريق ، بين الحق والباطل ، والجنة والنـــار ، وبالتـــالي فهو مبتلى وممتحن امامها ، ولا شك أيضا ان هـذه الأمـور بشعة كبشاعة شجرة الزقوم

---

(9) المجمع / ج (7 ـ 8) / ص (446).
(10) الواقعة / (51 ـ 55).
(11) الواقعة / (82).

التي هي التجلي الحقيقي لهذه المعاصي ، ولكن الإنسان يتجاهل ذلك ، أو يغفل عنه فينجرف مع شهواته ، ليزرع بذنوبه أشجار الزقوم فتكون طعامه في الآخرة.

(**إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ**)

اما المؤمن فهو لا يفتتن بها ، انما يرتفع بإيمانه عن حضيض المعصية ليزرع لنفسه بعمل الصالحات الجنان الواسعة.

[64] وبعد الاشارة الى شجرة الزقوم وطبيعتها الفاتنة في الدنيا ، يصورها لنا القرآن بواقعها في الآخرة ، حيث الجزاء المتجانس وعمل الإنسان.

(**إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**)

وقد روي :

«**ان الله تعالى يجوعهم ـ يعني أهل النار ـ حتى ينسوا عذاب النار من شدة الجوع ، فيصرخون الى مالك ، فيحملهم الى تلك الشجرة وفيهم ابو جهل ، فيأكلون منها فتغلي بطونهم كغلي الحميم**» [12]

وفي رواية انها شجرة عظيمة لأهل النار عامة ، ولها في كل منزلة من الجحيم غصن يأكل منه الذين يعذبون فيها.

[65] (**طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ**)

والطلع حمل النخلة في بدايته ، يخرج من بين الليف والخضر ، وهو يشبه غمد

---

(12) نور الثقلين / ج (4) / ص (404).

الخنجر في أوله وأقربة الســـيوف قبل ان يتشـــقق عن شماريخ البسر والـرطب ، وربما سـمي طلعا لطلوعه بما يشبه طلوع الهلال ، أو لأنه أول ما يطلع من الثمر.

[66] ولان أصحاب النار يشعرون بضـراوة الجـوع ولا يجدون ما يأكلون ، فإنهم يأكلون طلع الزقوم وثمرها.

(**فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ**)

كما ملأوا بطونهم بالحرام في الدنيا.

[67] وبعد الاكل من الزقوم يحسون بأشد العطش ، فيطلبون الماء فيشربون السوائل الحارة ليطفؤوا حـرارة النيران التي أكلوها ، وإذا بها تزيدهم عذابا الى عذابهم.

(**ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ**)

وفي الرواية :

فيستسقون فيسقون شربة من الماء الحار الــذي بلغ نهايته في الحـــرارة فـــاذا قربوها من وجـــوههم شـــوت وجوههم ، فذلك قوله : «**يَشْوِي الْوُجُوهَ**» فاذا وصل الى بطونهم صهر ما في بطونهم[13]

[68] إنّهم يتصـــورون المـــاء الـــذي يطلبونه ســـوف يخرجهم من هذا العـذاب والاحـتراق ولكنه ينتهي بهم الى ذات العذاب.

(**ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ**)

---

(13) نور الثقلين / ج (4) / ص (404).

ولعل هـذه الحالة من النهم الى الزقـوم والحميم في النــار تجســيد لنهمهم في الــدنيا بأكل امــوال الحــرام ، ومداومة الشراب الحرام ، أعوذ بالله منهما.

[69 ـ 70] وفي النهاية يصــرّح الســياق بالضــغط التاريخي ، الذي يتسبب في إضلال الكثير من الناس.

(**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ**)

وكان يفترض فيهم ان لا يتبعوهم بل يبحثوا عن الحق ، وتوجّهنا الآية الى ضــرورة المســيرة الواعية في حيــاة الإنســـان ، حيث ينبغي له ان ينظر ويفكر فيها ، فيلـــتزم الحق عن وعي لا عن وراثة وعادة ، ثم ما يدري الفــرد أو المجتمع ان مســـيرته خاطئة والله يقـــول : «**فَلْيَنْظُـــرِ الْإِنْســانُ إِلى طَعامِـهِ**» ، اي غذائه الجســمي والـروحي ليتأكد من سـلامته ، ولكن هـؤلاء لم يتعبـوا أنفســهم في البحث عن الحق ، انما اتبعوا الاباء وتأثروا بهم.

(**فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ**)

ولم يقل القـــرآن يهرعـــون (بـــالفتح) ، لان حركة الإنسان باتجاه التقليد ليست حركة ارادية بصـورة كاملة ، انما هي مجمـــــوع دوافع ذاتية ، وضـــــغوط خارجية من الآخـرين ، والآية تـبين الضـغط الـذي يمارسه الابـاء على أبنائهم لكي يتبعوهم.

فعلى الإنســان اذن ان يقطع الســبب المباشر ، فهو إذا لم يتـأثر بـذروة الضـغط التـاريخي المتمثلة في الابـاء فلن يتـأثر بالجيل السـابق ، وإذا لم يتـأثر بـذروة الضـغط الاجتمــاعي المتمثل في الإقــران فلن يتــأثر بــالمجتمع المعاصر ، والـترفع عن هـذه الضـغوط ، هو الـذي يسـمو بالإنسان الى الخلوص التوحيدي.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (74) وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (77) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (79) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82) وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (83) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (85) أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ (86) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (87) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (91) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (92) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ

---

(94) [يزفون] : يسرعون في المشيء ، فإنّ زفّ بمعنى الإسراع في المشيء لنيل مطلوب أو الانتقام من عدوّ وما أشبه.

(95) وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (96) قـالُوا ابْنُـوا لَـهُ بُنْيانـاً فَـأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَـأَرادُوا بِـهِ كَيْـداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَـيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّـالِحِينَ (100) فَبَشَّـرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَـغَ مَعَـهُ السَّـعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنـامِ أَنِّي أَذْبَحُـكَ فَـانْظُرْ ما ذا تَـرى قـالَ يا أَبَتِ افْعَـلْ ما تُـؤْمَرُ سَـتَجِدُنِي إِنْ شـاءَ اللـهُ مِنَ الصَّـابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْـلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنادَيْنـاهُ أَنْ يا إِبْـراهِيمُ (104) قَـدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105)

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

هدى من الآيات :

حينما يـــبيّن لنا القـــرآن حقيقة أو حكما ، لا يلبث ان يضـرب لـذلك امثلة عديـدة ليس للإيضـاح وحسب ، انما لبيـان الابعـاد والحـدود أيضا ، ذلك لان النفس البشـرية قادرة على تحوير الألفاظ وتفريغها عن معانيها الحقيقية ، وتحويلها الى ألفـاظ قشـرية غـير مـؤثرة ، بل وقد تعطي معاني غريبة عن المعنى الحقيقي.

فلكي لا يـأتي بعض المفسـرين القشـريين ، أو بعض من تسوّل لهم أنفسهم تبرير الأفعال والانحرافات للنـاس ، ويفسـروا القـرآن على أهـوائهم وآرائهم ، لم يـترك ربّنا كلمة في القـــرآن الحكيم الا وأوضـــحها بالامثلة التاريخية الـــتي لا يمكن نكرانها ، أو تبـــديلها وتأويلها الى غـــير مضامينها.

وإذ ذكّرنا الله في الدروس الماضية بعبادة المخلصين ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، كنا بحاجة إلى الامثلة التاريخية التي من شأنها احاطتنا بصفاتهم وخطهم

والطريق الى هـذه القمة السـامقة ، فربما زعمنا اننا من المخلصـين ، أو منينا أنفسـنا بـذلك ، ولكنّ القـرآن يقطع طريق التمـني ، حينما يضـرب لنا أمثلة من حيـاة أنبيـاء عظام كنوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ ، ويبين لنا مواقفهم الربانيّة في تحـدي الجبت والطـاغوت ، ليقـول لنا : بـان من لا يتحـدى الجبت الـداخلي ، فيصـرع هوى نفسه ، لا يستطيع ان يتحدى الطواغيت ويصرعهم.

ولأن هـذه السـورة تعـالج في جـانب منها مـرض الاستكبار ، الذي يتعالى المبتلى به على الحق كـذبا وزورا ، وتوضح كيف انه سينتهي بالإنسان الى جهنم انها توضح ـ في مقابل الاستكبار ـ صفة الإحسان ، فبينما تعـني الاولى المبالغة في حب الـذات والتمحـور حولها ، تعـني الاخـرى التنازل عنها وعما يملك الإنسـان من الطاقـات والقـدرات في سبيل الحق والناس. ان الإحسان هو خروج الفرد عن ذاته ، ودخوله في رحاب المجتمع ، وكما يدخل الاسـتكبار الإنسان النار ، ويجعله لعنة الأجيال ، فان الإحسان يـدخل صـاحبه الجنة ، ويخلّد ذكـره الحسن ومديحه على ألسن الناس في كل أفق وزمان.

والقـرآن في هـذا الـدرس ، يؤكد بـان المحسن ليس يجـازى من قبل الله ، في الـدنيا والآخـرة وحسب ، وانما يمشي ثنـاؤه كـالطيب بين النـاس ، وقد أكد ربّنا هـذه الحقيقة في أكـثر من آيـتين بالنسـبة لنبيه إبـراهيم (ع) ، مما يـدل على اهمية دور الإحسـان في رسـالة الأنبيـاء ونبوتهم (ع).

بينات من الآيات :

[71] بعد ان يـبين القـرآن في الآيـتين الأخـيرتين من الـدرس السـابق دور الضـغط من قبل الآبـاء في حيـاة الأجيال ، يبين لنا هنا ان هذه مشكلة البشر منذ القديم.

(**وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ**)
بذات العامل ، وهو الاتباع الخاطئ للآباء.
[72] ولكنّ الله بعث لهم الأنبيـــــاء والمرســـــلين ، يحذرهم من عاقبة الضلال بالإنذار ، لعلهم يهتدون للحق.
(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ**)
[73] لكنهم كذّبوا النذر ، وحـاربوا الأنبيـاء ، فـدمرهم الله ، وأبقى آثارهم وأخبارهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم.
(**فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**)
وهذه مسئولية الإنسان في قبال التاريخ ، ان يسـتفيد منه لحياته ومسـتقبله ، وحين يـدعو الله نبيه للنظر فيه ، فلأنّ وعي التاريخ يعطي الرساليين ثقة بأنفسـهم وخطّهم ، وبصيرة في التحرك.
وبالتدبر في هذه الآيات والآية التي تليها يمكننا القول بان القرآن يختصر الدورات الحضارية في هذا المقطع.
[74] إنّ الله ليس يهب الجنة للمخلصـــين وحسب ، بل وينصرهم في الدنيا وينجّيهم من الهلكات.
(**إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ**)
ونســتوحي من الآية : أنّ الــذين ينجّــون من أنــواع العذاب الالهي والنقمات ، هم المخلصـون وحسب ، حـتى جاء في الأحاديث ان الصواعق لا تصيب المؤمنين

الـذاكرين ، ومعـنى ذلك اننا لو قسـمنا النـاس الى ثلاثة : الكفـار ، والمخلصـين ، وآخـرين بينهم ، فـان المخلصـين وحدهم الناجون ، اما الكفار فيخلـدون في النـار ، والـذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا يعذّبون كل حسب عمله.

[75] وكمثال على نجـاة المخلصـين يـذكّرنا الله بنبيّه نوح (ع) ، والذين آمنوا معه ، فقد دعا نوح ربّه على قومه فأرسل عليهم الطوفان ، فما نجى منه غير نوح ومن آمن معه وركب السـفينة ، ممن أدخلهم القـرآن مع أهله في مقابل إخراجه كنعـان منهم ، ليهـدينا الى أنّ النسب الحقيقي بين الإنسان والآخـرين هو تجـانس القيم والعمل في الحياة بينه وبينهم ، اما الاعتبـارات الاخـرى فهي غـير سـليمة. قـال ابو عبد الله (ع) : ان الله قـال لنـوح : «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**» لأنه كـان مخالفا له وجعل من اتبعه من أهله [1] ويبـدأ القـرآن بـذكر نـوح (ع) لأنه كما يسـميه المؤرخون الأب الثاني للبشرية بعد آدم (ع).

(**وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ**)

ولكن ماذا أراد نوح (ع) من ربه عز وجل حين ناداه؟

قـال بعض المفسـرين إنّه أراد هلاك قومه حينما عصوه ، واسـتدلوا بقوله تعـالى عن لسـانه (ع) : «**رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً**» [2]. وقال آخـرون إنّه أراد من الله ان ينقـذه من الكفـار بعد سـنين من الدعوة والأذى الـذي يلحقه بسـببها. وربما تفسر الآية بانّه عليه السلام أراد من ربه الهداية وتشريفه بالرسالة لانقاذ النـاس ، فربما كـان الأنبيـاء (ع) يعرفـون بـأنهم سـوف يبعثون ، ولكن لا يتنافى ذلك مع

---

(1) بح / ج (11) ص (305).
(2) نوح / (26).

عـدم معـرفتهم مـتى سـيكون بعثهم ، ولهـذا نجـدهم في البـدء يتعجبـون أو يخـافون ، فلم يكن النـداء الـذي انبعث من جانب الطور الأيمن أمرا عاديا بالنسـبة لموسى (ع) ، وكـــذلك نبينا الأكـــرم (ص) ، حينما نـــزل عليه جبرائيل بالرسالة لاول مرة ، ذهب الى البيت وتدثر.

وحينما يدعو الأنبيـاء ربهم بالهداية والبعثة ، يسـتجيب لهم وقد هيّـأو أنفســهم لتحمل مســئوليات هــذا العمل العظيم ، والله سبحانه اعطى نوحا عليه السلام أكـثر مما كان يتوقعه وربما هذا معنى قوله «**فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ**».

[76] وبعد ان استجاب الله لنوح بالرسالة وأيده على قومه المنكــرين بالطوفــان الــذي علا الأرض حــتى غمر الجبال العالية ، أنجى نوحا والذين آمنوا معه.

(**وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**)

[77] وربما أسمى الله الغـرق بـالكرب العظيم ، لأنه من أفظع صور الموت للإنسان فكيف وهو مقدمة لعـذاب النــار الخالــد؟ ، وتركـيز القــرآن على أهل نــوح (ع) عند التعـرض لقصصه ، لان الله حفظ بهم النـوع البشـري عن الانقــراض ، وأهم من ذلك جعل فيهم النبــوة ، والكتــاب وهما الحبل الممتد بين الناس وربهم.

(**وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ**)

قال الامام الباقر (ع) في تفسيرها :

«الحق والنبـوة والكتـاب والايمـان في عقبه ، وليس كل من في الأرض من بـني آدم من ولد نــوح ، قـال الله في كتابه : (**احْمِلْ فِيها مِنْ كُـلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَـكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَـوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَـهُ إِلَّا قَلِيلٌ**)» وقال أيضا :

«**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَـعَ نُـوحٍ**» [1] [2]. ومضى نــوح وبقي ذكره الطيب تتوالى الأجيال بالسلام عليه»

[78 ـ 79] (**وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ**)

وكـــان من الممكن ان تجعل صـــيغة الكلمة : وتركنا عليه سـلاما. الا ان الصـيغة طـوّرت لتكـون كلمة السـلام تامة حتى يجري على لسان كل قارئ للقرآن سلام خـاص لنوح عليه السلام.

[80] لقد استجاب الربّ لنوح لأنه كان محسنا.

(**إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**)

وهـذا الجـزاء سـنة إلهية ذلك ان من يحسن للنـاس يـذكره النـاس بالمـدح والخـير ، فكيف وقد أخذ الله على نفسه ان يجزي المحسنين بذلك؟

والملاحظ ان الله وبعد ذكر هباته لنـــوح (ع) الـــذي جعله مثلا للعبد المخلص وهي ، اســـتجابة دعائه ، ونجاته واهله والمؤمنين معه ، وجعل البشـرية من ولـده والنبـوة فيهم ، واخلاده بالـذكر الحسن على ألسن النـاس ، ذكّرنا بصفة الإحسان فيه ، وذلك ليطلعنا على التفسير الحقيقي للإخلاص بأنه المنطلقات التوحيدية الخالصة ، التي تتحـول الى سـعي وعمل يتجـاوز القيـام بـالواجب الى الزيـادة والإحسان.

[81] والايمـــان بالله هو أعظم دافع للإنســـان نحو الإحسان ، وهكذا نعت ربنا نوحا (ع) بعد الإحسان بالايمان لأنّه أصل كل خير وفضيلة فقال :

---

(1) الإسراء / (17).

(2) بج / ج (11) / ص (310).

(**إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**)

والمؤمن لا يتخـوف من البـذل والإنفـاق للآخـرين في سـبيل ربه ، لأنه يعلم بـان كل ما ينفقه سـوف يعـود عليه أضـعافا مضـاعفة ويـزداد إحسـانا كلما تعمق ايمانه بـان مستقبله في الدنيا والآخرة رهين عمله وتضحياته.

ان السـبيل الى الإحسـان ، الـذي هو الطريق الى المكاسب الجسيمة ، كالتي ظفر بها نوح (ع) ، هو الايمان بالله عز وجل وبجزائه الأوفى.

[82] ثم ان المنجي الحقيقي لنـوح ومن آمن معه لم تكن السفينة التي صنعوها ، فلو ان الكافرين ركبـوا سـفنا أكبر وأفضل منها ، لم تكن لتنقـذهم من الغـرق في مـوج كالجبـال ، ومـاء منهمر كـالانهر من السـماء ، انما نجـوا بايمانهم الذي تميزوا به عن غيرهم ، وانما أمر الـرب نبيه والمؤمـنين بصـنع الفلك ، اثباتا لمسـؤولية الإنسـان في الحياة وتأكيدا لها ، والا فانّه قادر على إنقـاذهم بكلمة من عنده.

(**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ**)

وهم الكفار.

[83] ثم يـأتي لنا القـرآن بمثل من الآخـرين ، الـذين ترك فيهم سلاما على نبيه نـوح (ع) ، وهم الـذين جسـدوا امتـدادا لرسـالته في البشـرية عـبر التـاريخ ، من الأنبيـاء والرسل ، والصالحين.

(**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ**)

والشيعة هم الذين يتبعـون شخصا أو خطاما ، فيقـال لهم شيعة فلان.

وقال المفسـرون : ان الضـمير في شـيعته يعـود الى نـوح (ع) ، فيكـون المعـنى ان ممن سـار على دربه كـان إبراهيم (ع).

وقال آخرون : إنّه يعود الى النبي محمد ــ صـلّى الله عليه وآله ـــ والواقع ان التشـــيع للحق ومتابعة رسل الله واحد ، فســواء نسب الى نــوح (ع) أو الى محمد (ص) أو الى أوصيائه الطاهرين فانه نهج واحد وصراط مستقيم.

[84] والقرآن يـبيّن المعـنى الحقيقي للتشـيع ، الـذي هو رفض الجبت الـــــداخلي بالتوحيد الخـــــالص ، ورفض الطـــاغوت الخـــارجي بمقاومة الانحـــراف الاجتمـــاعي والسياسي والثقافي و... و... في الواقع القائم والـذي هو صورة ظاهرية للجبت الداخلي ، ثم التسليم لله والتضحية والاستقامة في سبيله.

بلى. إنّ إبراهيم (ع) من شيعة نــوح (ع) ، ولكن كيف وصل الى هذا المقام الرفيع؟

يجيبنا القرآن على ذلك ب :

(**إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**)

وهو الـذي سـلم من كل الأمـراض ، كالحسد والحقد والجبن والخـوف ، والـتي يسـميها القـرآن بـالاغلال ، إذ يحـــدثنا عن اهـــداف بعثه رســول محمد (ص) فيقـــول : «**وَيُحَـــرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبــائِثَ وَيَضَـــعُ عَنْهُمْ إِصْــرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ**» [1] وهذه الأمراض والأغلال انما تتفرع من شجرة الشرك بالله ، وانما سـماها القـرآن بالاغلال والأصر تـارة وبـالمرض تـارة أخـرى ، لان الأغلال والأصر كما المـــــرض كلها تقعد الإنســـــان وتكبل عقله وطاقاته الخيرة.

---

(1) الأعراف / (157).

قال علي بن إبراهيم «**إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**» :

«**القلب السليم من الشك**» [1]

وقال :

«**القلب السـليم الـذي يلقى الله وليس فيه أحد سواه**» [2]

وهذا التفسير يتناسب مع سـياق الآيـات الـذي يحـدثنا عن العباد المخلصين.

[85] ولن يصبح القلب ابراهيميا خالصا من الشـرك ، الا إذا تعالى على العوامل الأساسية التي تؤثر سـلبيا عليه ، بل وقاومه ، إذ لا بد للإخلاص من حقيقة خارجية ، وهي محاربة الشـرك ، وهكـذا كـان إبـراهيم (ع) ، حيث حـارب الانحــراف الاجتمــاعي المتمثل في الخط الشــركي لأبيه وقومه ، والانحـــراف السياسي الـــذي جســـده الطاغية نمرود.

(**إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ**)

ولم يكن ســؤاله استفســاريا ، انما كــان يســتنكر الانحراف الاجتماعي القائم ، وهـذا ما يجب على الإنسـان تجاه أبيه ومجتمعة ، فليس من السليم ان يسـتقبل منهما كل شـــيء ، ويفقد اســـتقلاله امامهما ، انما يتقبل الجيد ويعترض على ما هو سلبي بالاسلوب المناسب.

والنـــبي إبـــراهيم (ع) مثل للثـــائر الـــرافض للخطأ الاجتماعي ، ولخطأ الآباء ، والله

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (406).

(2) المصدر.

يأتي به حجة على الذين أشركوا بهما فحكى عنهم القرآن : (**إِنَّهُمْ أَلْفَـوْا آبـاءَهُمْ ضـالِّينَ* فَهُمْ عَلى آثـارِهِمْ يُهْرَعُونَ**) [1] ، فإبراهيم (ع) ـ على خلاف هؤلاء ـ تحمل مسئوليته ، واعمل عقله ولم يقدس الأشخاص ولا التراث على حساب القيم.

[86] واهتدى (ع) الى زيف الشركاء ، وضلال الثقافة الـتي انتهت بـالمجتمع الى هـذه النهاية الموغلة في الانحراف.

(**أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ**)

والافك هو الكذب المبالغ فيه.

قال المفسرون انما قدم كلمة «أإفكا» وهي مفعـول مطلق ، للعناية الخاصة بها ولبيان ان كل تبريراتهم لعبادة الآلهة خاطئة فليسوا هم الّا كاذبين.

وهـذا يمثل قمة التحـدي ، من إبـراهيم عليه السـلام لذلك الضلال المنتشر بين قومه.

[87] ثم سأل قومه بعد بيان خطأ الشرك ، وهو يبيّن لهم الإله الحق :

(**فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ**)

وهكذا تكون حركة الرسـاليين قائمة على هـدم الفكر والواقع الباطل ، وبناء الفكر والواقع الحق بدلهما.

ويبـدو ان إبـراهيم (ع) وجههم ـ بهـذه الكلمة ـ الى المنهج السليم للتخلص من ضغوط الشـرك ، والتوجه الى الله. فمن تصور آيات الله وتذكر أسماءه وصفاته.

---

(1) الصافات / (69 ـ 70).

علم بأنه لا يرضى لعبـاده الكفر والشـرك ، وأنّه يعـاقب عليه أشد العقاب ، وانه ينتصر للذين يقاومون المشركين.

وكذلك نظن ان كلمات المفسرين هنا في أبعاد الظن قد تكـون جميعا من أبعـاد الآية بـالرغم من ان كل واحد منهم ذهب الى بعد منها وظنه المراد الوحيد منها.

[88 ـ 89] ولان نـبي الله إبـراهيم (ع) جوبه بـالرّد ، والأذى خطط لعمل واقعي يبلّغ من خلاله الرسالة بشـكل أعمق أثرا ، وما دام يعرف بـان الأصـنام باطل فما يضـره ان يبـــادر هو بنفسه لتحطيمها ، ولو لم يكن المجتمع قد اقتنع بذلك.

(**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ* فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ**)

وكـان قد اختـار يـوم عيـدهم فرصة سـانحة للقيـام بمهمته ، وخـــادعهم إذ أظهر لهم معرفته بـــالنجوم وذلك اتباعا لمنهج التقــــاة والعمل الســــري وتغطية على ما سيقوم به في المستقبل ، وقد اسـتفاد (ع) في ثورته من العادة الاجتماعية القاضـية بالاعتقـاد بـالنجوم ، حيث كـان قومه يتشاءمون أو يتفاءلون من خلال نظـرهم إليهـا. وقد نهى الإسلام عن الاعتقـاد بما يقوله المنجمـون الا ما كـان يستند على دليل منطقي. وغاية معقولة. قال الامـام علي (ع) :

«**ايها الناس إياكم وتعلم النجوم الا ما يهتدى به في بـرّ أو بحر ، فانّها تـدعو الى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكـاهن كالسـاحر ، والسـاحر كالكـافر ، والكافر الى النار**» [1]

ويبـدو ان علم النجـوم بذاته غـير محـرم الا ان جعل خرافات المنجمين في مقام رسالات الله والعمل بالنجوم من دونها هو المحرم ، فقد جاء في الحديث عن عبد

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (408).

الملك بن أعين قـال : قلت لابي عبد الله : اني قد ابتليت بهذا العلم ، فأريد الحاجة فـاذا نظـرت الى الطـالع ورأيت طـــالع الشر جلست ولم اذهب فيها ، وإذا رأيت طـــالع الخير ذهبت في الحاجة؟

فقال لي : تقضي؟

قلت : نعم ، قال : أحرق كتبك [2]

وجاء حديث آخر مأثور عنه عليه السلام انه قال : بعد ان سئل عن النجوم :

«**هو علم قلت منافعه ، وكـثرت مضـاره ، لأنه لا يـدفع به المقـدور ، ولا يتقى به المحـذور ، ان خـبر المنجم بالبلاء لم ينجه التحرز من القضاء**» [3]

وقال الامام الصادق (ع) :

«**ما كان إبـراهيم سـقيما وما كـذب ، انما عـنى سقيما في دينه مرتادا**» [4]

وحينما نقـرأ الأحـاديث الـواردة في تفسـير هـذه الآية الكريمة ، نجدها تؤكد على رفع الشـبهة القائلة بـأن التقية حرام لأنها تضطر العـاملين للكـذب ، بل انها من دين الله ويستدل الأئمة على ذلك بالقرآن الحكيم.

يقول أبو بصير : قـال الامـام ابو عبد الله (ع) : التقية من دين الله ، فقلت له : من دين اللـــه؟ قــال : اي والله من دين الله ، ولقد قـــال يوسف : «**أَيَّتُهَا الْعِـــيرُ إِنَّكُمْ لَسـارِقُونَ**» والله ما كـانوا سـرقوا شـيئا ، ولقد قـال إبراهيم : «**إِنِّي سَقِيمٌ**» والله ما

(2) المصدر / ص (407).
(3) المصدر
(4) المصدر / ص (406).

كان سقيما [1]

ولعل نظر إبراهيم (ع) الى النجـوم في ذلك المجتمع الزراعي الذي اعتقد بانّها ذات تأثير حاسم في حياته كـان للايحاء إليهم بأنّه يؤمن بها كما يؤمنـون ، فيبعد عن نفسه شـبهة الكيد بأصـنامهم فلا يأخـذوه الى عيـدهم عنـوة ويفشلوا خطته.

وربما قـال سـقيم تورية إذ انه من دون تحطيم الأصـنام كـان سـقيما ، أو ليست الأصـنام كـانت تعبد من دون الله جهـارا ، فكيف لا يكـون مـريض القلب مهمـوم الفؤاد ، دائم الكآبة وهو لما يقض على الأصنام.

ولعل هـذا هو مـراد الامـام الصـادق عليه السـلام انه كـان سـقيما في دينه ، إذ لا ريب ان إبـراهيم (ع) كـان مخلصا طاهرا حنيفا وهو الذي قـال عنه الـرب : «**إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**».

[90] وبالفعل نجح نبي الله في مهمته ، حيث اطمئن القوم الى كلامه وذهبوا جميعا الى عيدهم.

(**فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ**)

وفي هذا التعبير افصاح عن مـدى الاطمئنـان من قبل القـوم ، حيث وصـفهم القـرآن بالادبـار ، ولو لم يكونـوا كـذلك لكـانوا يلتفتـون الى ورائهم فلا يصح وصـفهم بـه. والحركة الناجحة هي الـتي يتمكن افرادها من التغطية على تحـركهم بحيث يسـلبون النباهة والحـذر من العـدو ليفاجئوه بالضربة القاضية ، وفي نفس الوقت لا

---

(1) المصدر

يتركون أثرا يدل على خطتهم.

[91 ـ 92] وقد عمد إبراهيم (ع) بعد ان اختار الوقت المناسب ، والأسلوب الناجح ، لتوجيه ضربته للواقع الفاسد ، فتسلل الى موطن الأصنام سرا وهدمها.

(**فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ* ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ**)

ان الذي لا تتوفر فيه ارادة الاكل والنطق كيف يكون بمستوى الربوبية التي تستدعي القدرة على الخلق؟!

وفي مطلع الآية نجد كلمة «راغ» التي عبر بها الله عن وثوب إبراهيم (ع) على الأصنام ، وهي من البلاغة بمكان رفيع ، إذ تفيد معنيين ، هما المكر والشدة ، وهكذا كان إبراهيم (ع). وراغ مستأسدا في الله يحطم رموز الباطل ، ومما يتضح من نصوص التاريخ ان آزر ـ أبو إبراهيم بالتربية ـ كان سادنا للأصنام وبيده مفاتيح بيتها ، فلما ذهب مع القوم للعيد سلم المفاتيح بيد إبراهيم فكانت كل الظروف مواتية لتنفيذ خطته ، ومن نافلة القول انه يتبين من تاريخ البابليين بان القوى الحاكمة للجماهير في زمنهم هما طائفتان ، طائفة السدنة والكهنة التي تمثل القوة الدينية ، وطائفة السلاطين التي تمثل القوة السياسية ، وكانتا تتعاونان على استغلال الناس واستعبادهم ، ولعل الأصنام كانت لديهم مجرد وسيلة للسيطرة على المحرومين.

[93] (**فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ**)

وقد أراد إبراهيم (ع) من تحطيمهم ان يوجه ضربة للقوتين ، وللثقافة المتخلفة التي تحكم المجتمع وتسهّل لهما السيطرة عليه ، ولعل التعبير باليمين للدلالة على شدة الضرب بلا تردد أو خشية.

[94] وهـذا بلا شك يعتـبر تحـديا عنيفا للجميع ، جعل إبــراهيم (ع) يقف امة لوحــده بما يختص به من اعتقــاد وثقافة وسلوك ، في مقابل مئـات الآلاف من النـاس ، ولا غرابة فان رسالة الله والتوكل عليه تحملان الفــرد الواحد على التحــــــدي ولو لأمة بأجمعها دون ان يضــــــعف أو يســتوحش ، لان ارادة المــؤمن أقــوى من الجبل ، لان الجبل تحطمه الفــؤوس بينما لا تنــال من ارادة المــؤمن شـــيئا. وما دام المـــؤمن على الحق يجب ان لا يخشى الباطل ولو اتبعه الناس جميعا.

(**فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ**)

لأنه الوحيد الـذي بقي في المدينة ، ولان بيـده كـانت مفاتيح بيت الأصنام.

والـزف تعبـير عن مشـية معينة ، تشـبه بداية مشـية النعامة ، ولعلها تــوحي بضــرب الأرجل على الأرض ، مع سرعة واهتمام.

[95 ـ 96] ولكنه بقي رابط الجــأش ، وعازما على المواجهة.

(**قــالَ أَتَعْبُــدُونَ ما تَنْحِتُــونَ* وَاللــهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ**)

والخـــالق هو المعبـــود الحقيقي الــــذي يجب على الإنسان التسليم والانقياد له.

في البـدء أخلص إبـراهيم (ع) نفسه فأخلصه الله من تـأثير الأجيـال السـابقة المتمثلة في عمه آزر ، ثم أخلصه من الخوف والتسليم للطاغوت بل للمجتمع ، فهو (ع) بدأ من الصـــفر حيث لا ناصر له الا ربّه ، فضـــرب مثلا على الإخلاص ، بانطلاقه في حركته من الايمــان بالله ، والعمل بوحيه ، بعيدا عن أيّة دافع آخر.

[97] ولان إبــــراهيم (ع) تحــــدى الانحــــراف بهــــذا المستوى ، والأسلوب الخطـير ، عزمـوا على قتله بأبشع صــورة ممكنة في نظــرهم ، لكي لا يفكر الآخــرون في السير على

نهجه ، وهذا هو ديدن الطغاة الى اليوم.

(**قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ**)

وكان نمرود وسائر القوى التي تهددها حركة إبـراهيم (ع) قد اتفقـوا على إشـعال نـار عظيمة ثم يلقونه فيها بالمنجنيق ، علما بان نارا أقل من الـتي اشـعلوها بكثـير ، كانت كافية لتحويله ـ في الظـروف العادية ـ الى رمـاد ، ولكنهم أرادوا ان يورطـوا جميع النـاس في مواجهة النـبي (ع) بجمعهم الحطب لها.

ونحن نجد حالة التعبئة العامة التي يعلنها الطغـاة عند ما تواجه سلطاتهم أخطارا حقيقية ، ويعملـون المسـتحيل لاشراك الناس فيها بغية أمرين :

أولا : الهاء الناس عن حقيقة ما يجري.

ثانيا : توريط الناس في الجريمة حتى لا يميلـوا ناحية المصلحين.

ففرعـون دعا النـاس الى الاجتمـاع في يـوم الزينة ليشهدوا غلبة السحرة في ظنه ، وأصحاب الأخدود جلسوا على حافتيه يشهدون ما يفعلون بالمؤمنين.

[98] ولكنّ يد الله فـوق أيـديهم ، وإرادته غالبة ينصر بها عبـاده المؤمـنين ، فقد أحبط الله عملهم ، وافشل مخططاتهم.

(**فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ**)

لقد كانوا يهـدفون من وراء القضـاء على إبـراهيم ان تتم لهم السـلطة والسـيطرة ، بإثبـات قـوتهم القمعية وصحة افكارهم ، ولكنّ الله أوصلهم الى نقيض تطلعاتهم. وكلما كـان كيد الكفّـار والطغـاة أشد ، كلما كـانوا أعمق فشلا وخزيا.

[99] اما إبــراهيم (ع) فقد مضى في طريق الجهــاد قدما حيث هـاجر في سـبيل الله ، ولعله كـان قـادرا على البقاء في تلك المدينة لأنه تحــدى طواغيتها وانتصر عليهم ، لكنه لم ير أن يعاشر الكفّــار ، بل أراد ان يبــني مجتمع الايمان بعيدا عن البيئة المنحرفة.

(**وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ**)

يعـني مهـاجر في سـبيل الله ، ومن الطـبيعي ان من يهاجر مجاهـدا سـوف يهديه ربه الى الحق والخـير ، وربما تفســـير هـــذه الآية الكريمة : (**وَالَّذِينَ جاهَـــدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**) [1]

[100] وكـان همّ إبـراهيم وتطلعه الآخر ان يلتحق به في الدرب آخرون يؤمنون به ويحملون رسالته فقال :

(**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**)

وقد حــدد لنا نـبي الله بهـذه الكلمة ، نوعية الطمـوح الـذي ينبغي للإنسـان ان يتطلع اليه ، وهو يبحث عن أولاد أو عن أنصار واتباع للرسالة ، وذلك بـأن يبحث عن النــوع لا عن الكم وحسب.

[101] ومما لا شك فيه ان للــدعاء أثـرا حاســما في النتــائج الــتي يصل إليها الإنســان ، فالــذي يخلص نيته ويحسن عمله ويــدعو الله ســوف يعطيه ما تقرّبه عينه ، وهكذا فعل ربّنا مع نبيه (ع).

(**فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ**)

---
(1) العنكبوت / (69).

اي عالم عاقل حكيم لا تهزه النوائب.

[102] وهنا أراد الله ان يبلو خليله إبـراهيم ، ومـدى تسليمه له.

(**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**) والبلـوغ بمعـنى الوصـول للسعي أو التمكن منه.

(**قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى**)

ووضع ولـده امـام القـرار الحاسم والصـعب ، وكـان بامكانه (ع) ـ كسائر الناس الذين يلتفون على احكـام الله للتهـرب من مسـئوليتها ـ ان يتهـرب هو أيضا ، بحجة ان الأمر كـان مجـرد حلم رآه في المنـام ، ولكنه يعلم ان الرؤيا لـون من ألـوان الـوحي عند الأنبيـاء ، ويجب عليه العمل وفقه.

والـذي لا ريب فيه ان إسـماعيل (ع) كـان أعز ما يملكه إبراهيم (ع) في حياته بعد الايمان بالله ، فـأراد ربّنا ان يمتحن مسـتوى تضـحيته في سـبيله ، فوجـده مسـلّما وهكذا كان ولده عليهما السلام.

(**قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**)

ويتضح لنا من هـذه الآية ان الأنبيـاء لا يتجـاوزون الامتحانـات الالهية بالاعجـاز انما يتـذوقون مرارتها وصعوباتها ، فهذا إسماعيل (ع) يصرّح عن حاجته لمشـيئة الله حتى يتجـاوز أهـواء نفسه ، والى الصـبر حـتى يقـاوم صعوبات الامتحان.

[103] (**فَلَمَّا أَسْلَما**)

لله تعالى ، فصـدق الأب الرؤيا ، واسـتجاب الابن الى والده.

(وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)

يعني أضجعه على الأرض ، وفي الخبر «فلما عـزم ـ إبراهيم (ع) ـ على الذبح قـال الغلام : يا أبت اخمر وجهي (اي استره) ، وشد وثاقي» [1] وكان هـدف إسـماعيل (ع) من ذلك ان يمضي أبـــــوه في تنفيذ امر الله ، فلا تثنيه عاطفة الابوة لولاح له وجهه.

[104 ـ 105] وفي تلك اللحظة جاءه النداء الإلهي :

(وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا)

وتجاوزت الامتحان فكانت العاقبة في صـالحه فهو لم يخسر دنيـاه ، إذ فـدى الله ولـده بـالكبش ، وعمّر آخرته حيث أطـاع الله ، وهو عـزّ وجل يؤكد بـأنّ هـذه عاقبة كل المحسنين المطيعين لأوامره سبحانه.

(إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

الذين يخرجون من قيـود الـذات والهـوى ، والعلاقـات السلبية ويتوجهون بكلهم الى ربهم عزّ وجل.

وفي تفسير هذه الآية قال الامام الصادق (ع) :

«**ما بدا لله بداء كما بدا له في إسـماعيل إذ أمر أباه بذبحه ثم فداه بذبح عظيم**» [2]

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (423).
(2) المصدر / ص (420).

إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنا عَلَيْـهِ فِي الْآخِـرِينَ (108) سَـلامٌ عَلى إِبْـراهِيمَ (109) كَـذلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُـؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّـرْناهُ بِإِسْـحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّــالِحِينَ (112) وَبارَكْنا عَلَيْــهِ وَعَلى إِسْـحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِــنٌ وَظــالِمٌ لِنَفْسِــهِ مُبِينٌ (113) وَلَقَــدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهــارُونَ (114) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَــــرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَــــرْناهُمْ فَكــــانُوا هُمُ الْغــــالِبِينَ (116) وَآتَيْناهُمَا الْكِتــــابَ الْمُسْـتَبِينَ (117) وَهَـدَيْناهُمَا الصِّـراطَ الْمُسْـتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (119) سَـلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (120) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِـنِينَ (121) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُـؤْمِنِينَ (122) وَإِنَّ إِلْيـاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123)

إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (125) اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (130) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132) وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (138)

---

135 [الغابرين] : الباقين الذين أهلكوا ، والغابر الباقي قليلا بعد ما مضى ، ومنه الغبار لأنه يبقى بعد ذهاب التراب قليلا.

إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ

هدى من الآيات :

في هـذه المجموعة من الآيـات يـذكرنا الله عز وجل بالمعنى الحقيقي للإخلاص ، وهو ان يكون الإنسـان بعيـدا عن العوامل والضغوط المضـادة للحق ، ويضـرب لنا على هـذه الفكـرة أمثلة في حيـاة الأنبيـاء ، كـإبراهيم وولـده إسماعيل ، وكاسحاق ، وموسى وهـارون (عليهم السـلام) وهكذا من حياة الأنبياء الآخرين ، من بني إسـرائيل الـذين انتخبهم الله بعد ان عرّضهم لا صعب الامتحانـات والفتن ، فوجدهم صالحين صادقين مخلصين.

وبالرغم من ان كل نبي تعـرّض لفتنة خاصة ، الا أنهم يشـتركون في بلاء عـام واجهـوه جميعا بصـلابة الايمـان والمعرفة بالله ، وتحـدي الأوضـاع الاجتماعية والسياسـية المنحرفة في مجتمعاتهم ، فضغط الاجتماع على الإنسـان وشعوره الداخلي الذي يسوقه نحو التكليف مع الآخـرين ، من أهم وأخطر الضغوط التي يواجهها في الحيـاة ، وهـذا ما جعل بعض العلمـــاء يـــدعون لعبـــادة المجتمع ، أو ما يسمى بالحتمية

الاجتماعية ، وحـتى الـذين يقولـون بالحتمية الطبقية ، أو الاقتصادية ، أو ما أشبه فـإنهم ليسـوا بعيـدين عن القـول بهذه الحتمية ، والفـارق ان هـؤلاء يركـزون في نظريـاتهم على جــانب منها ، بينما يؤكد علمــاء الاجتمــاع أمثــال (دوريكــام) على كافة أبعادها ، ونحن لا نســميها حتمية ، بمقدار ما نسـميها عصـرا وضـغطا من قبل المجتمع على الإنسان.

فالمجتمع في بعض الأحيان يعصـرك ، ويضـغط عليك باتجاه يتناقض مع طاعة الله ، والاهداف الـتي نتطلع إليها ، وواجبك تحديه بالايمان والتوكل ، وان تعرف بان عنـوان نبوة الأنبياء والمرسلين ، وأبرز أعمالهم هو تحديهم للواقع الاجتمــاعي الفاسد ، وأنّ نجــاحهم في هــذا التحــدي هو سبب ارتقائهم ، ولهذا أيضا نجد القرآن الحكيم يؤكد على هذه الحقيقة في كثير من سوره وآياته.

بينات من الآيات :

[106] النــبي إبــراهيم (ع) جــاء لكي ينسف عــادة جاهلية كـانت شـائعة ذلك اليـوم وهي ذبح الأبنـاء امـام الأصـنام تقربا لها ، وما كـانت هـذه العـادة مقتصـرة على فلسـطين وحـدها ، ففي مصر أيضا كـانوا ينتخبـون ملكة الجمال من بين بناتهم ليلقـوا بها مع بداية الربيع في النهر الذي كانوا يقدسونه لتذهب ضحية عقيدة جاهلية. تقـول : بـان إله البحـار يريد ان يـتزوج ، فلا بد ان نختـار له أجمل بناتنا لكي تهدأ المياه ولا يحدث فيضانا يخرّب بيوتنا ويهلك مزارعنا.

وهذه العادات ليست بعيدة عن واقعنا المعاصر ، لأنها مهما اختلفت في ظاهرها تلتقي في نقطة مركزية واحدة هي التضحية بالأبناء من أجل الاهداف التافهة.

ان الله أمر إبـراهيم (ع) بـذبح ابنه ثم عوضه بالـذِّبح العظيم ليقضي على هذه

العادة الجاهلية ، ويبدلها بسـنة الهية حسـنة ، جـرت لـدى البشـرية إلى هـذا اليـوم ، وهي ذبح الانعـام في مـنى عند الحج وفي غيرها ، وحينما بـدا لله ان يفـدي نبيه بـالكبش جعل الحـــادث يمر بوقـــائع اعجازية عجيبة ، فقد كـــانت السكين تلتوي كلما أدناها إبـراهيم من رقبة ولـده (عليهما السلام) وكانت تفت الصخرة لو ضـربها ، ولكنها تعجز عن التـــأثير في جلد رقبة إســـماعيل الرقيق بحـــدها. ولهـــذه القصة عبرتان أساسيتان :

الاولى : ان على الإنســـــان التضـــحية بابنه وبأفضل علاقاته من أجل الــدين وفي ســبيل اللــه. والثانية : وان يــرفض من جهة اخــري التضــحية بــأولاده من أجل الآلهة المزيفة ، حجرا كـانت أو بشـرا كطـواغيت اليـوم ، الـذين يريدون بلـوغ مـآربهم وشـهواتهم الرخيصة على جسر من دماء شباب الامة وأفلاذ اكبادها.

ان مقاومة إبــراهيم (ع) للانحــراف الاجتمــاعي كــان أمرا صعبا ، وصار أعظم صـعوبة حينما جعل الله الطريقة لمقاومته هو ذبح أعز النـــــــاس عليه وهو ابنه (ع) ، وقد وصف الله هذا الامتحان بقوله :

(**إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ**)

وانما سمي مبينا لأنّه يكشف مستوى الايمان ، ويــبين حقيقة الإنسان.

[107] وبالفعل كشف لنا هذا الامتحـان مـدى إخلاص النبي إبراهيم وتسليمه للـه. هو وولد الـذي فـداهما الـربّ بذبح من عنده تنزل به جبريل الأمين.

(**وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**)

وبهـــذا الـــذبح ســـنّ عليه الســـلام ســـنّة ســـار عليها المؤمنون إلى اليوم ، فهم يذبحون

الهدي بمنى وفي كافة أنحاء العالم اقتداء به ، ولعله لذلك سمي عظيما ، وقالوا ان الذبح العظيم هو السبط الشهيد الامام الحسين بن علي (ع) الذي ذبح على النهر عطشـانا بكــربلاء فــداء لــدين الله ، ومقاومة للعــادات الجاهلية الاموية.

[108 ـ 109] وكرامة لإبراهيم الخليل في الـدنيا قبل الآخـرة ، جعل الله له ذكـرا حسـنا عند البشـرية بـاختلاف مــذاهبها وعقائــدها ، ولخّص ربّنا هــذه الكرامة في كلمة واحدة هي : السلام على إبراهيم.

(**وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ**)

ومما تجدر الاشارة اليه ان الاسـتحباب الشـرعي في السلام على الأنبياء والصالحين يقتضي تقديم الصلاة على محمد وآله (صلوات الله عليهم) ثم يـذكر الطـرف المـراد ذكـره. فيقـول الـذي يريد الصـلاة على عيسى : على نبينا وآله وعليه أفضل الصـلاة السـلام ، إلا نـبي الله إبـراهيم فان المستحب ذكره أولا ثم الثناء على نبينا وآله ، فتكـون جملة القــول : (على إبــراهيم وعلى نبينا وآله الصــلاة والسلام).

[110] ولكنّ هـذا الجـزاء الـذي يحصل عليه الأنبيـاء ليس بســنة خاصة بهم ، انما ضــمن العدالة الالهية الــتي تشمل البشرية كلها ، فلان إبـراهيم كـان محسـنا اسـتحق هذه الكرامة.

(**كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**)

ونستوحي من هذه الآية فكرتين :

الاولى : ان الجـزاء الحسن ليس قصـرا على الأنبيـاء وحــدهم ، انما يلقــاه كل محسن في كل زمـان ومكـان ، وان الكرامة الحقيقية لا ينالها الإنســـان إلا بالكفــــاءة والسعي (والإحسان) وان جهود المـؤمن لن تضـيع ، فربّنا يحفظ لكل عمله ويجازيه عليه ان

في حياته أو بعد الوفاة ، وما هذا الجـزاء الـدنيوي الا دليل على الجزاء الأعظم في الآخرة.

الثانية : إنّ الإحسان إلى الناس يجازيه الـربّ بالولاية عليهم ، فأحق الناس بالناس أحبهم لهم وأكـثرهم إحسـانا إليهم.

[111] وربّنا عزّ وجـلّ يجـازي من كـان محسـنا على إحسانه وبقـدره ، حـتى ولو لم يكن مؤمنا ، لان الإحسـان بذاته محمـود عنـده ، وقد قـال سـبحانه : (**هَـلْ جَـزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ**) فكيف إذا كـان المحسن مؤمنـا؟ بالطبع سوف يجازى أكثر في الدنيا والآخرة ، لان إحسانه للناس ليس من أجل سمعة طيبة أو جـزاء مـادي عاجل ، بل يزيد في رصيده الاخروي ، فهذا إبراهيم (ع) وقد سـنّ الأضحية لله فتنامى ثوابه بقدر ما افتدى به الآخرون ، اذن فـالمؤمن يحصل على الجـزاء بمقتضى سـنتين ، سـنة الإحسان ، وسنة الايمان ، لهذا يؤكد الله على إحسان نبيه إبراهيم (ع) ثم يعود للتأكيد على ايمانه فيقول

(**إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**)

فجزاؤه مضاعف اذن.

[112] يـزعم البعض ان الـذي يخـالف المجتمع الجاهلي ، سوف يعزل ويتجـاوزه التيـار ثم يكـون أبـتر ولا يبقى له اثر ، ولكن العكس تماما نجده في تاريخ الأنبيـاء. فبالرغم من مخالفتهم جموع الكـافرين فـان الله سـبحانه أهلك أعـداءهم ، وبـارك في ذريتهم ، ونشر ثنـاءهم على كل لسان وفي كل زمن.

فهذا إبراهيم (ع) يحنف عن قومه لوحده حـتى يكـون لوحـده امة قانتا لله ، ولكن انظر إلى العاقبة فـأين أولئك الذين خالفوه؟ اما هو فهذا امتداده المبارك في ذريته

وتابعيه.

(**وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**)

فصــلاح الوالــدين ينعكس على الأجيــال الــتي تنسل منهما ، عبر طائفة من الســنن الالهية كالوراثة ، والتربية ، وتأييدات ربانية.

[113] ثم بارك الله لإبراهيم ولإسحاق.

(**وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ**)

فـــالعرب من إبـــراهيم وهم أولاد إســـماعيل ، وبنو إسرائيل من ولده اسـحق ، فهو ليس أبّ الأنبيــاء وحسب انما هو أب لشـــــــعبين عظيمين أيضا ، ثم يؤكد ربّنا إلى جـانب ذكـره البركة الـتي أسـبغها على إبـراهيم وولـده اســحق ، أن ذلك ليس مــبررا لمن أراد من ولــدهما ان يضـفي على نفسه صـبغة القداسة ، فيـدعي الافضـلية لا لشــيء الا أنه ينسل منهما ، لان قيمة الإنســان الحقيقية تنبعث من عمله هو لا من حسبه ونسبه.

(**وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ**)

لأنه أحســن. وليس لأنه ينتمي للمحســنين ، كما يوجد من بينهم المنحرفون الظالمون.

(**وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ**)

[114 ـ 115] ويضـــرب لنا القـــرآن مثلا من واقع المحسنين من هذه الذرية المباركة ، فيقول :

(**وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ**)
بالنبوة وهما من ذرية اسحق.
(**وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**)
وإذا كان الغرق صورة من الكرب لأنه من غضب الله ، فان ظلم فرعـون وجنـوده صـورة اخـرى لا تقل فظاعة عنها.
(**وَنَصَرْناهُمْ**)
[116] اضـافة إلى النجـاة من الكـرب على فرعـون وجنوده.
(**فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ**)
بلى. قد يتسـلط الطغـاة على البلاد ، ويفشل المؤمنـون في كثـير من المحـاولات للاطاحة بهم ، ويقدمون التضحيات ، ولكن العاقبة تكون لهم ، وإذا كانت للباطل جولة فـان للحق دولـة. ومهما تكن الظـروف معاكسة ، والظاهر يـوحي بغلبة الباطل إلا ان الحق واهله هم المنصورون.
[117] ولكي يحافظ موسى وهارون على مكتسـبات النصر ، ويديرون شـؤون بـني إسـرائيل انـزل الله عليهما التوراة منهجا للحياة.
(**وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ**)
ومن صفات الرسالات الالهية أنها واضـحة ، كـالقرآن الـذي يصـفه الله بقوله :
(**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ**) [1] وهـذه الفكرة تنسف أساس المعقدين

(1) القمر / 17.

الـــذين اتخـــذوا منهج التكلف لآيـــات الله ، بتفســـيرها تفسيرات معقدة ، أو من خلال الأشعار الجاهلية وأحاديث وأسباب النزول الضـعيفة في سـندها غالبا ، بل إن البعض منهم حاول تفسير القرآن من خلال الأفكار الدخيلة ، حتى قــال قائل منهم لا بد لمن أراد تفســير القــرآن ان يقــرأ الفكر الماركسي أولا.

[118] هنا نعمتان متدرجتان تتواليـان على المؤمـنين إحداهما توفير فرصة الهداية بانزال الـوحي ، الثانية هداية الله لهم بعد تقبلهم للوحي والتزامهم بشرائعه.

وإذا كـانت النعمة العامة تعم النـاس جميعا إذ ان ربّنا يبعث إلى كل قرية نـــــذيرا فـــــان النعمة الثانية تخص المؤمنين فقط ، ولذلك خص ربّنا موسى وهارون بالهداية قائلا :

(**وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ**)

[119 ـ 120] ويوصل الله سياق الحديث عن موسى وهارون بالسياق العـام للسـورة ، الـذي يحـدثنا عن جـزاء عباد الله المخلصين والمحسنين ، وذلك من خلال الاشارة إلى جزائهما عليهما السلام.

(**وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ* سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ**)

ولا يمكن لأحد أن ينكر دور الارادة الالهية في تخليد ذكر هؤلاء الأنبيـاء الـذين مر على وفـاتهم آلاف السـنين ، فلو لا ذكرهم الـذي تضـمنته رسـالات الله ، هل كـان أحد في هذا العصر يعرف هـذه التفاصـيل عن حيـاتهم؟ وأكـبر دليل أنّنا لا نعـرف عن حيــاة الأنبيــاء الآخــرين الــذين لم تتعـــرض لـــذكرهم الرســـالات شـــيئا مع ان عـــددهم (124000) نبيا ورسولا ويؤكد القرآن في سورة هــود ذلك بعد ان يذكر قصة نبي الله نوح ويقول :

(**تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**) [1] ان احداث التاريخ كانت تتلاشى من ذاكرة البشر وكل جيل يأتي ينسى جزء منها حتى تنتهي تماما ، بالذات وان البشرية ولفترة ليست بالبعيدة لم تكن قد وصلت الى التقدم العلمي الذي يمكنها من المحافظة على كل ذلك ، بالاضافة الى أنّ كثيرا من الأقوام كانوا يتعرضون للانقراض والهلاك الجماعي فيموت معهم تاريخهم ، وعلم الآثار القائم اليوم يطلع علينا كل حين بمعلومات عن أقوام لم تكن البشرية تعرف عنهم شيئا ، ولكن الله يخلّد ذكرى الأنبياء العظام بفضله ويترك السلام عليهم يتوالى ليل نهار. ونعود للآية لنتسائل ماذا ترك ربّنا على موسى وهارون؟

أولا : ان الله حافظ على رسالتهما في الحياة ، إذ أبقى مشعل الهداية الذي تحملا الجهاد به والدعوة اليه ، يتلقفه الصالحون من ورثتهما على طول التاريخ دون ان يسقط يوما.

ثانيا : جعل ذكرهما الحسن يطبق الخافقين ولا يزال الى الأبد.

[121 ـ 122] ولان الله ذكر هذه القصص توضيحا وتأكيدا للحقيقة المحورية في هذه السورة عاد ليؤكدها ، وتلك الحقيقة هي ان العاقبة للمحسنين.

(**إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**)

ولا بد ان نلاحظ بان هذه الآية تأتي بعد ذكر مجموعة حقائق من حياة كل نبي فمن حياة نوح (ع) ذكر النجاة ، ومن حياة إبراهيم ذكر الذرية الصالحة ، ومن حياة موسى ذكر النصر والهداية ، واشركهم في الذكر الحسن الذي لخّصه في السلام

---

(1) هود / 49

عليهم ، ومعــنى ذلك ان جــزاء المحســنين لا ينحصر في الــذكر الحسن ، بل يشــمل كل هــذه الأمــور وما ســيأتي ذكــره في القصص الاخــرى. وقد يكــون تلخيص القــرآن لحيــاة هـؤلاء ليس من بــاب الحصر إنّما أراد أن يشــير لنا في هذه السورة إشارات مختصرة ، اما التفاصيل فيمكننا التعرف عليها من خلال مراجعتنا للسور الاخرى.

[123] (**وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**)

ويبدو انه من أنبياء بني إســرائيل ، قيل إنّه عــاش في منطقة بعلبك بلبنــان ، وانما ســميت بــذلك لان أهلها في ذلك الزمــان كــانوا يعبــدون إلها لهم يســمى بعلا. يقــول صاحب المنجد : (بعل : اسم أطلق على عدة آلهة ســاميّة اشهرها معبود فينيقي ، هو إله الخصب والتناسل) وبعلبك محافظة البقاع يدل اسمها الحالي على اسمها الفيـنيقي : بعل البقاع [1]

[124] ويلخص القرآن رســالة اليــاس في ثلاثة أمــور هي :

الاول : الدعوة الى تقوى الله عز وجل.

(**إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ**)

وهــذه دعــوة جميع الأنبيــاء لاقــوامهم ، لان مشــكلة الإنسان الحقيقية هي ابتعــاده عن ربّه وضـعف ايمانه به ، ولا ســبيل للبشــرية الى معالجة انحرافاتها ومشــاكلها إلا بالايمان والتقوى.

[125] الثــاني : ولكي يتصل الإنســان بربّه ويكــون متقيا ، يجب ان يتغلب على مشــكلة الشــرك لهــذا نجد الياس في الـوقت الـذي يـدعو قومه لتقـوى الله يـأمرهم بنبذ

(1) المنجد كتاب الاعلام ص 136 الطبعة 26.

الآلهة المزيفة.

(**أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ**)

والخلق هنا ليس بمعـنى الإنشـاء من لا شـيء ، انما يعني الصناعة والتغيير التي يسـتطيع الإنسـان على شـيء منها ، ولكن الله أفضل الخـالقين ، فهو الأولى بالعبـادة ويبدو ان ذكر صـفة أحسن الخـالقين هنا لان القـوم كـانوا ينسبون النسل لإلاههم بعل ، فأمرهم النبي الياس بتقـوى الله من ذلك ورفض هـذه الخرافـات الـتي تقف دون تقدمهم وتكاملهم.

[126] ثالثا : محاربة الاتباع الخـاطئ للآبـاء ... ويبـدو ان التقاليد كـانت عميقة الجـذور في مجتمع اليـاس (ع) والسبب أنّ الله إذ لخص دعوته أشار الى الابـاء مما يـدل على نوع المعاناة التي كان يعيشها.

(**اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**)

أراد من ذلك بيان دور الابـاء في الضـغط على الأبنـاء ليشـركوا بالله أو يكفـروا به ، وهل يغيّر الواقع والحقيقة كفر النـاس؟ كلا ... فالله هو رب الابـاء وان كفـروا أو أشـركوا به ويجب على الأبنـاء ان يتجـاوزوا خطـأهم ، ويتركوا هذه الأنداد ويتوجهوا الى ربهم الحق.

[127] ثم يعرض لنا السـياق النتيجة الـتي صـار إليها قـوم اليـاس (ع) ، فقد كـذّبوا رسـولهم وأصـروا على انحرافهم.

(**فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ**)

امـام العدالة الالهية لينـالوا جـزاءهم المتمثل في عذاب الله.

[128] وتستثني الآيات من العذاب القوم المخلصـين ، وهم الذين تمحضوا في الطاعة.

(**إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ**)

أما الـذين يلحق بايمـانهم بعض الشك ، وبأعمـالهم بعض السـلوكيات المنحرفة فـإنهم يحضـرون للحسـاب والجزاء كلا بنسبة شكه وانحرافه.

[129 ـ 130 ـ 131 ـ 132] كان ذلك جزاء المكذبين ، اما الرسول الـذي صـدق برسالته ، وبلغها لهم ، وتحمل من أجلها العنـاء والتضـحيات ، فـان جـزاءه على الله الكرامة.

(**وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ* إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**)

وقد تجسد إحسـان اليـاس في رسـالته الـتي حملها لقومه ، وإذا كانوا قد قابلوه بالرد والتكـذيب ، فـان الله لا يضـيع لديه عمل محسن أبـدا ، وتأكيد القـرآن على صـفة الايمـان في النمـاذج الـتي يضـربها من حيـاة الأنبيـاء دون صفة النبوة والرسالة ، حتى لا يتصور متصـور انه إذا صـار محسنا فقد لا يجني ثمـرة لإحسـانه باعتبـاره ليس بنـبي ، فالعبودية والايمان صـفتان ممكنتـان لكل شـخص إذا أراد وسعى.

[133] ويسـوق لنا القـرآن مثلا آخر على نجـاة المخلصـين من حيـاة النـبي لـوط (ع) وهو من أهل بابل بعثه الله في غير قومه.

(**وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**)

وقد جـاء ليعـالج الوضع الفاسد الـذي يعيشه قومه ، والذي من ابرز مظاهره

الفســـاد الخلقي ، وذلك برســـالة ربه ، لكنّهم رفضـــوه ورفضـوا رسـالته فكـان مصـيرهم كسـائر الأقـوام الـذين يكذبون الأنبياء ان دمرهم الله.

[134 ـ 135 ـ 136] ومع ان حياة لـوط (ع) تشـتمل على الكثير من الدروس والعـبر ، إلا ان القـرآن في هـذه السـورة يـدعونا للتفكـير في لحظة نجاته ومن آمن معه من أهله ، ودمار الآخرين الذين كذّبوا به. لان هذا الجـانب يلتقي مع السياق العام لهذه الآيات.

(**إِذْ نَجَّيْنـــاهُ وَأَهْلَـــهُ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عَجُـــوزاً فِي الْغابِرِينَ**)

وقد قيل انها زوجته ، وقصة هلاكها هي : ان الله امر لوطا ومن معه حينما يخرجـون من القـرى المؤتفكة ان لا يلتفتوا وراءهم ، لان ذلك يعبّر عن الشفقة على المهلكين ، والتشـبث بالمـال وحب الـوطن من دون الله ، فـالتفتت زوجته وأهلكت معهم.

(**ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ**)

بـــان قلب جبرئيل (ع) عليهم الأرض عاليها ســـافلها واهلكهم جميعا.

[137 ـ 138] وإذا كـان هـؤلاء الأقـوام قد انقرضـوا بأجسـامهم وحضـاراتهم فقد بقيت منهم العـبرة والسـعيد من اتعظ بتجارب غيره.

(**وَإِنَّكُمْ لَتَمُـرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْـبِحِينَ* وَبِاللَّيْـلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

أكان هذا المرور على بقايا الآثـار ، أو من خلال آيـات القرآن الحكيم ، فقد قال

ابو الربيع الشامي : سألت أبا عبد الله (الى قولـه) فقلت : فقوله عزّ وجلّ (**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ**) قال :

«**تمرون عليهم في القرآن إذا قـرأتم القـرآن ، فقرأ ما قص الله عليكم من خبرهم**» [1]

ومشـكلة النـاس الـذين يكـررون تجـارب الآخـرين الخاطئة فيصيبهم ما أصابهم ، ليس قلة التجارب والعـبر ، انما قلة الاعتبـــار ، فالآثـــار والقصص التاريخية كفيلة باسـتثارة عقل الإنسـان وإعطائه البصـيرة في الحيـاة ، ولكنه يعطل عقله عن التفكير فيها ، وفي بعض النصـوص التاريخية ان العرب كانوا يمرون بقـوافلهم أثنـاء تجـارتهم الى الشام على قرى لوط إلّا إنّهم لم يسـتفيدوا من هـذه الموعظة التي لا تحتاج إلّا الى القليل من التفكـير ليقرأها الإنسان.

وهـذه التـذكرة من القـرآن الحكيم بضـرورة الاعتبـار من التاريخ ، تؤكدها الآيـات عند ذكرها لقصص الماضـين ، وذلك لكي يعلم من يقــرأ القــرآن ، بــان هــذه القصص ليست للتســـــلية وجمع المعلومــــــات إنّما هي للهداية والموعظة والاعتبار.

(1) نور الثقلين ج 4 ص 432.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (148) فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (150) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (153)

145 [بالعراء] : المكان الخالي الذي لا نبت فيه ولا شجر.
146 [يقطين] : شجر القرع ، وقيل كل شجر لا ساق له.

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلا تَـذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُـلْطانٌ مُبِينٌ (156) فَـأْتُوا بِكِتـابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (157) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَـباً وَلَقَـدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (160)

سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ

هدى من الآيات :

بعث الله نبيه يـــونس بن مـــتى الى مدينة نينـــوى بالموصل ، فبلّغ الرسالة وارشــدهم للحق بعد ان بين لهم انحرافهم ، ولكنهم لم يستمعوا الى دعوته ، فما صــابرهم كثيرا ودعا عليهم فغضب الله عزّ وجل عليه ، لكنّ حساب الخطأ على الأنبيــاء يكــون بمســتوى المســؤولية الــتي يتحملها النــبي. فــالربّ يعتــبر تــركهم الأولى معصــية كما اسمى تناول آدم من الشــجرة عصــيانا ، بل في قصة أحد الأنبياء الذي حاربه قومه فاختفي في جــذع شــجرة ، ولما دلّهم الشيطان عليه قطعوا جدعها بالمنشار ، فأصــابه من حــدها فقــال «آه» ، فــأوحى الله اليه إن عــدت لها مــرة اخرى محوت اسمك من ديوان الأنبياء. ولا ريب ان لحظة الوقـــوع في الخطأ لرفع الله عنهم العصـــمة ليتصـــرفوا بطــبيعتهم البشــرية المجــردة ، ولعله لحكمة معينة هي إظهار بشريتهم (ع).

وهكذا غضب الله على نبيه يونس بسبب تركه للأولى ، وســرعة الــدعاء على قومه ، الأمر الـذي جعله مسـتحقا عند الله الاعتقال ، فسجنه في بطن الحوت في

ظلمـــات ثلاث ، في قصة خلاصـــتها إنّه وصل الى البحر هاربا من قومه ، وركب سـفينة مليئة بالمسـافرين ، وفي عــرض البحر حيث طغى مــاؤه وهــاج موجه ، وتخــوّف الجميع من غرقها ، فقـال ربـان السـفينة : ان عبـدا آبقا موجـودا في سـفينتنا ، وكـانت عـادتهم الاقـتراع في مثل هذه الظروف ومن يظهر اسمه في القرعة هو الذي يلقى في البحر ليخف وزن الســفينة ، وكـــانت القرعة ولثلاث مرات تتجه الى يونس بن متى فرمـوه في عـرض البحر ، فتلقفه الحوت الذي ابتلعه وبقي في بطنه.

ولم ينقذ يونس (ع) من هـذا المـأزق الا بتضـرعه لله واعترافه بخطئه «**سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**» [1] ، إذ أمر الله الحـوت ان يقذفه على السـاحل وخـرج من بطنه وقد اهترأ جلده ، فأنبت الله له شجرة اليقطين ذات الأوراق الكبيرة ، فشوفي وخرج ليمارس مسـئولية التبليغ من جديد.

وتهـــدينا هـــذه القصة كما القصص الماضـــية ، الى الحقيقة التي سبق وان ذكّر بها السياق القرآني ، وهي ان العباد المخلصين بشر وليسوا أولادا لله سـبحانه ، ولا آلهة ، وذلك خلافا لما يصــــفهم به المشـــركون ، كما إنّهم لم يوصفوا بتلك الصفات المثلى الا بما سعوا وأحسـنوا ، وقد اعترضـتهم ــ كما يحصل ذلك لاي إنّسـان آخر ــ الصـعاب والمشاكل ، ولو كانوا كما يصفهم المشـركون لتجاوزوها ، والحال إنّهم لولا رحمة الله لكانوا من الهالكين.

بلى ان ربّنا سبحانه ترك عليهم سـلاما دائما على كل لسان لما امتلكوا من صفات جعلتهم أئمة وقادة.

ولعل هذا التأكيد على السلام عليهم لكي يتخذوا قادة ، ولكي يعرف الناس حدود إكرامهم للأنبياء فلا يغلوا فيهم حتى مقام الربوبية ، ولا ينزلونهم الى مستوى

---

(1) الأنبياء / (87).

العلمـاء والمفكـرين ، وأخـيرا لكي يفسر القـرآن سـبب إكـرام النـاس للأنبيـاء فلا يحرفه الضـالون عن سـبيل التوحيد.

بينات من الآيات :

[139 ـ 40] (**وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ أَبَـقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**)

والآبق هو الهارب ، والمشحون الممتلئ.

[141] ولما أبحرت السفينة وخـاف أهلها من الغـرق اقـترحوا ان يقـترعوا ، ليلقـوا واحـدا من ركبها في البحر تخفيفا لوزنها.

(**فَساهَمَ**)

النبي يونس بعد ان وافقهم.

(**فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**)

والمدحض هو الذي لاحظ له ، وقد خسر القرعة ثلاث مرات.

[42] فلما كان الأمر كذلك ألقي في البحر.

(**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ**)

والمليم الـذي يـأتي من التصـرفات ما يسـتحق عليه اللوم.

[143 ـ 144] ولكن يونس أدرك خطأه واعـترف به ، واهتـــدى الى طريق التوبة ورضى الله وهو الاســـتغفار والتسبيح ـ وهكذا يجب علينا نحن حينما نقع في

المعصية ـ وبهذا تجـاوز النـبي (ع) محنته ليخلّف للبشـرية درسا في معالجة الخطأ. ولو لا أنّه أصلح خطأه لاحاط به.

(**فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَـبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِي بَطْنِـهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**)

وذلك بان يكون قبره في بطنه.

[145] ولكن الله أخرجه من بطن الحوت بعد توبته.

(**فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ**)

اي مـريض والسـقم شـدة المـرض ، اما العـراء فهي الصحراء.

[146] (**وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ**)

لأنه ربما كـان يحتـاج الى الظل كعلاج الى سـقمه ، قال الامام علي (ع) :

«**وأمر الله الحــــــوت ان يلفظه فلفظه على سـاحل البحر ، وقد ذهب جلـده ولحمه ، وأنبت الله عليه شـــجرة من يقطين وهي الـــدّبا ، فأظلته من الشــــمس ، ثم أمر الشــــجرة فتنحت عنه ووقعت الشمس عليه فجزع. فأوحى الله اليه : يا يـونس لم لم ترحم مائة الف أو يزيـدون وأنت تجـزع من تـألم سـاعة؟ فقـال : يا رب عفـوك ، عفـوك ، فـرد الله عليه بدنه ، ورجع الى قومه وآمنوا به**» [1]

ويبدو ان الشـجرة لم تكن تظله وحسب ، وإنّما كـان يتداوى بها عن مرضه ، لان ثمر هذه الشجرة ـ وهو القرع ـ بارد طبعه كما يقولون ينفع الجسم الملتهب.

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (436).

[147] وهكذا نهض يـونس من مرضه ليمـارس عمله الجهـادي من جديد يـوحي من الله عز وجل ، الـذي بعثه ليعيد التجربة مع قومه.

(**وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**)

ولم يحدد القرآن عدد هؤلاء بالضـبط ، لان المجموعة البشـرية المتواجـدة في منطقة ما ، تزيد وتنقص لعوامل مختلفة من بينها الولادة والمـوت ، ومن بينها الهجـرة من المجتمع واليه.

[148] وحينما عاد يـونس الى قومه هـذه المـرة نجح في تغييرهم.

(**فَآمَنُوا**)

وصاروا مثلا للامة التي استفادت من تجربتها السـلبية في ارتقائها وتقـدمها ، فقد حـدد قـوم يـونس وهم يـرون العـذاب على الأبـواب المسـؤول عن هـذا الواقع ، فلم يـبرروا لأنفسـهم ولم يعانـدوا ، انما تحملـوا المسـؤولية وتواضـــعوا للحق فـــرفعهم الله وأرسل عليهم الخـــير والبركـة. وليس بالضـرورة ان يكـون العـذاب غماما ولا خســفا من غضب الله ، فقد يكــون هو التمـــزق والفقر والتخلف والمشاكل النفسية والاجتماعية ، وكلها موجـودة الآن في واقع الامة الاســلامية ، وواجبها ان تغــير واقعها ليغير الله ما هي عليه من التخلف الى التحضر والازدهـار. ولا يكـون ذلك الا بالايمـان ، فهـذه امة يـونس يحكي الله عنها إذ آمنت قائلا :

(**فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ**)

فلم تبق هـــــذه المتعة والبركة طـــــويلا ، لأنهم لم يحافظوا على عاملها الأساسي وهو الايمان فهم ظلوا في متعتهم الى حين وجود الايمان بينهم.

[149] وبعد ان يختم ربّنا قصص الأنبياء التي أكد فيها على عبوديتهم له نفيا لادعاء المشركين بأنهم آلهة ، وذلك من خلال الآية الكريمة : (**إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُــــؤْمِنِينَ**) ، الــتي تمثل عــاملا مشــتركا بين القصص كلها ، ينفي من الجـــانب الآخر مجموعة من التصـــورات الـــتي اختلقها المشـــركون حـــول الملائكة والجن ، وأهمها زعمهم بأنها نسب لله عز وجل كوسيلة لتأليهها. ونجد في السياق امرا من الله الى رسوله باستفتاء المشركين في ذلك.

(**فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ**)

والاستفتاء هو أخذ الفتيا والرأي.

[150] ولو سـألهم الرسـول لقـالوا بلى ، ولكن على اي دليل يستند قولهم ، هل شاهدوا خلق الملائكة؟

(**أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ**)

الذي يرى شيئا بعينه يمكنه ان يـدعى صـدق ما رآه ، ويكـــون ادعـــاؤه منطقيا ، بينما لم يشـــهد هـــؤلاء خلق الملائكة حـتى يعرفـوا ماهيتها ، وهـذه الآية تنسف فكـرة الجاهلية من الأساس حول الملائكة ، حيث تهـدينا الى إنّها مجرد ظن لا دليل عليه.

[151 ـ 152] ومع ان ظاهر الآيتين الماضـيتين حـول الملائكة ، انهما تعالجان فكرة أنوثة الملائكة ، الا ان هدف القرآن من الحـديث هو نسف الاعتقـاد بألوهيتها ، ذلك ان بعضا من المشـركين تصـوروها تولـدت من الله فهي آلهة أيضا ، وإنّما دخل الســـياق لهـــذا الموضـــوع من زاوية الحـــديث عن طبيعة الملائكة وماهيتها ، ليـــبين لنا بـــان تصـورات الجـاهليين خاطئة ليس في تحديد دور الملائكة وحسب وإنّما يجهلـــون حـــتى ماهيتها ، وكل ما هنالك من أفكار لديهم حولها فانها مجرد ظنون لا دليل منطقي

عليها.

(**أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُـونَ* وَلَـدَ اللـهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ**)

ان الاعتقـــاد بـــولادة الله الـــذي نشأ أصلا من أجل الهروب من ثقل المسؤولية ، ولكي يشبع الإنسان غـروره وكبره وتطلعه الى مقام الربوبية ـ ان هذا الاعتقاد ـ بـرره ادعيـاء الحكمة والفلسـفة فوضـعوا له نظريـات الحلـول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، ومها حاولوا تبريرها فهي مجرد إفك داخلي في نفوسهم ، وكذب فظيع على ألسنتهم.

ان المشركين يعلمون بكذب دعواهم فاجتمع في هذا الادعاء القبح الفاعلي الى جانب القبح الفعلي.

[153] ويتساءل القرآن من جديد :

(**أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ**)

[154] ان استصدار هذا الحكم على الله سـبحانه ، لا ينطبق مع أبسط قواعد الحكم المنطقية.

(**ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**)

[155 ـ 156 ـ 157] والإنســان حينما يريد الحكم على قضـــية ما إما ان يرجع الى ضـــميره ، أو الى حجة اخـــرى كالعقل والعلم ، وهـــؤلاء لا يراجعـــون ضـــميرهم بالتذّكر ولا يرجعون الى حجة قاطعة اخرى.

(**أَفَلا تَذَكَّرُونَ* أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ**)

إذا بلغ الإنســان حـــدا ـــ وبالاعتمــاد على الــبراهين والشواهد القاطعة ـ ان اعتقد

حتى ولو بهذه الفكرة الباطلة في واقعها. فانه معذور عند الله ، ولكنه تعالى أبى ان يجعل الحق بـاطلا لا ريب فيه ، ولا الباطل حقا لا ريب فيه ، وذلك بما زرع في الإنســـان من ضــمير ، وبما وهبه من عقل ، وأنــزل عليه من كتب ، وبعث له من رسل ، وجعلها جميعا فرقانا له في الحيـــاة في كل أمورها وقضاياها.

(**فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

إذا كـانت مـزاعمكم هـذه تعتمد على دليل فـأين هو الدليل؟

[158] وفي نهاية الـدرس يعـرّج القـرآن على فكـرة باطلة اخرى لينسفها نسفا وهي تأليه الجن.

(**وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً**)

فعبـدوا الجن ، وعبـدوا السـحرة والكهنة الـتي تـدّعي الاتصال بها ، أو تتصل بها فعلا.

(**وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ**)

ولو كـــانت الجن آلهة كما يتصـــور المشـــركون ، لما أحضـروا للعـذاب كسـائر العصـاة من الخلائق وذلك يـدل بوضـــوح على إنّهم مخلوقـــون وليســـوا بآلهـــة. وذكر الله لحضـــور الجنة للعـــذاب يضـــرب أفكـــار المشـــركين في الصميم ، ذلك ان للشرك بصورة عامة جذر مشترك ، هو محاولة التخلص من المســؤولية ، عــبر الاعتقــاد بأشــياء وقــوى أنّها تخلص الإنســان من عــذاب الله ، وإذا كـانت الجنة لا تخلّص نفسها فكيف تنقذ البشر.

[159] وتعالى الله وتنزه عن هذه الأفكار المنحرفة.

(**سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ**)

[160] وفي الوقت الـذي ينسف القـرآن فكـرة تأليه الجن ، ينسف من جانب الاعتقاد السـائد لـدى البعض من ان الجن يـذهبون الى النــار جميعا ، وذلك حينما يســتثني من الحضور في العذاب المؤمنين المخلصين منهم.

(**إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ**)

كما تتضـمن الآية تأكيد في كلمتها الاولى على عبودية الجن لا ألوهيتهم.

فَـإِنَّكُمْ وَما تَعْبُـدُونَ (161) ما أَنْتُمْ عَلَيْـهِ بِفـاتِنِينَ (162) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (163) وَما مِنَّا إِلاَّ لَـهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّـافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166) وَإِنْ كـانُوا لَيَقُولُـونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْـراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبـادَ اللـهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170) وَلَقَـدْ سَـبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَـلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُـورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْـدَنا لَهُمُ الْغـالِبُونَ (173) فَتَـــوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِـــرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذابِنا يَسْـتَعْجِلُونَ (176) فَـإِذا نَـزَلَ بِسـاحَتِهِمْ فَسـاءَ صَـباحُ الْمُنْـذَرِينَ (177) وَتَـــوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِـــرْ فَسَـــوْفَ يُبْصِرُونَ (179) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِـفُونَ (180) وَسَـلامٌ عَلَى الْمُرْسَـلِينَ (181) وَالْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (182))

ـ 162 [بفـاتنين] : الفـاتن الـداعي إلى الضـلال ، أي لا تتمكنـون من إضلال الناس على خلاف الله سبحانه.

سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

هدى من الآيات :

في الـدرس الأخـير يلخص ربنا عـبر هـذه السـورة ، ومن أظهرها أن عباد الله المخلصـين هم الـذين أخلصـهم ربهم ، وأخلصوا أنفسهم له ، فلم تؤثر فيهم العوامل التي جرت على غيرهم.

في الآيــات الأولى من هــذا الــدرس ينفي القــرآن الحكيم التعلق الشـــــركي بالملائكة عـــــبر التأكيد على عبوديتهم لله ، وتسليمهم لأوامره التي ينتظرونها ، تتــنزل من عنــده إليهم ، ثم ينسف فكــرة الجــبر مكـذّبا الــذين يدّعون بـأنهم مضـطرون للشـرك بالشـياطين ، إذ لا جـبر في الــدنيا على الإنســان ، انما هو الــذي يختــار طريقه ، وأفكـــاره ، واعتقاداته بكامل حريته ، وهـــذه الحرية هي التي تحمّله المسـؤولية الكاملة تجـاه تصـرفاته ، والأوامر التي يوحيها الله لرسله بأن لا يبالغوا في تبليغهم الرسـالة للكفـار والمشـركين تلتقي مع فكـرة الاختيـار ، فالكفـار والمشـركون هم المسـؤولون عن اختيـارهم ، وليس من واجب المبلغ للرسالة أن يفرض عليهم اختيارا معيّنا.

وتنتهي السـورة بما صـار ختاما لأحـاديث الصـالحين وهي الآيــات الثلاث الاخــيرة والــتي مطلعها تنزيه الله سبحانه ، ثم الثناء على رسله ، وأخيرا تخصيصه بالحمد.

بينات من الآيات :

[161 ـ 162] ان أفكــار الشــرك بألوانه المختلفة خاطئة ، والإنسـان غـير مجبـور على الاعتقـاد بها ، ولكنه لكي يرفع عن نفسه المسؤولية يزعم بأنها مفروضة عليه ، ولا خيار له إلا قبولها بسبب الضغط أو الإغراء ، والقرآن ينقض فكرة الجبر هذه ، فيقول :

(**فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ* ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ**)

وكلمة «عليـه» فيما يبـدو تـدل على الجـبر ، فكـأن القـرآن يقـول : انكم لا تجـبرون أحـدا على اتّبـاعكم فيما تعبــدون لا بــالإغراء ولا بالضــغط ، لأن كلمة الفتنة تتسع لمعـنى البلاء ، والضـغط ، والإكـراه ، كما تعـني الإغـراء والتزيين ، وعموما فإن الفتنة هنا بمعنى الجبر.

وإذا نظرنا في أحـوال الـذين يعبـدون الآلهة من دون الله ـ من اتباع السـلاطين ، والأحـزاب ، وعبـدة الأثريـاء ، والوجهاء ، وادعياء الدين ـ لرأيناهم يبررون جميعا شركهم بـأنهم مجبـورون ، وأنّه لا سـبيل لمقاومة الطـاغوت ، ولا الهــــروب من شــــبكات الأحــــزاب ، ولا مقاومة تجويع المترفين ، وتضليل الوجهاء ، وأدعياء الدين.

كلا ... ربنا الــــــذي خلق خلقه أعطى لخلقه الحرية والقدرة على الرفض ، ولكن الشـيطان يسـوّل العبودية ، ويزينها له.

[163] فالآلهة المزعومون ليسوا بقـادرين على جـبر الناس مهما حاولوا ، بلى.

انهم يضـــغطون عليهم ، ولكن يبقى القـــرار الحاسم بيد الإنســـان ، وإنّما يســـتجيب لهم من تتواجد فيه مقوّمـــات الشرك والكفر.

(**إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ**)

وذلك دليل حرية الإنسان ، وإنّه غير مضطر للانحراف ، وان عليه الجـزاء شخصـيّا ، لأن الـذي يتجـاوب مع فتنة المشركين يصلى النار بنفسه ولا يغنون عنه شـيئا ، وهـذا أعظم شاهد على مسئولية الإنســان ، كما هو أفضل علاج لـــداء التســـويف والتـــبرير ، فلو علم المـــبررون ، وأولو الاعذار الواهية أنّهم يـذاقون العـذاب فعلا بـرغم تـبريرهم وأعذارهم ، فان ذلك يقتضي ارتداعهم.

[164 ـ 165 ـ 166] ويعـرج السـياق مـرة أخـرى لينقل لنا رد الملائكة (عليهم السلام) على أباطيل المشركين حـولهم في آيـات ثلاث :

(**وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ**)

والمقـام هنا قد يعـني المنزلة ، فالملائكة يتفاضـلون فيها ، وأعظمهم الروح ، وقد يعني الدّور ، فلكل ملك دور يختلف عن الآخـــــــــرين ، إذ منهم من هو مختص بقبض الأرواح ، ومنهم من وكل بالســـــحاب والمطر و... و... ، ومقـام الملائكة ودورهم معلـوم عند الله وعند الملائكة ، وكونهم الموكّلون بشـؤون الحيـاة وإدارتها لا يـرفعهم إلى مقـام الربوبية أبـدا ، كما لا يقفـزون إلى دور آخر للقيـام مثلا بالشفاعة لهذا ، وقضاء حاجة ذاك الا بأمر الله.

(**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ**)

كالجنـــــد. ينتظر الجميع أوامر ربّه لينفـــــذوها ، ولا يحيدون عنها قيد أنملة ، ولعل

أهم ما يصـــــطف له الملائكة هو عبـــــادة الله ، وذروتها التسبيح والتنزيه.

(**وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ**)

ينزهونه ــ عز وجل ــ عن كـلّ مـالا يتناسب ومقـام الربوبية ، عن الـوهن والجهل ، وعن الشـركاء الـتي زعم الجاهلون بأن الملائكة منهم.

[167 ـ 168 ـ 169] ومن النـاس من يتهـرب من المسؤولية ببعض التمنيات ، وتعليق قيامه بالواجب ببعض الشـروط المسـتقبلية ، فـاذا قيل لهم : لمـاذا لا تصـلوا؟ قـالوا : سـوف نفعل ذلك إذا ذهبنا إلى الحج ، أو إذا كبرنا .. وبعضـهم يلقي بالمسـؤولية على الله سـبحانه ، ويقـول لأن الله لم يوفقــني فــاني لم اهتد إلى الصــلاح ، ولو أن الله بعث إلينا رسولا فسوف نكون أهدى من غيرنا.

(**وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ**)

قولا مجردا ، لا يتجاوز لقلقة اللسان.

(**لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ**)

نهتدي به ، ونسير في الحياة على ضوئه.

(**لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ**)

لكن هل يمكن للإنسان أن يدرك هذه المنزلة الرفيعة بمجرد التمنيات؟ كلا ... إذ لا بدّ لبلوغها من السـعي ، لأنه وحده الذي يحوّل الآمال إلى واقع.

[170] ولان هـؤلاء يعيشـون مجـرد التمنيـات ، وإنّما قالوا ذلك لتبرير انحرافـاتهم فقد جـاءهم القـرآن ، وكـان يفترض فيهم أن يتّبعوه ليصلوا إلى سماء الإخلاص.

(**فَكَفَرُوا بِهِ**)

وتبيّنت حقيقتهم بأن كلامهم مجرد أمنيات غير جادة ، وهذه طبيعة كلّ الذين يسوّفون التوبة ، ويعلقون إصلاح أنفسهم على شروط غير متحققة ، ويعيشون في حلم المستقبل دائما ، وهذا التسويف يرديهم إلى الهاوية.

(**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**)

فهم يقولون : سوف نعمل ، فيقول لهم القرآن : بل سوف تعلمون أنّ إضاعة فرصة العمر الوحيدة لم تكن في مصلحتكم أبدا.

وفي طيات هذا التعبير تهديد مبطّن بالعذاب ، وقد يكون عدم التصريح بنوعيته وكيفيته أبلغ وأرهب في النفوس ، حيث تتفاجأ بألوان من العذاب لم تتوقعها أو تحسب لها حسابا.

[171 ـ 172] ان تشبث فئام من الناس بمختلف التبريرات كالأفكار الجبرية ، والانتظار الساذج للفرار من مسئولية الإيمان بالرسالة يجب أن لا يوهن الرساليين أو يسلبهم الثقة بنصر الله لهم ، لأنه سبحانه أراد الانتصار لمبادئه ولمن يؤمن ويلتزم بها ، ولو كان ظاهر الحياة هو تسلط الطغاة المنحرفين ، فان الله غالب على أمره ، وما سيطرتهم إلّا محدودة.

(**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ**)

فليس كلام الله عن نصرهم شيئا جديدا ، انما هو قديم سبقت بواقعته أحداث التاريخ ، فما من رسالة إلا وأظهرها الله ، نعم. قد يقدم أصحابها شيئا من

التضحيات ، أو يطول بهم الانتظـار برهة من الـزمن. لكن العاقبة تكـون في صـالحهم وصـالح خطّهم في الحيـاة ، ويلاحظ توالي التأكيـدات اللّفظية على ذلك في هـذه الآية وفي التي تليها أيضا.

[173] وهـذا النصر لا يختص بالأنبيـاء شخصـيا ، انما ينتصر كل من يمثل جبهة الحق ، ويحمل مشـعل الرسـالة الإلهية على امتداد التاريخ وفي كلّ أفق.

(**وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ**)

وجند الله هم المؤمنون.

[174] ولكن متى ينصر الله عباده المؤمنين؟

ينصـــرهم حينما ينفصـــلون ويتمـــيزون عن الكفـــار والمنافقين. ماديّا ومعنويا ، لهذا جاء الأمر الإلهي للرسول بذلك.

(**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ**)

والحين هنا يعني الوقت الذي يأتي فيه الأمر للرسول والمؤمـنين بـالهجوم عليهم وقتـالهم ، في ظل رعاية الله ونصره.

[175] وفي الأثناء التي ينفصل المؤمنون المجاهدون عن الكافرين والمنـافقين بـالهجرة ـ مثلا ـ ينبغي لهم أن يراقبوهم ، ويكونوا شـهودا على الواقع ، وكل حركة تنشد التغيير لا بد لها من مراقبة الواقع ، ودراسة العدو.

(**وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**)

أنهم ـ بدورهم ـ سوف يرون العذاب ويلاقونه من عند الله أو بأيدي

المؤمنين.

وفي الآية معـــــــنى التأكيد على العاقبة لرسل الله وجنــده ، فكأنها أمــام أعين الجميع يبصــرها الصــالحون فيفرحون بها ، ويبصرها الكفار فيزدادون بها غيضا وحنقا.

[176] وعـذاب الله لا يـأتي للإنسـان حسب تمنياته ، حتى يحتج الكافرون على كذب الرسالة بأنهم تحدوا الله ، فلم يـــرد عليهم ، كلا .. إنما يرسل ربنا العـــذاب حسب حكمته سبحانه.

(**أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ**)

وماذا يستعجلون من عذاب الله ، إنه الدمار الشـامل ، والهزيمة الماحقة ، والنار المحيطة ، والهوان الأليم.

[177] إن هذا التحدي التـام من قبل الكـافرين لـرب العزة إنما هو بسبب جهلهم بقدرته ، وطبيعة العذاب الذي ينزله على الملحدين.

(**فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ**)

الغضب الإلهي متجسّـدا في العـذاب الـدنيوي ، يعقبه عذاب الخلد في الآخرة.

(**فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ**)

وغضب الله أكـثر ما يـنزل في الصـباح ، والكفـار في كامل قـــوّتهم ويقظتهم ، وذلك ليشــــعروا بحقــــارتهم ، وليـذوقوا العـذاب بأقصى ما يمكن للإنسـان ، ذلك زيـادة في السـوء لهم ، لأنهم ليس لم يسـتجيبوا للنـذر وكـذبوها فحسب ، انما بارزوا الله تحـدّيا ومحاربة ، والقـرآن يكـرر الإشارة إلى الصباح كزمن للعذاب ، قال تعالى : (**إِنَ**

مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) [1]

[178] ويرجع السياق مرة ثانية للتأكيد للرسول على ضرورة تركه للكفار وهجرهم ، وانتظار الفرج الإلهي.

(**وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ**)

اي حين يحين موعد الانتقـــام الإلهي منهم ، بتحطيم كبريائهم ، ونصر رسوله عليهم.

[179] ويـبين السـياق أن عاقبة النصر لرسـوله ، والهزيمة للكفار واقعة لا ريب فيها حـتى لكأنها امـام بصر الجميع.

(**وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**)

حينما نتلو القـرآن نجد آيـات كثـيرة منه تؤكد على الرسـول بـأن لا يقتل نفسه بتحميلها بـالغ الهم من أجل الـذين يرفضـون الرسـالة ، وأن مسـئوليته تنتهي بتبليغ رسالته ، وهذا الأمر يهم المؤمنين الذين يسيرون في خطّ الرسـول (ص) أيضا ، فـواجبهم هو أن يكيّفـوا أنفسـهم وسلوكهم في الحيـاة حسب تعليمـات ربهم أثنـاء الـدّعوة إليه ، فـإن آمن النـاس التحقـوا بهم ، وإن كفـروا فهم وشـأنهم ، وليس مطلوبا أن يبـالغوا أكـثر من اللـزوم في هـدايتهم ، لأن ذلك قد يصـرفهم عن بعض الواجبـات ، ويؤخر مسيرتهم باعتبارهم سوف يصرفون جهودا مكـررة بـالأولى لهم أن يبـذلوها في أعمـال وخطط أخـرى تقـدم العمل خطوة إلى الإمام.

[180] وختاما لهـذه السـورة الـتي عـالج سـياقها موضوع الشرك ، وبعض الأفكار

---

(1) هود / (81).

الخاطئة ، والتصــورات الــتي اعتقد بها المشــركون نجد تنزيها لله عز وجل بأكرم الألفاظ وأجلها عنده تعالى وهي لفظة «سبحان».

ان دعـوة القـرآن للمؤمـنين بـأن لا يبـالغوا في وعظ المشركين لا تعني أن يرضوا بهم وبما يـدّعون ويعملـون ، انما يجب عليهم التســبيح تنزيها لله وذلك لكي لا يتــأثروا بشركهم ، لأن من طبيعة البشر تأثره بأفكار الآخــرين ولو جزئيا ، فاذا لم يكونوا قادرين على ان يتخذوا موقفا عمليّا أو قوليا فليسبحوا ربهم في قلوبهم تسبيحا كثيرا.

(**سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**)

الناس على اختلاف أديـانهم ومـذاهبهم الفكرية يصف كل جماعة منهم ربّه بوصف لا يليق ومقـــــــام الربوبية ، ولكن عباد الله المخلصين هم الـذين يصـفونه بما يليق به عبر التسبيح.

وقد اختلف المفســـرون والفقهـــاء في تحديد أفضل كلمات الـذكر ، فمنهم من قـال : انه «الحمد للـه» وقـال آخـرون : انه «لا اله الا اللـه» وجماعة ثالثة قـالوا : «الله أكبر» هو أعظمها ، والذي ـ يبدو لي ـ ان كلمة «سـبحان اللـــــــه» هي أعظمها وأثقلها وزنا عند الله ، لأن طبيعة الإنســان طبيعة مرتكــزة في الجهل بمعنــاه الشــامل ، وبالتالي في الابتعاد عن الله ، وهـذا ما يـدعوه إلى تصـور الخالق حسب طبيعته ، فاذا به يصوره محـدودا ، عـاجزا ، جـــاهلا ، مركبا ـــ مثلا ـــ انطلاقا من نظرته الى نفسه والأشـياء من حوله ، ثم إن روعة جمـال الطبيعة ، وتـزين الشـهوات الـتي تـدعو النفس إليها ، وسـيطرة الجبـارين والمـــترفين كل ذلك قد يبعد المـــؤمن عن ربه ، ويجعله يشـــرك به شـــركا خفيّا ، مما يجعله يحتـــاج إلى تكـــرار التسبيح.

وكلمة المخلصــين «ســبحان اللــه» الــتي تلهج بها ألســنتهم هي اعــتراف بــالعجز عن معرفة كنه الله ، الا المعرفة التي تخرجه عن حد التعطيل والتشبيه والتي دعا إليها أئمة الهدى ، وهذا يبعدهم عن العقائد الضالة.

قال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ :

«**ان الله تبارك وتعالى خلق اسما بالحروف غير منعــوت ، وباللفظ غــير منطق ، وبالشــخص غــير مجسّــد ، وبالتّشــبيه غــير موصــوف ، وبــاللّون غــير مصــبوغ ، منفي عنه الأقطــار ، مبعّد عنه الحــدود ، محجوب عنه حس كلّ متوهّم ، مستتر غير مســتور ، فجعله كلمة تامة على أربعة أجــزاء معا ، ليس منها واحد قبل الآخر ، فــأظهر منها ثلاثة أســماء لفاقة الخلق إليها ، وحجب واحدا منها وهو الاسم المكنون المخــزون بهــذه الأســماء الثلاثة الــتي أظهــرت ، فالظــاهر هو (الله ، وتبــارك ، وســبحان) لكل اسم من هذه أربعة أركان فذلك اثنى عشر ركنا**» [1]

وسئل الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ما تفسير سبحان الله؟ قال :

«**هو تعظيم جلال الله عز وجل ، وتنزيهه عما قال فيه كلّ مشرك ، فاذا قال العبد صــلى عليه كل ملك**» [2]

[181] وكما للمــؤمن علاقة بالله شــعارها التســبيح ، ومحتواها العبودية والطاعة ، فــإن له برســله علاقة أيضا ولكن شــعارها الســلام ، وواقعها الحب والاقتــداء ضــمن المسيرة الواحدة.

---

(1) بح / ج (4) / ص (166).
(2) المصدر / ج (93) / ص (177).

(**وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**)

ووجود علاقة السلام بينك وبين المرســلين دليل على المسيرة الواحدة ، والتوافق في الحيـاة ، وقبل أن يسـلم الإنســان على الرسل يجب أن ينظّف قلبه لــيرتفع إيمانه إلى هــذا المقــام العظيم ، والــذي لا يطهر نفسه وعقله وســلوكه ، وبالتــالي يســير على خطى الأنبيــاء ، فــإنهم بريؤون منه ، لأنه حينئذ يحارب فكرهم بفكره المنحـرف ، وقيـــادتهم بطاعته للطـــاغوت ، وخطّهم بالانتمـــاء إلى الخطوط المضادة لرسالات الله.

[182] وإذا كانت انطلاقه الإنسان بالتسـبيح الحقيقي لله ، ومسـيرته وحركته مسـتوحاة من رسـالات الأنبيـاء ، والتأسي بهم ، فان العاقبة ستكون حسنة ، تدفع الإنسـان نحو الشكر والحمد على ما سيلقاه من هدى وبركة وجنان نتيجة ذلك ، ذلك أن نهاية المســيرة في ســبيل الله هي الطمأنينة والرضى ، وقد أشـــار لها تعـــالى إذ قـــال : (**وَلَسَــوْفَ يُعْطِيــكَ رَبُّكَ فَتَرْضى**) [1] وقــال أيضا : (**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**) (ولا تطمئن النفس الا بـــــذكر الله) (**ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً**) [2] وعموما فـان المؤمن بطبيعته الرسالية يكون راضيا بقدر الله وقضائه ، ايمانا منه بأن ما يختـاره له الله بحكمته أصـلح مما يتطلع إليه ، فهو يحمده في الشدة والرخاء.

(**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

وفي هــذه الآية إشــارة إلى أســاس علاقة الإنســان بــالآخرين من البشر ، فهي لا تشـبه علاقته مع الله ولا مع الأنبياء ، ولكنها علاقة الإحساس الواحد بالعبودية لله.

وقد وردت الروايــات مؤكـدة على اسـتحباب قــراءة هذه الآيات الثلاث في نهاية

---

(1) الضحى / (5).

(2) الفجر / (27 ـ 28).

كل مجلس يجلسه العبد أو يتحدث فيه.

عن الأصبغ بن نباته ، عن أمير المؤمنين (ع) عن رسول الله (ص) انه قال :

«من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه في مجلسه : (**سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ* وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)» [1]

---

(1) نور الثقلين / ج 4 / ص (441).

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

عن أبي جعفر الباقر (ع) قال :

«من قــرأ ســورة «ص» في ليلة الجمعة اعطي من خير الدنيا والآخرة ما لم يعط أحد من النـاس إلا نـبيّ مرسل أو ملك مقـرب ، وادخله الله الجنة وكل من أحب من أهل بيته ، حــتى خادمه الــذي يخدمه ، وإن لم يكن له في حـدّ عياله ولا في حد من يشـفع فيه تفسير»

نور الثقلين ج 4 ص 441

الإطار العام

الشرك بالله إطـار لكـلّ الضـلالات والجـرائم ، وكافّة الذنوب والاخطاء ، وتكـاد سـور القـرآن جميعا تعـالج هـذا الداء الذي هو جذر كلّ داء ، إلّا أن عوامل الشرك عديــدة ، والمعالجات القرآنية مختلفة بحسبها.

وأننا نستلهم من خلال التدبر في دروس هذه السورة الكريمة (ســورة ص) انها تعــالج الحالة الشــركيّة الّــتي تخلقها السـلطة ، والـثروة ، والشـهرة في نفس الإنسـان فاذا به تأخذه العـزّة بـالإثم ، وينطلق في سـبيل الشـقاق عن الحقّ ، وعبادة آلهة القوّة والغنى.

في افتتاحية هذه السورة نقرأ : أن الذين تفرقـوا في عزة وشقاق ، وسـرعان ما ينـذرهم الـرب بمصـير الـذين أهلكهم من قبل ، ويــذكّرنا بمحــور ضــلالتهم ، حيث إنهم تعجّبــوا من حــذف الآلهة ، والأمر بعبــادة إله واحد ، كما أنّهم استهانوا بالرسول

انطلاقا من مقاييسهم المادية.

ويعالج القرآن هذه الحالة ببيان حقارة ما يملكون (من قوّة ومن غنى) إذا قيس بملك السموات والأرض ، وبخزائن رحمة الرب العزيز.

أما خاتمة السورة فتذكرنا بقصّة إبليس الذي رفض السجود لأبينا آدم (ع) اعتزازا بعنصره الناري ، وكيف أن هذه العزّة الآثمة كانت وراء هلاكه وهلاك تابعيه إلى يوم القيامة ، حيث يحشرون في نار جهنّم حشرا.

وبين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة يسرد السياق نمطين من القصص :

الأول : قصص المكذّبين الهالكين يشير إليها مجرد اشارة ، بينما يفصّل القول في النمط الثاني الذي وهب الله لهم الرب ملكا واسعا ، وثروة عريضة ، ولكنهم لم يغتروا ولم يشاققوا الله بها كداود وسليمان ، ثم إبراهيم واسحق ويعقوب ، ويبيّن انهم فازوا بنعيم الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، بالإضافة إلى الذكر الحسن عبر التاريخ ، وفي مقابل هؤلاء يذكرنا السياق بمصير المكذبين الذين اقحموا في نار جهنم ليتخاصموا مع بعضهم ، وبالذات يتخاصم التابعون مع المتبوعين.

ومن خلال قصص الأنبياء وتقديرهم ، وبيان الحكومات العادلة التي أقاموها في الأرض ، وبالذات قوله ـ عز وجل ـ لداود (ع) : (**يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**).

ومن خلال بيان هلاك إبليس بسبب رفضه السجود لآدم (ع) ، وبيان هلاك المستضعفين بسبب تسليمهم للمستكبرين نستطيع ـ من خلال كلّ ذلك ـ أن نعرف أن مراد السورة بيان زيف السلطات القائمة على أساس القوة والثروة ، وسائر القيم الماديّة الأخرى ، وضرورة إقامة حكومة العدل الإلهية القائمة على أساس أمر

الله وخلافته ، وأنّ أســـاس الولايـــات الباطلة العـــزّة والشقاق ، بينما أساس الولاية الربانيّة الحق.

سورة ص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِــزَّةٍ وَشِــقاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَــرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (3) وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكـافِرُونَ هـذا سـاحِرٌ كَـذَّابٌ (4) أَجَعَـلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجـابٌ (5) وَانْطَلَـقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْـبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هـذا لَشَيْءٌ يُرادُ (6)**

---

(2) [شقاق] مخالفة ، مشـتق من شق كأنّه في شق وطـرف والخصم في شق وطرف آخر.

3 [ولات حين منـاص] : أصل لات لا ، وإنّما زيـدت عليه التـاء ، بمعـنى ليس ، ومنـاص من النـوص وهو التـأخر ، يقـال نـاص ينـوص إذا تـأخر ، والمعـنى ليس وقت نـدائهم واسـتغاثتهم وقت التـأخر العـذاب والنجـاة منه.

ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هـذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (7) أَأُنْزِلَ عَلَيْـهِ الـذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَـلْ هُمْ فِي شَـكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَـلْ لَمَّا يَـذُوقُوا عَـذابِ (8) أَمْ عِنْـدَهُمْ خَـزائِنُ رَحْمَـــــةِ رَبِّكَ الْعَزِيـــــزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْــــكُ السَّـــــماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُــــوا فِي الْأَسْبابِ (10) جُنْدٌ ما هُنالِـكَ مَهْـزُومٌ مِنَ الْأَحْـزابِ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12) وَثَمُـودُ وَقَـوْمُ لُـوطٍ وَأَصْـحابُ الْأَيْكَـةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقـابِ (14) وَما يَنْظُـرُ هـؤُلاءِ إِلاَّ صَـيْحَةً واحِـدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (15)

---

7 [اختلاف] : الكذب والافتراء الـذي لا أسـاس له ، فهو يخلقه ويصـنعه بغير دليل.

13 [أصحاب الأيكة] : وهم قـوم شـعيب ، وقد كـانت إلى جنبهم أيكة ، وهي الشجر المزدحم إلى بعضه والملتفّ على بعضه.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ

هدى من الآيات :

من أهم العوامل التي تدعو الناس إلى الكفر بالرسالة ، ومحاربتها وبالتالي الانحراف عن الخط المستقيم ، هو تقديس الواقع القائم أو ما يسمى بالتقليد ، حيث يعتقد المجتمع بأن ما لم يكن لا ينبغي أن يكون ، فالواقع يجب أن يبقى. ويقوي هذا العامل أمران ؛ الاول أنه واقع قائم بينما الرسالة فكرة جديدة لمّا تتحول إلى واقع ، والثاني أن بعضا من أفراد المجتمع وخاصة الوجهاء وأصحاب المصالح ، يدافعون عن الواقع القائم ويحاربون الرسالة ، لأنهم يخشون على مصالحهم من أي تبدل أو تحول.

وقد يكون عامل البقاء على الحالة الراهنة ، نابعا من اعتزاز الإنسان المبالغ بواقعه والتمثل في الإصرار والعناد الأعمى على المحافظة عليه ، وهو ما يعبر عنه السياق القرآني مرة بكلمة عزّة ، ومرة أخرى بما قاله الكفار لبعضهم إذ تآمروا على العناد والصبر على الباطل.

ولعلاج هذه الحالة ينبغي بيان الضعف للإنسـان ، وأن الـذي يملكه الآن لا يعد شـيئا إذا قـورن بما يغنمه لو تقبل الرسالة وأصلح أوضاعه ، وبالتـالي دعوته إلى التغـير نحو حياة أفضـل. وهـذا من أهم أسـاليب الأنبيـاء في التغيـير ، قال نوح (ع) وهو يشير الى أساليبه في الدعوة : (**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً* يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً**) [1] ، وفي موقع آخر من القـرآن نجد تجل صـريح لهـذا الأمر أيضـا. يقـول تعـالى مشـجعا النـاس على الإيمـان برسـالته : (**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**) [2]

بينات من الآيات :

[1] (**ص**)

حرف يفيد الابتداء به التنبيه ، وهو يشـير إلى القـرآن الكـريم ، ومن أبعـاده أنه رمز بين الله وأوليائه فهم يختصـمون بفهمه ، وعن الصـادق (ع) أنه من أسـماء الله تعـالى [3] ، وفي خـبر آخر (ص) اسم نهر ينبع من ركن العرش. قال الامـام الكـاظم (ع) : «إن أول صـلاة صـلاها رسـول الله (ص) انما صـلاها في السـماء بين يـدي الله تبـارك وتعـالى قـدّام عرشه جـلّ جلاله ، وذلك أنه لمّا أسري به وصار عند عرشه تبـارك وتعـالى قـال : يا محمد ادن من صـاد فاغسل مسـاجدك وطهرها وصـلّ لربك ، فدنى رسول الله (ص) الى حيث أمره الله تبارك وتعـالى فتوضى وأسـبغ وضـوءه». قلت (يعـني الـراوي) : جعلت فـداك وما صـاد الـذي أمر أن يغتسل منـه؟ فقـال : عين تنفجر من ركن من أركان العرش ، يقال له مـاء الحيـوان وهو ما قال

---

(1) نوح (10 ـ 12)
(2) الأعراف 96
(3) رواه ابن عباس نور الثقلين ج 4 ص 442

الله عزّ وجل : (**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**) [1]

ثم يقسم ربّنا بــالقرآن العظيم ، مشــيرا إلى أهم ما تشتمل عليه آياته الكريمة وهو الذكر.

(**وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**)

وقد سمى الله كتابه فيه بالذكر عشرات مرّات ، وهنا يسميه «ذي الذكر» فما هو معنى الذكر؟

لقد خلق الله الإنسان مستقيما بفطرته ، التي أودعها الإيمـان بكلياته الكـبرى ، بالله واليـوم الآخر ، وبضـرورة الصدق والوفاء والامانة و... و... ولكن عوامل مختلفة من بينها ضـغط الشـهوات والمجتمع تـدعوه إلى الانحـراف. ويأتي القرآن ليـذكره بما ينسـاه أو يغفل عنه بسـبب تلك العوامل ليعـــــود إلى رشـــــده المتمثل في (الطريق المستقيم) الذي هو الحالة الطبيعية للإنسان ، على خلاف الانحراف الذي يجسد الشذوذ في الحياة. فالقرآن يستثير العقل من خلال التفكــير ، وفسّــر البعض الآية بالــذكر الطيب والسمعة الحسنة. ويبدو أن التفسير الأول أقرب.

[2] ومع عظمة القــرآن وقدرته الهائلة في التغيــير والتـأثير على الإنسـان ، لكن الكفـار لا يتـأثرون به ، لان التذكرة وحدها لا تنفع إذا كان جهـاز اسـتقبالها وهو العقل قد احتجب بالأهواء والغباء الذي هو من أهم الحجب الـتي تمنع البشر من الانتفـاع بالتـذكرة ، وتـدعوه إلى الإصـرار على الانحراف.

---

(1) المصدر.

(**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ**)

أما أنت أيها الرسول فعلى الحق ، من هنا قـال بعض المفسرين أن المقسم به محذوف تقـديره «والقـرآن ذي الذكر» (إنك تحمل للناس ذكرا) ، ويدل على هذا الحــذف التصـريح به في مثيله من سـورة يس إذ قـال ربّنا : (**يس وَالْقُـرْآنِ الْحَكِيمِ* إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَـلِينَ**) [1] وانما صـار الحذف هنا لدلالة الآية الثانية على المحذوف المقسم به.

وهذه الآية تـبيّن العامل في رفض الكـافرين للتـذكرة الا وهو العزة والشقاق ، والعزة هو تصـور الإنسـان نفسه أنه وصل من القــوة والمنعة ما لا يحتــاج معه إلى الحق ، أو الى ربّه ، فيبقى يصر على انحرافه بل ويعـتز بالخطـإ. يقول ربنا في آية كريمة : (**وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْـهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ**) [2] ، ورفض هـؤلاء للحق ليس نابعا من قــوة المنطق لأنهم يرفضــونه بدون أي مبرر معقول ، ولكنه نابع من منطق القـوة الـتي يخضع لها أكـثر النـاس وانما لم يســتجب كفّــار قــريش للرســول اعــتزازا بقــوتهم. بلى. إنّ من أعقد مشــاكل الإنسـان أنه لا يعـترف بخطئه حين يتـبين له الحق غـرورا وخشية بأن يجلب له ذلك المهانة فتراه يعتز بباطله الــذي كان عليه.

أما الشقاق فهو الشذوذ فمع أن الكون كله قائم على الخضـوع لله وحـتى جسد الإنسـان يخضع لآلاف القـوانين التي تخضع هي بدورها لمشـيئة الـربّ. تـرى الكفـار ومن يلتقي معهم من المـذنبين والعصـاة يشـقون عصا الطاعة ولا ينسجمون مع الحق الذي تقوم عليه الحياة.

[3] والإنسان المـؤمن يجب أن لا يضـعف ولا يشـكك في خطه حينما يرى

---

(1) يس (1 ، 2)

(2) البقرة 206.

الاغلبية منشـــــقة عنه ، لان المقيـــــاس هو الحق وليس الناس. ولو أنه درس الحياة لاطمأن إلى خطه ، لأنه حينئذ سـيجد الكـون بما فيه من خلق وسـنن يسـيران معه ، وكذلك لو قرأ التـاريخ لاهتـدى إلى نفس الحقيقة ، وحـتى المجاميع التي يعاصرها سوف تخضع لله شـاءت أم أبت ، وإذا لم تخـتر ذلك عن وعي وارادة حـرة ، فسـوف تجـبر عليه بإرادة الله وبسننه التي أجراها على الخلق أجمعين.

ولكي نؤمن بهـذه الحقيقة يـدعونا ربنا إلى النظر في التــاريخ ، فهو مليء بالشـــواهد الدامغة عليها ، فأولئك الـذين رفضـوا رسـالات الله ، ولم يخضـعوا لها ولرسـله أهلكهم ولم تغن عنهم قوتهم شيئا.

(**كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ**)

القرن الناس الذي يعيشون مقارنين مع بعضهم زمانا ومكانا ، وكم أداة استفهام تـدل هنا على الكـثرة. والله إذ ادخل هـذه الاداة في التعبـير أراد أن يهـدينا الى أن هـذه السنة لم تتجل مرّة واحـدة وحسب فالتـاريخ كله شـواهد عليها وكانت هذه السنة الالهية جديرة بـأن تتعظ بها الأمم إلا أنها تكتشف خطأها متأخرا حين لا تنفع التوبة.

(**فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ**)

قــــالوا : لات كـــــان في الأصل لا (لنفي الجنس أو المشـبهة بليس) ثم أضـيفت إليها التـاء لتأكيد النفي كما تضاف إلى ثم ورب لذات الغاية.

والمناص المنجا والغوث يقال ناصه ينوصه إذا أغاثه.

هكذا يصـور القـرآن وضـعهم حين ينـادون بالاسـتغاثة والتوبة والتألم ولقد أطلق

القــرآن لكي يــذهب بنا الخيــال إلى كل تلك المفــردات لندائهم الميأوس.

ولكن ذهب وقت الفــوت. أو ليست الفرصة قد فاتته إلى الأبــد؟! وتلك عاقبة الاعتمــاد على القــوة ، والاعــتزاز بغـير الحق ، فهـذه الأمم اعتمـدت على منطق القـوة في الحيــاة ، ورفضت الخضــوع إلى المنطق والحق ، وغفلت أن للحق قوة لا تحد هي قوة الله عزّ وجلّ ، وقد أبى الله تشــريعيا وتكوينيا أن ينتصر الباطل على الحق وأن تكــون العاقبة إلّا في صالح الرسالات وحملتها.

[4] وللتمثيل على عــــزّة الكـــافرين وشــــقاقهم ، وصــــدودهم عن الـــذكر والموعظة ، يحــــدثنا عن واقع المشركين وموقفهم من رسالة الإسلام.

(**وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ**)

لأنهم كـانوا يتصـورون الرسـول يختلف عن النـاس ، فكفـروا به إذ لم يتفق مع مقاييسـهم الـتي تريد الرسـول قويا وذا مال كثـير لا أن يكـون من وسـطهم الاجتمـاعي ، وطبقتهم المالية وهذا التصور نـاتج عن اعـتزازهم بـالقوة والمــال لا بــالحق ، فهما عنــدهم القيمة الاساســية في الحيــــاة. ولان منطقهم أضــــعف من أن ينــــال من قيم الرسـالة استشـكلوا على الرسـول ، ليس في أخلاقه فهو بــاعترافهم جميعا كــان في الــذروة ، ولكن على وضــعه المادي والاجتماعي. ولم يكن هـذا التـبرير كافيا لرفضـهم قيادته وزعامته فقد جاءهم بالحق والآيات ، ولا بد لهم من تبرير آخر ليتهربوا من المنطق الحق المتمثل في رسـالته ، فصاروا من العجب إلى الكفر.

(**وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ**)

واختاروا كلمة ساحر لان السحر أقرب الأشـياء للحق ظاهرا ، وإن كان واقعا

أبعدها ، وكانت هذه التسمية للهروب من ضغط المعجزة.
والواقع : إن ذات اتهــام المشــركين للرســالة بأنها سـحر شـاهد على صـدقها ، إذ انه دليل على أن الرسـالة كانت ذات جاذبية تشبه في قوتها جاذبية السحر عنــدهم ، كما انها كـانت خارقة ذات ايـات عجـزت قـواهم البشـرية عن الإتيان بمثلها ، مما دعاهم للافتراء عليها بأنها سحر.
فاذا عرفنا مدى الفرق بين السـحر والرسـالة في أن الساحر لا يفلح ، وانه لا يبني حضارة ، وأن كلامه لا يكـون موافقا للعقل والفطرة ، بينما الرســول يعكس ذلك كله ، عرفنا كيف كان اتهامه بالسحر دليل صدقه.
[5] ويهدينا القرآن مـرّة أخـرى إلى شـذوذ الكـافرين (شقاقهم) وعزتهم ، بالاشـارة إلى اعتراضـهم على دعـوة النبي التوحيدية ، فمع أن الوحدة حق يهتدي إليه الإنســان بفطرته وتتطلع إليه الأمم المتحضـرة ، ولكنهم يرفضـونها اعتزازا بواقع التمزق القائم عندهم.
(**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ**)
ومن الآية نســتوحي بــأن التوحيد ليس هداية للنــاس للحق وحسب ، بل هو العلاج الحقيقي للفرقة ، ذلك أن منشأ التفرقة في أيّة أمة هو الشــرك الكلي أو الجــزئي فهــذا الفريق انما ينشق عن البقية لأنه يــؤمن بفكــرة وقيــادة ما فالرايــات القبلية ، والعصــبيات العشــائرية ، والحــــدود الجغرافية ، والمصــــالح القومية ، والاختلاف العنصري والطائفي ، وما أشــبه كل أولئك عوامل اختلاف النـاس وشـقاقهم ، وإذا أمعنت النظر رأيت كل واحد منها ينتهي إلى تقديس شيء من دون الله ، وانما الآلهة رمــوز تلك المقدســـات. أرأيت النـــاس حين يقدســـون العلم الوطني يعبدون قطعة قماش

أم حـدود الـوطن؟ كـذلك حين كـان الجـاهليون يعبـدون الأصنام الـتي كـانت ترمز إلى عصـبياتهم العشـائرية فانما كانوا يعبدون قيم العشيرة.

وهـذا نسـتنتجه من التـدبر في الآيـتين (2+ـ 5) ففي الوقت الذي يذكر القرآن الشقاق في مجتمع الجاهلية في الآية الثانية ، يشير هنا إلى تعدد الآلهة فيه ، وفي نصـوص التاريخ نجد أنه كـان في الكعبة وحـدها (360) صـنما لكل قبيلة صـــنمها المختص بها ، ولكي يجمع النـــبي النـــاس ويوحـــدهم طـــرح رســالته التوحيدية كبــديل عن الأفكــار الشـــركية ، وكسر الأصـــنام لأنها كـــانت رمـــزا للتفرقة (الشقاق) والعزّة.

ولعل أحدنا يستنكر على الكفار والمشـركين رفضـهم لتلك الرسالة التوحيدية ، ولكننا نجد اليوم وبعد (14) قرنا ، أناسا يسخرون ممن يطـرح في ــ السـاحة الاسـلامية ــ كسر الحـدود المصـطنعة الـتي أوجـدها الاسـتعمار بيننا ، وهي لا تعــدو أن تكــون بــدائل عن الأصــنام الـتي علقها الجاهليون في الكعبة وليس رفض هكذا دعوة يأتي بسبب أن الرافضـين لا يجـدونها حقة ، وانما لاعـتزازهم بـالواقع الفاسد ، حيث تقـــــوم دولة على كل قطعة أرض ويرتفع علم ويتسلط حاكم مغرور.

[6] ولا شك أن أول من يســعى للإبقــاء على الواقع القديم برموزه الصنمية هم أصـحاب الوجاهة الاجتماعية ، والصــدارة السياســية ، والــثروات المســروقة لأنهم انما يستعبدون الناس ، ويمتصون جهود المجتمع من خلال هذا الواقع الفاسد ، فـــاي محاولة للتغيـــير تعـــني تقـــويض مصــالحهم وهكــذا تــراهم يهبــون للــدفاع عنه ، ومحاربة الفكر الجديد ، بشـتى الاسـاليب ومن أبرزها اثـارة العـزّة بذلك الواقع.

(**وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ**)

وهم المســتكبرون في المجتمع ، والــذين يقــودون المعارضة ولا زالوا ضد الأنبياء

والحركـات التغييرية ، وهمهم الأكـبر الإبقـاء على التخلف فاذا بهم يدفعون عجلته بهذا الاتجاه.

(**أَنِ امْشُوا**)

ويوحــون للنــاس بــأن مســيرتهم تقدمية وصـحيحة بالتضـليل والتجهيـل. ولكن لان فطـرة الإنسـان تخـالف الباطل ، ولان الباطل تقف ضـــده كل عناصر الوجـــود وسننه فان قبوله صـعب نفسـيا وعمليا على البشر ، لهـذا أكد الملأ على ضرورة الصبر.

(**وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ**)

كما أن من أســاليب الطغــاة في جر النــاس إلى معارضة المصــلحين ، أنهم يحــاولون اقنــاعهم بــأنهم يسـتهدفون مصـالحهم ومقدسـاتهم ، فـاذا نهضت طلائع المجتمع للثـورة ، وقـامت ببعض الأعمـال الجهادية قـالوا للناس : «بأن هـذه الأعمـال لا تسـتهدف السـلطة وحـدها انما تسـتهدف أمن المـواطن واسـتقراره أيضا ، وبالتـالي فمســئولية القضــاء على المخـــربين (في زعمهم) هي مسئولية الجميع» ويؤكدون :

(**إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ**)

وهناك تفسيرات عديدة لهذه الكلمة نذكرها تباعا :

ألف : وهو الـذي يبـدو أقربها أنّ الملأ أرادوا من هـذه الكلمة أن الاسـتمرار على عبـادة الآلهة شـيء مطلـوب وحميد ، اعـــتزازا بالباطل والإثم ذلك ان من ســـلبيات النفس البشـرية أنه يصـعب عليها فـردا وأمة الـتراجع عن الخطأ حتى لو تبين له.

بــاء : أن الملأ أرادوا بهــذه الكلمة تشــوية شخصــية الرســول (ص) ، فكـأنهم قـالوا بـأن هدفه من الرسـالة والإنذار هو المنافع الشخصية الـتي يريـدها لنفسـه. وهـذه من

طبيعة الطغاة ، أنهم يتهمون المصلحين بذلك.

جيم : أن هـذا المقطع من الآية هو كلام الله سـبحانه وهو ردّ على قول الكافرين في مقابل دعـوة التوحيد «**إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ**».

[7] ويوصل السياق بيانه لأسـاليب الملأ في التضـليل عن الحق.

(**ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ**)

إن الشرعية والقدسية في نظرهم تكون للدعوة التي تنتمي إلى الواقع وتتجــانس معه ، لا الــتي تنطــوي على الحق والعلم ، وما دامت الأجيال الغـابرة تنفي صـحة هـذا الفكر فهو خطأ إذن. وهذا ضـرب من الرجعية لان مجتمعا يعتمد هـذه المقـاييس لن يبــدع ولن يتقــدم خطــوة إلى الامام.

ثم حكموا على الرسالة الالهية بالباطل فقالوا :

(**إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ**)

أي جديــدة الحــدوث متقطعة الجــذور عن التــاريخ ، ودعوتهم هذه ضد الدين خطأ من زاويتين :

1 ـ أنهم اعتمدوا في تقـييمهم للرسـالة على النظـرة الشــيئية لا المنطقية ، فمن البــديهي أن تكــون النتيجة ضلالتهم!

2 ـ أنهم لم يبحثوا عن شرعية الرسالة وجـذورها من خلال نظـرة شـاملة لتـأريخ البشـرية ، ولو فعلـوا ذلك لم يعتبروها اختلاقا ، لأنها تلتقي مع (124000) دعـــــوة في التــاريخ جــاء بها الأنبيــاء والمرســلون منذ قبل ، ولكنهم قيموها من واقع جيل واحد

فقط.

وجـاء في الحـديث المـأثور عن الامـام البـاقر عليه السلام في نزول الآية قال :

أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقـالوا : إنّ ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا فادعه ومـــره فليكف عن آلهتنا ونكف عن الله ، قـــال : فبعث أبو طالب الى رسـول الله فـدعاه فلما دخل النـبي لم ير في البيت ولا مشـركا ، فقـال : (**السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُـدى**) ، ثم جلس فخبّـره أبو طـالب بما جـاؤوا له فقال : أو هل لهم في كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب ويطأون أعناقهم؟ فقال : أبو جهل : نعم. وما هـذه الكلمة؟ قال : تقولون : لا إله إلّا الله.

قـال : فوضـعوا أصـابعهم في آذانهم ، وخرجـوا هربا وهم يقولون : ما سمعنا بهذا في الملة الآخـرة ان هـذا إلّا اختلاق ، فـــأنزل الله في قـــولهم : (**ص وَالْقُـــرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**) الى قوله (**إِلَّا اخْتِلاقٌ**)[1]

[8] ثم صرحوا بما تنطوي عليه نفوسهم تجاه الحق ، وقالوا لو أنزلت الرسالة علينا لآمنا بها فنحن أولى بالنبوة منه لان عنـدنا المـال والرجـال والوجاهة ، ونحن أصـلح لقيادة المجتمع منه ، وليس من المعقول أن يـنزل الـذكر على هـذا الفقـير اليـتيم والضـعيف ، وأن نسـلم لقيادته ، وغـــاب عن ذهنهم أن الصـــفات المطلوبة في الرســول القائد ليست الـتي يتصـورونها انما القيـادة لصـاحب العلم والتقـوى والأخلاق ثم أن الله هو الـذي يعين الرســول لا الناس ولا الوجهاء.

(**أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا**)

وينسف الله كل اعذارهم للكفر بالحق مبينا الأسـباب المركزية الداعية إليه

---

(1) نور الثقلين ج 4 ص 442.

وهي :
الاول : أنهم لم يستفيدوا من ذكر الله ، سواء الذي يتجلى في كتابه ، أو في تاريخ القرون الماضية ، أو على لسان الآخرين.
(**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي**)
والذي يشك في الآخرة ينعكس شكه على جزئيات الإيمان وكلياته.
الثاني : عدم خوفهم من العذاب ، لأنهم لم يتذوقوه ، ولم يستفيدوا من تجربة الذين وقعوا فيه قبلهم.
(**بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ**)
ويستفاد من (لمّا) أن عذابهم مرتقب.
[9 ـ 10 ـ 11] والسبب الثالث : غرور المال والقوة اللذان أحاطا بهم ، فصاروا ينظرون الى جميع الأمور من خلالهما ، فاذا بهم لا يرون حاجة للرسالة في أنفسهم. ويحطم ربنا كبرياءهم هذا عن طريق مقارنة ما بحوزتهم بما عند الله من الملك والقوة.
(**أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ**)
كلّا ... ومن خزائن الله الرسالة التي ينزلها على من يشاء من عباده المخلصين. ثم إن الذي عندهم مهدد بأن يلسبه الله بعزته ، بل هو هبة من الله لهم وليس ملكا ذاتيا. ثم لندع مقايسة ما يملكه هؤلاء بما عند الله ، ولننظر ماذا يملكون من ظاهر الحياة الذي هو جزء ضئيل جدا من ملكه تعالى :

(**أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما**)

وربنا يذكر هؤلاء بحقارة ما يملكون وعظمة ما يملكه الله ، لأنهم ـ كما تقدمت الاشارة ـ يعتمـدون على منطق القــوة ، فــأراد الله أن يوضح لهم بأنه الغــالب في قــوة المنطق وفي منطق القوة أيضا.

إن هـذا الإنســان الـذي يتمالكه الغـرور فيتحـدى ربّه أضعف ما يكون عن تحمل أدنى تحـدّ فالسـلطان المتكـبر يقتله الله بجرثوم تعجز أحدث الاجهزة عن اكتشافه ، وقد يسلب منه كل ما يملك بين عشـية وضـحاها ، ومما يـذكر في التــاريخ أن النـــاس ثــاروا على خليفة من الخلفـــاء العباسيين ففقئوا عينه ، وجردوه من ملابسه وصادروا كل ما تملكه من أموال المسلمين ، حـتى وقف يتسـول على باب المسجد من الناس.

وربنا من فــوق عرشه يتحــدى المتكــبرين ؛ يقــول : أجمعـوا قـواكم المادية والبشـرية والعلمية ، وابحثـوا عن كل سبب من أسباب القدرة ، فان مصـيركم لن يكـون إلّا كمصـير الأقـوام السـابقة ، حيث كـذّبت الرسل وتحـدت الحق فدمرها الله.

(**فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ* جُنْـدٌ ما هُنالِـكَ مَهْـزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ**)

فمهما اعتمـدوا على أسـباب القـوة (العـدد والعـدة والخبرة) فـان المؤسسـات العسـكرية تنهـار بفعل الارادة الالهية المباشـرة أو المتجليّة على أيـدي المؤمـنين. وجند مبتـــدأ ، وما أداة للتقليل أراد بها الله تحقـــير قـــوتهم ، وهنالك إشـارة للمكـان البعيد الـذي قد يسـتخدم للتحقـير أيضا ، فيكون المعنى كقولنا أن هنالك جنـدا ما مهزومـون من الأحـزاب ، وفي الروايـات كـان المقصـود في التأويل من الآية هم المشـــركون في مكة وقد تحزبـــوا لحـــرب الإسلام ، فبشر الله نبيه بهزيمتهم وغلبته عليهم.

[12] ومن أجل أن يســـتقيم الرســـول في طريق الدعوة للحق ، ويقاوم تحدّيات

الكـافرين ، يـذكره بمعانـاة الأنبيـاء مع الأقـوام السـابقة ، وأن هؤلاء سوف يهزمون كما حدث لأولئك.

(**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ**)

فتكـذيبهم ليس جديـدا ، ثم يـذكر بمجـرد الاشـارة ، مجموعة من الأقوام :

(**قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ**)

وانما سـمي فرعـون بـذي الأوتـاد لأنه كـان إذا غضب على أحد وتد رجليه ويديه ورأسه على الأرض أو في خشبتين متقـاطعتين على شـكل الصـليب ، أو في جـذوع النخل ، وقيل أن سـبب التسـمية كـثرة جنـوده وجيوشه السائرة فكانوا إذا نصبوا الخيام في معسـكراتهم ، وأثنـاء استراحتهم في الطريق صارت كثيرة جدا وهكذا أوتادها.[1]

[13] كل تلك الأقوام كذّبوا رسلهم ، وأيضا :

(**وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ**)

وهم قوم شعيب (ع).

(**أُولئِكَ الْأَحْزابُ**)

فأين ذهب أولئك سوف يذهب هؤلاء أيضا.

[14] فهم أحــزاب يختلفــون مع بعضــهم في طبيعة الحياة ، والمكان والقوة

---

(1) المجمع ج 7 ، 8 ص 468.

والضـعف ولكنهم يجمعهم أمـران هما : التكـذيب بـالحق والرسل ، والعقاب الالهي الذي لحق بهم بسببه.

(**إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ**)

وقد تكـون هـذه الآيـات تمثيل للحقيقة الـتي طرحتها الآية (3) عن هلاك القرون السابقة.

[15] والـدمار الـذي لحق بتلك الأقـوام لم يكن أمـرا طارئا ، انما ينسجم مع الحق الحاكم في الحيـاة ، والتمثل في إرادة الله والسنن التي وضعها في الكـون. والحق هو الحق ، والحيـاة هي هي بأساسـياتها ، فلن يشذ عن هـذه النتيجة كل من يمشي في ركــاب المكــذبين وخطهم في أي زمان ومكان.

(**وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ**)

سواء كفار قريش أو طواغيت اليوم الـذين يتحكمـون في مصـائر الشـعوب ، ويحـاربون الله والإسـلام ما ينتظر هؤلاء جميعا ؛

(**إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ**)

وليس بالضــرورة أن تكــون الصــيحة من جبرائيل أو أحد الملائكة الغلاظ عليهم السلام ، بل قد تكـون الصـيحة رصاصة يطلقها المجاهدون على المستكبرين ، وقد تكون ثورة شعبية جذرية تأكل الأخضر واليابس من كيانهم.

وفـواق بمعـنى الرجـوع ، ومنه فـواق الناقة إذا رجع لبنها الى الضـــرع بين الحلبـــتين ، وافاقة المـــريض من المــرض إذا رجع الى صــحته ، وهــؤلاء حينما يــنزل بهم العذاب لا تقبل رجعتهم للحق. وهذه الكلمة نجد تفسـيرها في قوله تعالى في الآية الثالثة

«**وَلاتَ حِينَ مَناصٍ**».

إذن فاعتماد الإنسان على قوة المال والجند واعتزازه بهما في مقابل الحق أمر خطـــــير يجـــــره الى الهلاك ، بشذوذه عن الحق في الحياة.

وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْـلَ يَـوْمِ الْحِسـابِ (16) اِصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُـرْ عَبْـدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْـدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَـهُ يُسَـبِّحْنَ بِالْعَشِـيِّ وَالْإِشْراقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُـلٌّ لَـهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَـةَ وَفَصْـلَ الْخِطـابِ (20) وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْـمِ إِذْ تَسَـوَّرُوا الْمِحْـرابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَـفْ خَصْـمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (22) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْـعُونَ نَعْجَـةً وَلِيَ نَعْجَـةٌ واحِـدَةٌ فَقـالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (23) قالَ لَقَـدْ ظَلَمَـكَ بِسُـؤالِ نَعْجَتِـكَ إِلى نِعاجِـهِ وَإِنَّ كَثِـيراً مِنَ الْخُلَطـاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيـلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْـتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ

(24) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِـكَ وَإِنَّ لَـهُ عِنْـدَنا لَـزُلْفى وَحُسْـنَ مَــآبٍ (25) يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْنــاكَ خَلِيفَــةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَــبِيلِ اللـهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِـلُّونَ عَنْ سَــبِيلِ اللـهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (26)

يا داوُدُ : إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً

هدى من الآيات :

إن فتنة القوة في الحياة فتنة كبـيرة وخطـيرة ، ومن تخلص من غرورها فانه يتغلب على ســائر الفتن بصــورة أسهل ، ذلك أن الإنسان يقتحم الصـعاب ويـركب الأهـوال والمخاطر من أجل السلطة ، فاذا تنازل عنها أو بلغها ولم يســخرها إلّا في ســبيل الخــير ، فإنه آنــذاك ينتصر على أهوائه ، وعلى الضغوط التي تحيط به.

وفي الوقت الذي حدثتنا هذه السورة عمن صــرعتهم هــذه الفتنة ، فراحــوا يعــتزون بقــوتهم ويتحــدون ربهم ويعتزون بـآلهتهم الـتي تمثل رمـوز سـلطتهم ، ويخـالفون ولآية الله باسـمها وهم الملأ من الكفـار ، يضـرب لنا هـذا الـدرس القـرآني مثلا حيا من واقع داود (ع) الـذي تجـاوز هـذه الفتنـة. فبـالرغم من أنه امتلك القـوة الظاهرية في الأرض ، كما سخرت له الطيـور والجبـال والحديد ، إلّا أنه لم يغـــتر بقوته بل صـــار يتقـــرب إلى الله اللحظة بعد اللحظة من خلال تسبيحه المسـتمر وأنئذ جعله الله خليفة في الأرض

تشريعيا وواقعيا.

ونستوحي من إعطـاء الله السـلطة وولاية الأمر لنبيّه داود (ع) بعد اســتقامته على الحق ، أنه تعــالى لا يعطي ولايته الى كل سلطان ، انما للذين يمتلكون ناصـية الملك ولا تمتلكهم.

بينات من الآيات :

[16] عادة ما يستعجل الكفار عـذاب الله ، ويتحـدون الأنبياء قائلين : إذا كانت دعوتكم صادقة فاسألوا ربكم أن يصب علينا العـذاب. والسـياق القـرآني في هـذه السـورة يـترك الاجابة على تحـدي الكـافرين ، ويوجهنا الى دراسة التـاريخ ، لأنه تعـالى أجـرى الحيـاة وفق سـنن حـددها واختارها بعلمه وحكمته ، ولن يغير الله سننه كلما تحـداها الجـاهلون فهو يـدير شـؤون الخليقة حسب الحكمة لا حسب ردود الفعل تعـالى ربنا عن ذلك علـوا كبـيرا ، بلى قد يغير الله سنة ما في ظـروف خاصة لأن ربنا لا يعجـزه شـيء وأمـره فـوق السـنن والقـوانين ، ولكنه مع ذلك يتصرف بعلم وحكمة.

(**وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ**)

والقط الحظ والنصـيب فهـؤلاء يسـألون الله أن يوافيهم بما يستحقون من العذاب لكي يكتشفوا أنهم فعلا على الباطـل. ولكن الله لا يسـتجيب لهـذه الـدعوة دائما وذلك لأمور :

الاول : أنه عزّ وجل رحيم بعبـاده ، فلو قـادهم الجهل يوما الى الكفر والتحـدي لا يأخـذهم بالعـذاب ، وذلك أن الإنسان قد يجهل حينما ثم يكتشف خطأه ويعود الى ربه.

الثـاني : لان ذلك يخـالف حكمة الحيـاة ، فالله خلقها للامتحـان وذلك يقتضي أن لا يكـون العـذاب مباشـرة بعد الـذنب ، ولو فعل الله ذلك لما عصـاه أحد ، ولكنّ الطاعة الــتي يريــدها الله هي الــتي تكــون بــدافع المعرفة به ، والخـــوف من مســـتقبل المعصـــية ، والتطلع الى نتـــائج الطاعـة. يقـول تعـالى : (**وَلَـوْ شـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُؤْمِنِينَ**) [1] وقال : (**وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**) [2] وقال الامام الصادق (ع) :

«لما رأى إبـراهيم ملكـوت السـماوات والأرض ، التفت فرأى رجلا يزني ، فدعا عليه فمات ، ثم رأى آخر فــدعا عليه فمــات ، ثم رأى ثلاثة فــدعا عليهم فمـــاتوا ، فـــأوحى الله اليه يا إبـــراهيم إن دعوتك مسـتجابة فلا تـدع على عبـادي ، فـاني لو شـئت لم أخلقهم ، إني خلقت خلقي على ثلاثة أصـــــناف ، صــنف يعبــدني لا يشــرك بي شــيئا فأثيبه ، وصــنف يعبد غـــيري فليس يفوتـــني ، وصـــنف يعبد غـــيري فأخرج من صلبه من يعبدني» [3]

الثـــــالث : لكي تتم الحجة على النـــــاس ، فهم مع الفرصة التي يمنحها الربّ لهم في الدنيا يسـألونه الرجعة بعد الموت ليسـتأنفوا العمل قـال الله تعـالى : (**حَتَّى إِذا جـاءَ أَحَـدَهُمُ الْمَـوْتُ قـالَ رَبِّ ارْجِعُـونِ لَعَلِّي أَعْمَـلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ**) [4]

وقال بعض المفسرين : انّ معنى قط النصـيب وانهم أرادوا نصيبهم من الجنة

---

(1) يونس 99
(2) النحل 61
(3) نور الثقلين ج 1 ص 732
(4) المؤمنون (99 ، 100).

(لا من العذاب) استهزاء وسخرية وانهم كذبوا بذلك بثالث الأصول الدينية (المعاد) بعد أن كذبوا بأولها (التوحيـد) عند ما قالوا : «**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِـداً**» ، وكـذبوا بالثـاني (النبوة) عند ما قالوا : «**أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا**».

وسواء هذا أو ذاك ، فـان الله لم يسـتجب لأهـوائهم ، بل ضرب مثلا من واقع داود الذي عجل الله له جزاءه في الدنيا (وقطه) دون أن ينقص من أجره في الآخرة شيء.

[17] وهكذا ينبغي للرسـاليين أن لا يهتمـوا بكلام من هـذا النـوع ، وإن كـان ذلك صـعبا بالـذات إذا كـان يمس بمقدساتهم ، لهذا يوصي الله نبيّه بالصبر.

(**اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ**)

ثم يوجهنا السـياق الى مثل من التـاريخ ، وبالتحديد من حياة داود (ع) يناقض غرور هؤلاء الكـافرين بالسـلطة والذي جرّهم لتحدي الله عزّ وجل.

(**وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**)

وحين يـذكر النـبي اخوته السـابقين من الأنبيـاء ، يستأنس بهم وبصبرهم في الضـراء والسـراء ، وبتعـاليهم على مـؤثرات الحيـاة الـدنيا وحين يـذكر النـبي لنا صـبر الأنبياء وذكرهم وانهم الأوّابون الى الله في كلّ حال حـتى عند ما تـزدحم على أبـوابهم زخـارف الـدنيا ، فانه يسن أمامنا سنة سالكة ، وطريقا معبدا علينا الاسـتقامة عليه ، والصبر على كلّ أذى فيه.

دعنا إذا نـذكر داود ، فهو القـوي ذو الأيـدي ، واليد : القوة ، وداود يملك أسباب القـوة وعواملها فهو قـوي من جهة فعبر عنه القرآن بذي الأيدي ، واليد كناية عن القوة

والقدرة ، وهو من جهة أخرى مـؤمن وعلامة ايمانه التوبة ومن الصـعب على البشر أن يجمع بين هـاتين الصـفتين ، لأن صاحب القوة عادة ما تستهويه زخارف الحياة ويركض وراءها ، حتى ولو خالفت الحق.

وكما يحتـاج المـؤمن للقـوة حـتى ينفذ خططه في الحيـاة ويبلغ أهدافه وتطلعاته ، فانه يحتـاج الى الإيمـان ، وذلك لكي يعـود تائبا الى ربّه بـدافع الإيمـان كلما جرته القوة الى ساحل الغرور والمعصية.

[18 ـ 19] وتحدثنا الآيات عن جـانب من القـوة الـتي بلغها داود في حكمه ، فقد أخضع له الحياة بشقيها الجامد والمتحرك ، وهكـذا تخضع الحيـاة الى كل من يتبع الحق ، لأنه بالاضافة الى قوة الغيب الـتي تعينه حينـذاك ، يهتـدي به الى الأسـباب والقـوانين الـتي يمكنه تسـخيرها ، فلقد سـقطت الحجب بينه وبين حقـائق الخليقة ، فـاذا بها تستجيب له.

(**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ**)

وكل شيء يسبح الله بصورة مستمرة ، ولكن لا نفقه تسبيحه كما يقول تعالى : (**تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً**) [1] وقد جعل الله الجبال تسـبح عند ما يسـبّح داود (ع) ولعلنا نسـتوحي من الآية أنه أعطي الطاقـات الموجـودة فيها ، كالاحجار الكريمة والوقود.

(**وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ**)

يعني مجموعة له يستفيد منها كيفما يشاء. وربما كان الإنسان قـديما يسـتغرب لو سـمع بهـذه الآيـات ، أما وقد تقدمت البشرية في العلم ، فهي تعتمد الآن الجبال في

(1) الإسراء 44

كثير من الشؤون ، كما أن هناك محـاولات ـ نجح الكثـير منها ـ للاستفادة من الطيور في مجـالات الحيـاة المختلفة ، وتوجد الآن تجـارب جـادّة للاسـتعانة بها في الشـؤون الطبيعة والعسكرية ، ومن قصة سـليمان الـتي مـرّت في سورة سبأ يتبين أنه كان (ع) يبعثها للاستكشاف.

[20] وبالاضافة الى هـذه القـوى المادية والامكانـات التي تدخل كعنصر فعّال في سيطرة داود وسلطانه ، كان الله يزيده قـوة وتمكنا يوما بعد يـوم ، ولو كـان ظالما لما زاده مرور الأيام إلّا ضعفا ووهنا.

(**وَشَدَدْنا مُلْكَهُ**)

بمختلف أسباب القوة هذا من الناحية الماديّة. أما من الناحية التشـريعية والادارية فقد أعطي ما يقـوي حكمه وسلطانه أيضا. قال تعالى :

(**وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ**)

والحكمة تعـني أن يحيط الإنسـان علما بالخليقة وبنفسه ويعـرف : كيف يتصـرف فيها تصـرفا سـليما. أما فصل الخطـاب فهو الكلام الـذي يفهم الطـرف الآخر الحقيقة بما يقطع دابر الشك ، ويزيل حجاب الجهل فداود (ع) إذا يصـيب الحق بحكمه ويبيّنه أفضل البيـان بخطابه ، وهذان الأمران من أهم ما يلـزم المـدير المسـؤول سـواء في موقع خطـير كالولاية ، أو أقل من ذلك كالاسـرة والمؤسسة والتنظيم. والنصـوص الاسـلامية تؤكد على ضرورة اختيار الأسـلوب الأنسب كما تؤكد على المحتـوى يقول تعالى : (**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**) [1]

---

(1) النحل 125

قصة الخصمين مع داود (ع):

[21] ويعود بنا السياق ليضرب لنا مثلا من حيـاة داود (ع) تتجسد فيه أوبته الى الله عـزّ وجـلّ ، وذلك في قصة حـدثت لـه. فبينما كـان قائما يصـلي في محرابه إذ اقتحم الجـدار عليه شخصـان ، ولم يأتيـاه من الطريق الطـبيعي وهو الباب.

(**وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ**)

وصيغة السؤال هنا تسـتثير في الإنسـان حب الاطلاع وتشد مسامعه للسائل حيث يستفهمه عن شـيء لا يعرفه لا سـيما والمسـؤول عنها قصة طريفة هي التسـلق على سور المحراب ، بهدف التقاضي عند صاحبه فهل سـمعت أعجب نبأ منها؟

[22] وتتصل فصول القصة ببعضها في أسلوب معجز من التعبير والعرض ، وتسلط الآيـات الضـوء على النقـاط والمواقف الهامة منها ، والـتي تنجسم مع اهـداف وقوعها في هذا السياق القرآني ، حيث الحديث عن السلطة وعن الملك الأوّاب.

بـالطبع لمّا دخل هـذان الخصـمان على داود ، وبهـذه الطريقة أخذته الخشية.

(**إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ**)

لماذا فزع داود مع ان الخوف من الناس ليس مناسبا للأنبياء؟

ربما أراد ربّنا أن يــذكر هــذه النقطة في مقابل بيانه لســعة ملك داود ليقــول للبشر مهما بلغتم من القــدرة فــأنتم بالتــالي بشر ولن تصــبحوا آلهة والبشر بطبيعته يخاف ، ويجهل و.. و.. فلما ذا يغـتر الإنسـان إذن ، ويعـتز بما يملك؟ فهذا داود الملك المسخر له الطيور والجبـال ، والنبي الكـريم عند ربه يفـزع حين يتسـور عليه المحـراب رجلان.

إن داود (ع) أوجس خيفة في نفسه ولعله ظهـــــرت على ملامحه علائم الخوف والوجل.

(**قالُوا لا تَخَفْ**)

وعرضوا عليه أمرهم قالوا :

(**خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ**)

أي جار واعتدى.

(**فَاحْكُمْ بَيْنَنا**)

أرادا منه أن يقضي بينهما ، ولكنهما اشترطا أن يكون حكمه :

(**بِالْحَقِ**)

وأضافوا شرطا آخر فقالوا :

(**وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ**)

فليس المهم أن يقضي الحـاكم بـالحق وحسب ، انما لا بد أن يكــون وصــوله الى الحق بطريق ســليم ، كــأن يعتمد على الأصول الشرعية لاستنتاج الحكم ، حتى يهـدي المتخاصــمين للحق أولا ، وليخرجــوا من عنــده راضــين مقتنعين بالقضاء ثانيا.

[23] وبعد أن اكملـوا عـرض جملة شـروطهم ، بـدأ صـاحب النعجة الواحـدة يعـرض الموضـوع على داود (ع) انتظارا للحكم وفقها. قال :

(**إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ**) [1]

وربما كان يطمع أن يتمها مائة ، أو لأنها أنثى فأراد أن تلد له.

(**فَقالَ أَكْفِلْنِيها**)

أضمها الى نعاجي وأتحمل مسئوليتها ، واستمال قلبي بحديثه الذي اشتمل على المدح والإطراء.

(**وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ**)

أي غلبني بحججه وحيله فقبلت ذلك.

[24] وبعد أن انهى المدّعي كلامه بادر داود وأصدر الحكم ضد الطرف الثاني ، من دون الاستماع الى دفاعه ودون أن يطالب بالبينة.

(**قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ**)

ومضى السياق يستوحي عبرة جانبية للقصة متمثلة في خطر الشراكة بين الأطراف ، وأن الضمان الوحيد لتجنب هذا الخطر هو الإيمان.

(**وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ**)

ويستثني من قاعدة الظلم والاعتداء التي هي ديدن أكثرية الشركاء :

(**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ**)

والذي يدفع أولئك للاعتداء هي أهواؤهم وشهواتهم ، المتمثلة في مجموعة من

---

(1) والنعجة هي أنثى الضأن والنواعج من النساء البيضاوات ، وقد أوردنا الشطر الثاني من التعريف لاتصاله بتفسير لهذه الآية يتبناه البعض من المفسرين.

الصفات السلبية ، كالحسد والطمع ، وحب الدنيا. و.. و..
أما المؤمنون فإنهم يتغلبون على كلّ ذلك بالإيمان الذي يحصنهم ، وبالعمل الصالح الذي يثبت الإيمان ويعودهم على فعل الخير. ولكن القليل هم المؤمنون الذين يصرعون شهواتهم.

معنى الفتنة :

وبهذا الاستطراد أنهى داود (ع) القضية لصالح صاحب النعجة الواحدة ، أما بقية الآية فهو اضافة من عند الله عزّ وجلّ تتضمن نقدا لتصرفه عليه السلام وبيانا للخطأ الذي بدر منه وأخيرا موقفه من موعظة الله له.

(**وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ**)

ماذا كانت فتنة الله لداود التي انتبه إليها وتصورها فورا ، إذ انها جاءت في صورة نزاع بين اثنين كانا في الواقع ملكين أراد الله أن يعلم من خلال قضيتهما طريقة القضاء لداود؟

في هذه الآية قولان :

الاول : أن الذين تسوروا هم الملائكة وكان الهدف امتحان داود (ع) فهو لم يعرف بأنهم ملائكة ، ثم إنهم لم يريدوا من سوالاتهم هذه أن يحكم لهم داود في النعاج بالمعنى الظاهر والمتعارف لأنهم أساسا لا يملكون نعاجا ، ولم تحدث لهم قضية من هذا النوع ، انما أرادوا صرفه الى قضية اجتماعية ولكنه لم يتوجه الى مقصدهم في البداية ، ثم أدرك ذلك فتاب الى ربّه توبة نصوحا.

والقضية الاجتماعية هي أنه كانت لديه (99) امرأة بين حرّة وأمة ، فعشق

زوجة جميلة لرجل من بني إسرائيل يقال له (أوريا) فأراد أن يتزوجها لتتم له مائة زوجة ، فقدمه في أحد الحـــرب ليقتل ويتم له الأمر فقتل ، وتزوجها داود. فــــأرادت الملائكة أن تـبين له خطـأه هـذا. في الرواية : فكتب داود عليه السلام الى صاحبه الـذي بعثه أن ضع التـابوت بينك وبين عــدوك ، وقــدم أوريا بن حيــان بين يــدي التــابوت فقدمه وقتل ، فلما قتل أوريا دخل عليه الملكــان وقعــدا ولم يكن تزوج امـرأة أوريا وكـانت في عـدتها ، وداود في محرابه يــوم عبادته ، فـدخل الملكـان من سـقف الـبيت وقعــدا بين يديه ، ففــزع داود منهما فقــالا : «**لا تَخَــفْ خَصْـمانِ بَغى بَعْضُـنا عَلى بَعْضٍ فَـاحْكُمْ بَيْنَنا بِـالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّـراطِ**» ولـداود حينئذ تسـعة وتسـعون امـرأة ما بين مهـيرة الى جارية ، فقـال أحدهما لداود : «**إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْـعُونَ نَعْجَـةً وَلِيَ نَعْجَــةٌ واحِــدَةٌ فَقــالَ أَكْفِلْنِيها وَعَــزَّنِي فِي الْخِطابِ**» أي ظلمني وقهـرني فقـال داود كما حكى الله عزّ وجل : «**لَقَدْ ظَلَمَـكَ بِسُـؤالِ نَعْجَتِـكَ إِلى نِعاجِـهِ**» الى قوله : «**وَخَــرَّ راكِعــاً وَأَنــابَ**» قــال : فضــحك المســتعدى عليه من الملائكة وقــال : حكم الرجل على نفسه ؛ فقال داود : أتضـحك وقد عصـيت؟ لقد هممت أن أهشم فاك قال : فعرجا وقال الملك المستعدى عليه : لو علم داود انه أحق أن يهشم فــاه مــنى ؛ ففهم داود الأمر وذكر الخطيئة فبقي أربعين يوما ساجدا يبكي ليله ونهـاره ولا يقوم إلّا وقت الصلاة حـتى انخـرق جبينه وسـال الـدم من عينيه [1]

وهكــذا نجد الملــوك يفتشــون عن هــذه الثقافة عند ادعياء الدين لينشـروها ، ويـبرءوا أنفسـهم من الظلامـات التي يرتكبونها.

وقد نقل الفخر الـرازي في تفسـيره الكبـير انه حضر في بعض المجــالس ، وحضر فيه بعض أكــابر الملــوك ، وكـان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القــول الفاسد والقصة الخبيثة لســبب اقتضى ذلك ، ويمضي الفخر الــرازي في بيان فساد هذا الرأي وإسكات

(1) نور الثقلين ج 4 ص 449.

ذلك الملك.

وهذا القول مردود عليه في أكثر الروايات نظرا لمتنه الذي يمس بكرامة الأنبياء وتقـواهم فعن الشـيخ الصـدوق رحمه الله ، باســـناده الى أبي عبد الله (ع)، أنه قـــال لعلقمة

«**إن رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تضـبط ألم ينسـيوا داود (ع) الى أنه تبع الطـير حـتى نظر الى امـــرأة (أوريـــا) فهواها ، وأنه قـــدم زوجها أمـــام التابوت حتى قتل ثم تزوج بها**» [1]

وقال الامام أمير المؤمنين (ع) :

«**لا أوتى برجل يزعم أن داود تـزوج امـرأة أوريا إلّا جلدته حدين ، حدا للنبوّة وحدا للإسلام**» [2]

ونجد هـذا الـرأي مكتوبا في التـوراة الموجـودة في أيـــدي النـــاس ، وهـــذا دليل على أنها محرفة ، وإلّا كيف تنسب الى حـــاكم بل نـــبي من أنبيـــاء الله هـــذه التهمة الرخيصة ، وهو يؤتمن على رسالة الله وعباده؟

والأشكل في الأمر أن هذا الرأي تسرب الى كثير من تفاسـيرنا ، وحينما نقتبس افكارنا في تفسـير القـرآن من التوراة المحرفة ، وننسب للأنبياء هذا الظلم والانحـراف ، بل هـذا الشـذوذ ، عنـدها لا نـرى ضـيرا إذا حكمنا رجل كالمتوكل العباسي ، أو معاوية ابن أبي سفيان وولده يزيد ، لأنه إذا كانت ثقافتنا مشوبة بهذه الأفكـار الباطلة ، فانها سوف تدعونا لاتباع السلاطين والملـوك الظلمة على أنهم خلفاء لله

---

(1) نور الثقلين ج 4 ص 446.

(2) نور الثقلين ج 4 ص 446 نقلا عن المجمع.

وأمناء على الرسالة.

الثـــاني : الفتنة الــتي تعــرض لها داود ، هو مبادرته لاصدار الحكم من دون سؤال صاحب النعجة الواحـدة عن البينة ، ولا الاســتماع الى رأي المـدعى عليه ، إذ لا يجــوز للقاضي ــ من الناحية الشــرعية والمنطقية ــ أن يصــدر حكما في قضـية ما قبل التحقيق فيها ، والنظر في ســائر الحيثيات التي تتصل بها.

يقول الامام الرضا (ع) بعد أن ضرب يــده على جبهته ، وهو يرد على الرأي الأول ويبين الرأي الثـاني : «**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ**» لقد نســبتم نبيا من أنبيــاء الله عليهم السلام الى التهاون بصـلوته ، حـتى خـرج في أثر الطـير ، ثم بالفاحشة ثم بالقتــل؟ فقــال : يا ابن رســول الله فما كـانت خطيئتــه؟ فقـال : ويحك ان داود عليه الســلام انما ظن انه ما خلق الله خلقا هو أعلم منه ، فبعث الله عز وجل اليه الملكين فســورا المحــراب فقــال : «**خَصْــمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْـدِنا إِلى سَــواءِ الصِّــراطِ إِنَّ هــذا أَخِي لَــهُ تِسْــعٌ وَتِسْــعُونَ نَعْجَــةً وَلِيَ نَعْجَــةٌ واحِــدَةٌ فَقــالَ أَكْفِلْنِيها وَعَــزَّنِي فِي الْخِطــابِ**» فعجل داود عليه الســلام على المدعي عليه ، فقال : «**لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِــهِ**» ولم يســئل المــدعي البينة على ذلك ولم يقبل على المــدعى عليه ، فيقــول له : ما تقــول؟ فكــان هــذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم اليه ألا تســـــمع الله عز وجل يقــول : (**يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْنــاكَ خَلِيفَــةً فِي الْأَرْضِ فَــاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِــالْحَقِ**) إلى آخر الآية فقـــال (أي الــراوي) : يا ابن رســول الله فما قصــته مع أوريــا؟ قــال الرضا (ع) : إنّ المــرءة في أيّـام داود (ع) كـانت إذا مـات بعلها أو قتل لا تتزوّج بعده أبــدا ، فـأوّل من أبـاح الله عــزّ وجــلّ له أن يــتزوّج بــامرأة قتل بعلها داود (ع) ، فــتزوّج بامرأة أوريا لمّا قتل وانقضت عدتها فذلك الذي شقّ على الناس من قبل أوريا [1]

(1) المصدر ص 446.

(**فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ**)

إنّه لم يترك فرصة لوساوس الشيطان وتسويفاته ، إنّما بادر مباشرة ، إلى الاستغفار والتوبة ، وأيّ باب للتوبة أوسع من الصلاة والدعاء. ألم يقل الله تبارك وتعالى : (**قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ**) [1] وقال في الصلاة : (**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ**) [2]

[25] وحينما وفّر (ع) شروط التوبة في نفسه ، من صدق الندم ، وإصلاح ما فسد ، والضراعة إلى الربّ بقلب منكسر ، استجاب الله له.

(**فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ**)

التوبة تزيل خطأ الإنسان ، وتمحو آثاره الرجعية ، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع ، بل وتقدّمه خطوات إلى التوبة تزيد الإنسان حصانة ، وتقيه خطر الهلاك بالذنوب والأخطاء. وليس أضرّ على الإنسان من ذنب يعتز به ، وخطأ يصرّ عليه مستكبرا.

وأهمّ معطيات التوبة أنها ترفع الإنسان درجات عند ربّه ، وتورثه المنازل الرفيعة في الجنّة.

(**وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ**)

وهذا خلاف لتصورات الإنسان السلبية من أن التوبة تسبّب له الذّلة ، وأن العزّة بالإثم هي الأفضل ، لأنها في نظره السبيل للرفعة.

---

(1) الفرقان 77

(2) البقرة 45.

والقرآن انما يضرب لنا مثال الاعتراف بالخطإ والتوبة منه ، من واقع النبي داود العالم الذي بلغ وولـده سـليمان ذروة السـلطة ، لان التوبة تصـعب على الإنسـان حينما يكـون في موقع متقـدم من المجتمع ، كما لو كـان والـدا بالنسـبة لاسـرته ، أو كـان عالما أمـام تابعيه ، وتصل الصـعوبة ذروتها إذا كـان حاكما وعالما في مسـتوى داود ولعل هذا من حكم تعرض الأنبيـاء للفتنـة. وان الله يكلهم إلى أنفسـهم ، ويرفع عنهم عصـمته لحظـات معـدودة فيرتكبون الهفـوات ، ثم يتوبـون إلى الله ليكونـوا قـدوات صالحة للبشـرية في حقل التوبة ـ وهو أعظم حقل ـ كما هم قـدوات في سـائر الحقـول. ولا بد لنا ونحن نخـوض الصـراع أن نتـذكر هـؤلاء العظمـاء كما أمرنا الله حـتى لا يتكـبر أحـدنا على النقد والاسـتماع إلى آراء النـاس في تصرفاته وبالتالي لكي لا يتعالى أحدنا على المجتمع باسم انه يمثل طليعته المتقدمة.

[26] أهم شـروط الحـاكم الـذي يتصـرف في دمـاء الناس وأموالهم ، تمحوره حول الحقّ ، ولكن كيف يعـرف صدق الحـاكم الـذي يـدعي انه يحكم بـالحقّ؟ إنما عند ما يخالف هواه ويـتراجع عن قـرار اتخـذه إذا عـرف انه كـان خاطئا ، ويعـترف أمـام النـاس بـذلك ويتـوب إلى الله ، ويصلح منهجه.

من هنا نجد السـياق القـرآني يـذكرنا بـان الـرب اسـتخلف عبـده داود في الأرض بعد أن ابتلاه وعـرف انه يخالف هواه ويتراجع عن الخطأ إذا عرفه.

(**يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**)

ان الأرض وما فيها من بشر وأحيـاء وتـراب أمانة الله في عنقك ، وعنق كـلّ حـاكم ولا تصـان هـذه الامانة إلّا بتحكيم الحقّ ، أما لو تحكم الباطل فسـوف تفسد الأرض ومن عليها من الأحياء والناس قال تعالى يصف الـذي يتبع الباطل في حكمه : (**وَإِذا تَـوَلَّى سَـعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا**

يُحِبُّ الْفَسادَ) [1]. ولهـذا عقّب القـرآن مبينا أهم وظـائف الحـاكم وما يتصل به من مؤسسـات تشـريعية وقضـائية وتنفيذية قائلا :

(**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ**)

ولكي يلـتزم الحـاكم بـالحق يجب أن يتجـاوز أهـواءه وشهواته ، حتى لا تنعكس علاقاته الاجتماعية ، ولا ضغوط الناس واغراءاتهم على آرائه في الحكم.

(**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

ومن أجل أن نعـرف معـنى من معـاني هـذه الآية الكريمة تكفينا نظـرة واحـدة لواقع المسـلمين ، الـذين صاروا ضحية لأهـواء الحـاكمين في الأمة ، أو ليس أبعـدوا الإسـلام عن الحكم لأنه يتنـاقض مع أهـوائهم ، ولأنهم لا يجدون فيه مبررا لـنزواتهم وتصـرفاتهم المنحرفـة؟ وهـذا هو الضلال.

ومن هـذه الآية الكريمة اسـتوحى الحـديث الشـريف ولاية الفقيه فقال الامام الصادق (ع) :

«**فأما من كـان من الفقهـاء صـائنا لنفسه ، حافظا لدينه ، مخالفا على هـواه مطيعا لأمر مـولاه فعلى العوام أن يقلدوه**»

ويضيف الامام (ع):

«**فأما من ركب من القبائح والفـواحش مـراكب فسقة فقهـاء العامة فلا تقبلـوا منهم عنّا شـيئا ولا كرامـة» الى أن يقـول : «وهم أضـرّ على ضـعفاء شيعتنا من جيش يزيد عليه اللعنة على الحسـين بن علي (ع) وأصحابه ، فإنهم يسلبونهم**

---

(1) البقرة 205

الأرواح والأموال» [1]

ثم يهدد ربّنا أولئك الذين يبتعدون عن الحقّ والسبيل المستقيم بسبب أهوائهم فيقول :

(**إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ**)

وقال يوم الحساب ولم يقل القيامة ، لان الذي ينسى أنه محاسب أمام الله على كلّ حركاته وسكناته ، وعلى أهوائه بالخصوص ، يفقد اتزانه وضوابطه في الحياة فيخالف الحقّ ويتبع الهوى من دون حساب.

أخطاء الأنبياء :

وكلمة أخيرة : لماذا نجد في القرآن تشهيرا بالأنبياء وأخطائهم كقوله تعالى عن آدم (ع) (**وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى**) [2] أو عن النبي يونس (ع) : (**سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) [3] وعن داود (**فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ**) [4] وعن النبي الأكرم (ص) : (**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ**) [5]

الجواب : هناك حكم كثيرة ، من أبرزها معرفة الناس أن الأنبياء ليسوا بآلهة فلا يرفعونهم إلى مقام الرب. هكذا جاء في كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمه الله في

---

(1) بح ج 2 ص 88.

(2) طه 121

(3) الأنبياء 87.

(4) ص 34.

(5) الفتح 2

حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه :

وأما هفـوات الأنبيـاء عليهم السـلام وما بينه الله في كتابه ، فان ذلك من أدلّ الدلائل على حكمة الله عز وجل البــاهرة وقدرته القــاهرة وعزته الظــاهرة ، لأنه علم ان براهين الأنبياء عليهم السـلام تكـبر في صـدور أممهم وأن بعضهم من يتخذ بعضهم إلها كالذي كان من النصـارى في ابن مريم ، فـذكرها دلالة على تخلفهم عن الكمـال الـذي انفرد به عز وجل ، ألم تسـمع إلى قوله في صـفة عيسى حيث قـال فيه وفي أمه : «**كانا يَـأْكُلانِ الطَّعـامَ**» يعـني أن من أكل الطعــام كـان له ثقل ، وكل من كـان له ثقل فهو بعيد مما ادعته النصارى لابن مريم.

وَما خَلَقْنَا السَّــماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما بــاطِلاً ذلِــكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِـدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَــلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتــابٌ أَنْزَلْنــاهُ إِلَيْــكَ مُبــارَكٌ لِيَـدَّبَّرُوا آياتِـهِ وَلِيَتَـذَكَّرَ أُولُـوا الْأَلْبــابِ (29) وَوَهَبْنا لِـداوُدَ سُـلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْـدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (31) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْــرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (32)

---

31 [الصافنات] : جمع الصافنة من الخيل ، وهي الـتي تقـوم على ثلاث قوائم وترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحـافر وهي من علامة الجودة.

[الجيــاد] : جمع جيد وهي الفــرس الأصــلية النجيبة ، ونجابة الفــرس بعرفانها صـــاحبها ، وســـرعة ســـيرها ، والاهتمـــام بخلاص راكبها من المشكلة التي يقع فيها.

رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (34) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (36) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (38) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)

---

32 [توارت بالحجاب] : الشمس غابت واستترت تحت الأفق.
33 [فطفق] : شرع.
[مسحا] : قطعا بالسيف ، وقيل معناه مسحا باليد وأن سليمان جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها بيده.
36 [رخاء] : لينة بدون عنف.

أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ

هدى من الآيات :

عند ما طالب الكفـار بتعجيل حسـابهم والإسـراع في إعطائهم نصيبهم (من الثواب أو العقاب) قال ربنا لرسوله الكـريم : (**اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُـونَ وَاذْكُـرْ عَبْـدَنا داوُدَ**) ومن خلال قصة داود (ع) ذكرنا كيف عجل الله له الجـزاء في الدنيا متمثلا في الملك والـذكر الحسن ، مما هـدانا به إلى ان العمل الصـــالح جـــزاءه الأوفى (في الـــدنيا أو العقـــبى) وها هو الســياق يبلغ بنا إلى الجـــواب الفصل لسؤال أولئك الذين أنكروا النشور ويقــول : ان قصة داود تــدل على انّ الحق هو محــور الخليقة ، فـداود بلغ ما بلغ لأنّ الله يحكم بالحق (ومن الحق جزاء المحسن بالحسن) وليس هذا سوى مثل لكل تقديرات الرب ، ومنهج تــدبيره للخليقة (حيث انها قائمة جميعا على قاعـدة الحـق) وهـذا بالتالي يهدينا إلى ان المتقين ليسوا كالفجار لأن تساويهما يتنافى والحق الذي قامت به السموات والأرض. وهكـذا لا بد من الجزاء الأوفى في الآخرة.

هـذا من جـانب ومن جـانب آخر يتنـافى مبـدأ الحق وخلافة الفجار في الأرض.

لان هكذا خلافة لا تبلغ أهم اهداف الحياة وهو تطـبيق الحق ، وبهـذه الآيـات ينفي ربّنا نفيا قاطعا كل الأكـاذيب والأفكار الباطلة التي حاول محرفوا التوراة أو من اقتبس منهم الصـاقها في نبيه داود (ع) حين اتهمـوه في تقـواه ونزاهته. ثم يدعونا الله للتـدبر في القـرآن مما نجد مـثيلا لهـذا الأمر في سـورة المائـدة في موضـوع الخلافة ، لاننا حينما نعرض تصـوراتنا وافكارنا على كتـاب الله ، فسـوف تتـبين لنا ان خلافة الظـالمين لا تنسـجم ومجمل بصـائره وهداه.

ثم يحدثنا القرآن عن جانب من حياة سليمان بن داود عليهما السلام ، والذي تجاوز هو الآخر فتنة السلطة ، فلم تخرجه زينتها من خط الطاعة والانابة ، بل كـان يـزداد خضـوعا لربه تعـالى ، لأنه يعتـبر كل شـيء نعمة الهية تستوجب الشكر. وبذلك ضرب مثلا للسلطان الصـالح كما فعل والده من قبل.

بينات من الآيات :

[27] في الآيـات السـابقة بيّن ربنا صـفات الخليفة الذي يجعله في الأرض (حيث ذكرتنا الآيات بعشرين صـفة حسـنة في خليفة داود) ومن أبرزها حكمه بين النـاس بالحق.

(**وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً**)

كيف يتخذ الباطل الـرب الـذي لا يجعل خليفة في الأرض الا الصالحين والـذين يمتحنهم أشد الامتحـان حـتى يحكموا بالحق.

ان آيات الحكمة البالغة تتجلى في أصغر شـيء خلقه الله ، في النحلة والنملة ، في الشـعر والـوبر ، في الخلية الواحدة ، في الذرة الواحـدة ، في الـبروتون والالكـترون. فكيف لا تتجلى الحكمة في مجمل خلق السـموات والأرض؟! أم كيف يخلقهما الله

باطلا بلا حكمة بلا هـدف بلا تقـدير؟! سـبحان الله وتعـالى عن ذلك علوا كبيرا.

(**ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**)

لأنهم قيّموا الحيـاة بأفكـار الكفر المسـبقة لم يهتـدوا إلى الحـــق. ومع ذلك لم يصـــلوا في نفيه إلى حد قطعي (العلم) لأنهم أينما نظروا وإلى أي شـيء منها وجـدوا فيه آثار القدرة والحكمة.

(**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**)

لأن الله خلق السموات والأرض بالحق ، فانه لن يـدع الكفار سدى بل لا بد ان يجازيهم بأعمالهم الـتي تجـاوزت كل حد معقول في مخالفة الحق بل لهم الويل والثبور.

[28] وتبيانا لهـذه الحقيقة يهـدينا الـرب إلى ان سـنة الحق القائمة في كل شيء مخلوق تـأبى تسـاوي المتقين الذين يتجنبون العذاب ، وأسبابه وعوامله. والفجّـار الـذين لا يبالون اي واد يقتحمون ، واي ضلالة يــتيهون فيها ، واي جريمة يرتكبونها.

(**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**)

وبذلك كسبوا الحسنات.

(**كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ**)

ويبدو ان تخصـيص المفسـدين بالـذكر ينسـجم وقصة داود (ع) المتمثلة في شروط خليفة الله في الأرض.

وان الخليفة الشـــــرعي ليس كل من ملك الأمـــــور بالقوة ، انما الذي يملكها بالحق.

ولهذا لا بدّ من التفريق بين حاكم وحاكم ، خلافا لما ذكره البعض من أن الحاكم الشـرعي هو الـذي حكم بالسـيف ، سواء كـان مصـلحا أم مفسـدا ، والواقع انهم أرادوا تـبرير مواقفهم من بعض أحـداث التـاريخ ورجاله ، فهم يؤمنـون بـــأن عليا (ع) ومعاوية ســـواء بينما يـــرفض ذلك منطق القرآن.

هل الامام علي (ع) الـذي يطـوي نهـاره صـائما وليله قائما عابدا ، ويتقاسم قوته مع الفقراء ، بل ويؤثرهم على نفسه وعياله (مسـكينا ويتيما وأسـيرا) ويعـدل في الرعية يستوي هو والذي يغتصب حقوق الآخرين ، ويسـفك دمـاء الناس ، ويتلاعب بمقدرات الأمّة؟! كلّا ..

إن الســلطة ســلاح ذو حـــدين ، فهي إذا تســلمها المؤمنـون تصـبح وسـيلة للإصـلاح والاعمـار ، أما لو كـان العكس فانها ، تمسي معـــولا يهـــدم المنجــزات ويحطم الطاقــات. وربّنا في هــذه الآية لم يقابل (**الَّذِينَ آمَنُــوا**) بجماعة معينة (**كَالْفُجَّارِ**) مثلا ، انما قــابلهم بالمفســدين في الأرض ، ليبين لنا بأن كل سلطة غير سلطة المؤمنين هي مفسدة في الأرض.

(**أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**)

إن ذلك لا يصح ولا يكـــون ما دام الحق هو أســـاس الحياة ومقياسها. إلّا أن تتبـدل هـذه المعادلة ، وهـذا ليس الّا في ظن الكافرين.

[29] والحق يتجلى في السـماء والأرض وما بينهمـا. وآيــات القــرآن هي التجلي الآخر للحق ، ومن تــدبر في القرآن وجد انه الكتاب الناطق بما يجد في آيات الخليقة ، فـاذا ادى قلبا واعيا وتبصر انه كتـاب أنزله خـالق السـماء والأرض ، لأنه ليس سوى صورة صافية للخليقة.

(**كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ**)

وحدد الله لهذا الكتاب غايات سامية فقال :

1 ـ (**لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ**)

فالقرآن انزل لكي يعطي للإنسـان المـؤمن البصـيرة والرؤية السـليمة في الحيـاة. وهـذا لا يمكن بالمطالعة السطحية ، بل لا بد من تفكر عميق في الآيات.

2 ـ والهـدف الآخر بعد ادراك البصـيرة أن تنعكس على حيـاة الإنسـان فيتـذكر بها ويصـحح من خلالها في التفكير ، وفي العمل منهجه.

(**وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ**)

لان العاقل هو الـذي يعـرف قيمة القـرآن ، وأهميته ، وهو الـذي يتعـرف على بصـائره. ولا شك أن الـذي يحكم عقله في الحياة هو الـذي يسـتفيد من القـرآن ، أما الآخر الذي تحكمه شهواته فلن يتذكر به أبدا.

ونتسـائل : ما هي صـلة هـذه الآية بالسـياق؟ ونجيب اولا : بـأنّ اسـتنباط منهج الخلافة الاسـلامية من القـرآن صـــعب مستصـــعب لا يحتمله الا من امتحن الله قلبه بالايمان ، وعرف انه لا يمكن ان يعترف بـالقرآن بسـلطة تجـانب قيمة الحق ، ومنهج التوحيـد. أو ليست السـلطة السياسـية تجسّـد قيم المجتمـع. فكيف تسـتطيع سـلطة فاسدة تطبيق قيم القرآن الاصلاحية؟!

وهكذا أشار السياق إلى ضرورة التدبر والتذكر لتبصر هـــذه الحقيقة الـــتي تـــتراكم عليها حجب الشـــهوات والضغوط.

ثانيا : بـأن منهج القـرآن في توعية الإنسـان بـاليوم الآخر منهج فريد ، ولا يبلغ فهمه غـير الـذين يتـدبرون في آيات الكتاب ويتذكرون بها.

[30] وينقلنا السـياق إلى قصة سـليمان (ع) بعد ان اسـتوحى عـبر قصة داود (ع) وتلتقي القصـتان في أنهما مثل لتجاوز الإنسان فتنة السلطة والقوة.

(**وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**)

فمـيزة سـليمان وعظمته الحقيقية ليست في انتمائه إلى رجل عظيم كـداود (ع) ولا في سـلطانه انما في عبوديته لله سـبحانه. ولو لم يكن من أهل الايمـان لما امتدحه في كتابه. فبه استطاع أن يتجاوز أكبر فتن الحيـاة ، وهي فتنة لسـلطة فقد ملك (ع) ما لم يملكه أحد من الناس ولن يملكه من بعده ، ولكنه لم يغـتر بزينة الـدنيا ، انما تجاوزها وتوجه لله ، يتعبد ويضع نفسه في موقع المذنب ثم يتـوب وهو المعصـوم من الـذنوب وانما يعظم ربّه عزّ وجل. وكيف يتكـبر هـؤلاء على ربهم وهم يعلمـون بـأن ما عنـدهم من فضـله ، وأن طريق الاسـتزادة هو المزيد من التذلل له والتضرع اليه؟!

[31] وتجسيدا لاوبة سليمان وتعبـده لله ، يعـرض لنا القـرآن صـورة من حياته (ع).

(**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ**)

وهي الخيـول المروضة من أجودها ، وكـانت يستعرضها سليمان كلما أراد الجهاد.

[32] وفي ذات يـوم استعرضـها وربما لكثرتها بقي معها طويلا حتى غابت الشمس (أو كـادت) وفاتته فضـيلة صلاة العصر ، ولم يكن حينها وهو يعد العدة

للجهاد مشـغولا بـأمر من أمـور الـدنيا ، ومع ذلك اسـتغفر ربه وعدّه تقصيرا يستوجب التوبة.

(**فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْـرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ**)

وكونه سـلطانا لم يمنعه من الاعـتراف بالخطإ ، ولو كان بمقدار ترك الاولى بسبب عمل خير آخر يحبه الله.

فالمعنى شغلني الجهاد عن الصلاة ، والاثنـان واجبـان ، الا أن الصلاة أفضل ، وهل يجاهد المؤمنون إلّا لإقامتها؟

[33] ولمّا توجّه سـليمان (ع) الى فـوات الـوقت ، استراح عن الجهاد فقضى صلاته ، ثم عاد ثانية ، فقال :

(**رُدُّوها عَلَيَ**)

يعني جياد الخيل ، لكي يستمر في تفقدّ الجيش.

(**فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ**)

وكـان المسح على أعنـاق الخيل وسـيقانها عند أهل الخبرة طريقا لمعرفة الجيد منها ، وكان سـليمان (ع) بعد إجـراء هـذه يقسـمها على أفـراد جيشه مما يـدل على اهتمامه به.

قال ابن عباس سألت عليا (ع) عن هذه الآية ، فقـال : ما بلغك فيها يا ابن عباس؟ قلت : سـمعت كعبا يقـول : اشتغل سليمان بعرض الافراس حتى فاتته

الصـلاة ، فقـال ردوها علي يعـني الافـراس وكـانت أربعة عشر فــأمر بضــرب ســوقها : وأعناقها بالســيف فقتلها فسلبه الله ملكه اربع عشر يوما ، لأنه ظلم الخيل بقتلهـا.
فقال علي (ع):

«كــذب كعب لكن اشــتغل ســليمان بعــرض الافراس ذات يوم لأنه أراد جهاد العدو حـتى تـوارت الشـمس بالحجـاب (الى ان قـال) وإن أنبيـاء الله لا يظلمــون ولا يــأمرون بــالظلم لأنهم معصــومون مطهرون» [1]

[34] ثم إن القرآن يحدثنا عن الفتنة التي تعــرض لها سليمان عليه السلام. فقد تمنى على الله ان يكون له ولد يرثه كما ورث هو داود (ع) لكن الله لم يســتجب له إنّما أسقط على كرسيه جسدا ميتا اجهضته امرأته.

(**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً**)

كناية عن الابن الميت ، وكـان يتمـنى أن يجلس على كرسيه ولد يحكم بعده ، فتأثر بعض الشيء لـذلك ، ولكنه فكر في نفسه ورجع إلى ربه.

(**ثُمَّ أَنابَ**)

[35] وقد اعتبر موقفه هذا ـ وهو النـبي ـ زللا ، وأن هذه فتنة عليه أن يتجاوزها بالدعاء والاسـتعانة بالله ، لأنه علم أن عـدم تحقيق الله لامنياته يـدل على أن ذلك ليس من المصلحة أبدا.

(**قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي**)

أن تمـــــنيت عليك ما لا يتفق مع حكمتك لان علمي قاصر عن ادراك ذلك ثم

(1) المجمع / ج (7 ، 8) / ص (475).

طلب من الله شيئا آخر غيّر من خلاله أمنيته ، قال :

(وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْـدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

وفي هذه الآية الكريمة تتبين آداب الدّعاء عند الأنبيـاء عليهم السلام.

ففي البداية يجب أن يعرف العبد بأن ما سـيطلبه من الله ليس حقا له على الله استوجبه بعمله أو عبادته ، انما هو هبة يعطيها له الربّ من عنده تفضلا إن شاء أو يمنعها ، وبالاضـافة إلى تناسب هـذا الأدب ومقـام الربوبية ، فانّه يعطي المـــــؤمن مناعة ضد ردود الفعل المحتملة لو لم يستجب له.

ثم إن الطلب يجب أن يكـون عظيما وكبـيرا ، وينبغي للإنســان ان يطلب من ربّه وهو القـــادر العزيز الكـــريم مطالب جسـيمة ، فيخـرج من نظرته البشـرية المحـدودة التي تفرض عليه آمـالا محـدودة ، ويـدعو الله انطلاقا من معرفته بصفاته وأسمائه الحسنى. فهذا سليمان (ع) يدعو الله أن يهبه ملكا عظيما لا ينبغي لأحد من بعده.

ويستوحى من السياق ان سـليمان (ع) طلب من الله بـديلا عن الأولاد الـذين حـرم منهم ، بـان يختصّـه برحمة الهية خاصة لتمضي الأجيـال تـذكره ، به أو ليس الإنسـان يستمر بعقبه وبما اختص بـه. فسأل الله من الملك ما لم يعط أحـدا ولا ينبغي لأحد ، وفعلا خصه الله بتسـخير الجن والــريح والطــير له ، كما تقــرّر الآيــات التالية ، وبالاسم الأعظم حسبما نقرأ في آيات أخرى [1]

ولكن ليس الملك لـذات الملك ولـلذة الحيـاة الـدنيا ، انما أراد من خلال الملك والسـلطان أن يقيم حكومة الله في الأرض ، ليقضي على واقع الشرك السياسي

---

(1) نجد تأييـدا لهـذه الفكـرة في الحـديث رقم (56) من تفسـير نـور الثقلين ج (4) ص (459 ـ 460).

والاجتمـــــاعي وغيرهما ، وينصر المؤمـــــنين ويهـــــدي المستضـــعفين إلى الحق ، وأي طمـــوح أعظم من هـــذا الطموح؟!

إن سليمان كـان يعـرف انه نـبي ويسـير على الحق ، لهذا سأل الله الملك والقوّة لتحقيق اهداف رسالته. ومن يطلع على حياته يجـدها جهـادا من أجل إعلاء كلمة الله ، ولعلّ الاشارة إلى الجياد في هذه السورة المباركة تهـدينا إلى هـذه الحقيقـة. وفي سـورة النمل حيث انتهت القصة بإسلام بلقيس وقومها صورة من حياته المليئة بالجهاد.

الثـالث من آداب الـدعاء أن ينتهي بالثنـاء والحمد لله وذلك بذكر أسمائه الحسنى وفي مقدّمها اسم «الوهـاب» الذي ذكره أكثر الأنبياء في دعواتهم ، قـال تعـالى : (**وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْـنى فَـادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِـدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**) [1]

[36] وقد استجاب الله لدعوة نبيه ، بتميـيز ملكه بما لا يتكرر مستقبلا.

(**فَسَـخَّرْنا لَـهُ الـرِّيحَ تَجْـرِي بِـأَمْرِهِ رُخـاءً حَيْثُ أَصابَ**)

فهي تجري كيفما يريد ، وأينما يريد.

وجاء في تفسـير علي بن إبـراهيم حـديث مـأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال :

«خرج سـليمان بن داود من بيت المقـدس ومعه ثلاثمائة الف كرســــــــيّ عن يمينه عليها الانس ، وثلاثمائة الف كرسي عن يسـاره عليها الجن ، وأمر الطير فأظلتهم ،

(1) الأعراف / (180).

وامر الـريح فحملتهم حـتى ورد ايـوان كسـرى في المدائن ، ثم رجع فبات بإصطخر ، فاضطجع ثم غدا فـــانتهى إلى مدينة بركـــاوان ، ثم أمر الريـــاح فحملتهم حــتى كــادت اقــدامهم يصــيبها المــاء ، وسليمان على عمـود منها ، فقـال بعضـهم لبعض : هل رأيتم ملكا قط أعظم من هـذا أو سـمعتم بـه؟ فقالوا : ما رأينا ولا سمعنا بمثله ، فناداهم ملك من السـماء ثـواب تسـبيحة واحـدة في الله أعظم مما رأيتم» [1]

[37] وإلى جانب الريح أخضعت له الشياطين وكـانت مهمتهم البنـاء والاعمـار وكـانوا يسـتخرجون المعـادن من البحار.

(**وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ**)

وليس بالضــرورة أن يكــون المقصــود من الغــوص المعـــنى المتعـــارف فقط ، وهو الـــنزول إلى قعر البحر للصــيد واســتخراج الطاقــات الكامنة فيه ، بل تنسـحب الكلمة كما كلمة البناء على المعنى المتقدم أيضا.

[38] وكـان سـليمان يـوزع المهـام على الشـياطين ، فيعملون كيفما يريد ، ومن يتمرد فانه يجازى بالسجن.

(**وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ**)

ويبدو من الآية أن الشياطين كانوا يصفدون جماعـات جماعـــات فيقـــرن بعضـــهم بعضا ، ويحتمل أنّهم كـــانوا يعتقلــون كل فــرد مع قرنائه في المعصــية والمخالفــة. المهم أن ســليمان بهــذه الســيطرة والهيمنة على الجن نسف الأفكار الجاهلية حول ألوهيتها.

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (459).

[39] وفي نهاية الدرس يشـير ربّنا إلى ملك سـليمان فيقول :

(**هذا عَطاؤُنا**)

ويفوضه فيه يتصرف كيفما بدا له.

(**فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ**)

أي أعط للنــــــــــاس مما تملك أو أمنعهم ، ولا أحد يحاسبك وهذا أعلى مراتب التفويض.

[40] ويختتم الــدرس بحقيقة هامة ، هي أن أهم مما يملكه الإنسان في الدنيا ، قربه من الله وثوابه عنده.

(**وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ**)

وكلمة أخيرة :

من أبعاد رسـالة القـرآن الكـريم تصـحيح رؤي البشر تجـــاه الرسل ورســـالاتهم ، ذلك أن الشـــيطان يثـــير الوساوس في مصدر الإصـلاح ، وينبـوع الفضـائل (الرسل ورســـالاتهم) فـــاذا به يلصق التهم بالأنبيـــاء لأســـقاط شخصـيـاتهم في أعين النـاس ، ويحـرف قيم الـدين وقد يجعلها بتأويلها سببا للضلالة.

والله سبحانه يبعث بين الحين والآخر رسـالة ورسـولا لتجديد ما درس من معالم دينه الحق لكي لا تـزول فرصة الهداية للناس.

وهكذا حرّفت أهواء بـني إسـرائيل التـوراة والإنجيل ، وأوّلت النصوص حـول القيم ، ولفقت التهم حـول الأنبيـاء عليهم السلام. وانزل الله كتابه المجيد تبيانا

لكل شـيء وتنزيها لمقـام الرسل عليهم السـلام. وهكـذا نجد في القـرآن بيانا لقصص الأنبيـاء ــ خصوصا تلك الـتي نقلت على غير وجهها ـ ثم تفسيرا حسنا لموارد الغمـوض من حياتهم عليهم السلام.

ومما يؤسف له : انّ طائفة من المفســرين راحــوا ينقلـون الأحـاديث الإسـرائيلية ويخوضـون في اعـراض الأنبيــاء خوضا وبالتــالي ينقضــون ما عقــده القــرآن ، ويخالفون ما أراده ، ويسـيرون تماما بعكس اتجاهـه. بينما كـان ينبغي أن يلـتزموا بـأدب القـرآن في الحـديث عن الرسل ، الـذي يتجلى في سـورة الصـافات وص بـأحلى صورها.

وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (42) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (48) هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ (51)

---

44 [ضغثا] : ملء الكف من الشماريخ والحشيش.
[ولا تحنث] : الحنث هو نقض العهد المؤكّد بالحلف.

وَعِنْــدَهُمْ قاصِــراتُ الطَّرْفِ أَتْــرابٌ (52) هــذا ما تُوعَـدُونَ لِيَـوْمِ الْحِسـابِ (53) إِنَّ هـذا لَرِزْقُنا ما لَـهُ مِنْ نَفادٍ (54)

---

52 [أتراب] : أقران على سن واحد ليس فيهن عجوز ولا هرمة ، وقيل أمثال في الحسن ومقدار الشباب ، وقيل أتراب في أعمار أزواجهن.

أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ

هدى من الآيات :

في مواضع أخـرى من القـرآن تعرضت الآيـات لقصة أيوب (ع) بمناسبة الحديث عن الصبر ، (الجانب المعروف من حياته (ع)) ، حتى لقد شاع المثل «صـبر أيـوب» ، أمّا في هذه السورة فان القصة تأتي في سـياق الحـديث عن العلاقة السـليمة بالسـلطة والـثروة والعافية ، هـذه النعم التي ينبغي أن لا تستعبد البشر ، فلا يسـتبد به الغـرور إذا رزق منها شيئا ، ولا يقتله اليأس إذا زويت عنه.

وما تلتقي فيه قصة سليمان وأيـوب عليهما السـلام ، أنهما يهـديانا الى تجسـيد للنفس الربانية الـتي لا تبطر بالنعمة والملك كنفس سليمان ، ولا تيأس إذا فقـدت متع الدنيا كنفس أيوب عليهما السلام. وبـالرغم من ان هـذين المثلين من حيـاة شخصـيتين الّا أنهما ـــ في الواقع ـــ شخصية واحدة ، حيث المؤمن هو الذي يتعـالى على زينة الدنيا متطلعا الى رضـوان ربه ، فيشـكر حينما يظفر بها ، ويصبر حينما تفوته.

لقد كان أيـوب ذا مـال وأهل كثـير وسـمعة طيبة بين النـاس ، وهو يسـخر كل ذلك من أجل عمل الصـالحات ، فــاذا به يفقد ماله وأهله ، ويصــاب في جســده بمــرض اسـتقذره النـاس بسـببه ، وأبعـدوه عن قـريتهم خوفا من العــــدوى ، فتركه كل من حوله ، ولم تبق معه الا زوجته الوفية رحمة بنت يوسف بن يعقــــوب عليهم الســـلام ، والـتي ضـربت مثلا في الصـبر مع زوجها والوفـاء له ، إذ كانت تعمل في الـبيوت وتخـدم النـاس لتـأتي له بالطعـام والشراب.

الا أنه عليه السلام بقي صابرا شاكرا لله على النعمة ، وما زاده الابتلاء الّا صــبرا ، ورجــاء للفضل في الــدنيا والآخرة. وهكذا يكون المتقون كما وصـفهم سـيدهم علي (ع) فقال :

«**نـزّلت أنفسـهم منهم في البلاء كـالتي نـزلت في الرخاء**» [1]

ولعل السبب في ثبـات شخصـية المتقين واسـتقامتها أنهم يستمدون مقوماتها من الرســالة الالهية الثابتة لا من الظروف والعوامل المادية المتغيرة.

أما زوجة أيـوب (ع) الوفية ــ والـتي لم تكن بعصـمة الأنبياء مع مكانتها وايمانها ـ فقد جاء لها إبليس متمثلا في هيئة البشر ، وقـال لها إنـني طـبيب مـاهر وأسـتطيع أن أداوي زوجك ولكن بشـــرط واحد ، هو أن يقـــول لي بعد شـــفائه أنـــني شـــافيته ، فقبلت حبا في زوجها النـــبي ، فجـاءت مسـرعة وأخـبرت أيـوب بـالأمر فغضب عليها ، وحلف يمينا أن يضربها مائة جلدة.

وهكــذا أتم أيــوب امتحانه ودعا ربه فاســتجاب له ، وخفف عن زوجته حين أمـره بـأن يأخذ ضـغثا ويضـربها به وأعاد عليه أهله وماله ومكانته وأبقى ذكره لنا

(1) نهج البلاغة / خطبة (193) / ص (303).

منارا وهدى.

بينات من الآيات :

[41] يمكن للشيطان أن يمس الإنسـان بالسـوء في جـانبي الحيـاة «المعنـوي والمـادي» ولكن ذلك لا يكـون بالجبر والإكراه ، لان البشر حر ومختار ، انما يضـغط عليه وقد يمسه من ذلك شــيء من التعب والألم. وإذا تحــدى الإنســان ذلك واســتقام رغم المشــقة فانه ينتصر على إبليس لأنه كما وصفه القرآن : (**لَيْسَ لَـهُ سُـلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَــهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِــهِ مُشْــرِكُونَ**) [1]. وفي موضع آخر تنقل لنا الآيات تصـريحا عن الشـيطان نفسـه. تقول الآية : (**وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللـهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَـأَخْلَفْتُكُمْ وَما كـانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْـتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَـكُمْ ما أَنَا بِمُصْـرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْـرِخِيَّ إِنِّي كَفَـرْتُ بِما أَشْـرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْـلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**) [2]

إن كون الإنسان من المؤمنين لا يعـني أنه لا يتعـرض الى وسـاوس إبليس وضـغوطه ، وحـتى الأنبيـاء تعرضـوا لضغوطه ومحاولاته الدائمة للاغواء ، الا أنهم لم يسـتجيبوا له ولو ألحق بهم الأذى والمشــقة. وهكــذا كــانوا قــدوة للبشرية.

قال بعض المفسرين (كالرازي في تفسيره الكبـير) : إن أنبيــاء الله أرفع من أن يمســهم الشــيطان بالنصب والعذاب ، فلا يصح إذن أن ندعي بأن الحـال وصل بـأيوب (ع) الى حد اسـتقذره النـاس لمرضـه. والحقيقة أن هـذا الأمر جائز في مجال الامتحـان لأنهم عليهم السـلام بعثـوا قدوات للبشرية ، وليس صحيحا أن نبعد النظرة

---

(1) النحل / (100 ـ 101).
(2) إبراهيم (22).

الواقعية عن حيــاتهم ، فنــأوّل الآيــات في ذلك الى غــير مضامينها. فننفي تعرض يوسف للسجن ، وموسى للاهانة ، ونبيّنا للاذى ، حتى قال عن نفسه :

«ما أوذي نبي مثلما أوذيت»

مع أن ذلك هو من صـميم حيـاتهم وعنوانا عريضا في تاريخهم الرسالي ، باعتبارهم أنبياء!

ولو راجعنا آيــات القــرآن والأحــاديث لوجــدناها تؤكد على أنّ الأنبياء هم الاولى بـالبلاء ، بل أنهم لم يصـلوا الى هـذا المقـام الرفيع الا من خلالـه. وقد روي عن الرسـول (ص) وقد سئل : أي الناس أشد بلاء؟ أنه قال :

«الأنبياء ثم الصالحون الأمثل ثم الأمثل فالأمثل من الناس» [1]

نعم إن الشـيطان لا يتسـلط على عقـول الصـالحين وقلوبهم ، أما الجوانب المادية من حيـاتهم فهو قـادر على ســـلبهم إياها لو أراد الله امتحـــانهم فيها ، كما ابتلى في ذلك نبيّه أيوب (ع).

قال الامام الصادق (ع) :

«ان الله عـــزّ وجـــلّ يبتلي المـــؤمن بكل بليّة ، ويميته بكل ميتة ، ولا يبتليه بذهاب عقله ، أما تــرى أيــوب كيف ســلط إبليس على ماله وولــده وأهله ، وعلى كل شيء منه ولم يسلط على عقله ، ترك له ليوحد الله به» [2]

والقرآن في هذه السورة يـدعو النـبي الأكـرم (ص) ، وكل مؤمن يسير في خطه الى

---

(1) بح ج / (12) / ص (355).
(2) المصدر / ص (341).

تذكر الأصوات من تـاريخ الرسل والرسـالات ، وأن تكـون حاضــرة في ذهنه أبــدا ليســتعين بــذكرها على مواجهة مصاعب الحياة ومشـاكلها من أجل الاسـتقامة في طريق ذات الشوكة.

(**وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ**)

الــذي كــان في نعيم من الــدنيا ، ثم انتقل منه الى الفقر والمرض ، لكنه استقام بعبوديته لله ولم يكفر ، لأنه كأي مـؤمن مخلص ينظر للحيـاة بنـور الله ، فهو لا يضـره إن فقد كل نعيمها وبقي له الايمـان ، كما لا يجد لها طعما لو جمعت له لــذاتها ولكنه فقد جــذوة الايمــان من قلبه وعمله. وقد تجلت عبودية أيـوب (ع) في الغـنى بشـكره ، وفي الفقر بصبره واستقامته.

(**إِذْ نــادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّــنِيَ الشَّــيْطانُ بِنُصْــبٍ وَعَذابٍ**)

أي اذكر من حياة أيوب هذا الموقف العظيم حين دعا ربّه في الضـرّاء ، وهـذا الموقف عظيم لان من الصـعب على الإنسان وهو تتوارد عليه الضغوط والمشاكل من كل جـــانب أن يخلص توجّهه الى ربّه الأحد ، فهو حينما يجد مس الفقر والجـوع ربما يعتقد بـأن الغـني أو الحـاكم هو الذي ينقذه من هذه الورطة ، وحينما يحوطه المرض غالبا ما يتصـور بـأن علاجه عند الطـبيب لا بسـببه ، وهكـذا يقع في الشــرك ، لكن أيــوب تجــاوز كل ذلك وحافظ على ايمانه وتوحيده الخالص.

[42] ولم يكن البلاء الـذي تعـرض له أيـوب بسـبب ذنب عمله ، فهو معصــوم مطهر عن المعصــية ، وما أراد الله من ابتلائه :

«**الا رحمة ليعظم له الثـــواب ، وجعله عـــبرة للصابرين ، وذكرى للعابدين في**

كل بلاء نزل ، ليأنسوا به بالصبر ورجاء الثواب» [1]

فلما أتم الله الابتلاء وأظهر صـــدق نبيّه ومعدنه رفعه عنه ، وعوضه عما فقده بما هو خـير منه ليعرفنا ربّنا بـأن العاقبة للمتقين الصابرين.

(**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ**)

قال الامام الرضا (ع) :

«**فـركض برجله فـانفجرت له عين فـدخل فيها فاغتسل فـأذهب الله تعـالى عنه كل ما كـان به من البلاء»** [2]

[43] وبالاضـافة الى إشـفائه من الأمـراض والعلل التي لحقت بجسمه ، ردّ الله عليه ما فقد من الأهل سواء الأبناء أو الأقرباء.

(**وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ**)

أي تضاعفوا فاذا كـانوا عشـرين صـاروا أربعين ، وقد حملت هذه الآية على عدة تفاسير :

الاول : أن أهله مـاتوا فأحيـاهم الله ، وأضـاف إليهم مثلهم.

الثـاني : أن الله عوضه عمن مـات من أهله ببـنين وبنات آخرين.

الثـالث : أن أهله تفرقـوا عنه لما أصـابه من بلاء ، فجمعهم الله له وعطف قلوبهم عليه.

---

(1) المصدر / ص (360).
(2) المصدر ص (366).

ولكن الروايات أكثر ما تؤكد على الرأي الاول ، ومنها قول الامام الصادق (ع) في تفسير الآية :

«فـرِدّ عليه أهله الـذين مـاتوا قبل البلاء ، ورد عليه أهله الـذين مـاتوا بعد ما أصـابهم البلاء ، كلهم أحياهم الله تعالى له فعاشوا معه» [1]

وبعد هذا البيان يصف الله رفعه البلاء عن نبيّه بأنه ذو فائدتين :

الاولى : تعـود على أيـوب ذاته ، وقد أسـماها رحمة فقال :

(**رَحْمَةً مِنَّا**)

لأيـــوب ، وقد تمثلت هـــذه الرحمة في شـــفائه من المرض ورد ما فقده عليه.

الثانية : تعـود على عمـوم الرسـاليين والمتعقّلين ، وتتمثل في العبر والدروس التي خلفتها القصة.

(**وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ**)

وأهم درس يستفاد من هذه الآيـات ، هو أن لا ننهـزم أمام مشاكل الحياة وضغوطها ، فاذا ما بقي الإنسـان قويا في نفسه ، مقاوما للآثـار النفسـية والروحية للازمـات والمشاكل ، فانه لن يتأثر بها. وحتى يتمكن من ذلك يجب أن تكـون علاقته بالحيـاة وما فيها قائمة على أسـاس انها وسيلة ، لا علاقة شيئية باعتبارها هدفا بـذاتها ، وانه إذا لم يصل الى أهدافه وطموحاته من طريق ما ، فســوف يحصل عليها

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (466).

عن طريق آخــر. فــاذا خسر وســيلته أو فشل فيها فليبق على أهدافه وإرادته ، لأنه بجهــده وتحركه واســتقامته قد يحصل على ما هو أفضل مما فقـــده ، أو فشل المـــرات الماضية في الوصول اليه وتحقيقه ، هـذا إذا نظر للهـزائم والنكسـات الـتي تمر عليه في الحيـاة نظـرة موضـوعية ، فهي حينئذ ســتزيده قــوة ومناعة ضد الهــزائم ، وإصــرار على تسخير الحياة بصـورة أفضل ، وعلى ضـوء التجـارب الماضية.

وهذا أيوب (ع) يزداد إصــرارا على خطه في الحيـاة ، كلما تفــــاقم بلاؤه ، دون أن يســـتجيب الى وســـاوس الشيطان ، التي كانت تستهدف أضـعاف إرادته والنيل من ايمانه وتقــواه. ولنقــرأ هــذه الرواية الــتي نقلها العلامة المجلسي في كتابه بحار الأنوار. قال :

وقـــال الحسن : «مكث أيّــوب مطروحا على كناسة في مزبلة لنبي إسـرائيل سـبع سـنين وأشـهرا يختلف فيه الدوابّ ، وقال وهب : لم يكن بـأيّوب أكلة إنّما يخـرج منه مثل ثدي النساء ثمّ تتفقّأ ، قال الحسن : ولم يبق له مـال ولا ولد ولا صــديق ولا أحد يقربه غــير رحمة صــبرت معه تصــدّق ، وتأتيه بطعــام وتحمد الله تعــالى معه إذا حمد ، وأيّوب على ذلك لا يفتر من ذكر الله والثناء عليه والصــبر على ما ابتلاه ، فصـرخ عـدوّ الله إبليس صـرخة جمع فيها جنــوده من أقطــار الأرض جزعا من صــبر أيّــوب ، فلمّا اجتمعوا إليه قـالوا : ما أحزنـك؟ قـال : أعيـاني هـذا العبد الّذي سألت الله أن يسـلّطني علي ماله وولـده ، فلم أدع له مـالا ولا ولـدا فلم يـزد بـذلك إلّا صـبرا وثنـاء على الله تعالى ، ثمّ سلطت على جسـده وتركته قرحة ملقـاة على كناسة بـــني إســـرائيل لا يقربه إلّا امرأته فقد افتضـــحت بـــربّي فاســـتغثت بكم لتعينـــوني عليه ، فقـــالوا له : أين مكرك؟ أين علمك الّذي أهلكت به من مضى؟ قال : بطل ذلك كلّه في أمر أيّوب فأشيروا عليّ ، قالوا : نشير عليك ، أرأيت آدم حين أخرجته من الجنّة من أين آتيتــه؟ قــال : من قبل امرأته ، قالوا : فأته من قبل امرأته فإنّه لا

يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها ، قال : أصبتم ، فانطلق حتى أتي امرأته وهي تصّدّق ، فتمثّل لها في صورة رجل فقال : أين بعلك يا أمة الله؟ قالت : هو ذلك يحكّ قروحه ويتردّد الدوابّ في جسده ، فلمّا سمعها طمع أن يكون كلمة جزع فوسوس إليها فذكرها ما كانت فيه من النعيم والمال ، وذكرها جمال أيّوب وشبابه وما هو فيه من الضرّ وأنّ ذلك لا ينقطع عنهم أبدا.

قال الحسن : فصرخت فلمّا صرخت علم أن قد جزعت فأتاه بسخلة فقال : ليذبح هذا لي أيّوب ولا يذكر عليه اسم الله عزّ وجلّ فإنّه يبرئ ، قال : فجاءت تصرخ : يا أيّوب حتّى متى يعذّبك ربّك؟ ألا يرحمك؟ أين المال؟ أين الماشية؟ أين الولد؟ أين الصديق أين لونك الحسن قد تغيّر وصار مثل الرماد؟ أين جسمك الحسن الّذي قد بلى وتردّد فيه الدوابّ؟ اذبح هذه السخلة واسترح ، قال أيّوب : أتاك عدوّ الله فنفخ فيك وأجبته ، ويلك أرأيت ما كنّا فيه من المال والولد والصحّة؟ من أعطانيه؟ قالت : الله ، قال : فكم متّعنا به؟ قالت : ثمانين سنة ، قال : فمذ كم إبتلاني الله تعالى بهذا البلاء؟ قالت : منذ سبع سنين وأشهر ، قال : ويلك والله ما عدلت ولا أنصفت ربّك ، الا صبرت في البلاء الّذي ابتلانا الله به ثمانين سنة كما كنّا في الرخاء ثمانين سنة؟ والله لئن شفاني الله عزّ وجل لأجلدنّك مائة جلدة حين أمرتني أن أذبح لغير الله»[(1)]

[44] وحينما حلف أن يضرب زوجته الوفيّة مائة جلدة ، أمره الله أن يجمع في يده مائة شمراخ من عدوق النخل ، ويضربها ضربة واحدة. ليرفع عنه حرج الحلف بالله من جهة ، وحتى لا تتأذى زوجته من جهة أخرى.

(**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ**)

---

(1) بح ج / (12) / ص (368).

يقول الامام الصادق (ع) :

«**فأخذ عدقا مشتملا على مائة شمراخ فضربها به واحدة فخرج من يمينه**» [1]

وقد استفاد الفقهاء من هذا التفسير للآية الكريمة وأحاديث أخرى حدا شرعيا قالوا فيه بأن الزاني إذا كان مريضا لا يحتمل بدنه الجلد ، فانّه يضرب مائة جلدة بهذه الطريقة ويسقط عنه الحد المتعارف. وفي الخبر أن رسول الله (ص) أتى برجل أحبن قد استسقى بطنه وبدت عروق فخذيه ، وقد زنى بامرأة مريضة ، فأمر رسول الله (ص) فأتي بعرجون فيه مائة شمراخ ، فضربه به وضربها ضربة وخلى سبيلهما [2] والحبن داء في البطن يعظم منه ويتورم.

وبعد أن أمر الله أيوب (ع) بضرب زوجته كما تقدم أداء للعهد الذي قطعه على نفسه أكد له ضرورة الوفاء بالالتزامات التي يتعهد بها المؤمن تجاه ربّه فقال :

(**وَلا تَحْنَثْ**)

أي لا تميل الى الباطل بترك الوفاء بالقسم ومخالفته ، إذ ينبغي للإنسان المؤمن أن يفي بالتزاماته وعهوده التي يقطعها مع ربّه على نفسه ، فكثير من الناس حينما يمرضون أو يتعرضون للمشاكل ، يدعون الله أن يعينهم ويرفع عنهم ذلك ، وينذرون تقربا له أن لو رفعها سيفعلون كذا وكذا من الصالحات ، ولكنهم بمجرد أن يصحوا أو تنتهي مشاكلهم يتناسون نذورهم وتعهداتهم. ثم على الإنسان أن لا يتعهد بما لا يقدر عليه ، حتى لا يلحقه الإثم بحنثه. فهذا الامام علي (ع) يأتيه رجل نذر أن

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (466).

(2) المصدر / رقم (71).

يتصدق بوزن فيل خبزا في سبيل الله ، فينهره الامام ، ويتعهد الرجل أن لا يعود لها مرّة ثانية.

وبعد ذلك يمتدح ربّنا نبيّه أيوب (ع) مركزا على أمور في شخصيته :

الاول : صبره ، حيث عرضه الله لالوان الابتلاءات فاستقام وتحمل.

(**إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً**)

الثاني : إخلاصه في العبادة وتوبته ، فلم يدعوه البلاء للكفر بالله ، ولا الى عبادة غيره من الشركاء المزيفين.

(**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**)

يأوب الى الله ويتقرب اليه كلما ازداد بلاؤه.

جاء في تفسير القمي ، حدثني أبي عن ابن فضّال ، عن عبد الله بن بحر ، عن ابن مشكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) قال : سألته عن بلية أيوب التي ابتلي بها في الدنيا لاي علّة كانت؟ قال :

«لنعمة أنعم الله عزّ وجلّ عليه بها في الدنيا وأدى شكرها ، وكان في ذلك الزمان لا يحجب إبليس عن دون العرش ، فلمّا صعد ورأى شكر نعمة أيوب (ع) حسده إبليس ، فقال : يا رب أن أيوب لم يؤد إليك شكر هذه النعمة الا لما أعطيته في الدنيا ، ولو حرمته دنياه ما أدى شكر نعمة أبدا ، فقيل له : قد سلطتك على ماله وولده ، قال : فانحدر إبليس فلم يبق له مالا ولا ولدا الا أعطبه فازداد أيوب لله شكرا وحمدا ، قال : فسلطني على زرعه يا رب ، قال : قد فعلت ، فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيوب لله شكرا وحمدا ، فقال : يا رب سلطني على

غنمه فسلطه على غنمه فأهلكها ، فازداد أيوب لله شـكرا وحمـدا ، فقـال : يا رب سـلطني على بدنه فسـلطه على بدنه ما خلا عقله وعينيه ، فنفخ فيه إبليس فصـــــار قرحة واحــدة من قرنه الى قدمه ، فبقي في ذلك دهـرا طـويلا يحمد الله ويشــكره حــتى وقع في بدنه الــدود ، فكـانت تخــرج من بدنه فيردها فيقــول لها ارجعي الى موضــعك الذي خلقك الله منه ، ونتن حتى أخرجــوه أهل القرية من القرية وألقــوه في المزبلة خــارج القرية ، وكـانت امرأته رحمة بنت يوسف بن يعقـــوب بن إســـحاق بن إبـــراهيم صلوات الله عليهم وعليها ، تتصـدق من النـاس وتأتيه بما تجده.

قـال : فلما طـال عليه البلاء ورأى إبليس صـبره أتى أصحابا لأيوب كانوا رهبانا في الجبال»

الى هنا وإبليس يلاحق أيـــوب (ع) ليخدعه بطريقة أو بأخرى. ولما عرف إبليس أنه لم يستطع التـأثير في نفس أيوب بفقد ماله وأهله وصحته ، حاول هـذه المـرّة التـأثير عليه من خلال أصدقائه ، ويبدو من خلال هـذا الحـديث أن أصدقاء السـوء أكـثر أثـرا في الإنسـان من سـائر علاقاته الأخرى.

«وقال لهم : مـرّوا بنا الى هـذا العبد المبتلى فنسـأله عن بليته فركبوا بغالا شهبا وجاؤوا ، فلما دنـوا منه نفـرت بغـــالهم من نتن ريحه ، فنظر بعضـــهم الى بعض» وقد تساءلوا عن بليّته وارتـابوا في أسـبابها ، وهـذه من طبيعة الإنسان أنه إذا رأى شخصا مبتلى اعتقد بأنه يسـتحق ذلك لما عمل من الـــذنوب ، ولكن البلاء ليس بالضـــرورة أن يكـون لهـذا السـبب ، بل قد يكـون للزيـادة في أجر العبد وتمحيصه ثم مشـوا اليه وكـان فيهم شـابّ حـدث السن فقعـدوا اليه فقـالوا : يا أيـوب لو أخبرتنا بـذنبك لعل الله كان يهلكنا إذا سألناه ، وما نرى ابتلاك بهذا البلاء الـذي لم يبتل به أحد إلا من أمر كنت تسـتره؟ فقـال أيـوب (ع) : «وعـــزة ربي إنه ليعلم أني ما أكلت طعاما الا ويـــتيم أو ضعيف يأكل معي ، وما عرض لي أمران كلاهما طاعة لله إلا أخذت

بأشدهما على بـدني ، فقـال الشـاب : سـوءة لكم عـيرتم نبي الله حتى أظهر من عبادة ربه ما كان يسترها؟»

فتألم أيوب (ع) لـذلك ، حيث رأى أقـرب النـاس إليه يشـــككون في عبادتـــه. فقـــال أيـــوب (ع) : «**يا رب لو جلست مجلس الحكم منك لأدليت بحجتي**»

يعـني لو كنت أنا القاضي ، لكنت أقـول لهم بـأنني لا أسـتحق هـذا البلاء ولـدي حجة على ذلك ، ولكن لم أقل لانني أنا العبد وأنت الربّ.

فبعث الله إليه غمامة فقـــال : يا أيـــوب أدل بحجتك فقد أقعدتك مقعد الحكم وها أنا ذا قريب ولم أزل ، فقال : يا رب انك لتعلم انه لم يعرض لي أمران قط كلاهما لك طاعة الا أخـذت بأشـدهما على نفسي ، ألم أحمـدك؟ ألم أشكرك؟ الم أسبحك؟ قال : فنـودي من الغمامة بعشـرة آلاف لسـان : يا أيـوب من صـيرك تعبد الله والنـاس عنه غافلون؟ وتحمده وتسبحه وتكـبره والنـاس عنه غـافلون؟ أتمنّ على الله بما لله فيه المنة عليك؟

قـال : فأخذ الـتراب فوضـعه في فيه ثم قـال : لك العتـبى يا رب أنت فعلت ذلك بي ، فـأنزل الله عز وجل عليه ملكا فركض برجله فخرج الماء فغسـله بـذلك المـاء فعـــاد أحسن ما كـــان وأطـــرأ ، وأنبت الله عليه روضة خضـــراء وردّ عليه أهله وماله وولـــده وزرعه ، وقعد معه الملك يحدثه ويونسه ، فأقبلت امرأته معها الكسرة (وهي القطعة من الخـــبز اليـــابس) فلما انتهت الى الموضع إذا الموضع متغـــير وإذا رجلان جالســـان ، فبكت وصـــاحت وقالت : يا أيوب ما دهاك؟ فناداها أيوب فأقبلت فلما رأته وقد رد الله عليه بدنه ونعمه سجدت لله عز وجل شكرا ، فرأى ذؤابتها مقطوعة ، وذلك أنها سألت قوما أن يعطوها ما تحمله الى أيـــوب (ع) من الطعـــام ، وكـــانت حســـنة الذوائب ، فقالوا لها : تبيعينا ذؤابتك هذه حتى نعطيك؟

فقطعتها ودفعتها إليهم ، وأخـــذت منهم طعاما لأيـــوب ، فلما رآها مقطعة الشــعر غضب وحلف عليها أن يضــربها مأة ، فأخبرته انه كان سببه كيت وكيت ، فاغتم أيوب من ذلك فأوحى الله عزّ وجلّ إليه «**خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْـرِبْ بِــهِ وَلا تَحْنَثْ**» فأخذ عــدقا مشــتملا على مائة شــمراخ فضربها ضربة واحدة فخرج من يمينه [1]

[45] وبعد أن اختتم الســياق قصة أيــوب وصــبره ، واستقامته امـام كل الضـغوط ، شـفعها بالـدعوة الى ذكر بعض الأنبياء والتفكـير في تـاريخهم لاخذ العـبر والـدروس منه ، إذ ينبغي للرســاليين أن ينظــروا في تــاريخ قــادتهم وإخوانهم الذين سبقوهم ، ويلاحظوا معاناتهم واستقامتهم لله ، فـــان ذلك يزيـــدهم ايمانا بخطهم الرســـالي ، وثقة بأنفسهم وتحركهم واستقامة على الطريق.

(**وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْـراهِيمَ وَإِسْـحاقَ وَيَعْقُـوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ**)

ما يحتاجه الإنســـان لبلــوغ التكامل القـــوة والرؤية ، فبقوته يحقق ما يــراه. ويبــدو أن ظــاهر الآية يــدل على وجود الأيدي (القوة) عند الأنبياء والأبصــار (الرؤيــة) الّا أن باطنها القـوة في الايمـان ، والبصـيرة في الـدين ، وهكـذا جاء في الحـديث المـأثور عن الامـام البـاقر عليه السـلام قال :

«**أولوا القوة في العبادة والبصر فيها**» [2]

والجـــدير بالملاحظة أن ربّنا اكتفى هنا بالـــدعوة الى تــذكر هــؤلاء العظمــاء ، دون أن يعــرض لنا مشــاهد من حياتهم نعتـبر بها ، وهكـذا في مـوارد كثـيرة من القـرآن ، وذلك لاسباب :

---

(1) المصدر / ص (466).

(2) المصدر ص (467).

الاول : أن مجـرد تـذكر الرسـالي بأنه ينتمي الى خط فيه هؤلاء العظماء الذين أسسـوا تـاريخ المجد للبشـرية ، هو أمر مفيد جـــدا ، يعطيه الايمـــان والثقة والاســـتقامة بالرغم من كل العوامل والظروف المضـادة ، إذ لا يشـعر وهو يعاني من الـرفض والحـرب بشـتى صـورها بالضـعف والوحـدة ، وهو يشـعر بانتمائه الى هـذا الخط ، والى هـذا التاريخ العظيم.

الثاني : أن القرآن وحدة واحــدة ، ويكمل بعضه بعضا ، فيمكن لقارئه أن يجد في ســورة الصــافات تفصــيل ما أشارت اليه سورة (ص) ، وهكذا بالنسبة لسائر السور مع بعضها ، وعلينا الا نكون من الذين اتخذوا القرآن عضــين ، فصارت نظـرتهم اليه نظـرة تجزيئية ، بل نسـعى لمعرفة آيات القرآن من خلال نظر شمولي إليها جميعا.

[46] ثم إن القرآن عرض أهم ما يستفاد من حيـاتهم ، لكي يؤكد بـأن القصص الـتي يوردها ليست للتسـلية أو مجرد زيادة المعرفة بالتـاريخ انما هي للتعلم والموعظـة. يقول تعالى عن إبراهيم واسحق ويعقوب :

(**إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ**)

حينما يقرأ الإنسان أو يسمع عن حياة العظمـاء ، أول ما يجب أن يتطلع الى معرفته هو سر عظمتهم ، لا لكي يعـــرف وحسب بل لكي يأخذ بأســـباب العظمة أيضا ، وسبب عظمة هؤلاء ورفعة شـأنهم ، هو الايمـان الخـالص بالآخرة وتذكرها ، الـذي كـان يزيـدهم بعـدا عن المعصـية وقربا الى الطاعة. أو ليس ربنا يقول في سورة الممتحنة : (**قَـدْ كـانَتْ لَكُمْ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْـراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَـــــهُ**) ثم تتواصل الآيـــــات الى قوله تعــــالى : (**لَقَدْ كـانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ لِمَنْ كـانَ يَرْجُـوا اللـهَ وَالْيَـوْمَ الْآخِـرَ وَمَنْ يَتَـوَلَّ فَـإِنَّ اللـهَ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**) [1]. إن العوامل الأخرى لم تتدخل في صياغة

(1) سورة الممتحنة الآيات / (3 ـ 6).

شخصـية هـؤلاء ، انما بقي ذكر الآخـرة وحـده خالصا هو الـذي يـؤثر فيهم ، فحينما آمنـوا بالله تعـالى ، وتحملـوا مسئولياتهم الرسـالية لم يتطلعـوا الى مطـامع دنيوية من خلالها ، ولو تداخلت عوامل أخرى في ذلك لم يرتقـوا الى هذه المنزلة من الإخلاص.

[47] (**وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ**)

أي اصـطفاهم الله وكـانوا من أفضل العبـاد عنـده وأخلصهم له ، لان الإخلاص نفسه على درجات.

[48] ويخلد القرآن أسماء طائفة أخرى من الأنبيـاء ، ويدعونا لذكرهم.

(**وَاذْكُرْ إِسْـماعِيلَ وَالْيَسَـعَ وَذَا الْكِفْـلِ وَكُـلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ**)

وقد يكون السبب في ضم هؤلاء الثلاثة الى بعضـهم ، وأولئك إلى بعضــهم في الآيــات المتقدمة ، هو اختلاف منزلة الفــريقين عند الله ، وأن الفريق الاول هم الأفضل وذلك بدلالتين :

1 ـ انتمــاء إبــراهيم (ع) الى المجموعة الاولى وأفضليته ظاهرة لأنه من أولي العزم.

2 ـ السياق القـرآني الـذي وصف أولئك بالمصـطفين أولا والأخيــار ثانيا ، بينما اقتصر في مــدح هــؤلاء بكلمة «الأخيار».

[49] ويؤكد القـرآن في نهاية الـدرس الـذي تختم به القصص الهدف منها ، وأهميتها لمن أراد التقوى.

(**هذا ذِكْرٌ**)

ليشـــتمل على موعظة ، ينتفع بها المؤمنـــون حيث يتأسون برسل الله. الأمر الذي يبلغ بهم الفوز والفلاح.

(**وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**)

والمآب هو المكان الذي يستقر فيه الإنسان فهو يعود اليه كلما خرج منـه. وهنا المـآب بمعـنى العاقبة والنهايـة. وفي الآية تطمين للمؤمنين بأن الأمور في صـالحهم مهما كان ظاهرها معاكسا.

[50] ويبين الله هذه العاقبة فيقول :

(**جَنَّاتِ عَدْنٍ**)

وهي أفضل الجنان وفيها الخلود ، ومـآب المتقين الى أفضل جنان الله في الآخرة.

(**مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ**)

حينما يقـدمون عليها ، والـذي يفتح أبـواب الجنة هو الايمـان والـدعاء والعمل الصـالح ، فهي مفتحة للمتقين والمؤمنين فقط لا لغيرهم ممن لم يعملوا الصالحات.

[51] (**مُتَّكِئِينَ فِيها**)

على الأرائك وهـذه دلالة على مـدى الاطمئنـان الـذي يلاقونه فيها.

(**يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ**)

جـــزاء لهم على ايمـــانهم وأعمـــالهم ، وتعويضا عما فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها في سبيل الله.

[52] ومن أعظم ما يستلذ به المؤمنون في الجنة هم الحور العين ، ولعل تركيز القرآن على ذكر الحور في حديثه عن ثواب المؤمنين ، ينطلق من أن أصعب الفتن التي يتعرضون لها في الحياة الدنيا هي فتنة الشهوة الجنسية ، ولكي يتجاوزوا إغراءها وضغطها يذكرهم الله بعاقبة ذلك ، حيث الظفر بالحوريات في الجنة.

(**وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ**)

فهن لا ينظرن الى غير أزواجهن ، وينظرن الى الأرض احتراما لأزواجهن وتواضعا. وهن أتراب اي المتماثلات سواء في السن ، أو في كونهن أبكار غير مطموثات ، ويقال فلانة ترب لفلانة إذا أريد التساوي بينهما في العمر ، وهكذا يتساوى عند المؤمن الميل الى كل واحدة دون تفضيل واحدة على الاخرى لأنهنّ جميعا القمة في الجمال والروعة.

[53] ثم أن الله يدعونا للعمل والاستقامة في سبيله ولكن بطريق غير مباشر وذلك حينما يعدنا بالجزاء المتقدم الذكر.

(**هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ**)

ولان المسافة بين هذا الثواب والإنسان تتمثل في الايمان وعمل الصالحات ، فان الآية تشتمل طبيعيا على الدعوة الى ذلك. وقد استخدم القرآن كلمة الحساب تأكيدا لهذه الحقيقة ، ولو كان الجزاء يحصل بلا عمل فلما ذا الحساب إذن؟!

[54] ويتميز نعيم الآخرة عن نعم الدنيا ، ذاتيا بالتنوع والجودة ، وزمنيا بالخلود ، فالنعمة تزداد وتتجدد دائما.

(**إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ**)

وما دام الله باق فان رزقه للمؤمنين لا ينتهي.

هـذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَـرَّ مَـآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْـلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (56) هـذا فَلْيَـذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّـاقٌ (57) وَآخَـرُ مِنْ شَـكْلِهِ أَزْواجٌ (58) هـذا فَـوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (59) قالُوا بَـلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَـرارُ (60) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هـذا فَـزِدْهُ عَـذاباً ضِـعْفاً فِي النَّارِ (61) وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْـرارِ (62) أَتَّخَـذْناهُمْ سِـخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (63) إِنَّ ذلِـكَ لَحَـقٌّ تَخاصُـمُ أَهْـلِ النَّارِ (64) قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيـــزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ

---

57 [غساق] : ما يقطر من جلود أهل النار وسمي غساقا لشدة سواده فهو يشبه ظلمة الليل ، قال تعالى : «**إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ**» إلى ظلمته.

عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) ما كـانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُـوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70)

إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ

هدى من الآيات :

الآيات القرآنية آيات مثـاني متشـابهات ، ومن معـاني هذه الكلمة انها تجري على أساس المقابلة ، الجنة والنـار ، والصـالح والمفسد ، والخـير والشر و... و... ولا يعـرف الشيء بأبعاده وحـدوده إلا بمقارنته مع أضـداده ، فالنهـار يعرف بالليل ، والحياة تعرف بالموت ، والغنى بالفقر.

ولكي يعرفنا ربنا بنعيم الجنة يحـدثنا عن عـذاب جهنم التي يستقر فيها ذوي العقائد والأعمال المناقضة لأصحاب النّعيم ، ومن خلال الآيـات الـتي وردت في كل القـرآن يتضح ان المسـافة بين العـاقبتين منعدمة تماما ، فليس ثمة منطقة أخرى بينهما ، لهذا يكفي الإنسان حتى يـدخل الجنة أن يخـرج نفسه من النـار ، وكما قـال الله : (**كُـلُّ نَفْسٍ ذائِقَـةُ الْمَـوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُـورَكُمْ يَـوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَـدْ فـازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ**) [1]

---

(1) آل عمران / 185

وهنا في هـذه السـورة وبعد أن يـبين القـرآن الحكيم أمثلة واقعية من التـــاريخ عن الـــذين أخلصـــوا لله في معتقـداتهم وأعمـالهم ، فصـاروا بـذلك قـدوة وأئمة في الصالحات ، فمنهم من صبر وتجاوز إغراء السلطة والمال كـداود وسـليمان (عليهما السـلام) ومنهم من صـبر على البلاء حـتى صـار مضـرب المثل كـأيوب (ع) فنـالوا الجنة على ذلك ، بعد ذلك كله يضرب لنا مثلا من واقع أصـحاب النار الـذين عصـوا الله ، وحـاربوا المؤمـنين ، وطغـوا في الأرض. وكما أن الأنبيـاء يشـفعون لأتبـاعهم ويـدخلونهم الجنة لا يدخل هؤلاء النار بمفردهم إنّما يجـرّون معهم كل من انتمى إليهم ، واتبع خطهم في الحياة ، وهناك يتخاصم التابع والمتبوع تخاصـما عنيفا ، يلقي من خلاله كل طـرف المسـؤولية على الطـرف الآخر ، وكـان ينبغي أن يحـدث هـذا الصـراع في الـدنيا ، بـان يتمـرد الإنسـان على أئمة الكفر ، ويثــور على الطغــاة ، أما وهو لم يفعل ذلك فلن ينفعه تخاصـمه في يـوم الحسـاب شـيئا وقد فـوّت على نفسه فرصة الاختيـار السـليم ، والعمل الصـالح في دار الابتلاء.

ان السـبب الـذي يـدعو أكـثر النـاس لأتبـاع الطغـاة ، والانســجام مع الواقع المنحـــرف الـــذي يصـــنعونه في المجتمع ليس عدم معرفتهم بخطئه ، انما لا يعارضون ولا يثــورون هربا من صـعوبات الصــراع ومسـئولياته ، وإذا استطاعوا ذلك في الدنيا فإنهم يجدون مرارة الصراع في نـــار جهنم ، حيث الظــروف القاســية ، والعــذاب الأليم المستمر.

إن ربنا يقسم في هذه الآيـات بـأن الصـراع في النـار حق ـ كما أكد ذلك في الدنيا في مواقع أخرى من القـرآن ، والتخاصم الـذي يشب لظـاه هنـاك لهو دليل على تـرك الإنسـان الالـتزام بمسـؤوليات الصـراع في هـذه الحيـاة ، والـذي لا يختـار الحق بإرادته يخضع له على الـرغم منه ، وقد تـرك هـؤلاء مكافحة الظلم ، فها هم يكافحونه هنـاك في النار.

بينات من الآيات :

[55] كما ركّــزت الآيــات في أذهاننا مشــهد الجنة وبالتــالي جــزاء المخلصــين تــذكرنا في المقابل بعاقبة الطغاة.

(**هذا**)

اسم اشارة يتضمن دعـوة للـذي يتلو القـرآن بـالنظر في عاقبة المتقين ، والتفكـير في جــزائهم ، ولكن ينبغي أن لا يغفل عما أعــدّ للظــالمين من العــذاب ، وذلك من أجل أن يحفظ توازن نفسه وعقله بين الرجاء والخوف.

(**وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**)

وتقابل هـذه الآية الآية [49] الـتي وردت في الـدرس الماضي ، فللمتقين العاقبة الحســنة عند الله ، وللطغــاة عاقبة الســوء والشر ، وليس المقصــود من الطاغية هنا السـلطان الجـائر وحـده ، وان كـان هو التجسـيد الأوضح والأشمل للطغيان ، انما جنوده وأجهزته أيضا ، إذ لـولا هم لما قدر على الظلم والفســاد ، بل لعلّنا نعمم الحكم على سـائر معـاني الطغيـان ، فكما يطغى الإنسـان في الحيـاة السياســية فانه يطغى كــذلك في الحيــاة الاجتماعية ، فيظلم جــاره وأســرته والنــاس ، ويظهر من أحــاديث مستفيضة في تفســير الآية ان المعــني بالطــاغين هم سـلاطين الجـور ، بينما المعـني بما يلي هم أتبـاعهم ومن سار على دربهم.

[56] وتفصل الآيـات في ذكر عاقبة الطغـاة ، زيـادة في التخويف لعل الإنســان يثــوب عن الباطل ، ويهتــدي للحق رغبة في الثواب ، ورهبة من العذاب.

(**جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها**)

قــال بعض الفلاســفة القــدماء ــ يتبعهم بعض الجهلة اليوم ــ : إن أهل النـار يتعـودون على عـذابها فلا يعـودون يتـأثرون به ، وجســدوا هــذه الفكــرة المنحرفة في هيكل حيوان زعموا بأنه يلتهم النار ، أما القــرآن وهو الحق فانه يخــالف هــذه الخرافة مؤكــدا بــان المجــرمين يتــذوقون العذاب ، وكلمة «يصلونها» تعني انهم تمسهم جهنّم مسا.

(**فَبِئْسَ الْمِهادُ**)

وهو المكــان الــذي يمهد ويهيّأ لهم وكــأنهم مهّــدوا لأنفسهم فراشا من النـار في جهنم ، بلى. تمهيد الأرضـية لسلطانهم تجسد في ذلك اليوم في تمهيد جهنم لهم.

[57] (**هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ**)

والحميم هو الحرارة الشـديدة ، اما الغسـاق فهو كما جــاء في بعض كتب اللغة : القيح النتن ، وفي الرواية عن الامام أبي جعفر (ع) قال :

«**الغســاق واد في جهنم فيه ثلاثمائة وثلاثــون قصـــــرا ، في كل قصر ثلاثمائة بيت ، في كل بيت أربعون زاوية ، في كل زاوية شجاع (الحية العظيمة المخيفـة) في كل شـجاع ثلاثمائة وثلاثـون عقربا ، في كل حمّة عقرب (إبرة العقرب) ثلاثمائة وثلاثون قلّة من سم ، لو أنّ عقربا منها نضـحت سـمها على أهل جهنم لوسعهم سمها**» [1]

[58] (**وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ**)

ولا يقتصر العذاب على هـذين النـوعين انما هو أنـواع وأساليب مختلفة كثيرة ،

---

(1) نور الثقلين ج 4 ص 467.

ونستوحي من هذه الآية ان أنواع العـذاب كثـيرة جـدا ، إلّا ان بعضها يتلازم مع بعض ، كما يتلازم الحميم مع الغساق ويكمّله.

[59] وبعد أن يـدخل الطغـاة النـار وينتهي كل واحد إلى موقعه الذي يضيق به ، يجـدون آخـرين من أشـباههم واتبـاعهم الـذين انخـدعوا بهم يـدخلون معهم إلى جهنم ويقال لهم.

(**هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ**)

واحتمل ان يكـون المـراد من الآخر : الفـوج الآخر ، وهم أزواج ومشـابهون للفـوج الأول ، ويكـون ذلك تمهيـدا للحديث التالي عنهم ، وهذا يتشابه وما ذكرناه في تفسير قوله تعـالى : (**احْشُـرُوا الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ**) [1]

والاقتحام هو الـدخول في الشـيء بشـدة كالمسـمار الـذي لا مكـان له في الحائط فتدخله المطرقة قسـرا ، ولأن الطغاة يتعذبون من ضيق المكان ، وأن النـار تضـيق عليهم كضيق الزج بالريح [2] كما جاء في حـديث الرسـول (ص) فـإنهم ينـادون بهم ، لهـذا وعلى خلاف ما يقوله صاحب البيت لضيفه فإنهم يقولون :

(**لا مَرْحَباً بِهِمْ**)

أي لا مكـان يسـعهم ، ولا نفس تقبل بحلـولهم ، والرحب هو المكان الوسيع ، فكـأنهم أرادوا القـول : بـأن المكان ضيق ويضيق أكثر بهم ، وعلّلوا لعنهم وسـبهم لهم بأنهم أهل جهنم ، وهل يرحب بمن سيصلى نارا؟!

---

(1) الصافات / 22

(2) نور الثقلين / ج 4 ص 467 / والزج ـ كما يبدو هو القرية

(**إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ**)

وهـذا ما يؤكـده ربنا بقوله تعـالى : (**كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها**).

[60] ويبــدأ حينئذ الصــراع العــنيف بين الطــرفين ، والـــذي ينتهي إلى التخاصم والتقاتل ، وفي الـــبين يلقي البعض المسؤولية على البعض الآخر.

(**قالُوا**)

الاتبـاع وهم يـردون على كلام الطغـاة ، حيث تتحـول التحيّة وأعراف الاستقبال إلى سباب بينهم.

(**بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ**)

لأنكم الســـــبب ومنكم الأذى والعـــــذاب ، ويواصل التابعون شجارهم مع الطغاة وهم يحاولون تبرير مـوقفهم ، والتهرب من المسؤولية.

(**أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا**)

إذ أغريتمونا باتبـاعكم ، وضـللتمونا بمختلف الوسـائل حتى صرنا إلى هذا العذاب.

(**فَبِئْسَ الْقَرارُ**)

أي سـاء المكـان الـذي نسـتقر ونثبت فيه ، ويقـال : فلان قرّر أن يفعل كذا إذا ثبت فكـره على رأي معين فهو غير متردد ، بل حاسم وقاطع في أمره.

وهذه الكلمة تدل على الخلود في النار ، وحين يكـون المنزل الأخير سيئا فساء

مصيرا.
[61] ويطلب التـابعون من الله أن يزيد العـذاب على الطغاة ، جزاء لهم على جرائمهم التي مارسوها بأنفسـهم ، وعلى المعاصي الــتي مارســها التــابعون بضــغوطهم وتضليلهم.
(**قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هـذا فَـزِدْهُ عَـذاباً ضِـعْفاً فِي النَّارِ**)
[62] ثم يلتفتون إلى بعضهم ويتساءلون لمـاذا لا نجد فلانا وفلانا ـ يقصدون بعض المؤمنين ـ في النار؟!
(**وَقــالُوا ما لَنا لا نَــرى رِجــالاً كُنَّا نَعُــدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ**)
وهناك تنكشف لهم اخطـاؤهم ، ففي البـدء اكتشـفوا ان القيـادة الـتي اتبعوها كـانت منحرفة ، والآن تـبين لهم أيضا ان مقاييســهم في الحيــاة وتقــييمهم للآخــرين هي الأخـرى كـانت خاطئة ، وكـان ينفعهم ذلك لو عرفـوه في الــدنيا وعملــوا على إصــلاح أنفســهم ، ولكنهم رفضــوا الرسالة واتبعوا الأهواء.
[63] ويــــرد أهل النــــار عــــدم رؤيتهم لمن كــــانوا يتصـورونهم أشـرارا في النـار إلى أحد سـببين ، فاما انهم صــاروا إلى الجنة وهــذا يعــني ان مقاييســهم وبالتــالي موقفهم تجاه أولئك كان خاطئا ، أو انهم موجـودون معهم ولكنهم لا يرونهم.
(**أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا**)
في الدنيا وتبين الآن سلامة خطهم.
(**أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ**)

فلا نراهم؟
ولهذا المقطع تفسير آخر هو : انهم يعنــون الله ، بأنه ربما أدخلهم الجنة غفلة واشتباها مع انهم من أهل النــار ، وتعـــالى ربنا أن يضل أو ينسى ، بل هم المخطئـــون في تقييمهم للمؤمنين.
ويبقى السـؤال : من هم أولئك الـذين تعـنيهم الآيـات في واقعنا الراهن؟
انهم الطغاة بلا ريب ، وهم حكام الجـور المتسـلطون قسرا على رقاب العباد ، والـذين يحكمـون بغـير ما أنـزل الله ، ويتجــاوزون حــدود الله ، ويــذلون عبــاد الله ، أما جنـــــودهم وأزواجهم فهم الـــــذين يتبعـــــون نهجهم ، أو يشاركونهم في ظلمهم.
أما الذين يعدونهم من الأشـرار فهم الثـائرون ضـدهم من عباد الله المخلصين ، الذين رفضـوا عبـادة غـير الله ، واتخاذ الآلهة المزيفة أربابا من دون الله رب العالمين.
ان الطغاة وجنودهم من قوى القمع ، وأبواق الضـلالة ، يكيلون التهم ضد الثائرين عليهم ، ويعتـبرونهم شـرا من اليهـود والنصـارى والمجـوس ، أرأيتم كيف يقبلـون أيـدي الأعــداء ويطبّعــون العلاقــات معهم ، ويفتحــون الأبــواب أمـامهم ، وفي المقابل يزجّـون بـالمؤمنين في السـجون الرهيبة.
ولكن هــؤلاء الــذين اعتــبروهم أشــرارا في الــدنيا يفتقــدونهم في النـــار ، ويعلمـــون أنهم هنالك في الجنة يحبرون.
وكان اتبـاع أهل بيت الرسـالة من هـؤلاء ، إذ رفضـوا سلطات الجور والقمع والضلال ، وطاردتهم قوى الإرهاب ، وألصـــقت بهم أبشع التهم ، ولكن أئمة الهـــدى من آل الرسـول (عليهم السـلام) كـانوا يسـلونهم بـأنهم سـوف يحبرون في الجنة بينما

يطلبون في النار.

يقول (ميسر) وهو أحد الثائرين ضد سلطات الجور :

دخلت على أبي عبد الله (الامام الصادق (ع)) فقال : «**كيف أصحابك**؟»

فقلت : جعلت فـداك لنحن عنـدهم أشر من اليهـود والنصارى والمجوس والذين أشركوا.

قال وكان متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال : «كيف؟»

قلت والله لنحن عنـدهم أشر من اليهـود والنصـارى والـذين أشـركوا ، فقـال : «أما والله لا يـدخل النـار منكم اثنـان ، لا والله ولا واحد انكم الـذين قـال الله عـزّ وجل : (**وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**) قال لهم طلبـوكم ـ والله ـ في النار ـ والله ـ فما وجدوا منكم أحدا» [1]

هكـذا اليـوم يتعـرض المؤمنـون الصـادقون للضـغوط ولكنهم سـوف يحـبرون في الجنة حين يتخاصم الطغـاة وجنودهم وأتباعهم في النار.

[64] بلى. هذا الصراع في النار من واقع ...

(**إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**)

[65] وانما جاءت رسالات الله لتنقذ الإنسان من هذا المصير الأسوأ.

---

(1) المصدر / ص 468.

والتخاصم من خلال دعوتها له لنبذ الآلهة المزيفة ، واتبـاع التوحيد الخـالص في الحيـاة ، فنهته عن عبـادة الطغـاة بطـاعتهم ، وعن عبـادة الأجيـال السـابقة باتبـاع سيرتها الخاطئة.

(**قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ**)

وحـتى هـذا المنـذر يجب أن لا يعبد من دون الله ولو بلغ من العظمة ما بلغ.

(**وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ**)

الذي يقهر الأعداء ويغلبهم ، ومن أبـرز شـواهد القهر ووسائله هو الموت الذي يخضع له الجميع ، فلا يقـوى أحد على دفعه عن نفسه ، ونقـرأ في دعـاء الصـباح لأمـير المؤمـنين (ع) قوله : «فيا من توحد بـالعز والبقـاء ، وقهر عباده بالموت والفناء» [1]

ولا ينحصر قهر الله في الموت وحسب بل يـدخل في تطـبيق كل حـقّ وسـنّة في الحيـاة ، ومن لا يسـتجيب لله وللحق الذي تتضـمنه رسـالاته ، وبما ينـذر به الأنبيـاء ومن يتبعهم باختيـاره وإرادته فسـوف يقهـره الله عليه بـالرغم منه ، في الدنيا إن شاء ذلك أو في الآخرة.

[66] وحتى لا يسـتبد بنا الخـوف منه تعـالى ، يـذكرنا برحمته وغفرانه.

(**رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**)

ورب الشيء هو الأرأف به ، والأحرص عليه.

[67 ـ 68] ومن العوامل النفسـية لارتكـاب الخطأ ، والوقوع في الضلالة التهاون

(1) مفاتيح الجنان ص 63

بهما ، والاسترسال فيهما ، وعـدم الجديّة في مواجهتهما ، فان الله يقول :

(**قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ* أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ**)

أي ان اعراضـــكم عن عبـــادة الله ، وتـــوجهكم إلى الشـرك أمر عظيم جـدّا ، وهل أعظم من تـرك الإنسـان رب السـماوات والأرض إلى الشـركاء المـزيفين ، ونبـذه قيم الحق الفطرية إلى الباطل والضلال؟

إذا لا يجـوز أن يسـتهين الإنسـان بالشـرك ويسترسل معه ، وإلى أين ينحدر به مهوى الشرك؟

الى الجحيم ، وهل يمكن أن نستهين بعذابه الخالد؟

وحين يكون الإنسان جدّيا في مواجهة الشرك يعــرف معانيه ، ويتبصر مهالكه ، أو ليس الخـــروج عن ولاية أئمة الهـدى إلى ولاية أئمة الكفـرة والضـلالة شـركا ، أو ليس أتباع الظلمة أو حتى السكوت عنهم شركا عظيما ، هكــذا روينا عن الامـام الصـادق (ع) انه قـال في تفسـير الآية : الذين أوتوا العلم الأئمة ، النبأ : الإمامة [1]

(**ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ**)

[69] ويؤكد ربنا على أهمية التوحيد ، وأنه محـــــــور الحـوار الـذي دار في الملأ الأعلى حين خلق الله الإنسـان الأول ، واسجد له ملائكته ، ورفض إبليس السجود تكبّرا ، وبالتالي انه هدف خلق البشر ، وحكمة سجود الملائكة له ، فكيف يجوز التهاون

(1) تفسير نور الثقلين ج 4 / ص 469

فيه؟!

[70] (**إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**)

ان دور الرسول (ص) هو الإنذار بوضوح ، ومسئوليته إبلاغ الرسالة إلى الناس كما هي بالضبط ، وفي هذا تمهيد للحديث الذي سيتطرق له الدرس القادم حول قضية آدم وإبليس ، التي تمثل جانبا من الغيب ، حيث يحتاج التسليم لما يقوله الرسول فيها لهذه المعرفة بدور الرسول ، ذلك أن الجدل الذي دار عند خلق الإنسان في الملأ الأعلى بين الملائكة وربهم ـ سبحانه وتعالى ـ كان حول حكمة خلق الإنسان الذي يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء ، ولكن ربنا قال لهم يومئذ : (**إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ**) وكان من علم الله انبعاث الرسل ، وايمان فريق من الناس بهم ، وخلوصهم في عبادة ربهم ، برغم عواصف الشهوة ، ونوازع الكبر والغفلة ، وضغوط الطغاة ، مما جعل هذا الفريق هم صفوة الخلق الذين باهى بهم الله ملائكته المقربين.

وهكذا نقرأ في النصوص الاسلامية : ان ما اختصم به في الملإ الأعلى الأعمال الصالحة التي بادر إليها المخلصون من البشر ، فعن ابن عباس عن النبي (ص) قال : «قال لي ربي أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت : لا ، قال : اختصموا في الكفّارات والدّرجات ، فأمّا الكفّارات فإسباغ الوضوء في السبرات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وأما الدرجات فإفشاء السلام ، وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام» [1]

---

(1) المصدر ص 470.

وتضيف رواية ثانية عن النبي (ص) : «وولايـتي وولاية أهل بيتي حتى الممات» [1]

وإذا تدبرنا في سياق الآيـات لعرفنا أن أعظم أهـداف خلق البشر هو توحيد الله ، ولا يتحقق توحيد العبد ربه إلّا بالتســــــليم لولاية الله وولاية من عقد الله له الولاية ، ورفض الأنداد والآلهة الـتي تعبد من دون الله ، أما مجـرد الصـلاة دون التسـليم للقيـادة الشـرعية فإنها فارغة عن جوهر العبادة. أرأيت الطغـاة يمنعـون عن الصـلاة؟ كلا ... بل ترى بعضهم يبادر إلى بناء المساجد ، وإقامة الصلوات الحاشدة فيها ، ولكنهم يتكـبرون في الأرض بغـير الحـقّ ، فهل تشـفع لهم صـلاتهم هـذه؟ كلا .. لأنهم ينـازعون الله رداءه ، ويغتصـــبون الولاية الالهية ويـــدعون النـــاس إلى عبادتهم من دون الله.

(1) المصدر.

إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (71) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (74) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (75) قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (78) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ

---

77 [رجيم] : طريد مبعّد.

مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُـوَ إِلاَّ ذِكْـرٌ لِلْعـالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88))

فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

هدى من الآيات :

في الدرس الأخير من السـورة وكعـادة القـرآن يؤكد السياق على الموضوع الاساسي فيها ، وذلك ضـمن بيـان ما جرى بين رب العـالمين والملائكة ثمّ بينه وبين إبليس ، ومغزاه الكشف عن طبيعة الإنسـان ، والأسـباب الحقيقية الـتي ترديه ، فـاذا به وقد كرّمه الله على كثـير من الخلق ينتهي إلى أسوأ مصير.

في بداية السـورة أكد ربنا على دور العـزة والشـقاق في ضــلال الكفــار ، حيث يغــترون بما لــديهم من قــوة ظاهرية ، فيســتكبرون على الحق ويشــقون عصا الطاعة لله ـ عز وجل ــ بينما نجد في مقـابلهم أنبيـاء الله (عليهم السـلام) فهم بـالرغم من الدرجة المعنوية الـتي أعطيت لهم (النبوة) وما أوتي بعضهم من القـوة والملك ، إلّا انهم في أعلى درجات التوبة والانابة إلى ربهم.

وفي نهاية هذه السورة المباركة يـبيّن الله لنا صـورة أخرى لهذه المقابلة جرت في

الملأ الأعلى ، فـــــالعزة بالباطل عند إبليس عليه اللعنة ، الذي اعتز بعنصره ، ورفض الخضـوع لله في قضـية ، آدم من بين كلّ الملائكة ، وبرّر ذلك بأنه وهو المخلوق من نار السـموم أفضل من آدم الطيـني فكيف يسـجد لـه؟ ولكن من قـال : ان الافضـلية للطين؟ ثم لو افترضـنا ذلك فهل هذا مبرر لمعصية رب العالمين واختيـار العاقبة السـوأى؟ بـالطبع كلا ... ولكن إبليس اختـار العـزة بالباطل متمثلة في العنصرية ، ثم راح يغوي الإنسـان ويضـله ليكـون معه في غضب الله وناره.

وفي المشهد الآخر من الصـورة نجد ملائكة الله على جلالة قـــدرهم يخـــرّون ســـاجدين لآدم تعبـــدا لله وطاعة وتسليما ، ويوصل القرآن بينهم وبين عباد الله المخلصـين الذين لم يسمحوا لإبليس أن يغويهم.

ولأن سـورة «ص» تتشـابه وسـورة «الصـافات» في نفي الوهية الملائكة والأنبيــاء ، فانها تنتهي ببيــان ســجود الملائكة لآدم (ع) الــذي خلق من طين والــذي يتعـــرض لإغـــواء إبليس ، وكيف يكـــون إلها من يســـجد لغـــيره أو يتعرض لإغواء الشيطان؟!

بينات من الآيات :

[71] لما بـدا لله تعـالى خلق آدم أطلع الملائكة على هذه الإرادة.

(**إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ**)

والخطاب هنا يشمل حـتى إبليس ، لأنه قد رفع جـزاء لعبادته لله إلى مقـــام الملائكة ، فملائكته الـــتي يشـــمله (إبليس) بموجبها الأمر بالسجود ـ اعتبارية لا ذاتية ـ ويبـدو ان متعلق قوله : (**إِذْ قـالَ رَبُّكَ**) هو قوله في آية سـابقة (**... إِذْ يَخْتَصِمُونَ**).

وبما أن أصل خلق البشر طين فلا يجــوز أن يتفــاخر النــاس على بعضــهم ، كما لا ينبغي أن يفتخر أحد بنفسه وهل لمن أصـله الطين فخـر؟! والطين عنـدنا نحن البشر من أرذل العناصر وأقلها قيمة واعتبــارا ، والنـــاس جميعا خلقوا من طين فلا يجـوز أن يتخذ بعضـهم بعضا أربابا من دون الله كالسلاطين ، ولا أن يصبغ البعض صـبغة الألوهية على بعض كما فعل النصارى بابن مريم (عليهما السلام).

[72] ولم يطلع ربنا الملائكة على ما بـــدا له لمجــرد اضافة معلومة جديدة إليهم بل ليأمرهم بالسجود له (ع).

(**فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**)

وقد اتصل الأمر بالسجود بحالة التسـوية ونفخ الـروح عند البشر ، وهي حسب الظاهر كمـال الخلق مما يـوحي بـأن سـجود الملائكة (الـذي يـدل ــ ضـمنا ــ على تسـخير الطبيعة الموكل بها ملائكة الله) [1] يتعلق بكمال الإنسان ، فكلما رقى البشر معارج العلم والإرادة والإيمان والتقـوى كلما سخرت له الخليقة أكثر فأكثر. أرأيت كيف سخر الله لداود الجبال والطير ولسليمان الريح؟

ويوحي نفخ الروح من الله في الإنسان وقبل السجود له تخصص البشر بميزات لا توجد في سائر الأحياء ، ويبدو أن الـروح هنا هي العقل الـذي قـال عنه ربنا سـبحانه في آية أخرى : (**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الـرُّوحِ قُـلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي**) [2]

(**فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ**)

وهكـذا أسس ربنا في حيـاة البشر مبـدأ السـجود لله عبر الخضوع والتسليم لخلفائه

(1) راجع تفسير سورة البقرة آية (34).
(2) الإسراء / (85).

في الأرض ، وهـــــــؤلاء الملائكة وهم من أعز خلق الله أســــــــجدهم لمن نفخ فيه من روحه وجعله خليفته في الأرض.

[73] وحيث أمر الله بالســجود لآدم اســتجاب جميع الملائكة ايمانا منهم بوجــوب التســليم المطلق له ــ عــزّ وجل ـ وأن أيّ اجتهاد أو قياس مقابل أمره باطل ولا يرفع المسؤولية عن صاحبه.

(**فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ**)

وكـــان يكفي أن تنتهي الآية إلى هـــذا الحد لتـــبيّن المطلوب ، ولكن ربنا أضاف تأكيدا لذلك قائلا :

(**أَجْمَعُونَ**)

وانما كـانت عظمة الملائكة بخضـوعهم لله ولمن أمر الله بالخضوع له.

[74] ثم اســتثنى ربنا من الســاجدين إبليس الــذي استكبر واستبدت به العزة والكبرياء ، فشق عصا الطاعة.

(**إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ**)

لقد كان إبليس يسجد لله سجدات طويلة لعل بعضها يمتد أربعة آلاف عام ، وقد اقترح على الله بـأن يسـجد له سجدة مطولة بدل سجوده لحظات لآدم ، فـرفض طلبـه. لماذا هذا الاقتراح؟ ولماذا الرفض؟

أولا : الســجود لآدم بــأمر الله ـــ ذلك الطين اللازب الذي يحتقره إبليس ـ هو معيار الخضـوع لله وليس مجـرد الوقوع على الأرض باسم السجود لله ، ولعل صاحبه

يكرّس ذاتياته بذلك ، وانما يفعل ما يفعل رياء ، ولا يزيـده الا عجبا.

وهكـذا نحن البشر لا تنفعنا عامة الصـلاة والصـيام ان لم نسلم لمن أمر الله بالتسـليم له من خلفائه في الأرض ، وهكـذا كـانت الولاية سـنم الـدّين ، وعمـود الشـريعة ، وأعظم ما في مـيزان العبد يـوم القيامة لأنها في الحقيقة هي التوحيد الخالص.

ثانيا : حين لم يسـجد إبليس لآدم اعتـبر مسـتكبرا ، والحق بالكفـار بـالرغم من انه كـان يـؤمن بالله ، ولكن ايمانه لم يبلغ درجة التوحيد إذ أنه كـان يـؤمن قبلئذ بذاته وبعنصره الناري ، فلم ينفعه الإيمـان ولا سـجداته الطويلة شيئا.

[75] فسأله رب العالمين :

(**قـالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَـكَ أَنْ تَسْـجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَ**)

وللمفسـرين في كلمة «بيـدي» تفاسـير عديـدة اما التفسير الأقرب للسياق ـ في نظري ـ انها القـدرة ، وإنما أضاف «بيدي» لأنه سبحانه لا يملك يمينا ولا شمالا أو كما

في الحـــديث : «وكلتا يديه يمين» وفي حـــديث عن الامام الرضا (ع) :

«**يعني بقدرتي وقوتي**» [1]

وتعبـير اليـدين كناية عن تمـام القـوة والقـدرة الـتي تجلت من خلق آدم.

(**أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ**)

هل كـان السـبب انك تكـبرت لمجـرد الاستكبار ومن دون سبب واقعي ، أم أنك

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (472).

فعلا تجد نفسك جديرا بعدم السجود ، وفوق أوامر الله.
وقـال البعض أن معنـاه : هل اسـتكبرت الآن أم كنت أبدا من العالين.
[76] ان عــدم سـجود إبليس كـان لاسـتكباره ، والا فجـــوهره لا يتمـــيز عن آدم فهو مخلـــوق مثله ، ولا يحق للمخلوق ان يرفض امر الخـالق ، ولكن إبليس رأى نفسه متميّـــزا ، وســـبب ذلك أنه اتبع المقـــاييس الشـــيئية لا المقاييس القيمية فانتهى إلى افضـلية النـار على الطين ، واعتز بعنصـره وذاته ، فـرفض السـجود لآدم والطاعة لله سبحانه ، وهذا يدل على بطلان القيـاس عموما ، ذلك لأن قيمة أي شيء ليست بذاته بل بما يضفي عليه الــرب من قيمة واعتبــار ، فالصــلاة معــراج المــؤمن لأن الله جعلها كذلك ، والحج جهاد الضعفاء لأن الله شرع ذلك ، والأنبيـاء خلفاء الله لأن الله حمّلهم رسالاته وجعلهم أئمة وهداة.
ولا يعرف تشريع الله الا من عنــده اما البشر فإنه إذا أراد أن يتشــبث بالقيــاس فســوف يهبط إلى مســتوى مقاييسه الشـيئية فهـذا إبليس بـرغم علمه وعبادته هـوى إلى أسفل السافلين حين ترك قيمة التوحيد إلى الشرك ، ومقيـاس امر الله إلى مقيـاس خلق الله ، ولم يعـرف ان عظمة خلق الله انما هي بأمر الله ، فالنار كنار لا تعدو ان تكـــون خلقا خلقها الله بـــأمره ، وأركز فيها خصـــائص وميزات من الحرارة والاضـاءة ، وان شـاء الله أعـدمها أو اعــدم حرارتها ، كما فعل لإبــراهيم (ع) ، أو أزال ضــوءها كنــار جهنم ، إذن الشــيء كشــيء لا قيمة له ، انما قيمته باعتبـــار أمر الله ، وهــذا هو الســـبب الجـــوهري لبطلان القياس في الدين ، والحاجة إلى الرسل.
(**قالَ**) وهو يبرر موقفه المنحرف.

(**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ**)

فهو أفضل من آدم (ع) لا بالعمل الصـــــالح والطاعة والعبادة المخلصة بل بعنصره الناري.

(**خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**)

ان المهم في الخلقة ليس المخلـــــوق بذاته ، بل ما يعطيه الخـالق له من قيمة ومنزلة ، وما دام الـرب واحد فان قيمة المخلـوقين من الناحية الجوهرية واحـدة ، وانما يتفاضلون بما يحدده الرب من مقـاييس للتفاضل ، وليس ثمة قيمة عند الله لأحد بذاته ، انما تقواه وعمله الصالح.

جاء في نهج البلاغة :

«الحمد لله الـــذي لبس العز والكبريـــاء واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما حمى وحرما على غـــــيره ، واصـــطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما في عبـاده ، ثم اختـبر بـذلك ملائكته المقـربين ليمـيز المتواضعين منهم من المستكبرين ، فقال سـبحانه ـ وهو العالم بمضـمرات القلـوب ومحجوبـات الغيـوب ـ : (**إِنِّي خالِقٌ بَشَـراً مِنْ طِينٍ فَـإِذا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُـوا لَـهُ سـاجِدِينَ فَسَـجَدَ الْمَلائِكَـةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ**) اعترضته الحميّة ، فـافتخر على آدم بخلقه ، وتعصب عليه لأصله ، فعدوّ الله امـام المتعصـبين وسلف المستكبرين الـذي وضع أسـاس العصـبية ، ونـازع الله رداء الجبرية ، وادّرع لبـــاس التعـــزز ، وخلع قنـــاع التذلل. الا ترون كيف صغّره الله بتكبره ، ووضـعه بترفعه ، فجعله في الدنيا مدحورا ، وأعد له في الآخـرة سـعيرا ، ولو أراد الله سبحانه أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه ، ويبهر العقول رواؤه ، وطيب يأخذ الأنفـاس عرفه ، لفعـــل. ولو فعل لظلتّ له الأعنـــاق خاضـــعة ، ولخفّت البلوى فيه على الملائكة ،

ولكن الله ســبحانه ابتلى خلقه ببعض ما يجهلــون أصـــله تميــيزا بالاختبــار لهم ، ونفيا للاســتكبار عنهم ، وابعــادا للخيلاء منهم ، فـاعتبروا بما كـان من فعل الله بـإبليس إذ أحبط عمله الطويل ، وجهــده الجهيد ، وكــان قد عبد الله ستة آلاف سـنة ، لا يـدرى أمن سـنيّ الـدنيا أم من سـني الآخرة عن كبر سـاعة واحــدة ، فمن ذا بعد إبليس يسـلم على الله بمثل معصيته. كلا ... ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشـرا بـأمر أخــرج به منها ملكا ، ان حكمه في أهل الســــماء وأهل الأرض لواحد ، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرّمه الله على العالمين» [1]

ان انحراف إبليس لم يكن بجبر من الله انما باختياره هو نفسه ، ومن الحوار الذي جرى بين الله وبينه يتبين انه تعالى أراد هدايته فقد أكـثر القــول له ، وهـذا أسـاس في القرآن والرسالات الإلهية الاخرى ، لأن الفلسفات الاخرى القديمة والحديثة كلها تعتقد بالجبر ، وان الشر من الله ـــ تعـالى عما يصـفون ــ أو من اله معـارض له في الـرأي ، مسـاو له في القــوة ، وهـذه الثنائية موجــودة بصــورة أو بأخرى في كل الفلسفات كالفلسفة الشيوعية التي تؤمن بثنائية الحتمية التاريخية ، أو كفلسفة (فرويد) الــتي تعتقد بالثنائية الجنســية ... إلخ ، وقد تســربت هــذه الفلســفة المنحرفة الى كثـير من كتب الـديانات ولكن هـذه الآيـات وأخــرى كثـيرة تلتقي معها في الموضــوع تـبيّن أن إبليس كان حرّا في اطار قضاء الله وقدره ، فهو غـير قـادر على مقاومة الإرادة الالهية إذا أراد الله ذلك ، لكنها من جــانب آخر تؤكد بأنه تعالى لم يجبره على المعصية والانحــراف ، بل أعطــــاه المهلة وحـــاوره في الأمر اقامة للحجة لعله يهتدي للحق سبيلا.

[77 ـ 78] فلما رفض وأصرّ على معصـيته واعـتزازه الباطل بعنصــريه ، طــرده الله من رحمته ، واســترد منه الاعتبار الذي وهبه له من قبل.

---

(1) نهج البلاغة / خ (191) / ص (285).

(**قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**)

والرجيم هو المطرود الـذي لا أمل في رجعته ، وربما لو كـان ثمة احتمـال لعـودة إبليس للحق لما أخرجه الله من رحمته ، وأمهله أكثر مما أمهله.

وفي القـرآن آية تشـير الى الحكمة الالهية الـتي مر ذكرها ، يقول تعالى في معرض حديثه عن عصيانه إبليس : (**وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**) [1]

والآية تشير الى انه كان جنّيا ولكنه استطاع الوصـول الى مقـــام الملائكة ، وذلك بعبادته وســعيه ـــ كما في الروايـات ـــ ثم تشـير الى تردّيه ومسـيرته التنازلية وان ســـببها المعصـــية لله ، وتأكد الآية على كونه من الجنّ يهـدف تأكيد حريته واختيـاره ، وكيف أنه علا الى مقـام الملائكة بعمله ثم أهبط بسوء اختياره.

وهذه الآية من سـورة «ص» والـتي تليها تبيّنـان جانبا من العقوبات التي فرضها الله على إبليس وهي :

أولا : سـحب المزايا والاعتبـارات الـتي حصل عليه بعبادته كدخوله الجنة ، واعتبـاره من الملائكة ، وشـمول رحمة الله الخاصة له.

ثانيا : رجمه من قبل الله ، والرجم هو الطرد الـذي لا سبيل للعـودة بعـده ـ كما مـرّ آنفا ـ فهو مبعد عن سـائر الخلق ، ومعنى ذلك انهم لا يتفـاعلون معه ، وهـذه حقيقة علمية يشرحها القرآن بعبارات بسيطة جدا ، يفهمها حـتى الطفل المميّز ، لأن هـدف الآيـات هو هداية الإنسـان الى الحق التي لا تتحقق بالعبارات الغليظة المعقدة

---

(1) الكهف / (50).

التي لو استخدمها في القرآن لكان لطبقة معينة ، وهذه الحقيقة العلمية تتمثل في إن عالم المخلوقات يتفاعل مع الحق ويتعاون معه ، أما الشر والباطل فهو شذوذ وشقاق عن مسيرته ، وحيث طرد إبليس ـ وهو رمز الشرك ـ بالرجم فانه لا يكون معه ما في السماء والأرض وما بينهما. إن الأصل في الخلائق الخير لا الشر ، والذي يطيع إبليس فانما يطيع عنصراً ضعيفا ، والقرآن يصرح بهذه الحقيقة عند ما يقول : (**الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً**) [1] ومن هذا المنطلق جاءت حتمية الانتصار للمؤمنين الصادقين على أعدائهم ، ولهذا أيضا قال ربنا في مطلع السورة : (**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ**) وقد فسرنا ذلك بأن الذي يخالف مسيرة الكون هم الكفار الذين ينحرفون عن فطرتهم فهم هالكون ، وقد حذرهم الله في هذه السورة من ذلك ، وقال : (**كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ**).

كما أكد مخالفة الطبيعة لمسيرتهم ، وهزيمتهم الحتمية بقوله : (**أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ**)

ثالثا : الحاق اللعنة به الى يوم الدين من قبل الله سبحانه ، واللعنة تعبير عن عدم الرضا بشخص الملعون وعمله.

وهي تعني أولا : عدم شرعية أعمال إبليس واتباعه مهما أخذت أحجاما كبيرة على الطبيعة مؤقتا ، وتعني ثانيا : ملاحقة الشيطان وأتباعه بالعذاب ، وبالخذلان ، وإحباط العمل.

---

(1) النساء / (76).

(**وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ**)

وفي يــوم الــدين يكــون الحكم خالصا للقيم ، وتنتهي فيه كل السلطات والحاكميات الأخرى بإرادة الله ، وهناك يعـــنى الحكم بعـــذاب إبليس وتتجلّى اللعنة عليه بأوسع معانيها.

[79] وحيث حبطت أعمــال إبليس ولاحقته اللّعنــات عرض على الله طلبا.

(**قالَ رَبِ**) ما دمت خسرت الآخرة ، وحبط عملي.

(**فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**)

لعله طلب ذلك في مقابل أعماله وعباداته الـتي قـام بها أن يطيل الله عمره ، ويمهله إلى يوم البعث.

[80 ـ 81] فاســتجاب الله طلبه ولكنه لم يحــدد له موعدا معينا.

(**قــالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَــرِينَ* إِلى يَــوْمِ الْــوَقْتِ الْمَعْلُومِ**)

وقد اختلفت آراء المفسرين حـول المـدة المعينة إلى قولين رئيسين :

الاول : أن إنظار إبليس يمتد إلى يوم القيامة.

الثانية : انه ينظر إلى يوم ظهور الحجة (عج)ـ

وربما لم يعلم الله إبليس بســاعة معينة للمهلة الــتي أعطاها إيــاه لكي يســلبه الاطمئنــان ، ولعل هنــاك حكمة أخرى لعدم إعطاء الرب موعدا محددا لنهاية إبليس

تتجلي في إعطــاء الــرب قــدرة محاربة الشر ، واقتلاع شـــأفته للبشر ، حيث وهب لهم امكانية القضـــاء على إبليس نهائيا في اليوم المعلوم ، وربما تلتقي هذه الحكمة مع ظهور الامام الحجة (ع) وظهور الحق على يديه ـ بإذن الله ـ حيث انه بدوره يعتمد في جانب منه على ارادة أهل الحق والله العالم.

[82 ـ 83] وعنـدها استشـاط اللعين غضـبا ، اقسم بعـزة الله على إغـواء أبنـاء آدم ، وإذ يقسم بعـزة الـرب فهـــذا دليل على ان معصـــيته لم تكن عن جهل بعظمته وقدرته تعالى ، انما مارسها عن وعي وعناد.

(**قـالَ فَبِعِزَّتِـكَ لَأُغْـوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبـادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**)

والنـاس امـام إغـواء الشـيطان على ثلاثة أصـناف : فمنهم من يحيط به ، ويســتجيب له في كل شــيء وهم المشــركون والكــافرون ، ومنهم ممن تكــون مســيرتهم العامة في الحياة سليمة ولكنهم يخضعون له ، ويضـعفون أمامه بعض الأحيــان وهم أصــحاب الــدرجات العادية من الايمــان ، ومنهم من لا يقــدر على تحــريفهم أبــدا وهم المخلصون الذين تمحّضوا في الإيمان كالأنبيـاء والأوليـاء ، والذي يحدد انتماء الإنسان لاي من هـذه الفـرق هو مـدى إيمانه وعمله وإرادته ، وهذا الاسـتثناء من إبليس اعـتراف واضح بإرادة الإنسان ، ونسف لجميع الحتميات المزعومة ، لأن ضغوط الشـيطان واغراءاته مع ذلك يسـتطيع البشر مقاومتها وقهرها بإرادته.

وهـــذه هي الفكـــرة المركزية في ســـورتي «ص والصافات» إذ تؤكد السورتان : ان من بين عباد الله عباد خلصوا لله من كل العلاقات المادية والشركية ، فلا سـبيل للشيطان عليهم.

[84 ـ 85] وفي مقابل قسم إبليس بــإغواء العبــاد قطع الله على نفسه عهدا ان

يدخله ومن تبعه جهنم ، وان يملأها منهم.

(**قالَ فَالْحَقُ**)

ان الجـزاء حق اولا لأنه يجـري أسـاس سـنة الجـزاء العادل المنسجمة مع سـنن الله في الحكمة في الخليقة ، وثانيا لأنه واقع لا ريب فيه.

ثم أكد هذا التعهد بجملة تأكيدية ، وقال :

(**وَالْحَقَّ أَقُولُ**)

بلى. كلام الـرب تعبـير دقيق عن حقـائق الخليقة بلا أدنى اختلاف.

(**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**)

ولا تعني هذه الآية ان الله يدخل العباد إلى النار جـبرا ، إنما هم الـــذين يختـــارون طريق الباطل المنتهي إليها ، وانما أشـار الله إلى كـثرة من يـدخلها لعلمه الـذي أحـاط بالمستقبل احاطة تامة ، وفي القرآن تتكـرر الآيـات الـتي تشـــبه هـــذه الآية ، ومع ذلك يبعد الكثـــير منا عن نفسه التهمة فيعتقد ان النـــار خلقت للآخـــرين ، بينما يؤكد الله على امتلاء جهنم بالعاصين حتى لا يصيبنا الغـرور والعجب بإيماننا وأعمالنا فنتوقف أو نتـواني في عمل الصـالحات ، وحتى نظلّ نسـعى جهـدنا لإنقـاذ أنفسـنا من جهنم بـدافع الخـوف من الخـزي والعـذاب يـوم القيامة ، وقد ورد في تفسير الآية الكريمة : (**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كـانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا**) [1]

عن أئمة الهـــدى (ع) ان كل العبـــاد يمـــرون فـــوق الصـــراط الـــذي ينصـــبه الله على النـــار ، ولا يجـــوزه الا المخلصون ، اما من تمحض في الكفر والشرك فانه يخلد فيها أبدا

---

(1) مريم / (71).

ويبقى الذين عندهم بعض المعاصي والـذنوب ، فيها فـترة يطهرون منها بالعذاب وكل يلبث فيها بقدر انحرافه.

ولو بحثنا في الأسباب التي تؤدي بالإنسـان إلى جهنم لوجدناها كثيرة جدّا ، وعلينا باليقظة الشـديدة حـتى نتّقيها ، ونتقي بذلك نار جهنم.

[86] والملاحظ في هـذه السـورة المباركة وبالـذات عند الحديث عن قصة إبليس ، وهكذا في كثير من مـوارد القـرآن تكـرار الابتـداء بفعل الأمر «قـل» ولعل ذلك للأسباب التالية :

الاول : لكي يتأكد لنا بـأن القـرآن ليس من عند الرسـول ، وانما هو واسـطة بين الله وعبـاده ، ودوره بالنسبة إلى الآيـات ينحصر في قراءتها على النـاس ، فهو ليس بمفتر ولا بإله ، انما هو مبلغ لرسالات ربه.

الثاني : يتركز هذا الأسلوب عند الحديث عن الأشـياء الغيبية كقصة السـجود لآدم (ع) والـتي وردت في هـذه السورة ، وذلك لكي لا يعتقد الناس بأنها ضرب من الوهم والخرافة ، أو أنها مجـرد تصـورات إنسـان مثلهم محـدود العلم فلا يصدقوها.

ولهذا أيضا قـدم قـول الرسـول بـأمر من الله ، حيث أراد الحديث عما جرى في الملأ الأعلى (**ما كـانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِـمُونَ**) ثم أكّد أن ما سـوف أقوله لكم عن الغيب هو من عند الله «**إِنْ يُـوحى إِلَيَ**» ثم بـدأ الحـديث عن الغيب ، وضـمّنه في مطلع كل آية ـ تقريبا ـ ما يدل على نزوله من الله وهو فعل «قل».

الثالث : ان الأمر بالإعلان عن شيء بصيغة (قـل) آكد من بيانه للعلم. أفلا ترى ان قوله سبحانه : (**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**) أشد تأكيدا من قول : (**هُـوَ اللـهُ أَحَـدٌ**) ذلك لأن من يعلم شـيئا قد لا يكلف نفسه أمر الانصـياع له أو إبلاغه للآخرين ،

بخلاف ما لو قيل له (قـل) فانه يعـني الالـتزام بما يقوله ، بالاضافة إلى بيانه وتحدي الآخرين به.

وهكـذا نجد القـرآن هنا يـأمر الرسـول بـالإعلان عن تجرد دعوته من المطامع المادية ، وانه لا يطالبهم بأجر.

(**قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**)

وانما يـــدعوهم إلى الحق ، وهــــذا الإعلان يعكس شخصـيته الرسـول الـتي تشـهد بصـدقه ، كما انه يعتـبر التزاما ادبيّا أمـام النـاس بعـدم المطالبة بـأجر ، ثم أمـره ببيان أبرز صفاته الحسنى وقال :

(**وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**)

ولماذا يتكلف صاحب الحق وهو يحمل للنـاس رسـالة تتفق مع فطرتهم ، وتؤيـدها عقـولهم وجميع سـنن الحيـاة وقوانينها لأنها رسالة رب العالمين ، بلى. ان الـذي يحتـاج الى التكلف هو صـــاحب الباطل ، لأن ما يـــأتي به ليس سـوى شـذوذ يرفضه كل ما في الحيـاة ، وتأبـاه النفـوس بفطرتها ، فلكي يخدع الناس به لا بد أن يتكلف ، ويتوسل بأسـاليب ملتوية ، وكمثـال على ذلك الكـاذب ، فانه وهو يريد الحـديث عن شـيء غـير واقعي لا يصـدّقه النـاس يضـطر إلى زخرفة الكلام ، والحلف بـاليمين المتكـررة ، اما الصادق فهو واضح في كلامه مطمئن في نفسه.

وحياة الرسول تشهد بانسـيابه مع الحقـائق بـالفطرة النقية ، والصــراحة البالغة ، والبصـــيرة النافـــذة ، فلا يستعجل أمر ربه ، ولا يتكلف حكما ما انزل الله به قرآنا ، ولا يجبر الله على شيء لم يبلغوا مستواه ، ولا ينازع أحدا حقّه أو سـلطانه ، ولا يجـزع ، ولا يهلع ، ولا يسـتأثر ، ولا يتصنع ، ولا يغلّ ، ولا يغش ، ولا يطلب سوى صراح

الحق ، وواضح الرأي.

وفي النصـوص الاسـلامية بيـان لصـفات المتكلفين ، فعن الامام الصادق (ع) انه قال

«المتكلف يخطئ وان أصـــاب (فهو إن أصـــاب في غايته ومحتوى كلامه إلّا أنه مخطئ في منهجه أو العكس) والمتكلف لا يسـتحلب في عاقبة أمـره إلّا الهـوان ، وفي الوقت الا التعب والعناء والشقاء (لأنه يتحرك خلاف سـنة الحيـاة) والمتكلف ظـاهره ريـاء وباطنه نفـاق ، وهما جناحان بهما يطير المتكلف ، وليس في الجملة من أخلاق الصالحين ، ولا من شعار المتقين ، والمتكلف في اي باب كان قال الله تعالى لنبيه (وتلى الآية)» [1]

وقال الرسول الأكرم (ص) :

«للمتكلف ثلاث علامـــات ، ينـــازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا يعلم» [2]

وعن أمير المؤمنين (ع) انه قال :

«ان المســلمين قـــالوا لرســول الله (ص) لو أكـرهت يا رسـول الله من قـدرت عليه من النـاس على الإسلام لكثر عددنا وقوينا على عـدونا ، فقـال رسول الله (ص) : ما كنت لألقى الله ــ عـزّ وجـلّ ــ ببدعة لم يحـــدث إليّ فيها شـــيئا وما انا من المتكلفين» [3]

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (473).

(2) المصدر.

(3) المصدر.

[87] وتعـرف الرسـالة بالرسـول الـداعي إليها ، فهو الصـادق الأمين ، الــذي لا يطلب أجــرا ولا يتكلّف أمــرا ، وتعرف الرسالة أيضا بمحتواها ، كما يعرف الرسول بمثل تلك الرسالة.

ومن أبرز علامات الصدق في رسالة الإسلام عالميتها فهي تتجــاوز الحــدود والأطر لتكــون لجميع النــاس ، فلا عشــــائرية ، ولا عنصــــرية ، ولا قومية ، ولا طبقية ، ولا اقليمية ، ولا ... ، بلى. ان ما نــزل من عند رب العــالمين يكـــون لكل العـــالمين ، اما ما انبعث من فكر الإنســـان المحدود فهو محدود بحدود ذلك الإنسان.

(**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ**)

والإنســـان في كل مكــان وزمـــان فطرته واحـــدة ، والقــرآن يشــير إلى هــذه الفطــرة بما تنطــوي عليه من تسليم واعتقاد بالحقـائق الـتي تشـتمل عليها ، وذلك عـبر التذكير.

[88] وإذا لم يتذكر البشر ويصدق بما جاء به القــرآن فهو قد طمس فطرته ، وعطل عقله ، وانما يكتشف صـدق الرسـالة بعد المـوت ، أو أثنـاء الحيـاة عند التجلي الأعظم له.

(**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**)

وهــــذا التحــــذير المبطن يكفي الإنســـان خوفا من عواقب التكذيب بالحق ، وممارسة الانحراف والمعصــية ، ويهـدي إلى التصـديق بالرسـالة ، وعـدم الاسترسـال في الغفلة والضلال.

سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

عن أبي عبد الله الصادق (ع) أنّه قال :

«**من قرأ سـورة الزمر ، اسـتخفاها من لسـانه ، أعطاه الله من شرف الدنيا والآخرة ، وأعزّه الله بلا مال ولا عشيرة ، حتى يهابه من يراه ، وحرّم جسده على النار ، وبنى له في الجنة ألف مدينة ، في كـلّ مدينة ألف قصر ، في كلّ قصر مائة حوراء ، وله مع هذا عينان تجريان نضـاختان ، وعينـان مـدهما متـان ، وحور مقصـورات في الخيـام ، وذواتا أفنـان ، ومن كلّ فاكهة زوجان**»

(نور الثقلين / ج 1 ص 474)

وروي عن النبي (ص) انه قال :

«**من قرأ هذه السورة لم يبق نبيّ ولا صـدّيق إلّا صـلّوا واسـتغفروا له ، ومن كتبها وعلّقها عليه أو تركها في فراشه ، كـلّ من دخل عليه وخـرج أثـنى عليه بخـير ، وشـكره ، ولا يزالـون على شـكره ، مقيمين أبدا تعطّفا من الله عزّ وجل**»

(تفسير البرهان / ج 4 ص 67).

الإطار العام

من النــاس من ينبهر بتفــوّق الأنبيــاء والأوليــاء على غـيرهم بـالعزم والتقـوى والعلم والاجتهـاد ، فـيزعم أنّهم أبناء الله فتهون في عينه الذنوب اعتمادا على شفاعتهم.

وتتصدّى سورة الزمر لهذه العقيـدة الفاسـدة لتكتمل صـــورة التوحيد النقي لـــدينا ، بعد أن تصـــدّت ســـورة الصافات للعقيدة الفاسدة التي زعمت الملائكة أبنــاء الله ، وسورة (ص) لآلهة السلطة والثروة المزيفين.

ولأنّ محور سائر العقائد الفاسدة محاولة الهروب من المسؤوليات فإنّ هـذه السـورة تعـالج ذلك بحجج تـترى ، تتخللها صعقات شديدة تهزّ أعماق الضمير.

سورة زمر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

(تَنْزِيـلُ الْكِتـابِ مِنَ اللـهِ الْعَزِيـزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2) أَلا لِلَّهِ الـدِّينُ الْخـالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيـــهِ يَخْتَلِفُـــونَ إِنَّ اللـــهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كـاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَـوْ أَرادَ اللـهُ أَنْ يَتَّخِـذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشـاءُ سُـبْحانَهُ هُـوَ اللـهُ الْواحِـدُ الْقَهَّارُ (4) خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ بِـالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ

---

5 [يكور] : تشبيه بمن يلفّ شيئا على شيء ، فاذا جـاء الليل كـان كأنه لفّ على النهار حتى سرّه.

وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُـلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيـزُ الْغَفَّارُ (5) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعـامِ ثَمانِيَـةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُـونِ أُمَّهـاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللـهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ

هدى من الآيات :

بعد أن يوجّه القـــرآن أنظارنا إلى نفسه ، وأنّه تنزيل الـــربّ العزيز الحكيم ، ينعطف الســياق إلى الموضــوع الرئيسي لهذه السورة.

(والــدرس الأول يشــير عــادة إلى أهم موضــوعات الســورة) ألا وهو نفي شــراكة الأوليــاء لــرب العــزة ، وضرورة إخلاص العبودية لله الذي له الدين الخالص.

ويحتج عليهم أوّلا : بـاختلافهم الـذي يحكم فيه الـرب يـوم القيامة ، وثانيا : بـأنّ الله لا يهـديهم لأنّهم قد كـذبوا على الله وكفــروا بأنعمه ، وثالثا : بــأنّ الله وليســوا هم الذي يختار ولدا لو أراد أن يتخذ لنفسه ولدا.

ويختم الحـــــديث بتقـــــديس الله عمّا ينسب اليه المشركون ، لأنه الواحد ودليل وحدته قاهريته لكل شــيء وشخص.

بينات من الآيات :

[1] (**تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**)

توحي كلمة التنزيل بنزول القرآن على مراحل ، بينما توحي كلمة الإنــزال في الآية التالية بنزوله جملة واحـدة ، ولا تناقض في ذلك لأنّ القرآن نزل مـرتين : مـرة واحـدة في ليلة القــدر ، ومــرة بصــورة منســجمة انســجاما مع الحــوادث والظــروف المتغـيرة ليثبت به فـؤاد الرســول ويصـــوغ شخصـــية الامة وهو من العزيز الحكيم ، الـــذي بعزته فرض القرآن ، قال تعالى : (**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَـرادُّكَ إِلى مَعـادٍ**) [1] وبحكمته جعله قويما ، (**لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ**).

[2] (**إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِ**)

الحق هو وسيلة الكتاب وهدفه ، والقرآن ينزل بالحق أي أنه يكشف لنا تلك السنن والقيم والأنظمة الجارية في الخليقة كما انه يشــرّع التكــاليف الحق ، وفيما يــأتي من آيات نعـرف أنّ التـذكرة بـالحق في هـذه السـورة تهـدف فيما تهدف بيان أنّ المسؤولية حق ، وأنّه لا يجـازى البشر إلّا بما عمله خيرا أو شرا.

(**فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**)

أي اجعل عبادتك عبادة واقعية وليست عبادة نظرية.

ما هو الدين؟

الـــدين هو الســـيادة القانونية على المجتمع ، الـــتي يتقبلها الناس طـائعين غـير مكـرهين ، وإخلاص الـدين لله هو جعله المصدر الوحيد للسيادة والتشريع.

---

(1) القصص / (85).

[3] ولكن لماذا يجب أن نجعل كتاب الله هو المصـدر الوحيد للتشريع؟

بالاضــافة إلى انه لا يجــوز أن نشــرع من أهوائنا ، أو حسب الضغوط النفسية والاجتماعية ، فإنّ الدين الخالص هو لله وحده.

(**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ**)

فله السـيادة والحاكمية المطلقة على الخلق ، فيجب أن تكون العبادة له وحده.

إنّ الله هو الـذي يهيمن على الكـون ، ويجـري بقوته الأنظمة والقـوانين بصـورة خارقة ، ولا أحد يشـاركه في ذلك لأنه لا يمـارس شـيئا (**إِنَّما أَمْـرُهُ إِذا أَرادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**).

لمـاذا إذا يشـرك البعض بالله ، هل يعتقـدون بـأن لله شــريكا في الأمــر؟ كلّا ... هــؤلاء يشــركون بالله لأنّهم يعتقدون بأنّ الشركاء سبل إلى الله.

(**وَالَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيـاءَ ما نَعْبُـدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى**)

النفي والاستثناء دليل الحصر ، وإذا كان هـدف هـؤلاء الوصول إليه فلما ذا يختارون طريقا لم يأمر به؟!

ونســتوحي من جملة (**اتَّخَــذُوا مِنْ دُونِــهِ**) أنّهم هم الذين صنعوا الآلهة واضفوا عليها طـابع التقـديس دون أن تكــون لها قــدرة مطلقة عليهم أو أن يــأمر الله ســبحانه بعبادتها.

ونستوحي من كلمة «أولياء» أنّهم أحبّـوهم واتبعـوهم وتقرّبوا إليهم.

والضــمير في كلمة «نعبــدهم» يــوحي بــأنّ الأوليــاء عقلاء ، بينما نجد البعض منهم يعبد الأصــنام الــتي لا عقل لها. لماذا؟ ربما لأن تلك الأصنام كانت أيضا تجسيدا لقوى عاقلة ـــ في زعمهم ـــ كالملائكة والأنبيـــاء أو الأوليـــاء الصالحين ، وهذا يظهر من الحديث التالي :

«أقبل رسول الله (ص) على مشركي العرب فقـال : وأنتم فلم عبدتم الأصـنام من دون اللـه؟ فقـالوا : نتقـرب بذلك إلى الله تعالى.

فقال لهم : أو هي سامعة مطيعة لربها عابده له حتى تتقربوا بتعظيمها إلى الله؟ قالوا : لا.

قال : فأنتم الذين نحتموها بأيديكم؟ قالوا : نعم.

قـال : فلأن تعبـدكم هي لو كـان يجـوز منها العبـادة أحـرى من أن تعبـدوها ، إذا لم يكن أمـركم بتعظيمها من هو العارف بمصالحكم وعواقبكم والحكيم فيما يكلفكم.

قال : فلما قال رسول الله (ص) هذا القـول اختلفـوا فقال بعضهم : إنّ الله قد حلّ في هياكل رجال كانوا على هـذه الصـورة فصـورنا هـذه الصـور نعظمها لتعظيمنا تلك الصور التي حلّ فيها ربنا.

وقال آخرون منهم : إنّ هذه صور أقوام سلفوا كـانوا مطيعين لله قبلنا فمثّلنا صورهم وعبدناها تعظيما لله.

وقـــال آخـــرون منهم : إنّ الله لما خلق آدم وأمر الملائكة بالســـجود له كنا نحن أحق بالســـجود لآدم من الملائكة ، ففاتنا ذلك فصــوّرنا صــورته فســجدنا لها تقربا إلى

الله كما تقربت الملائكة بالسـجود لآدم إلى الله تعـالى»[1].

(**إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**)

قـالوا : إنّ ذلك تهديد مبطّن لأولئك القـوم حيث إنّهم سـوف يسـألون عن أفعـالهم وأقـوالهم ويحاسـبون عليها حسابا عسيرا ، ولا يجوز لهم ـ إذا ـ الاسترسال في نسـبة الأولياء إلى الله واعتبارهم شفعاء من دون إذنه سبحانه.

ولعل الآية تشير إلى ما اشتهر بين الأمم من تقـديس العظمـاء ونسـبتهم إلى ربّ العـزة ، كالاعتقـاد بـأنّ هـذا الملك أو ذاك السـلطان هو ظل الله في الأرض من دون الرجـوع إلى القيم الإلهية ، والمقـاييس الرسـالية ، بينما ليس كل من أوتي فضلا يصير وليّ الله بل الذي يعبد الله حقا ويتبع رسله صدقا.

ونتساءل : ما هي الحكمة في بيان هذه الحقيقة هنا؟

إنّ الناس يزعمون انهم لو نسبوا إلى الله أمـرا كـذبا وجب على الله ردعهم بصـورة غيبية ، كـأن يـنزل عليهم صـاعقة أو لا أقل ملكا ينـذرهم ، وإذ لم يفعل مثل ذلك فهم على حق ، ولعله لـذلك يؤكد ربنا أنه لا يهـدي الكذبة والـدجّالين والـذين يكفـرون بنعمه ومن أبرزها نعمة الرسـالات الـتي أنزلها بمنّه ، فليظلّـوا في ضـلالتهم حـتى يذوقوا الجحيم جزاء كذبهم وكفرهم بأنعم ربهم.

وهكـذا بيّن ربنا أولا : أنّ أهـواءهم بعيـدة عن الحق الـذي عند الله حيث يحكم بينهم يـوم القيامة ، وبيّن ثانيا : أنه لا يهـديهم فهم المسـؤولون عن ضـلالتهم بكـذبهم وكفرهم.

---

(1) الإحتجاج للطبرسي / ص (26).

ولقد اخترعت أهواء الناس أفكـارا باطلة لتوجيه هـذه العقائد ، فقالوا بنظرية الفيض ونظرية الحلول والغنوص ، لتـبرير تقديسـهم لبعض العناصر وتـأليههم لبعض النـاس ، قالوا بأنّ الله ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ كالشـمس تفيض منها الأشـعة ، وكـالبحر تتصـاعد منه السـحب ، أو الينبـوع تجـري منه الروافد ، أو أنّه سـبحانه يتـنزّل إلى مستوى خلقه فيحل في أوليائه حلولا حـتى يقـول أحـدهم في إحدى شطحاته الكفرية : ليس في جبّتي سوى الله.

(**إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ**)

[4] ويسفّه الله أحلامهم ويؤكد بأنّه لا ولن يتخذ ولـدا ، وحتى لو اتخذ فإنّه هو الذي يصطفيه اصطفاء.

(**لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَـداً لَاصْـطَفى مِمَّا يَخْلُـقُ ما يَشاءُ**)

ونستوحي من الآية الحقائق التالية :

أولا : إنّ اتخـاذ الولد لو تمّ (وهو لا يتم) فليس عـبر أولئك الكذبة ، بل الله وحده صاحب هذا الحق ، إنّه لو تم يكـون ولـده وليس ولـدهم ، فهو يختـاره دونهم ، ولا يحق لأيّ كـافر أن يقـول : فلان ابن الله وأقـرب النـاس اليه ، من دون سلطان له على ذلك.

ثانيا : إنه لا يتم ـ لو تمّ إنجـاز الولد ـ بسـبب علاقة نسـبية بين الله سـبحانه وبين بعض خلقه ، إذ كل شـيء مخلوق لله ، ولا تفاضل في أصل الخلق بين شيء وشيء ، فليس بعض الخلق مـارس الله حين أنشـأه لغوبا ، بينما خلق بعض الأشياء بيسر وسهولة ، كلّا ... ولا هناك مراتب في الخلق كما زعمت الفلاسفة بلا حجة ، إنما يكـون عـبر الاصطفاء.

ثالثا : إنّ الاصطفاء الإلهي يكـون عـبر القيم الإلهية لا تفاضل الجوهر إذ أن الأشـياء كلّها مخلوقـات فلا حاجة له إلى واحد منها لأنّه كـان قبل أن يكـون أي شـيء فكيف يحتـاج إلى شـيء لم يكن من الأزل ، بل كيف يحتـاج إلى شيء هو في وجوده يحتاج إلى خالقه سبحانه؟!

وإنما استوحينا هـذه البصـائر بـالترتيب من الكلمـات الثلاث في الآية «يتخذ» و «اصطفى» و «مما يخلق».

(**سُبْحانَهُ**)

عن نسـبة الشـريك إليه أو عن اتخـاذ الولد حـتى من بين خلقه اصطفاء.

(**هُوَ اللهُ الْواحِدُ**)

فلا يتجزّأ بالإفاضة ولا بالتنزّل ولا بالحلول ، ولا يتجلّى في الشـمس والقمر والنجـوم والسـهل والجبل والشـجر والبحر والأحيـاء ... كما ادّعـاه الضـالون من أنصـار وحـدة الوجود.

«قـام أعـرابي إلى الإمـام أمـير المؤمـنين في بحر معركة الجمل الطاحنة وقـال له : يا أمـير المؤمـنين : أتقول : أنّ الله واحد؟

فحمل الناس عليه وقالوا : يا أعرابي أما تـرى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟

فقال أمير المؤمنين : دعوه فان الـذي يريد الأعـرابي هو الـذي نريـده من القـوم ، (أي أنّنا نخـوض الحـرب من أجل بيان هذه البصائر).

ثم قـــال : يا أعـــرابي أنّ القـــول في الله واحد على أربعة أقسـام : فوجهـان منها يجـوزان على الله ووجهـان يثبتان فيه ، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل واحد ، يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز ، لأنّ ما لا ثـاني له لا يدخل في بـاب الأعـداد الا تـرى انه كفر من قـال ثـالث ثلاثـة؟ ، وقـول القائل هو واحد من النـاس يريد به النـوع من الجنس فهـذا ما لا يجـوز ، لأنّه تشـبيه وجـلّ ربنا عن ذلك.

وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه فقـول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبيه ، كذلك ربنا ، وقول القائل : إنّه عزّ وجلّ أحديّ المعنى ، يعـني به أنّه لا ينقسم في وجـود ولا عقل ولا وهم ، كذلك ربنا عزّ وجلّ» [1]

(الْقَهَّارُ)

ولأنّه قهّـــار فهو واحد ، إذ لا شـــيء يتحـــدّى إرادته ويقاوم مشيئته سبحانه.

وكما لا يخضع سـبحانه لشـيء لا يحتمّ عليه شـخص أمرا ، فما المسيح بن مريم والعزيز إلّا عبدان مطيعان له يخضـعان لأوامـره ، ولا يحتمـان عليه ، وانه سـبحانه قد فرض عليهما عبادته إن لم يكن طوعا فكرها.

ومن هنا تتبلـور فكـرة الشـفاعة الحق وهي إنّ عبـاد الله المكرمين يدعون الله ليغفر لبعض المذنبين فإن شاء غفر ، وإن شـــاء عـــذّب ، وقد قـــال الله في حق بعض المنـــافقين : (**سَـــواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْـــتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْـتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِـرَ اللّـهُ لَهُمْ إِنَّ اللّـهَ لا يَهْـدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ**) [2] وقال تعالى : (**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذلِكَ بِـأَنَّهُمْ كَفَـرُوا بِاللّـهِ وَرَسُـولِهِ وَاللّـهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ**

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (475 ـ 476).
(2) المنافقون / (6).

الْفاسِقِينَ) [2]

ولكن الرســـول واولي الأمر من بعـــده يملكهم الله الشفاعة في الدنيا والآخرة ، فيغفر لمن يشاء كيف يشـاء ، ويعـذب من يشـاء كيف يشـاء ، ومغفـرة الله بواسـطة الرسول ممكنة ولكن حسب مقاييس محـدودة ، فلا يملك الرسول للمذنبين المصرين ، أو الكفار شيئا ، ويـوجز الله في آية من الآيات فكرة الشـفاعة فيقـول : (**وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِـإِذْنِ اللـهِ وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جـاؤُكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللـهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً**) [3].

وخطأ تلك الأدعية الـــــتي يقولها بعض الطوائف في طوافهم حول الكعبة إذ يقولـون : (اغفر اغفر إن لم تغفر جزما تغفر) فلا أحد يحتّم على الله سبحانه شيئا.

[5] وقد سـبق في الآية الثالثة أن فسّـرنا قوله : (**أَلا لِلَّهِ الـدِّينُ الْخـالِصُ**) فقلنا بأنها تشـير إلى السـنن الـتي تحكم في الخليقة بتـــــدبير الله وهيمنته وإرادته ، ويوضح الله ذلك بقوله :

(**خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ**)

ويبـدو أنّه سـبحانه بعد نفي العقائد الـتي يتشـبث بها المشــــــركون ، ونفي كـــــون الولد له ، وأنّه لا أحد من الشــركاء يقــربهم اليه أخذ يـذكّرنا بنفسه ذلك أنّ معرفة الله حقا كفيلة بنفي العقائد الباطلة وإزالة الأوهـــــــــام البشرية التي هي وليدة الجهل بالخالق.

ولعل الإشــارة إلى «الحــق» هنا لبيــان أنّ تمنيــات القوم بالشفاعة الباطلة

---

(2) التوبة / (80).

(3) النساء / (64).

ســـراب ، لأنّ أســـاس الخلق هو الحق ، وأنّه لا أحد يبلغ الثواب والكمال بالتمني والتظـني أو الشـفاعة الباطلة بل بالحق والحق وحده.

ودليل أحدية الـــربّ وقاهريته وأنّه خلق الســـموات والأرض بالحق ما نراه من اختلاف الليل والنهار.

(**يُكَـوِّرُ اللَّيْـلَ عَلَى النَّهـارِ وَيُكَـوِّرُ النَّهـارَ عَلَى اللَّيْلِ**)

وتكوير هذا يتم بزيادته على حسـاب ذاك وبـالعكس ، فالله قد قهر السموات والأرض بحركتهما الدقيقة الـتي لا يستطيعان مقاومتها قيد شـعرة ، ثم إنّهما يجريـان بنظـام دقيق مما يهدينا إلى أنّه جعل كل شيء بالحق.

(**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**)

مما يهدينا إلى انه القاهر.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق (ع) :

«أنظر إلى شروقها على العـالم كيف دبّر أن يكـون ، فإنّها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف لا تعـدوه لما وصل شــعاعها ومنفعتها إلى كثــير من الجهــات ، لأنّ الجبـال والجـدران كـانت تحجبها عنها ، فجعلت تطلع في أوّل النهـــار من المشـــرق فتشـــرق ما قابلها من وجه المغــرب ، ثم لا تــزال تــدور وتغشي جهة بعد جهة حــتى تنتهي إلى المغرب ، فتشرق على ما اسـتتر عنها في أوّل النهـار ، فلا يبقى موضع من المواضع إلّا أخذ بقسـطه من المنفعة والإرب التي قدرت له» [1]

(**كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**)

(1) بحار الأنوار / ج (3) ص (113).

وكما أنّ الله خلق الشـــــمس والقمر ، وســـــخرهما بقدرته ، كذلك فإنّ انتهاءهما بيـده ، وربما توصل العلمـاء إلى العمر التقريـبي للشـمس والقمر بمقـدار ما يعطيـان من طاقة من النور والحركة.

(**أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**)

فبعزته أقـام النظم في كل شـيء ، وألـزم الشـمس والقمر والنجـــــوم أفلاكها ، وســـــخرها لما خلق لها ، وبمغفرته فتح أمـام عاصـية بـاب التوبة حـتى لا يقنط من رحمته إلّا القوم الكافرون.

وصفة العـزة تبعث الرهبة بينما صـفة المغفـرة تبعث الرغبة ، وهما معا ضروريتان لاستقامة النفس البشرية.

وأخطأ من قال ـ من المتكلمين ـ أنّ القول بـالمغفرة مخـالف للقـرآن لأن ذلك يـوجب الإغـراء بـالقبيح ، وهـذا مذهب البغداديين المعتزلة ، ومذهب البصريين الذي يقول : إنّ عـــذاب الله جـــائز عقلا ، وأيضا فيلـــزم عليه ان لا يحصل الغفران بالتوبة ، لأنه إذا علم أنّه إذا أذنب ثم تـاب غفر الله له لم ينزجر [1].

[6] (**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِـــدَةٍ ثُمَّ جَعَـــلَ مِنْها زَوْجَها**)

أي جعل من نفس الإنسـان زوجه ، وهـذا يـدل على تكاملية الذكر والأنثى.

(**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ**)

هي الأخـرى تـتزاوج ، وثمانية أزواج هي الـتي ذكـرت في سورة الأنعام : (**مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ**).

---

(1) التفسير الكبير / ج (26) ص (240).

وقد اختلف المفســـرون في كلمة «وأنـــزل» فكيف يمكن أن تنزل الأنعام ، وهذا مجمل ما قالوا :

1 ـ إنّ الإنزال بمعنى الإحداث والإنشــاء كقوله : (**قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ**).

وفي الحديث عن أمير المؤمنين (ع) قال :

«فإنزاله ذلك خلقه إيّاها» [1]

2 ـ إنّه أنزلها بعد أن خلقها في الجنة ، وفي الخـــبر الشاة من دواب الجنة ، والإبل من دواب الجنة.

3 ـ إنّه جعلها نزلا ورزقا ، والرزق يأتي من السماء.

4 ـ إنّ قضاء الله وتقـديره وحكمه موصـوف بـالنزول من الســماء ، وإذا عرفنا أنّ بركـات الأرض جميعا ـ أو لا أقل أكثرها ـ من السماء سواء من أشعة الشــمس أو من المـــاء الـــذي ينزله الله من الســـماء ، عرفنا أنّ هـــذه التأويلات غير ضرورية ، والله العالم.

(**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ**)

لا أنت ولا زوجك تعلمان ما في الرحم ، وكيف يتكون الجـنين ، وما هي أطـوار خلقه ، حـتى يصـير طفلا ، ولكن الله يخلقك ويصوّرك هناك.

(**فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ**)

(1) تفسير نور الثقلين / ج (3) ص (476).

ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة.

(**ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ**)

إنّ الله الذي يصـوّرك في الأرحـام في ظلمـات ثلاث هو المالك الحق والمليك المقتدر أحق أن تعبده ، ولأنّ له الملك وحده فإنّه :

(**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**)

إلى أين تتجهون ، ومن الذي تعبدون من دونه؟!

إِنْ تَكْفُـرُوا فَـإِنَّ اللـهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبـادِهِ الْكُفْـرَ وَإِنْ تَشْـكُرُوا يَرْضَـهُ لَكُمْ وَلا تَـزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـــرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَـــرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُـــونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِـــذاتِ الصُّـــدُورِ (7) وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْـهِ مِنْ قَبْـلُ وَجَعَـلَ لِلَّهِ أَنْـداداً لِيُضِـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ قُـلْ تَمَتَّعْ بِكُفْـرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (8) أَمَّنْ هُـوَ قـانِتٌ آنـاءَ اللَّيْـلِ سـاجِداً وَقائِمـاً يَحْـذَرُ الْآخِـرَةَ وَيَرْجُـوا رَحْمَـةَ رَبِّهِ قُـلْ هَـلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ إِنَّما يَتَـذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (9) قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا فِي هـذِهِ الـدُّنْيا حَسَـنَةٌ وَأَرْضُ اللـهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْـرَهُمْ بِغَيْـرِ حِسـابٍ (10)

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللـهَ مُخْلِصاً لَـهُ الـدِّينَ (11) وَأُمِــرْتُ لِأَنْ أَكُــونَ أَوَّلَ الْمُسْــلِمِينَ (12) قُــلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَـيْتُ رَبِّي عَـذابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُـلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِــهِ قُــلْ إِنَّ الْخاسِــرِينَ الَّذِينَ خَسِــرُوا أَنْفُسَــهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلاَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْــرانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَـــوْقِهِمْ ظُلَـــلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (16)

وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ

هدى من الآيات :

يتابع السـياق القـرآني في هـذا الـدرس الحـديث عن الشـرك بالله ، وأنّ الإنسـان إذا مسّـه الضر دعا ربه منيبا إليه دون الأنداد ، ويحتجّ الــرب عليهم بحجة وجدانية بالغة هي أنّ الأنداد لا يضرون شيئا ولا ينفعـون فلما ذا الشـرك بهم ، وهم ينسون نسيانا عند الضـرورات ، مما يـدل على أنّهم ليسـوا شـفعاء إلى الله كما يزعمـون ، وتكـاد آيـات القرآن جميعا تحدثنا عن التوحيد ونفي الشرك ، وذلك لأنّ الشرك ليس لونا واحدا ، بل ألوان شـتى ، إذ الشـرك هو الاستسـلام لجاذبية المـادة بشـتى صـورها ، فقد تكـون المـــادة أرضا أو شخصا أو خوفا أو طمعا ، لـــذلك فـــإنّ التخلص من الشرك وأغلاله ينبغي أن يكون بـالتخلص عن كل جاذبية تجــذب الإنســان نحو الأرض ، كي يحلّق بعيـدا في سماء التوحيد.

من هنا نجد القرآن العظيم يحـدثنا في قضـية التوحيد عن ضرورة التخلص من الشـرك ، وفي كـلّ مـرّة يحـدثنا عن بعض ألوان الشرك ، ثم إنّ الناس في خضوعهم

للمادة مختلفون ، فمنهم من يخضع بكلّ صـراحة ، ومنهم من يسـتخدم سـلاح التـبرير ، وهكـذا كـان نسف قواعد التـــبرير من أبـــرز أهـــداف القـــرآن الحكيم ، وبما أنّ التـبريرات تختلف من قـوم لآخر ، بل حـتى بين الأفـراد أنفسهم الذين ينتمون إلى مذهب شركيّ واحد ، لذا يعالج القرآن الحكيم كلّ تبرير بصفة مستقلة ومختلفة.

وفي هذا الـدرس يعـرض الله نمـوذجين من النـاس : الكـافرين المشـركين الـذين يجـأرون لله بالـدعاء حـال الشـدة والضر ، والمؤمـنين الـذين يقنتـون لله آنـاء الليل سـاجدين قـائمين ، فـرقين من الآخـرة ، ويعبـدون الله مخلصين ، مسلمين له ، لكي ينسف التمنيات الـتي يعتمد عليها البعض في ارتكاب المعاصي ، فيزعمون ـ مثلا ـ أنّ الأنداد يشفعون لهم فلما ذا التقوى من الذنب.

بينات من الآيات :

[7] يـبرّر بعض المشـركين شـركهم بـالجبر حين يقولون : بأنّ الله لو لم يكن راضيا عن شركهم إذا منعهم منه ، ولأنّه لم يمنعهم فهو راض عنه ، ولكنّ الله يقـول : كلّا ... فأنا لا أرضى لعبادي الكفر.

وإذا لم يـرض الله الشـرك لعبـاده فلم هم مشـركون دون أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؟!

ويجيب القـرآن : لأنّ الـدنيا دار ابتلاء فقد خـوّل الله العباد ، وأعطاهم مهلة لكي يجرّب إرادتهم.

(**إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ**)

فكفر الناس لا يسـبّب له خسـارة ، وعبـادتهم لا تزيد في ملكه مثقال ذرة.

(**وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ**)

أي أنّ الله يسمح لكم بـأن تعبـدوا ما شـئتم من دون أن يرضه لكم.

ويقسم الحكماء إرادة الله إلى قسمين :

1 ـ إرادة تكوين.

2 ـ إرادة تشريع.

فمن الناحية التكوينية وفر الله للإنسان الحرية ليفعل بها ما يشـــاء ، فأشـــرك به ســـبحانه ، ولكن من الناحية التشريعية لم يرض له الشرك ، وبتعبير آخر لم يجــبر الله الناس على التوحيد ، ولو فعل ذلك بطل الثواب والعقـاب ، ولكنّه أمـــرهم ونهـــاهم ورغّبهم وأنـــذرهم ووفّر لهم المشيئة ، ولولا المشيئة الإلهية لم يقدر أحد على عصـيانه ، فهو الذي جعلهم مختارين ، وأعطاهم القدرة.

جاء في الحديث عن فضيل بن يسار ، قال : سـمعت أبا عبد الله (ع) يقـــول :

«**شاء وأراد ، ولم يحب ولم يرض ، شـاء أن لا يكـون شيء إلّا بعلمه ، وأراد مثل ذلك ، ولم يحب أن يقال له : ثالث ثلاثة ، ولم يرض لعباده الكفر**» [1]

ونستطيع أن نشبّه هـذه الحالة بمن يعطي ابنه دينـارا ويأمره بأن يشـتري ما ينفعه فيشـتري ما يضـره ، فهو قد اشترى بمال أبيه ما لم يرض به.

ورضى الله أو عدم رضاه ليس كما نحن البشر ـ كما أسلفنا في كثير من السور أنّ الله تنطبق عليه الغايـات لا المبادئ ـ فرضي الله قد يكون بتوفيقه للإنسان ،

---

(1) التوحيد / (339).

واســـــتجابة الطبيعة من حوله ، لأنّ كل ما في الحيـــــاة يســتجيب للتوحيد وينســجم معه ، ويتنــاقض مع الشــرك وينفر منه.

(**وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**)

فالله يرضى الشكر لعبـاده ، وعند ما يشـكر الإنسـان ربّه ففي شكره إرادتـان : إرادة تكـوين ، وإرادة تشـريع ، وهنـاك من يـبرّر شـركه بإلقـاء المســؤولية على غـيره ، ولكنّ الله ينفي ذلك ، ويؤكّد أنّ كـــــلّ إنســـــان يتحمّل مسئولية عمله ، ولا يتحمّل الآباء أو العلمـاء أو السـلطات من وزره شيئا.

(**وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى**)

الوازرة : النفس التي تحمل ثقلا ، فكلّ إنسـان يحمل حملا ، ومن عنده حمل لن يرضى أن يحمل حمل الآخرين ، إذ له من الحمل ما يكفيه.

وسواء برّرنا أم لم نبرّر فإنّ جـزاء أعمالنا يـوفّى إلينا يوم القيامة ، حين ينبّأ الـرب عبـاده بكـلّ صـغيرة وكبـيرة عملوها ، ولعلّهم نسوا أو تناسوا بعضها ولكنّ كتاب ربّنا لا يضل ولا ينسى.

(**ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَـــــــــرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

وعلم الله لا يقتصر على ظـــواهر العمل بل ينفذ إلى القلب حيث الدوافع والنيّات.

(**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)

ولعلّ الآية تشير إلى فعل القلب ومسـئولية الإنسـان عنه ، والوساوس والتبريرات

والعقائد الفاســـدة والرضا والبغض كلها من فعل القلب ، فمثلا كثيرا ما يزعم الفرد أنّه مجبـور على عمل وهو غـير مجبور والله يعلم ما في صدره.

[8] وبعد أن نسف الســـياق قواعد التـــبرير ، ومهّد القلب لتلقي الحجة ، أبلغنا بأنفذ الحجج وهو دليل الفطرة والوجـدان ، حيث ينقطع في أوقـات المحنة أمل الإنسـان في أيّ شـيء سـواه سـبحانه ، وهنالك يتصل قلبه بالله ، إنّ الله هو ذلك الأمل الـذي ينجيك حين لا منجى ، ويتعلق قلبك به حين لا تجد خشـبة خلاص تتعلق بها ، وهـذه أحد الأدلة والشـواهد الـتي تهـدينا إليه سـبحانه ، ففي أيّـام الرخاء تعترينا الغفلة ، وننسى الله ، إلّا أنّ المصائب تـأتي هزات عنيفة ليس لكيـان الإنسـان وإنّما لضـميره ووجدانه حيث يرى الله ، والمؤمنـون غـير هـؤلاء ، إنّهم يـرون الله كما أمير المؤمنين (ع) إذ يقول :

«ما رأيت شيئا إلّا ورأيت الله قبله ومعه وبعده»

(**وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ**)

أي يعود إلى الله ويترك الشـركاء من دونه ، والـدعاء والإنابة حالة الضــــراعة ، فهو من جهة يـــــدعو الله كي يخلصه من الضـــراء ومن جهة أخـــرى يتـــوب إليه عما اقترفت يداه.

وفي ذلك شـــهادة فطرية على أنّ الأنـــداد الـــذين اتخــذهم شــفعاء لا يقــدرون لا على كشف الضر عنه ولا على التوسّــط بينه وبين الله ، وإنما الله أقــرب إليه من كل تلك الآلهة المزيفة ، وإنّ أمره بـالرجوع إلى الرسـول أو خليفته الشرعي هو المقياس.

(**ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ**)

خوّله : ملّكه وجعله متعهــدا للنعمة ، وفلان مخــوّل : أي له حق التصـــرف ، إذا أعطـــاه الله النعمة ، وبـــدّل الضراء نعماء.

(**نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ**)

يبدو أنّ المصـاب بضر ولا أمل له بالنجـاة فينجيه الله من ضـرّه يكـون أسـرع في العـودة إلى الـذنب من الـذي يبلغ النجاة عبر الوسائل المادية.

وفي التعبير إشارة إلى أنّه ينسى كلّ شيء عن حالته السابقة ، ونستوحي ذلك من كلمة «ما» في الآية.

(**وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً**)

فقـال لـولا صـديقي ، لـولا الـدكتور ، لـولا الصـدفة الحســنة ، لــولا حظي ، لــولا ذكــائي ، لكنت قد هلكت ، وينسى أنّ من أنقذه إنّما كان الذي «يدعو إليه من قبـل» وهو ربّ العزة.

ولعل معـنى الجعل هنا اعتبـار ذلك للأنـداد من خلال اضــفاء صــبغة القــوة الذاتية عليهم ، وبتعبــير آخر جعل الشـــرعية لهم مما لا يقتصر أثـــره فقط على نفسه ، بل يتجاوزه إلى الآخرين فيسبّب ضلالتهم أيضا.

ويشهد على ذلك التعقيب التالي :

(**لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ**)

إذ أنّه لم يبيّن للناس أنّ الله أنقـذه حـتى يهتـدوا إليه بل أخـبرهم كـذبا أنّ غـيره هو الـذي أنجـاه فأضـلهم عن سبيل الله وهو إخلاص الدين له.

هـذا من جهة ومن جهة أخـرى قلب الإنسـان يـرفض الفـراغ ، فلا بد أن يتعلق بشـيء ، فـإذا نسي ربه اخـترع لنفسه إلها مزيّفا من الشركاء ، يستعيض به عن ربه.

والدافع النفسي وراء الكفر بنعمة الخلاص من الهلكة هو التخلص من مســئولية شــكر الله ، فالــذي يقع في الهلكة يحس بتقصــيره في جنب الله ويعقد العــزم على تلافيه ، ويعاهد الله على ذلك إن نجّـاه من الهلاك ، ولكنّه الآن وقد ذهبت عنه عاصـفة البلاء وزعم أنّه اسـتغنى عن ربه عــادت إليه عواصف الشــهوات تحثّه نحو الموبقــات وتـرك الفـرائض والخـوض في الإباحية ، لـذلك نسي ربه وكفر بنعمته عليه ، ونسب النعمة إلى الآلهة المزيّفة ، فيقول له الرب :

(**قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً**)

فإنّك لن تحصل إلّا على متـاع قليل وفي فـترة قليلة تنتهي إمّا بالمشاكل التي تتجدّد عليك أو بالموت.

(**إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ**)

وهل هي متعة تلك التي تنتهي بصاحبها إلى النار؟

والتعبير ب «**أَصْحابِ النَّارِ**» باعتبار أنّ الإنسان يحبّ صاحبه ولا يتركه ، فهو والنار قرينان لا يفترقان.

[9] وفي مقابل هؤلاء الذين يجعلون لله أنـدادا هنالك طائفة أخرى هم المخلصون ، يقول الله عنهم :

(**أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْـلِ ســاجِداً وَقائِمـاً يَحْـذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ**)

قـانت لربه في ديجـور الليل ، صـافّا قدميه ، سـاجدا قائما ، خائفا راجيا.

ويبـدو أن الخـوف والرجـاء قد تسـاويا في قلبه ، فهو يخشى النار وأهوالها ، ويرجو رحمة ربه في الجنة.

إنّ هؤلاء دأبهم الارتياح إلى الله والحنين في الحـالات العادية ، فكيف إذا مسهم الضر.

وهكذا صوّر السياق نمطين من البشر : من يكفر بعد إنقـاذه من الهلكة ووعــوده بالتوبة ، ومن هو قـانت آنـاء الليل وأطراف النهار ، ليكون الفـرق واضـحا بينهما ، وأنّه لا يجــوز أن نجعل هــذا كــذاك في الجــزاء ، وهــذا هو الموضــوع الأساسي في هــذه الســورة الــتي أوضـحت اختلاف مسـيرة الزمر الصـالحة والزمر الـتي تسـاق إلى النار.

(**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ**)

أنّ الله حق ، وأنّ الجزاء حق ، وأنّ الرسول صادق.

(**وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**)

كلّا ... لا يستويان مثلا. فلا يجوز الاتكال على شـفاعة الأنداد. ولا الاتكاء على التمنيات والظنون.

(**إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ**)

فبالرغم من وضوح الفرق بين العالم والجاهل ، فــإنّ أكـثر النـاس لا يهتـدون إلى ذلك لأنّهم أصـحاب القشـور والظــواهر وأتبـاع الضـجيج ، وليســوا أصـحاب العقـول المتعمقين في جوهر الأمور وألبابها.

جاء في الحديث ، عن عمار الساباطي ، قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن قـــــــول الله عز وجل : (**وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْـهِ**) قـال : نـزلت في أبي الفصـيل ، أنّه كـان رسـول الله عنـده سـاحرا ، فكـان إذا مسه الضر يعـني السـقم ، دعا ربه منيبا إليه ، يعـني تائبا إليه من قوله في رســـول الله (ص) ما تقــــول «**ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ**» يعـني العافية «**نَسِـيَ ما كـانَ يَـدْعُوا إِلَيْهِ**» يعني نسي التوبة إلى الله عزّ وجلّ مما كـان يقـول في رسول الله (ص) أنه ساحر ، ولذلك قال الله عزّ وجلّ : (**قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ**) يعـني أمرتك على النــاس بغــير حق على الله عــزّ وجل ، ومن رسوله (ص) ، قال : ثم قــال أبو عبد الله (ع) : ثم عطف القـول من الله في علي (ع) يخـبر بحاله وفضـله عند الله تبـارك وتعـالى : (**أَمَّنْ هُـوَ قـانِتٌ آنـاءَ اللَّيْـلِ سـاجِداً وَقائِمـاً يَحْـذَرُ الْآخِـرَةَ وَيَرْجُـوا رَحْمَـةَ رَبِّهِ قُـلْ هَـلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ**) أنّ محمـدا رسـول الله (**وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ**) أنّ محمـدا رسـول الله ، وأنّه سـاحر كـذّاب (**إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ**) [1]

وفي الرواية عن أنس قـــال : «نـــزلت في علي (ع) (**أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْـلِ سـاجِداً وَقائِمـاً**) ... الايـة» قال : فأتيت عليا ـ عليه السـلام ـ وقت المغـرب فوجدته يصلّي ويقرأ إلى أن طلع الفجر ، ثم جـدّد وضـوءه وخــرج إلى المســجد وصــلّى بالنــاس صـلاة الفجر ، ثم قعد في التعقيب إلى أن طلعت الشمس ، ثم قصده الناس فجعل يقضي بينهم إلى أن قـــام [الى] صـــلاة الظهر ، فجـــدّد الوضــوء ثم صــلّى بأصـحابه الظهر ، ثم قعد في التعقيب إلى أن صـــلّى بهم العصر ، ثم كـــان يحكم بين النـــاس ويفتيهم إلى أن غابت الشمس.

[10] وبعد أن ينجز الســياق إقــرار الإنســان بأنّه لا يستوي الذين يعلمون والـذين لا يعلمـون ، يشـرح صـفات وجزاء الذين يعلمون ويصوغون شخصيتهم بما يعلمون

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (478).

وذلك بالايمان والتقوى والإحسان والهجرة (عند الضرورة) والصبر.

(**قُــلْ يا عِبــادِ الَّذِينَ آمَنُــوا اتَّقُــوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ**)

والتقـوى تجنب المهلكـات ، وعاقبتها الفلاح ، والفـوز بالجنة ، وأمّا الإحسـان فعاقبته السـعادة في الـدنيا أيضا ، ومعناه أن تكون صبغة حياة الفرد العطـاء للآخـرين ، وقد بلغ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ما بلغوه من شـرف الرسـالة بالإحسـان. أمّا الهجـرة عند الضـرورة فهـدفها المحافظة على الاسـتقلال والحرية ، والصـبر من الإيمـان بمنزلة الرأس من الجسد ، فهو لبـاب التوحيد وجـوهر الإخلاص ، ودرع الاستقلال ، وأجره عند الله لا يبلغه العـادون فهو بلا حساب.

هكذا روى الإمام الصادق ـ عليه السـلام ــ عن النـبي (صلّى الله عليه وآله) :

«**إذا نشـرت الـدواوين ، ونصـبت المـوازين ، لم ينصب لأهل البلاء ميزان ، ولم ينشر لهم ديوان ، ثم تلا هذه الآية**» [1]

[11] بالرغم من أنّ الهجـرة قائمة إلى يومنا هـذا إذا تعرضنا للضغوط ، وافتتنا في ديننا ، إلّا أنّه يلزم في بعض الأحيان التحدي.

وهكذا يـأمر الله نبيّه بـأن يعلن للنـاس جميعا إخلاصه لربه ، ورفضه للأنـداد ، مما يعـني التمـرد على سـلطات الجبّارين وإمرة المترفين وقيادة الجهلاء.

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (481).

(**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ**)

وهذا أمر الله ، فلا قداسة ولا شرعية ولا حرمة لهـذه السلطات الفاسدة لأنّ الله لم يـأمر بها ، بل أمر برفضـها حيث قال لرسوله :

(**مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**)

مسـلما له وحـده ، خاضـعا لمناهجه وشـرائعه فقط ، وما دام ذلك أمر الله فـإنّ المـؤمن بالله يتحمّل كل أذى في سبيل تطبيق هـذا الأمر الإلهي ، والله يعينه عليه ، ولا يقدر على تجاوزه دون التعرض لغضب الله وعذابه.

[12] وما دام الأمر من الله فلا يسـتمد شـرعيته من النـاس فسـواء أآمن الآخـرون أم كفـروا ، وافقـوني على تمردي ضد الأنداد أم خالفوني فإنّي أواصل دربي.

(**وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**)

أسبقهم إلى التسـليم لله ، دون النظر إلى الآخـرين ، كما قـال السـحرة بعد أن آمنـوا : (**لا ضَـيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ* إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِـرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ**).[1]

بـالرغم من أنّهم لم يكونـوا فعلا أوّل المؤمـنين ، فقد آمن لموسى ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئه ، ولكنهم فتحوا الطريق لغيرهم كي يؤمنوا.

[13] (**قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**)

وهذا بالغ ذروة الإنذار حيث يخشى رسـول الله عـذابا عظيما فكيف بنا.

---

(1) الشعراء / (50 ـ 51).

[14 ـ 15] (**قُـلِ اللـهَ أَعْبُـدُ مُخْلِصـاً لَـهُ دِينِي* فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ**)

أمّا أنا فاعبد الله مخلصا له ديني ، فاعبدوا ما شئتم.

هكذا يتحدى الرسول بأمر الله أولئك الجاهلين الـذين اتخذوا أهـواءهم آلهة فعبـدوا ما شـاؤوا ، وهـذا هو خلاصة الإخلاص وصفوة التوحيد ، وحين يبلغ المرء هذا المسـتوى الأرفع من الإخلاص لا يخشى أحدا ولا يخضع لشيء فإنّه :

أوّلا : يضمن حريته التامة ، واسـتقلاله الشـامل ، لأنّ الأعــداء لن يجــدوا فيه ثغــرة يســتعبدوه من خلالها ، فلا المال والجاه والثناء يغريه ولا السـجن والتهجـير والإعـدام يخيفه.

ثانيا : إنّه يضـمن اسـتقامته على الطريق دون تعب ، لأنّ النفس يؤلمها مخالفة النــاس ، وملامتهم وجراحـــات ألسنتهم ، أمّا هو فقد تعالى بإذن الله عن لومة اللائمين ، ولدغات الجاهلين.

ثالثا : لا يكـون شـنآنه وبراءته من النـاس بعصـبية أو ظغينة ، بل لفـرط حبه لله وحبه للنـاس فهو يسـتقبل من يئوب إلى الحق بترحاب ، وهكذا لا يستمرئ الاعتزال ، ولا يجعل بينه وبين الناس حجابا من الكبرياء والعصبية.

(**قُــلْ إِنَّ الْخاسِــرِينَ الَّذِينَ خَسِــرُوا أَنْفُسَــهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ**)

نعم. يخسر الإنسان في ذلك اليوم كلّ شـيء ، نفسه حيث لا يتمتع شــيئا ، ويخسر أهليه فلن يــراهم في ذلك اليوم إذا كانوا مؤمنين ، ويحرم من شفاعتهم ، لأنّه لا

تنفع الشفاعة إلّا لمن ارتضى ، وإن كـانوا معه في جهنم ، فلكل امرء منهم شأن يغنيه ، ويا لها من خسارة كبري.

[16] وبعد ذلك يـــبيّن الله لنا عـــذاب أولئك الـــذين خسـروا أنفسـهم وأهليهم ، أنهم يعيشـون في ظلل النـار في أســفل طبقاتها ، ولعل في هــذه إشــارة إلى ما في الـدنيا فما في الآخـرة تجسـيد للـدنيا ، فقد كـانوا واقعين تحت الحجب ، من حجب الشـــهوات ، الى حجب الثقافة الجاهلية ، والخضوع للطاغوت.

(**لَهُمْ مِنْ فَــوْقِهِمْ ظُلَــلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**)

إنّه محــاط من فوقه ومن أســفل منه بالنــار ، وربما كان قوله : «**وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**» دلالة على أنّ هناك من هم أسفل منهم في النار مثل أصحاب التابوت وغيرهم.

(**ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ**).

اتقوا عـذابي وغضـبي ، وتجيب الآيـات التاليـات كيف نجتنب غضبه.

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (18) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ (20) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (21)

---

21 [يهيج] : يجف الزرع وييبس ، من هاج أي ثار ، فكأن البنان يثور عن حالة الأولى.

فَبَشِّرْ عِبادِ

هدى من الآيات :

يستمر السياق في بيان نموذجين من النـاس ويقـارن بينهما لنعرف أنهما ليسوا سواء في الجـزاء ، ولكي نـزداد وعيا بهما فعـبر مقارنة النـور بـالظلام نتبصّـر بحقائقهما ، وقد نـزل القـرآن مثـاني يفـرق أبـدا بين الحق والباطل ، الصلاح والفساد.

وحين شرح الله صفات القانتين ـ وهم أئمة الهـدى ـ وميّزهم عن أصحاب النـار من أئمة الكفر ، عـاد إلى بيـان أشياعهما ، فهناك من يجتنب الطـاغوت ، ويسـتمع القـول فيتبع أحسنه ، وهناك من حقّت عليه كلمة العذاب.

ويذكّرنا الدرس بالعقل الذي هو لبّ الإنسان ، والـذي يهدي به الله قوما فيجعلهم من أصـحاب الجنة لهم غـرف من فوقها غــرف ، ويوقظ العقل بآيــات الله في الخليقة حيث يــذكّرنا بالــدورة النباتية الــتي تبــدأ بــنزول الغيث ، واخـتزان المـاء في الينـابيع ، وإخـراج الـزروع المختلفة ، وتنتهي بالحطام.

بينات من الآيات :

[17] من هو الطاغوت؟

كلّ من فرض نفسه زورا على الآخرين يعتــبر طاغوتا ، إذ قد يطغى المـرء في حـدود نفسه فلا يعبد الله ويتجبّر ويتكبّر ، ويسمّى طاغيا ، ويقول عنه الرب : (**إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى**).

وقد يتجــاوز حــدود ذاته إلى الآخــرين ، فيحــاول منع الناس عن عبادة الله ، ويـدعوهم إلى عبادته ، فيكـون قد بــالغ في الطغيــان ، فيســمى ب (الطــاغوت) لأنّ هــذه الصــيغة تعــني المبالغة ، كما نقــول ملكــوت مبالغة في الملك ، وجـــبروت مبالغة في الســـيطرة ، والرحمـــوت مبالغة في الرحمة.

وما هي عبادة الطاغوت؟

قليل من الشـعوب الخاضـعة لحكم الجبـابرة كـانت تـــزعم أنّهم آلهة فيســـجدون لهم تعظيما ، إنّما كـــان يستسـلم أكـثرهم للطـاغوت رهبا ورغبا ، أو استرسـالا ، وهكذا اعتبر طاعتهم لها عبادة وخضوعهم سجودا.

قال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ (حسب رواية أبي بصير) وهو يخاطب المؤمنين :

«**أنتم هم ، ومن أطاع جبارا فقد عبده**» [1]

وكيف يجتنب الطاغوت؟

(1) المصدر / ص (481).

الطـاغوت حقيقة قائمة في كـلّ مكـان تقريبا ، فـإنّى تولّيت وجدت سلطة شيطانية مفروضة ، وشـبكة فاسـدة من أنصاره وتابعيه ، والمؤمن هو الذي يجتنب هـذا الوضع ، ويطهّر نفسه من تأثيراته الفاســدة ، فهو إذا يثــور على الطاغوت ، ويتحـدّاه حـتى لا تشـمله سـيئاته ، وهـذا بعض معاني الاجتناب ، ولكن آثار الطـاغوت السـلبية تنتشر في كل مكـان ، وتصـيب المؤمـنين برذاذها شـاؤوا أم أبـوا ، فهـــذه أنظمته الاجتماعية والاقتصـــادية ، وتلك أفكـــاره الجاهلية تملأ المحيط الــذي يعيشه المؤمنــون ولا بد أنهم يخضعون لها حينا من الأحيان.

فما ذا يصنعون؟

إنّ عليهم الإنابة إلى الله في كلّ حين ، فكلّما هزمتك ضغوط السلطة الفاسـدة نفسـيّا ، وملت إليها أو خضـعت لقوانينها ، أو مالأتها خشـية بطشـها أو رغبة عطائها فلا بد أن تعـود إلى طهـرك ، وتتـوب إلى الله متابا ، لتكـون لك البشرى على لسان نبيّك المرسل.

(**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُـوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُـدُوها وَأَنـابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى**)

ويدخلك الله في حصن عبوديته.

(**فَبَشِّرْ عِبادِ**)

[18] لا يفـرض الطـاغوت على النـاس هيمنته حـتى ينشر بينهم فلسفته ، فهو كمدخنة كبيرة تنفث دائما تيـارا من الدخان الأسود فتلوّث الأجواء.

إنّ أجهزة إعلامه السـلطويّة تبثّ بين النـاس الأفكـار الشركية التي تبعدهم عن

ربهم ، وتشيع فيهم أفكارا باطلة تسلبهم ثقتهم بأنفسهم ، وتفـرّق كلمتهم وتضـعهم في هالة من الأمنيـات ، وتشـيع فيهم أنه مرهـوب الجـانب ، وقراراته صـائبة ، وهو رجل إلهيّ مقدّس.

كما أنّها تبث فيهم العصـــــــــبيّات العرقية والقبلية والقومية ، وتحمد إليهم أصنام الـتراث وأنصـاب المصـالح المادية.

وحول الطاغوت يتحلّق طائفة من تجّار الـدين والعلم ، يوحون إليه بالمكر ، ويزيّنون له باطله ، ويلمّعون للناس وجهه.

وهكذا يصبح التخلّص من دائـرة نفـوذ الطـاغوت عملا عسيرا يحتاج إلى همة واجتهاد ، ولعـلّ هـذا ما تشـير إليه كلمة «واجتنبوا» في الآية السـابقة ، والـتي تتخصّـص في هذه الآية باجتناب الثقافة الطاغوتية إذ يقول ربنا :

(**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**)

وهكـــذا يصف الـــذين تجـــانبوا الطـــاغوت وتأثيراته الشركية بأنّهم لا يتبعون أيّ قول بل أحسنه.

ولكن كيف يتم ذلك؟

أولا : إنّ عباد الله يتعاملون مع القول الـذي يعبّر عن الفكـرة باهتمـام منهم ، لا يسـمعونه بل يسـتمعون اليه ، وفـــرق بينهما كبـــير ، فالســـماع لا اهتمـــام فيه بعكس الاستماع ، وهكذا جاء في الحديث :

«**كونوا نقّاد الكلام**»

ثانيا : إنّهم يمارسـون التعقّل والتفكّر ليعرفـوا أحسن الحديث ، وبذلك يميّزون بين الـرديء والجيد وبين الحسن والأحسن ، فلا يكتفـون بمعرفة الجيد بل يسـعون لمعرفة الأحسن وفق قيم العقل والـوحي ، ذلك أنّ أحسن القـول هو الأصـلح لـدنياهم حسب هـدى العقل والأنفع لأخـراهم حسب هدى الوحي.

ثالثا : فـإذا عرفـوا الأحسن اتبعـوه ، ولم يبحثـوا عن العلم للعلم بل للعمل ، ولم يتعلّمـــوا العلم لينقلـــوه الى غيرهم بل ليعملوا به أوّلا.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ هَـــداهُمُ اللـــهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُـــوا الْأَلْبابِ**)

إنّهما حجتـان في حجة ، حجة الــوحي وحجة العقل ، وهما تجلّيان لنور الله ، الـذي أودعه بقـدر في ضـمير كل بشر ، وأنزله بهيّا عبر رسالاته ، وقد تجلّى هـذا النـور في ضمير هؤلاء لأنّهم اتبعـوا أحسن القـول. وهكـذا هـدى الله يتــنزّل على قلب من يســعى إليه ويتبعه ، أو لم يقل ربنا ســبحانه : (**وَالَّذِينَ جاهَــدُوا فِينا لَنَهْــدِيَنَّهُمْ سُــبُلَنا**) وباطل أمنية أولئك الذين ينتظرون الهـدى من دون سـعي وجهاد.

واســــتوحي من الآية فكــــرة اعتبرها مفتاحا لغيب الكتــاب الحكيم ، وهي : إنّ كل كتــاب ربنا حسن ، إلّا أنّ الناس يختلفون في مدى الانتقاع به ، فبعضه بالنسـبة الى البعض أحسن من غـــــــيره لحاجته الملحة إليه ، ومثل القــرآن مثل أنــواع الطعــام متشــابه في فائدته وروعته ولذته إلّا أنّ الناس يختلفون في انتفاعهم به.

فمثلا : آيـات الجهـاد تتجلّى في عصر التحـديات أكـثر من آيات الصبر ، بينما تتجلّى آيـات الإنفـاق للأغنيـاء بقـدر تجلّي آيات العفاف للفقراء.

ومعرفة الظروف الاجتماعية والشخصية تكون بالعقل ، فهو ليس دليلا مستقلا بين الأدلة الشرعية بالإضـافة الى الكتاب والسنة والإجماع ، بل هو النور الذي يعرف

به الكتــاب ، وبه نميّز الســنة ، وبه نثق بالإجمــاع ، فلو لا العقل كيف نهتـدي الى معـاني الكتـاب ، وكيف نصـدّق أو نكـذّب بـالرواة الــذين نقلــوا إلينا الســنة ، وكيف يعكس الإجماع لنا السنة؟

[19] وبعكس المؤمنين ، فـإنّ غـيرهم حين استسـلم لضلالة الطاغوت حقّت عليه كلمة العذاب حين أضـلّه الله ، وسلبه هدى عقله بعد أن أساء التصرّف معه.

(**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ**)

وأضـــلّه الله وألزمه التيه لأنّه لم ينتفع بعقله ولم يتّبع هدى ربه.

(**أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ**)

إنّه لا يتخلّص من النــار أبــدا ، لأن وســيلته الوحيــدة للإنقاذ رحمة الله وهو محروم منها.

[20] ذلك كان جزاء الذين اتبعوا الطاغوت. أمّا الذين اتقوا في الدنيا فهم يحبرون في الجنة.

(**لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ**)

وهي البيوت المرتفعة.

(**مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ**)

مما يشــــبه العمـــارات المبنية بإتقـــان ذات طوابق عديدة.

(**مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**)

والذي يضـمن هـذا الجـزاء الحسن لهم هو وعد اللـه. أترى يخلف الله وعده؟

(**وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ**)

ويشـوّقنا الرسـول ــ صـلّى الله عليه وآله ــ الى تلك الجنة في تفسـيره للآية فيقـول في جـواب علي ـــ عليه السلام ـ حين سأله عن تفسير الآية :

«بماذا بـنيت هـذه الغـرف يا رسـول اللـه؟ فقـال : يا علي تلك غرف بناها الله لأوليائه بالدر والياقوت والزبرجد ، سـقوفها الـذهب ، محبوكة [1] بالفضة ، لكل غرفة منها ألف بـاب من ذهب ، على كل بـاب منها ملك موكّل به ، وفيها فـرش مرّفوعة ، بعضـها فـوق بعض من الحرير والديباج بألوان مختلفة ، حشوها المسك والعنبر والكافور ، وذلك قول الله : (**وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ**) فإذا دخل المـؤمن الى منازله في الجنة وضع على رأسه تاج الملك والكرامة ، وألبس حلل الذهب والفضة والياقوت والدر منظوما في الإكليل تحت التـاج ، وألبس سـبعين حلة حرير بـألوان مختلفة ، منسـوجة بالـذهب والفضة واللؤلؤ واليـاقوت الأحمر ، وذلك قوله : (**يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ**) فـإذا جلس المـؤمن على سريره اهتز سريره فرحا ، فإذا اسـتقرت بـوليّ الله منازله في الجنة استأذن عليه الملك الموكل بجنانه ليهنئه بكرامة الله إيّاه ، فيقول له خدّام المـؤمن ووصـفاؤه [2] : مكانك فإنّ وليّ الله قد اتكى على أريكته وزوجته الحوراء العينـاء قد ذهبت اليه فاصـبر لـوليّ الله حـتى يفـرغ من شغله» [3]

[21] حين نتأمل في نعم الله المبثوثة حولنا نـزداد إيمانا بصدق وعد ربنا بنعم الجنة التي هي أنقى وأبقى.

---

(1) حبكه : شدّه وأحكمه.

(2) وصفاء جمع الوصيفة : الجارية.

(3) المصدر / ص (483).

تعالوا إلى الــروابي لننظر الى الغيث حين يــنزل على الأرض فينشر الله عليها بركاته. تأملوا في طبقات الأرض ، وأمعنــوا النظر في القنــوات الــتي جعلها الله فيها وفي الأحواض الكبيرة التي تنتهي إليها فتختزن مياه المطر بعد تنقيتها في جــوف الأرض ثم تتفجّر ينــابيع مســتمرة على مدار السنة .. أو لا تشهدون يد القدرة الإلهية التي نظّمت الخليقة أحسن تنظيم؟!

(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً**)

كيف سـخّر الريـاح لحمل السـحب الثقيلة من أعـالي البحــــار ، وكيف مرّرها بتيــــارات بـــــاردة ، وكيف لقّحها بعواصف الرياح الهـوج في جـوّ السـماء؟! ثم كيف هـداها الى حيث أمرها بإلقــاء حملهــا؟! تبــارك الله ربّ القــدرة والرحمة.

والمـاء هو المـاء ، ولكنّه ينقسم الى ما يصـرف آنيا ، وما يختزن في باطن الأرض.

(**فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ**)

من الربيع الى الخريف ، ومن الشــــــــتاء الى قيض الصيف.

(**ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ**)

فإذا بالماء الواحد يجعله الله نباتات مختلفة.

(**ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا**)

فحين تينع الثمــار ، وتيبس الحبــوب ، لا تســتقر في مواقعها ، بل تميل الى الصــفرة بعد الخضــرة اســتعدادا لحصادها.

(**ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً**)

يابسا تذرّه الرياح ، والحطـام ما يتفتت من النبت ، أو لا ترون آثار القدرة والتدبير في كـلّ هـذه الـدورة الحياتية السريعة؟!

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ**)

يعرفون الله من خلال آياته ، ويعرفون صـنع الله فيما يـأتي من خلال صـنعه فيما مضى ، ويعرفـون سـنة الله الواحدة في الخلق فكما تمرّ النباتات بالدورة الحياتية يمر الإنسان بذات الدورة ، وعليه أن يسـتعدّ للرحيل ، ويـتزوّد للمسير بالتقوى ، ويأخذ من دار الغرور لدار الجزاء.

وكلمة أخيرة : إنّ هـذه الـدورة النباتية تعكس النبـات في حـالتين : عند ما يزهو في اخضـراره ، وحينما يكـون حطاما. إنّه ذات النبـات يمر بحـالتين ، كـذلك الإنسـان قد يكون في ذروة إيمانه وقد يكـون في حضـيض الكفـر. هل يستويان مثلا؟!

أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَـدْرَهُ لِلْإِسْـلامِ فَهُـوَ عَلى نُـورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْـرِ اللـهِ أُولئِكَ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (22) اللـهُ نَـزَّلَ أَحْسَـنَ الْحَـدِيثِ كِتابـاً مُتَشـابِهاً مَثـانِيَ تَقْشَـعِرُّ مِنْـهُ جُلُـودُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْـرِ اللـهِ ذلِـكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَـهُ مِنْ هادٍ (23) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُـوءَ الْعَـذابِ يَـوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيـلَ لِلظّالِمِينَ ذُوقُـوا ما كُنْتُمْ تَكْسِـبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَـذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْـعُرُونَ (25) فَـأَذاقَهُمُ اللـهُ الْخِـزْيَ فِي الْحَيـاةِ الدُّنْيا وَلَعَـذابُ الْآخِـرَةِ أَكْبَـرُ لَـوْ كـانُوا يَعْلَمُـونَ (26) وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي

---

23 [مثاني] : جمع مثـنى أي أنّ قصص هـذا الكتـاب وإخباراته وأحكامه تذكر مثنى مثنى في قوالب مختلفة للتركيز في الأذهان.

هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (29)

---

29 [متشاكسون] : التشاكس التمانع والتنازع ، وأصله من الشكاسة وهو سوء الخلق والاختصام.

اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ

هدى من الآيات :

من تجلّيات الإعجاز البلاغي في كتـاب ربّنا أنّه مثـاني تقشعرّ منه جلـود الـذين آمنـوا ، ومن معـاني المثـاني أنّه يتابع سلسـلتين من الأفكـار متـداخلتين يتحـدّث عنهما معا في سياق آياته بنظم دقيق ومنهج متين ، ذلك أنّه من الله الذي لا يشغله شيء عن شيء.

وهنا نجد السياق في ذات الوقت الذي يتـابع الحـديث عن فـوارق النمطين من النـاس : فهنـاك من شـرح الله صــدره للإســلام ، وهنــاك من قسى قلبه من ذكر الله ، ويتقي بوجهه سـوء العـذاب ، ويكـذب بالله ليلقى جـزاءه خزيا في الـدنيا ، في ذات الـوقت يـبيّن خصـائص القـرآن وكيف تتلقّاه النفـوس الطيبة ، وكيف يضـرب الله فيه من كلّ مثل للناس لعلّهم يتذكرون.

بينات من الآيات :

[22] ما هي المعرفة ، وكيف يتخلّص البشر من رواسب الجهل ، ولماذا نجد البعض يرتفعون الى أعلى درجات الإيمان بينما يهبط الآخرون الى الحضيض في الكفر؟

للقرآن بصيرة واضحة في المعرفة تتلخص في أنّ محل العلم القلب ، فإذا كان منشرحا ازداد معرفة وإيمانا ، بينما القلب القاسي لا يتّسع للمعرفة.

(**أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ**)

ما هو الصدر المنشرح بالإسلام؟

الإسلام هو التسليم لله لسنن الله لشرائع الله وللحق أنّى كان ، فإذا شرح الله الصدر خشع له ولان لكلمات الله ووسعها كما تخشع الأرض الطيبة لماء السماء ، كما تلين التربة الصالحة لنبتة مباركة ، كما تستقبل الزهور النسيم العليل ، بينما القلب القاسي كالصخرة الصمّاء لا يتسع لمعارف الحق ، ولا يهتزّ لوابل السماء ، ولا ينبت زهرة ، ولا يستقبل نسمة.

هكذا أوصى نبيّنا الأكرم ابن مسعود فقال له : «يا ابن مسعود! فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه ، فإنّ النور إذا وقع في القلب انشرح وانفتح.

فقيل يا رسول الله : فهل لذلك علامة؟ فقال : نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة الى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الفوت ، فمن زهد في الدنيا قصر أمله فيها ، وتركها لأهلها» [1]

---

(1) بحار الأنوار / ج (77) ص (93).

(**فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ**)

فبالنور الربّاني يتصل صدر الإنسان بعالم الحقائق ، فيتسع لها ، وينشرح بها ، ونور الله هو العقل المستضيء بالوحي ، ولعل التعبير ب «على» للإيحاء بأنّ المؤمن ماض على صراط مستنير ، كقوله سبحانه : (**أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ**).

ويمكن أن نستوحي من الآية : أنّ للقلب حالتين : فهو ينغلق على ذاته فلا يرى إلّا نفسه فيعيش فقط ضمن مصالحها وتمنياتها وأوهامها ، ويريد العالم المحيط لذاته ، فيكون قاسيا ومع الهوى متقلّبا ، وبالرين والطبع متلبّسا ، لا يعترف بقانون ، ولا يؤمن بسنة ، ويكون مثله من يعيش في بيت ويزعم بألّا أحد يمكث فيه معه ، فيفعل فيه ما يشاء ، ويتحلّل من كلّ التزام ، وأمّا الحالة الثانية فهي الخروج من زنزانة الذات الى رحاب الحقيقة ، حيث يعيش في عالم واقعي يعترف بوجوده ، ويسعى للتعرف عليه والتكيّف معه ، ان مثل صاحبها كمن يدخل بلدا ويعلم أنّ فيه أناسا لا بد أن يعايشهم ، وأنّ لهم قوانين لا بد من الالتزام بها ، وهكذا لا يضيق ذرعا إذا تعرّف عليهم وعرف حقوقهم ، بل أنّه يستقبلهم بترحاب ، ويخضع لنظامهم بلا تردّد.

وإذا كانت الحالة الأولى تعكس الجمود والتخلّف والجهل والفوضى ، فإنّ الحالة الثانية هي ذروة النشاط والرقي والعلم والالتزام.

(**فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ**)

الله الذي وسعت كلّ شيء آيات رحمته وقدرته وعظمته ، مع ذلك ترى قلوبهم قاسية من ذكره ، فكيف سائر حقائق الخلق؟ أرأيت من عمي عن ضوء الشمس هل يرى شمعة؟! كذلك حين قسى القلب عن ذكر الله فلا يرجى أن ينشرح لمعرفة

شيء.

(**أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

يحيط بهم الضلال المبين كما يحيط بأولئك نور الله.

[23] من أبرز معالم شرح الصدر استقبال نور الله في القرآن ، فلقد أنزل الله أحسن الحديث ، اختصر الجمال والروعة والبلاغة والعلم والهدى والنور ، وتجلّى فيه الربّ حتى رأت فيه قلوب المؤمنين جمال ربّهم كما رأت أعينهم جمال صنعه.

(**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**)

إنّه مرآة تعكس روعة الخلق وجمال الخالق وأحسن الخلق وأنبل الأعمال ..

(**كِتاباً**)

منتظما في وحدة متماسكة ، مجموعا الى بعضه بتماسك لا ثغرة فيه ولا فطور ، ولا تناقض ولا اختلاف.

(**مُتَشابِهاً**)

بعضه يشهد على بعضه ويفسره ويبينه ، وفي ذات الوقت لا يرقى الى كنه فهمه عقل ، ولا ينفذ في غور علمه أحد ، وكلّما تلوت آياته استفدت علما جديدا وهدى طارفا ، وما أوتيت من علم فهو بالنسبة إليك محكم ، ولكن يبقى ما لم تؤت من علم كالمحيط الواسع لا تتناهى عجائبه ولا تنقضي غرائبه.

(**مَثانِيَ**)

فنجد فيه :

أوّلا : مفارقــات بين الخــالق والمخلــوق ، بين الحق والباطل ، بين المحسن والمســـــيء ، كما يــــــذكّرنا بالمفارقـــات الظـــاهرة بين النـــور والظلام ، بين الظل والحرور ، بين الحرية والعبودية ، و. و.

ولعل سورة الزمر قد بلغت الـذروة في هـذا التميّز ، بالـذات بين النـاس حيث تجلت فيها صـفة (الفرقـان) في معرفة الصالحين وتزيّلهم عمن سواهم.

ثانيا : مقارنات بين أزواج الطبيعة ، بين الذكر والأنثى ، بين السماء والأرض ، البر والبحر ، الإنسـان والحيـوان ، الزيتون والأعناب ، الفاكهة والأب ، وهكذا.

ثالثا : شواهد وأمثلة ، فما من حقيقة يـذكّر بها كتـاب ربّنا إلا وتتثنّى بتفسـيرها ودليلها ومثالها ، فما تتلو فيه من آية حتى تجد في السياق عادة أو في موقع آخر تبيانا لها ، فـإذا ذكـرت عاقبة المتقين ضـربت لها أمثلة من جـزائهم عند الله وانتصـارهم في الـدنيا ، وإذا ذكـرت من صـفات المتقين واحدة ثنّيت بشواهدها من حيـاة النبـيين ــ عليهم السـلام ــ ، وإذا ذكـرت حقيقة من حقـائق التوحيد تـوالت شواهدها.

فمثلا حين ذكر السياق شرح الصدر بالإسلام بين مثله في خشوع قلب المؤمنين لآيات الذكر.

وهكـذا أشـارت الآيـات التالية إلى أنّ القـرآن ضـرب للناس من كلّ شيء مثلا ، فيكـون المثل تثنية كـلّ حقيقة مذكورة في القرآن.

هذا بعض معاني المثاني.

ولأنّه مثـــاني تشـــفع الحجة بالحقيقة فـــإنّ قلـــوب المؤمنين تصعق له ، وتسري في

أعصابهم رعشة الخشية ، فتهتز تبعا ـ لذلك ـ جلودهم.

(**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**)

عند ما تواجه النفس حقيقة أكبر من سعتها تندهش بها وتحصل لصاحبها قشعريرة ، أمّا لاهتزاز الأعصاب أو لتجمع الدم حول القلب كما يحصل في حالات الخوف الشديد.

ولأنّ هذا الفريق يخشون ربهم ، ويعرفون شيئا من عظمته وكبريائه ، ويعلمون أنّ الكتاب رسالة الله إليهم ، فلا تكاد قلوبهم تستقر لتجلياته الظاهرة في كتابه ، ولولا أنّ الله يؤيدهم في تلك اللحظة بروحه لتصدّعت قلوبهم كما اندك الجبل عند ما تجلّى الربّ له أمام موسى فخرّ موسى (ع) صعقا ، أرأيت تجلّى الله للجبل كان أعظم من تجلياته في كتابه للرسول والمؤمنين؟

إنّما المؤمنون توجل قلوبهم بمجرد ذكر الله ، فكيف لا تصعق عند ما تتلى عليهم رسالة الله إليهم ، إنّه الله يتحدّث إليهم فكيف يصمدون ، بلى. أنا وأمثالي الذين أحاطت الشهوات بقلوبنا لا نعرف ذلك ، إلّا إذا رفع الله الحجب واتصل القلب بنور الربّ.

(**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ**)

إذا ذهبت آثار الصدمة ، وتغلّب العقل بتأييد الله على هول المواجهة ، لانت الجلود تعبيرا عن خشوع القلب ، واستعدادا لاستقبال ضياء الهدى.

وقال المفسرون : إنّ قشعريرة الجلد تعبير عن خشيتهم من عذاب الله ، أما حين يلين فإنّه دليل على طمعهم في رحمة الله ، وهكذا يعيش قلب المؤمن بين الخوف

والرجاء.
وقـال الفخر الـرازي : إنّ المقـامين المـذكورين في الآية «تقشـعر وتلين» لا يجب قصـرهما على سـماع آية العذاب والرحمة ، بل ذاك أوّل المراتب ، وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر في حصول تلك الحالتين.
ثم تنـاول هـذا المفسر الكبـير الفـرق بين حالة المؤمـنين عند تلاوة الكتـاب ، وحالة الوجد الصـوفية عند سـماع أشـعار الهجـران والوصل ، وقـال : إنّ الشـيخ أبا حامد الغزالي أورد مسألة في كتاب «إحياء علوم الـدين» وهي أنّا نـرى كثـيرا من النـاس يظهر عليه الوجد الشـديد التـام عند سـماع الأبيـات المشـتملة على شـرح الوصل والهجر ، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شـيء من هـذه الأحـوال ، ثم إنّه سـلم هـذا المعـنى وذكر العـذر فيه من وجـوه كثـيرة ، وأنا أقـول : إنّي خلقت محروما عن هـذا المعـنى ، فـإنّي كلّما تـأمّلت في أسـرار القـرآن اقشـعرّ جلـدي ، ووقف عليّ شـعري ، وحصـلت في قلـبي دهشة وروعة ، وكلّما سـمعت تلك الأشـعار غلب الهـزل عليّ ، وما وجـدت البتة في نفسي منها أثـرا ، وأظن أنّ المنهج القـويم والصـراط المسـتقيم هو هـذا ، ثم ذكر وجوها في بيان ذلك تتلخّص فيما يلي :
أولا : إنّ تلك الأشـعار لا تليق بمقـام الخـالق ، وإن إثباتها في حقّه كفر.
ثانيا : إنّ قائل القـرآن هو الله عـبر جبرائيل إلى الرسول إلينا ، بينما قائل تلك الأشعار شاعر كذّاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور.
ثالثا : إنّ مـدار القـرآن الـدعوة الى الحق ، ومـدار الأشعار الباطل. [1]
وأقـول : إنّ تلك الأشـعار تثـير شـهوات البعض ، وتدغدغ عواطف الهوى المكبوتة

---

(1) راجع التفسير الكبير / ج (26) ص (273).

لديهم ، بينما تستثير آيـات الـذكر دفـائن العقـول ، وتجلي القلوب من رين الشهوات ، وكلّ إناء بالذي فيه ينضح.

(**ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ**)

وأنّ أولئك الـذين يبحثـون عن سـبل الـزلفى الى الله عبر الأشعار الجاهلية والطرق غير الشرعية لا يهديهم الله اليه ، بل يضلّهم لأنّهم لم يتبعوا الوسيلة التي بيّنها لعباده.

(**وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ**)

فمن شاء أن يهتـدي إلى ربّه سـبيلا فعليه أن يتوسّـل به إليه ، وبأوليائه الذين جعلهم وسائل رحمته ، وألّا يخترع لنفسه مــذهبا فيضــلّه الله ، وأن يعلم أنّ الله يــدلّ على ذاته بذاته ، ولا شيء أظهر دلالة منه ولا شـفيع إلّا من بعد إذنه ، وهكــذا يخلص النية لربه ، وحاشا لله أن يخيب ظنّ عبده به.

[24] ويعود القرآن الى مفارقته بين من يتقي به في الـدنيا فينجيه الله من عـذاب النـار ، وبين من لا يتقي ولا يجد هنـاك شـيئا يحتجز به عن النـار ، فـتراه يضـطر الى اتقاء النار بوجهه.

(**أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ**)

أيّ عذاب هائل ذلك العذاب ، حين تتميّز جهنم غيضا ، وتتفجر فيها النيران تفجّرا ، ويـأتي المجرمـون لا يملكـون من الثـواب ما يقيهم النـار ، فتتعـرض وجـوههم لها ، تلك الوجــوه الــتي اعــتزوا بها وبإثمها في الــدنيا ، وصــانوها بأيديهم وبما يملكون.

(**وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**)

إنّ الفواحش التي يرتكبها الظالمون في الدنيا تتجسد في صـورة نـيران ملتهبة وعقـارب وحيـات. أرأيت الـذي يصـنع القنبلة النووية بيـده ثم يفجّر نفسه والبلاد كيف أنّه حين يصـنعها لا يتصـور بسـهولة هـول عـذابها ، كـذلك المجرمون حين يزنون أو يغتابون أو يأكلون أموالهم بينهم بالباطل أو يؤيّدون الطاغوت لا يتصوّرون أيّ عذاب شـديد يكتسبونه ويعدونه لأنفسهم في يوم القيامة.

[25] وكما هو في الآخرة كذلك في الدنيا ، فمن بنى السدّ وطغى به عذّب به ، كما أنهار سد مأرب ، ومن عبد الحجـارة ، أو اتخذ من الجبـال أكنانا عـذّب بها كما عـاد وثمود ، ومن عبد الماء أغرق فيه كقوم فرعون.

(**كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَـذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ**)

فمن كذّب بآيـات الله وصـدف عنها أتـاه العـذاب من حيث لا يشعر ، وعلينا أن نراجع قصص القرآن كيف عذب الله الأقـوام ، فهل كـان يتصـور فرعـون أنّ موسى (ع) الـذي ربّـاه في بيته يكـون فنـاء ملكه على يديـه؟! كلّا ... وهل كان يعلم فرعون وملؤه الذين عبـدوا المـاء ، فكـانوا يرمون في النيل بأجمل فتياتهم لإرضـائه ، وكـان فرعـون يفتخر بالأنهـار الـتي تجـري من تحته ، وكـانت حضـارتهم قائمة عليه ، هل كانوا يعلمون بـأنّهم سـوف يغرقـون في معبودهم وأسـاس تحضّـرهم. إنّ الـذي يكـذّب بآيـات الله يكون هلاكه بالقوة التي يعتمد عليها (يعبدها).

[26] (**فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**)

لأنّهم كانوا يستكبرون ، ولا يعـترفون بشـيء غـرورا ، والآن يجب أن يلاحقهم الخزي والعار ، هذا في الدنيا ...

(**وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**)

أكـبر خزيا وألما ، والإنسـان يهـرب من عـذاب الـدنيا فكيف لا يهرب مما هو أكبر منه؟!

[27] وبعد ذلك يذكّرنا الربّ بأنّه ضـرب لنا الأمثـال ، من قصص الأنبياء وأممهم.

وهي وقـائع خارجية جسّـدت القيم الـتي يبشّـر بها القرآن وهذا المعنى المثل أي التطبيق الخارجي للحقيقة.

(**وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)

والتعبير «بكل مثل» يدلّ على أنّ في القـرآن إشـارة الى كـلّ الحقـائق ، وذلك عـبر أمثلة واقعية لها ، فـإنّى تفكّـرت فيه مما يتصل بـالخلق والخـالق والصـلة بينهما وصلة الخلق ببعضهم وغيرها مذكور في القـرآن ومفصّـل بالأمثلة الـتي لا تقتصر على حيـاة الشـعوب السـابقين بل وتشمل إشارات الى الطبيعة وأحوالها.

[28] وبعد ذلك يأخذنا الربّ الى صـفات ذلك القـرآن الذي يضرب فيه من كلّ مثل ، ويذكر له صفات ثلاث :

1 ـ قرآنا : مقـروءا ، يوصـلنا بالماضي ، ويفصّـل لنا الحاضر ، ويرسم خريطة المستقبل.

2 ـ عربيّا : بلغة مفهومة ، فأعرب الكلام أفصح عنه ، ويقال أعرب فلان عن أستيائه أي بيّنه ، والعربي هو الذي يكون فصيحا بليغا.

3 ـ غير ذي عـوج : ليس به انحـراف يمنة أو شـمالا ، شرقا أو غربا ، ذلك أنّ

من أسباب الانحراف الجهل والهوى والاستسلام للضغوط ، وتعـالى الله عن كـلّ ذلك ، وهكـذا يفصح القـرآن عن الحقائق بصورة مباشرة.

(**قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**)

وهذا هدف القرآن ، إنه يريد منا أن نتقي الله ونخافه ، ونعمل بمضمون التقوى من إصلاح دنيانا وأخرانا.

[29] ومن أمثلة القـرآن الـتي تقـرّب الى أذهاننا قبح الشركاء اشتراك مجموعة في امتلاك شخص.

(**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ**)

هل يســـتوي عبد يملكه أكـــثر من مالك وعبد يملكه رجل واحـــــد؟! كلّا ... لأنّ في الثــــاني كل مالك يريد أن يجيّره لحسابه على حساب الآخرين ، وقد بيّن الباري ذلك في قوله : (**وَإِنَّ كَثِـيراً مِنَ الْخُلَطـاءِ لَيَبْغِي بَعْضُـهُمْ عَلى بَعْضٍ**) [1] وقـال تعـالى : (**لَوْ كـانَ فِيهِما آلِهَـةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**) [2] وقال تعالى عن استحالة الأشـباه والأعضـاد : (**مَا اتَّخَـذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَـذَهَبَ كُـلُّ إِلـهٍ بِما خَلَـقَ وَلَعَلا بَعْضُـهُمْ عَلى بَعْضٍ سُـبْحانَ اللـهِ عَمَّا يَصِفُونَ**) [3].

وهنــاك مثــال من واقعنا : حيث تعيش بعض الــدول المستضعفة في إطار ولاءات مختلفة فتتصارع عليها قوى الشرق والغرب ، وقد يجري الصراع على أراضيها وبأيديها ، ويكون بالتالي الغرم لها والمكاسب للأسياد ، وآخر مثال على ذلك ما

---

(1) ص / (24).

(2) الأنبياء / (22).

(3) المؤمنون / (91).

يجري حتى اليـوم في كمبوديا حيث تتصـارع قـوى عالمية عديدة على أراضيها وبأبنائها ولكن لمصالح الأجـانب ، وقد هدّمت البلاد وقتل من الشعب الكمبودي زهاء ثلاثة ملايين بشر.

وليست الآلهة الـتي تعبد من دون الله سـوى رمـوز للقوى السياسية والاجتماعية الـتي تتصـارع على اسـتعباد البشر فتجرّ إليه الـويلات ، وما يخلصـنا سـوى التحـرر من عبادتها والتمـرّد على سـلطانها للنجـاة من مشاكسـاتها وحروبها التي تطحننا اليوم طحنا.

(**وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً**)

كلّا ... إنّ الرجل الذي يقوده شـخص واحد باسم الله ولا تتـداخل فيه شـهوات الآخـرين ولا ضـغوطهم ولا مصالحهم يعيش دائما في حريّة مستقيما في طريق واحد ، لا تعصف به الاختلافـات ، ولا تتحكّم فيه الفوضى ، ولا يواجه مشكلة تعدد الولاءات ، إنّه لا يخـاف الصـراعات ولا تنافس القوى عليه ، إنّه يعيش بعيدا عن أهواء الشـياطين وأطماع الحكام.

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين (ع) أنّه قال :

وأنا السلم لرسـول الله (ص) يقـول الله عـزّ وجـلّ : «ورجلا سلما لرجل» [4]

وعن أبي جعفر (ع) في الآية قال :

«سـلما هو علي (ع) لرجل هو النـبي (ص) وشركاء متشاكسون : أي مختلفون ، وأصـحاب علي مجتمعون على ولايته» [5]

---

(4) تفسير البرهان / ج (4) ص (75).

(5) المصدر.

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

فلا يفرّقون بين الذين يوحّد الله ويخضع فقط لأوليائه ومن تستعبده قوى السلطة والثروة.

وهكــذا ضــرب الله لنا مثلا للتوحيد من واقع الحيــاة الاجتماعية والسياســـية ، وميّز بين نمطين من الحيـــاة ، حيــاة الاســتقلال وحيــاة العبودية ، وذلك تكميلا لبيــان المفارقات في سورة الزمر.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُـونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ عِنْــدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِــمُونَ (31) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَـذَبَ عَلَى اللـهِ وَكَـذَّبَ بِالصِّـدْقِ إِذْ جـاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (32) وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَـدَّقَ بِـهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُـونَ (33) لَهُمْ ما يَشـاؤُنَ عِنْـدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَـزاءُ الْمُحْسِـنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللـهُ عَنْهُمْ أَسْـوَأَ الَّذِي عَمِلُـوا وَيَجْـزِيَهُمْ أَجْـرَهُمْ بِأَحْسَـنِ الَّذِي كـانُوا يَعْمَلُـونَ (35) أَلَيْسَ اللـهُ بِكـافٍ عَبْـدَهُ وَيُخَوِّفُونَـكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْـلِلِ اللـهُ فَما لَـهُ مِنْ هـادٍ (36) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (37) وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَـلْ هُنَّ كاشِـفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُـلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكـانَتِكُمْ إِنِّي عامِـلٌ فَسَـوْفَ تَعْلَمُـونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (40) إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْـــكَ الْكِتـــابَ لِلنَّاسِ بِـــالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِـلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ

هدى من الآيات :

تهبط آيــات القــرآن كالصــاعقة على القلب الغافل فتفجّر فيه طاقـات الفهم ، وتثـير فيه دفـائن العقل ، من ذلك ما نجــده في هــذا الــدرس حيث يهــدينا الى حقيقة يحاول ابن آدم إنكارها تكبّرا وعلوّا حتى أضحت تشـبه في إنكار الناس لها الباطل ، وتلك هي الموت الذي ينتظر كلّ حي ، ولكنّ الموت هو أهـون المراحل الـتي تنتظرنا ، فما بعده أعظم ، كالاختصام يوم القيامة ، ذلك لأنّ الإنسان لا يســتطيع في ذلك اليــوم حين يقف وحيــدا أمــام محكمة الحق أن يتهرّب من الحقائق ، فلا بد إذا أن نهتم بالمعايير الأخروية اليــوم وقبل ذلك اليــوم. وفي بداية ســورة آل عمــران قلنا : إنّ الإيمــان بــالبعث يمثل حجر الزاوية في كفر الإنسان المسلم ، حيث يحافظ على توازنه ، ويدعوه إلى الإيمان بحقائق خـارج محيط ذاته وأنّها هي المحـور ، وإذا آمن الإنسان بوجود محور في الحيـاة بحث عنه ، وإذا بحث عنه وجده.

وهـذا الـدرس امتـداد للـدرس الماضي ، حيث ذكّرنا هنالك أنّ القلب الخاشع لله

يهديه الله للإسلام ، فيعترف بوجـود الحق ، بعكس القلب القاسي المنغلق على ذاته ، الـذي لا يعـترف إلّا بما يعيش داخله ، فهو يتمحور حول ذاته.

وفي هذا الدرس يعرض القـرآن مفارقة بين من جـاء بالصدق وصدق به ، ومن يكـذب على الله ويكـذب بـالحق ويـدّعي الأنـداد لله ، وبعد ذلك يعلن الله كفايته لرسـوله رغم تخويف المشـركين له بالـذين من دونه ، وأنهم لن يستطيعوا إضـلال من هـداه الله ، ولا يسـتطيع الـذين من دونه كشف الضر عنّا أو منع الخير.

بينات من الآيات :

[30] من أبرز وأخطر مصيبات البشر انغلاق قلبه عن حقـائق الخليقة ، وإيمانه بمقـاييس ذاتية ، يقيم بها الأحـداث والأشـخاص من حوله ، فكيف يتخلّص الإنسـان من هذه المصـيبة الـتي تعمّ سـائر أبنـاء آدم ، وتعبـير آخر كيف يتقي الإنسـان شـحّ ذاته ، ويخـرج من زنزانة نفسه الضيقة إلى رحاب الحق؟

لا ريب أنّ وعي المـوت والنشـور ثم الوقـوف أمـام محكمة الحق أقرب السبل للخلاص من هـذه البلية ، ذلك أنّ اعتقـاد الإنسـان بوجـود مقـاييس موضـوعية ثابتة عند الله ، وأنّه سوف يعـرض عليها بأفكـاره وأقواله وأعماله ، وسوف يحاكم وفق تلك المقاييس شـاء أم أبى ، كل ذلك يعيـده إلى رشـده ، وينمّي عقله على حسـاب هـواه ، ويجعله يبحث عن تلك المقـاييس اليـوم وقبل فـوات الأوان.

هكذا يدعونا الإيمان بالبعث إلى الإيمان بكلّ الحقـائق ، وهو كما أسلفنا حجر الزاوية في بناء صرح المعرفة عند الإنسان ، وقبل الإيمان بالبعث لا بد من وعي الموت.

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

فـإذا مـات الرسـول (ص) رغم عظمته وجلال مقامه فهل يبقى أحد منّا؟! قال تعـالى : (**وَما جَعَلْنا لِبَشَـرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ**) [1]

ويبـدو لي أنّ الخطـاب ليس خاصا برسـول الله (ص) فكل من يقرأ القـرآن معـني بهـذا الخطـاب ، لأنّ القـرآن نزل على لغة (إياك أعني واسمعي يا جارة).

هكذا تبعث هذه الآية في أنفسنا يقظة ، وفي أعصابنا رعشة ، وفي عقولنا إثـارة ، وفي أفئـدتنا سـكينة ، فـأيّ هيبة عظيمة للمـوت ، هـذا البـاب الـذي لا يعـود منه من دخله ، ولا ينجو منه من هـــرب منه ، وأين يـــذهب أعزتنا الذين نحملهم كل يوم إلى المقابر مرغـومين ، ونقف عند أجـــداثهم مرهـــوبين ، ويهمس في آذاننا داعية الحق آنئذ قائلا :

وإذا حملت إلى القبـــــور جنـــــــــــــــــازة ... فاعلم بأنّك بعـدها محمـول

ويقول الإمام علي (عليه السلام) :

«**لو رأى العبد أجله وســـرعته إليه لأبغض الأمل وترك طلب الدنيا**» [2]

[31] وهل تنتهي المشكلة عند الموت؟ كلّا ...

(**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**)

فخلافاتكم في الدنيا تنتقل إلى الآخرة ، وربّنا سبحانه هو الحكم يومئذ ، والمـوازين والقـوانين يومئذ غيرها في الدنيا ، وعلينا أن نبحث عنها وأن نطبّق حياتنا

---

(1) الأنبياء / (34).

(2) نور الثقلين / ج (4) ص (489).

وفقها إن أردنا الحياة.

[32] ومحور المعـايير هنالك الصـدق ، وأظلم النـاس لنفسه من كـذب على الله وكـذّب بالصـدق ، ولكن كيف يكذب على الله؟

يزعم الإنسان حينما يقسو قلبه ، وينغلق عن الحقائق ، بأنّ ذاته هي الحق ، ويكون مثله مثل ذلك الـذي سـئل : أين مركز الـدنيا؟ فقـال : حيث يقف حمـاري ، لقد كـان يزعم هو والكثير من أمثاله بـأنّهم مركز الحيـاة ، فالعـالم يبـدأ من حيث هم ، وليس من حيث هي ، ويتصـورون أنّ الحقّ ما يرونه ، والباطل ما يرفضـونه ، وهـذا هو الكـذب على الله ، وحين يعرفون دين الله تراهم تبعا لهـذه الحالة النفسية يحقّـون الباطل ويبطلـون الحق ، وهكـذا يكـذبون على الله افتراء عليه.

(**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ**)

وبيان الرسول لهـذه الحقيقة شـاهد على صـدقه ، إذ من يكــذب على الله يهــوّن على نفسه هــذا الــذنب ثم يرتكبه ، بينما نـرى الرسـول بـالعكس تماما يـبيّن مـدى جريمة الكذب على الله.

وكثير من النـاس يمارسـون الكـذب على الله وهم لا يشـعرون ، وذلك حين يقولـون : هـذا حلال وهـذا حـرام ، دون سلطان من الله أتاهم.

وجرم الكاذب على الله عظيم ، ولا يعادله إلّا تكـذيب الصدق الذي يجيء من عند الله ، إذ الإنسان مسـئول عن معرفة الصـدق والتصـديق به ، ولا يجـوز أن ينطـوي على نفسه ويقول : من أين نعرف صدق هذا الداعية؟

(**وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ**)

وجــــزاء هـــــذا وذاك الإقامة في جهنم ، لأنهما معا كافران.

(**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ**)

ويترك السياق الجواب عليهم لكي تقرّ ألسنتهم به.

[33] وفي مقابل هــــؤلاء يقف الصـــــادقون فحين يخرجــون عن ذواتهم يــرون الحق بوضــوح ، لأنّ مشــكلة الــذي لا يــرى الحق انغلاق نفسه ، فهل تــدخل الشــمس غرفة مغلقة مســدلة الســتائر؟! كلّا ... فعلى الإنســان أن يفتح صــــدره ، ويزيل الســـتائر والحجب عن ذاته ، لكي يدخل نور الله أرجاء قلبه.

(**وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ**)

«جاء بالصدق» أي دعا اليه كالرسول ، «وصدّق بــه» أي الــتزم بما آمن ، فلا يكفي الإيمــان بصــدق شــيء من دون العمل بمضــمون هــذا الإيمــان ، والصــدّيق هو الــذي يؤمن في الأوقــات الحرجة ، حيث لا تســمح له الســلطات ولا يؤيّده الناس.

وجــاء في تفســير مجمع البيــان : قيل الــذي جــاء بالصــدق محمد (ص) ، وصــدق به عليّ بن أبي طــالب ، وهو المروي عن أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام. [1]

والصّدّيق يتقي بصدقه عذاب الله :

(**أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**)

القـــرآن عـــادة ما يربط بين الفكر والعمل بربـــاط التقوى ، والتقوى حقيقة تــدور حولها كل الحقــائق ، وهــذا ما تشير إليه الآية : (**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**). [2]

---

(1) المصدر / ص (489).

(2) المائدة / (27).

[34] وفي الجنة :

(**لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ**)

لأنّهم تركوا ما يشاءونه في الـدنيا ، فـأهواؤهم كـانت تدعوهم للخضوع إلى الطاغوت ، والميل للمجتمع الفاسد ، والانسياق وراء شهوة البطن والفرج ... وهكذا أعطـاهم الله ما يشـاءون ، أو لأنهم أعطـوا للمحتـاج ما يشـاء أعطاهم الله ما يشاءون.

وكلمة «ما» تعـني الإطلاق ، فهم لا يتمنّـون على الله شيئا إلّا أعطاهم.

وقيل : إنّ ما عند ربهم يشـاءونه ، فقد أعـدّ الله لهم نعيما في الجنة يشاءونه ، ولا تعارض في المعنيين.

(**ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ**)

بعد مرحلة التقـوى يـأتي الإحسـان ، والإحسـان هو العطاء ، ونتساءل : هل يمكن أن يعطي الإنسـان التقـوى شيئا دون أن يخرج من قوقعة ذاته؟

كلّا ... فالـذي يعيش في حـدود نفسه وشـهواتها لا يسـتطيع أن يعطي ، وإنّما يعطي من يفكّر في حاجـات الآخرين قبل حاجـات نفسه ، فالإحسـان إذن أرفع مراحل التكامل البشري ، فقد يكون الإنسان متقيا ولكن لا يعطي إلّا بحساب ، والمحسن موقن بالخلف فيستسهل البذل.

والظاهر أنّ الإيمان والتقـوى يكتمل بالإحسـان ، وهو أعلى المراحل في المسيرة الإيمانية.

[35] ويبقى المتقـون خـائفين من سـيئاتهم الـتي إن بقيت أكلت جانبا من حسـناتهم ، ولكنّ الله يطمئنهم حين يعدهم بغفرانها :

(**لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**)

إذا كان الخط العام للإنسـان في الحيـاة سـليما فـإنّ هفواته تغتفر له ، كما لو كـانت إسـتراتيجية القائد سـليمة فإنّ أخطـاءه التكتيكية لا تـؤثر عليه ، بعكس ما إذا كـانت استراتيجيته خاطئة فإنّ صـواب خططه المرحلية لا ينفعه شيئا.

وهكـذا إذا كـان الخط العـام لحيـاة شـخص سـليما ، فتولّى الله ورسوله وأولي الأمر حقا ، ونهض بواجباته في التحصّـــن ضد الانحرافـــات السياســـية والاجتماعية والاقتصـــادية ، فلم ينصر ظالما ، ولا خـــذل مظلوما ، ولا أكل أمـوال النـاس بالباطل ، ولا أدلى بها إلى الحكـام ، وبالتـالي اجتنب فـواحش الـذنوب ، ثم ارتكب اللمم وهي الصغائر ، أو حـتى الكبـائر بلا جحـود ولا إصـرار ، ثم تـاب إلى ربّه متابا فإنّه ترجى له مغفرة الله.

أمّا من كان خطّه العام منحرفا فكان وليّا لأعـداء الله ، معينا للظلمة على عباد الله ، فإنّ كثرة صلاته وصومه لا تنفعه ، كـذلك لو عـاش على الحـرام حـتى نبت لحمه وعظمه منه.

ولعـلّ المعيـار الأساسي في ذلك ألّا تكـون السـيئة الصادرة من منطلق سيء ، إذ قد يرتكب المرء ذنبا ولكنّ قلبه لا يزال مطمئنا بالإيمـان فيمكن تـدارك الأمر ، ولكنّ الذي يرتكب الموبقات وهو جاحد بربوبية الربّ ، مسـتحلّ للمحرمات ، فإنّ توبته الى الله بعيدة.

وتشـجيعا لحالة الإحسـان في الأمة ألغى الإسـلام الضمان عن المحسنين الذين

يقعون في الخطأ ، فقال سبحانه : (**ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ**) ، ومضت هذه الآية قاعدة فقهية استنبط العلماء منها أحكاما كثيرة حيث أسقطوا بها الضمان من الذين يريدون الإحسان ولكنّهم يخطئون فيلحقون ضررا بالطرف الآخر ، كمن أراد إنقاذ غريق فتسبّب جهله بطريقة الإنقاذ إلى المساهمة في غرقه.

(**وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ**)

[36] ومن العقبات التي تعترض طريق المؤمنين المحسنين خشية الناس ، والخوف من مقاطعتهم وهجرهم ، ولكنّ الله وعدهم بكفايتهم شرّ الناس ، والله سبحانه هو الذي يحفظ السموات والأرض أن تزولا ، فكيف لا يحفظ عبده؟!

(**أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ**)

بلى. إنّ الله يكفي عبده شر جور السلاطين ، وكيد الحاسدين ، وبغي الظالمين.

(**وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**)

بإثارة الرعب في قلبك ممّن هو من دونه سبحانه ، أن يضلوك عن سبيله.

(**وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ**)

لا يعلمون أنّ المهيمن هو الله ، وأنّ الأنداد من دونه ، والسلطات الطاغوتية ، والمجتمع الفاسد ، و. و. لا تملك أيّ قوة ، ولأنّهم توجهوا إلى غير الله فقد سلب منهم الله نور الهداية فأضلهم.

[37] ومرة اخرى يؤكد الله على فكرة الكفاية بقوله :

(**وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍ**)

أي لا توجد قوة قادرة على إضـلال امـرء إذا أراد الله هدايته.

جـاء في الحـديث عن أبي عبد الله (ص) لثـابت ابن سعيد :

«يا ثـابت! ما لكم وللنـاس؟! كفّـوا عن النـاس ، ولا تـدعوا أحـدا إلى أمـركم ، فو الله لو أنّ أهل السـموات والأرضين اجتمعوا على أن يهدوا عبدا يريد الله ضـلالته ما اسـتطاعوا على أن يهـدوه ، ولو أنّ أهل السـموات وأهل الأرضين اجتمعـوا على أن يضـلّوا عبـدا يريد الله هـداه ما استطاعوا أن يضـلّوه. كفّـوا عن النـاس ، ولا يقـول أحد : عمّي ، أخي ، وابن عمّي ، وجاري ، فـإنّ الله إذا أراد بعبد خـيرا طيّب روحه فلا يسـمع معروفا إلّا عرفه ، ولا منكـرا إلا أنكره ، ثم يقذف في قلبه كلمة يجمع بها أمره» [1]

وهـذا الحـديث يفسّـره قوله تعـالى : (**فَلَعَلَّكَ بـاخِعٌ نَفْسَـكَ عَلى آثـارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُـوا بِهـذَا الْحَـدِيثِ أَسَفاً**). [2]

(**أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ**)

إنّ الله عزيز ، ومن عزّته انتقامه من الكفـــار ، ومن مظاهر انتقامه إضلاله للمعاندين كما أنّ من مظاهر عزته هدايته للمحسنين.

[38] ومن أمثلة عـزّة الله خلقه السـموات والأرض وتدبيره لهما :

(**وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**)

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (490).
(2) الكهف (6).

إنّ الله هو الذي خلق السموات والأرض ، وهما بيــده ، فلا تنظر إلى محيط دولة يحكمها قــزم ، وتقــول : هــذا ربي. كلّا ... فالــذي خلق الســموات والأرض ربك وربــه. وأنتما تحت سيطرته ، وما يملك فهو له سبحانه.

(**قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللـــهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ**)

فلو اجتمعت كلّ سلطات العـالم لتمنع عن أحد ضـرر فيروس بسيط كفيروس الإيـدز مثلا أتـراهم يقـدرون؟ كلّا ...

فكلّ أجهزة الطب المتقدمة في الولايات المتحدة لم تستطع إنقاذ حيـاة الـرئيس الأمـريكي كنيـدي بعد إصـابته برصاصات قاتلة ، وكـذا لم تسـتطع الاتحـاد السـوفيتي أن تنقذ حياة طاغوتها ستالين.

(**أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ**)

فلو شـاءت إرادة الله إنـزال المـاء من السـماء على بلد معين ، وأراد طـاغوت هـذا البلد منعه فهل يسـتطيع؟! كلّا ... إنّ مشكلة الإنسان هو خضوعه النفسي للطــاغوت ، وإذا لم يخضع له نفسيّا فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا.

(**قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**)

فالله يكفيني ، وعليه توكّلي.

وهذه الآيات الثلاث تسلية للرسول ومن يحمل رسالة ربّه ألّا يهن أو يخاف من الكفّـار وممن يـدعون من دونه ، فقد ضمن الله ما يلي :

1 ـ كفايته للرسول ومن يحمل رسـالته من بعـده من تخويف الكافرين له.
2 ـ إنّه سبحانه يضلّل الكافرين ومن يدعون من دونه ، ولن يهديهم سواء السبيل.
3 ـ إنّ الله سوف يهدي الـذين آمنـوا حين يتمسـكون بهداه ، ولن يضلّهم أعمالهم.
4 ـ (**إِنَّ اللـهَ عَزِيـزٌ ذُو انتِقـامٍ**) ، لا يـرد بأسه عن الذين كفروا ، فسوف يأخذهم أخذ عزيز منتقم.
5 ـ إنّ الله حين يريد بـالمؤمنين خـيرا فلن تسـتطيع قوة أن تهـزمهم ، وإنّ حمـايتهم وحسـبهم وكفـايتهم على الله ، لأنّ الله أراد ذلك.
[39] وحين يطمئن الله الرسول يأمره بتحديهم :
(**قُـلْ يا قَـوْمِ اعْمَلُـوا عَلى مَكـانَتِكُمْ إِنِّي عامِـلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**)
هـــذا التحـــدي من الرســـول (ص) ينبع من روح الاطمئنان بسبب حماية الله وكفايته وحسبه ، وهذه الروح يجب أن يتحلّى بها الرســاليون ، ويقولـــون كما قـــال الرســول (ص): يا قــوم! أعملــوا ما شــئتم ، وامكــروا ما شئتم ، واظلموا ما شئتم ، واقتلوا ما شئتم ، إنّنا ماضــون على الطريق فسوف تظهر النتائج سريعا.
[40] وهناك تعلمون :
(**مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ**)
ففي محكمة العــدل الإلهيّة يتقــرّر من الصــالح ومن المفسد ، فهناك الميزان الحق ،

والمقاييس السليمة .. وتذكرة القـرآن بـذلك اليـوم تحقّق التعـادل في النفـوس السـليمة. فلا تأبه بالمعـايير المادية الخاطئة.

[41] إذا فمن اهتـدى بالكتـاب فقد آمن يـوم الفـزع الأكـبر ، ومن ضـلّ فقد ضـلّ على نفسه ، وهو الخاسر الوحيد ، إذ يخسرون في يوم القيامة أنفسهم وأهليهم.

(**إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِ**)

القـرآن هو ذلك المقيـاس يـوم القيامة ، وسـيأتي مجسـدا يـوم القيامة ، فلا بد من أن نجعله مقياسا لنا في الدنيا.

(**فَمَنِ اهْتَـدى فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ ضَـلَّ فَإِنَّما يَضِـلُّ عَلَيْها**)

فالهدى له ، والضلالة عليه.

(**وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ**)

كـلّ إنسـان لا بد أن يواجه مصـيره بنفسه ، ويختـار طريقه بإرادته ، ويتحمّل مسـئولية اختيـاره ، ولا أحد يتحمّل مسئولية أحد ، حتى الرسـول ليس وكيلا عن قومه ، إنّما هو نذير.

اللـهُ يَتَـوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِــكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَـوْتَ وَيُرْسِــلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللـهِ شُـفَعاءَ قُـلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (43) قُـلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ (44) وَإِذا ذُكِرَ اللـهُ وَحْـدَهُ اشْـمَأَزَّتْ قُلُـوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِـرُونَ (45) قُـلِ اللهُمَّ فـاطِرَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كـانُوا فِيــهِ يَخْتَلِفُــونَ (46) وَلَــوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَـهُ مَعَـهُ لافْتَـدَوْا بِـهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ

يَــوْمَ الْقِيامَــةِ وَبَــدا لَهُمْ مِنَ اللــهِ ما لَمْ يَكُونُــوا يَحْتَسِـبُونَ (47) وَبَـدا لَهُمْ سَـيِّئاتُ ما كَسَـبُوا وَحـاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْـتَهْزِؤُنَ (48) فَـإِذا مَسَّ الْإِنْسـانَ ضُـرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْنـاهُ نِعْمَـةً مِنَّا قـالَ إِنَّما أُوتِيتُـهُ عَلى عِلْمٍ بَـلْ هِيَ فِتْنَـةٌ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُـونَ (49) قَـدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْــنى عَنْهُمْ ما كـانُوا يَكْسِــبُونَ (50) فَأَصــابَهُمْ سَـيِّئاتُ ما كَسَــبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُـوا أَنَّ اللـهَ يَبْسُـطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشـاءُ وَيَقْـدِرُ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً

هدى من الآيات :

إنّ آيات الله في الكون والتي يشير إليها هذا الـدرس ، ليست فقط دليلا للإنســان على وجــود الله ، بل طريقا إلى معرفته المعرفة الأسـمى أيضـا. وعلى الإنسـان أن لا يكتفي بدرجة من الإيمان بل يتابع مسيرته التكاملية حــتى يصل إلى مرحلة العرفان ، وللعرفان أيضا درجات ، فكلّما تفكّر الواحد في آيـــــات الله في الآفـــــاق وفي نفسه ، والتحوّلات والتغيّرات التي تحـدث عنـده ، كلّما ازداد يقينا ومعرفة ، حتى يبلغ الحدّ به أن يقول :

«**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا**» [1]

كما قالها سيّد العارفين الإمام علي (ع).

---

(1) غرر الحكم / ص (603).

بينات من الآيات :

[42] تقــارن الآية الأولى بين النــوم واليقظة ، وبين الموت والحياة عند الإنســان ، فكما لم يكتشف العلم لغز المـوت ، فإنه لم يكتشف لغز النـوم أيضا ، وهما أخـوان ، ولكن بينما ينام الإنسان بخروج جزء من روحه ، أو حسب تعبير بعض المفسرين (خروج نفسه وبقـاء روحـه) ، فـإنّ كلّ روحه تخرج بالموت. ولو فسرنا كلمة النفس بالعقل ، فلا ريب أنّه في حالة النوم يعيش البشر سباتا عقليا.

ويذكّرنا الله بأنّ الله هو الـذي يسـلب نفس الإنسـان ويأخذها في حالتين : حالة النـوم ، وحالة المـوت ، فـالتي يسـلبها في حالة النـوم يردّها على صـاحبها عند اليقظة ، بينما يدع تلك الأخرى عنده إلى يوم البعث.

وفي الحديث عن أبي جعفر (ع) أنّه قال :

«**ما من عبد ينام إلّا عرجت نفسه إلى السـماء ، وبقيت روحه في بدنه ، وصار بينهما شـعاع كشـعاع الشـمس ، فـإذا أذن الله في قبض الأرواح أجـابت الـروح النفس ، وإن أذن الله في ردّ الـروح أجـابت النفس الروح**» [1]

وفي حديث آخر قال الإمام الصادق (ع) :

«**إذا أوى أحـدكم إلى فراشه فليقل : اللهمّ إنّي أحبست نفسي عندك ، فاحتبسها في محلّ رضوانك ومغفرتك ، فــإن رددتها إلى بــدني فارددها مؤمنة عارفة بحقّ أوليائك حتى تتوفّاها على ذلك**» [2]

وربنا في هذه الآية يقول :

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (489).

(2) المصدر / ص (488).

(**اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها**)

وفي اللغة توفّى بمعنى أخذ الشيء وافيا.

(**وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها**)

تلك النفس التي لم تمت يتوفّاها الله عند النوم.

(**فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ**)

ولا يدعها تعود إلى الجسد ، ولعلّ الآية تشير إلى أنّ للنفس ولها بالجسد وتريد العودة إليه ، ولكنّ الله يمسكها إمساكا.

(**وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى**)

أما النفس التي لم تمت بل نامت فانه تعالى يأخذها ثم يعيدها إلى صاحبها لفترة معينة هي حلول أجله. فإذا حل سلبها منه دون عودة الا عند البعث.

فما هذه الروح؟ هل هي كامل الروح؟ أم شعاع منها؟ أم شيء آخر؟

في الواقع أن مسائل الروح لا تزال بعيدة عن أفهامنا. والآية تشير بوضوح إلى الموت وطبيعته ، ونحن لم نمت ولم يعد إلينا من مات ليخبرنا عن واقع الأمر ، ولكننا ننام وحيث يخبرنا الرب بأنّ الموت مثل النوم نستطيع أن نتعرف عليه نسبيا من خلاله.

ويقتبس لقمان من هذه الفكرة حكمة فيقول لابنه وهو يعظه بالموت :

«**يا بني إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك ،**

وإن كنت في شك من البعث فـــــــارفع عن نفسك الانتبــاه ، ولن تســتطيع ذلك ، فانك إذا فكــرت في هذا عرفت ان نفسك بيد غيرك ، وانما النوم بمنزلة الموت ، وانما اليقظة بمنزلة البعث بعد الموت» [1]

ويقول أبو ذر الغفاري (رضوان الله عليه) ، مســتوحيا فكرته من هــذه الآية الكريمة : «كما تنــامون تموتــون ، وكما تسـتيقظون تبعثـون» فلما ذا نحن نتعجب من البعث والنشور ، بينما لا نتعجب من اليقظة بعد النـوم؟! أو ليس القادر على إيقاظ النائم من نومه بقـادر على أن يعيد إلى الميت الحياة؟!

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)

ولعل المعـــــــــنى الحقيقي لكلمة التفكر هو تحريك المعلومات وربطها ببعضها وتحليلها ، والذين يفعلــون ذلك يصـلون إلى مغـزى المـوت والنـوم ، ويعرفـون من وراء التحول من يحـوّل ، ومن خلال التـدبير من يـدبّر وهو الله سبحانه وتعالى.

وانهم يعرفــون من خلال ذلك الشــيء ، ان القــدرة المهيمنة على نهاية حياة الإنسان ، هي التي يجب أن تعبد حقا.

[43] أما الشفعاء المزعومون من دون الله والذين لا يملكون المـوت ولا الحيـاة ، وهما أهم قضـيتين في حيـاة الإنســـان ، فلا يحق لهم أن يتحكمـــوا في حياته ، ولا أن يخضع هو لهم أبدا.

(**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ**)

---

(1) بح / ج (13) ص (417).

وللشفعاء المرفوضين عند الله تفسيران :

الأول : انهم الشـــركاء من دون الله ، وهم رمــــوز القوى المؤثرة في حياة البشر ، كسلطان القـوة والمـال والشهرة. وينفي القـرآن أيّة قيمة لهـذه القـوى عند الله ، فلا يزعم صاحب السلطان والغنى والشهرة إن ميزته في الـدنيا تسـتمر إلى الآخـرة. بل إنه يـأتي ربه يومئذ فـردا فقـيرا مغمـورا ، ولا يـزعم ألـواح منهم كما زعم صـاحب الجنتين إذ قال لصاحبه وهو يحـاوره : (**ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيـدَ هذِهِ أَبَـداً* وَما أَظُنُّ السَّـاعَةَ قائِمَـةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً**) [1]

الثـــاني : انهم الـــذين يـــزعم البشر أن باســتطاعته التهـرب من المسـؤولية بسـببهم ، وذلك بإلقـاء مسـئولية ضـــلاله وانحرافه عليهم ، كــأن يلقي بمســؤولية انحرافه وضلاله على والديه ، أو السلطات الحاكمة ، أو المجتمع.

ولكن الله ينسف فكرة الشفاعة عموما فيقول :

(**قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً**)

كالنفع والضرر أو الموت والحيـاة ، أو أقـلّ من ذلـك. لان الملك كله لله عزّ وجل.

(**وَلا يَعْقِلُونَ**)

لأنهم لو كانوا يعقلـون لم يكونـوا ليـأمروا بما يخـالف رضى الله تعـــالى. فهم إذن لا قــــوة لهم ولا علم. ومن يكون هكذا لا يكون شفيعا.

[44] ان الشـفيع الحقيقي هو الله الـذي بيـده ناصـية كل شيء ، وإذا كان ثمة آخرون فانما يشفعون باذنه.

---

(1) الكهف / (35 ـ 36).

(**قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً**)

فإذا أراد البشر أن يفر من عذاب الله ، فليهــرب اليه تعـــــالى ، فليس من ملجإ منه الا اليه كما قـــــال ربنا : (**فَفِـرُّوا إِلَى اللـهِ**) وكلنا يخشى من ذنوبه ولكن لن نجد غافرا للسيئات التي احتطبناها سوى الله.

ومن عـادة البشر انه إذا أذنب ذنبا حـاول تـبريره ، أو اخـترع لنفسه شـفيعا يـزعم أنه سـوف يخلصه من ذنبه ، والله يقول : لا ، لماذا تذهب هنا وهناك؟! تعال اليّ ، حتى ولو كنت مـذنبا تعـال ، فانا الـذي أخلصك من الـذنب ، لا أولئك الشفعاء ، ولا تلك التبريرات.

(**لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

فالله هو الشـــــفيع حقا ، لأنه هو الســــــلطان في السـموات والأرض ، فهو الـذي يـدبر الأمـور اليـوم واليه المصير حيث الحساب الدقيق والجزاء الأوفى.

[45] (**وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ**)

لأنهم لا يؤمنــون بــالآخرة ، ويحــاولون التهــرب من المسؤوليات ، ويعرفون انه إذا كـانت الآخـرة أمـرا واقعيا فـــإنهم ســـوف يحملـــون عبأ الأمانة ، لكل ذلك تـــراهم يشمئزون ، فحربهم لفكرة الآخرة انما هي بدافع نفسي ، فهم لا يحبون القيامة لأنهم لا يحبون المسؤولية ، والمثال على ذلك : إذا قيل لمجرم : جـاء الشـرطة يشـمأز قلبه ، لمــاذا؟ لان الشــرطة ســيأخذونه إلى المحكمة ، ومن ثم الجزاء العـادل ، وأما الرجل المظلـوم ، الـذي يسـمع وهو بين يـدي من يظلمه ، ان جـاء الشـرطة تـراه يحمد ربه ، لمـــاذا؟ لأنه ســـوف يتخلص من يد الظــــالم ... وهكـــذا المؤمنون يشتاقون إلى الآخرة ،

لأنهم يعرفـون أن هنـاك الجـزاء الأوفى لحسـناتهم ، بينما الكــافرون تشــمئز قلــوبهم ، إذا ذكر الله وحــده ، لأنهم يفتشون عن إله آخر يخلصهم من رب الســموات والأرض ، ويخلصهم من ذنوبهم وسيئاتهم.

(**وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**)

فـإذا كـانوا يتحـدثون عن الآبـاء ، والقيم الفاســدة ، والشفعاء الموهومين ، فإنهم يرتاحون نفسيا.

وتجد هذه الآية تطبيقها في كل إنســان ، خصوصا في العـالم المتخلف ، حيث لا نحب نحن البشر الاسـتماع إلى من يحدثنا عن مسـئولياتنا ، أما إذا تحـدثوا إلينا عن تـبرير وضــعنا الفاسد وإلقــاء المســؤولية على الــدول أو على الخطوط ، أو على القضاء والقدر ، فاننا نسـتمع مرتـاحين ، والسبب هو أن مثل هذا الكلام لا يحملنا المسؤولية.

[46] وفي مواجهة هــذا الانحــراف الكبــير والضــلال البعيد يتوكل المــؤمن على الله ويــدعوه ضــارعا ليثبت فؤاده حتى لا يتـأثر باشـمئزازهم من ذكر الله ، وفي ذات الوقت يتحداهم بالمزيد من ذكر ربّه.

(**قُلِ اللهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ**)

حين ينشق شــيء يقــال انفطر ، والله شق العــدم بالخلق فإذا بالسموات والأرض تخرجان من ضميره.

ومن معاني الانفطــار ان السـموات والأرض لم تكونا فكانتا مرة واحـدة ، فابـدعهما من غـير مثـال يحتـذي به ، ومن معانيه انهما كانتا رتقا ففتقهما بقدرته.

(**أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ**)

ان تعميق الإحساس برقابة الله في نفس الإنسان ، وانه هو الحاكم بين عباده ، يجعله لا يعصيه ، لأنه لا يمكن له الكتمان عليه أو الكذب عليه يوم القيامة.

وإذا كان هو الحاكم بين عباده فما هو دور الشركاء الذين يتخذ منهم الكافر شفعاء ، ويتشبث بهم هربا من المسؤولية؟!

علما بأن محكمة الله آنئذ تحكم بين الناس بالحق.

(**فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**)

فهنالك الكلمة الفصل ، التي لا ريب فيها ، ولا تلبيس ، ولا تحيط بها ضلالات الهوى ، وتبريرات الشهوات ، وكلما تفكر الإنسان في ذلك اليوم ، وفي ميزان الحق الذي ينصب فيه ، كلما تباعد عن محورية ذاته ، وتحصن ضد قسوة القلب وانغلاقه دون فهم الحقائق.

[47] فمن كفر بالله وظلم نفسه أو الناس هلك ولا تنفعه ثرواته شيئا.

(**وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ**)

وفي آية أخرى يقول الله : (**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ**) [1]

بلى قد يبيع المرء نفسه بثمن بخس فيشتري جهنم بغيبة أو بكذبة ، وما ابخس هذا الثمن إذا كانت النار عاقبته!

---

(1) آل عمران / (91).

وهكذا يهون علينا القرآن شأن الـدنيا حـتى لا تخـدعنا زخارفها ولو كـــانت الأرض كلها بأيـــدينا فهي تعف عنها أنفس المؤمنين بالآخرة ، لأنّ عذابها لا يـزول بافتـداء كل الأرض ومثلها معها ، فما شـأن بيت معمـور فيها أو زوجة حسناء أو منصب بسيط؟!

(**وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**)

لان كتابهم آنذاك لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها مما لم يكونوا يتوقعونه ولم يحتسبوا أن الأمر بهـذه الدقة وبهذه الجدية ، وفي الحديث عن الإمام الباقر (ع) قال :

«اتقوا المحقرات من الـذنوب فـان لها طالبا ، يقـول أحـدكم : أذنب واسـتغفر الله ، ان الله عز وجل يقـول : (**نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثـارَهُمْ وَكُـلَّ شَـيْءٍ أَحْصَـيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ**) وقـال عز وجل : (**إِنَّها إِنْ تَـكُ مِثْقـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**) [1]

ويبدو من خلال الآية أن الإنسان قد يتصـور أن مجـرد ذنوبه البسيطة قد لا تسبب له دخول النار ، ولكن الحقيقة شــيء آخر ، إذ تجتمع الــذنوب إلى بعضــها حــتى تكــون كالجبل على قلبه.

وفي الحديث عن الإمام أبي الحسن (ع) :

«**لا تسـتكثروا كثـير الخـير ، ولا تسـتقلوا قليل الذنوب ، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا ، وخـافوا الله في السر حـتى تعطـوا من أنفسـكم النصف**» [2]

[48] (**وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا**)

(1) بحار الأنوار / ج (73) ص (321).
(2) بحار الأنوار / ج (73) ص (346).

فالسـيئات الـتي مكروها في الحيـاة الـدنيا بـدت لهم على حقيقتها. إذ ان النفس الامـارة والشـياطين من الجن والانس كل أولئك يزينــون للبشر ســيئات أعماله ، حــتى تختفي ظــاهر ســوءاتها وتبــدو لهم انها حســنات ، وذلك بإظهـار حسـناتها ، بيد انها في القيامة حيث تبلو السـرائر تظهر سيئات أعمالهم التي اكتسبوها.

وقد تكون الآية تشير الى تجسد الأعمال ، حيث تصبح السـيئات عقـارب وحيـات ونـيران ملتهبة ، والـدليل على ذلك قوله تعالى :

(**وَحاقَ بِهِمْ**)

أي أحاط بهم.

(**ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

فذات الرسالة التي اسـتهزءوا بها أهلكتهم ، فـالقرآن في يـــوم البعث يقـــود من اتبعه هنا الى الجنة هنـــاك ، ويسـوق من تـولى عنه هنا الى النـار هنـاك. وهكـذا كل رسالات الله.

[49] ويمضي السياق قدما في بيان ان الثروة ليست قيمة مطلقة لأنها ليس فقط لا تغني شيئا عن عـذاب الله في الآخـــــرة ، بل ولا عن بلائه في الــــدنيا حينما تحيط بالإنسان الضراء فتراه يـدعو به ، ولكنه لا يلبث ان ينسب النعم الى ذاته ، ويــزعم بأنه انما حصل عليها بعلمــه. كلا انها من عند الله ولكنها ليست دليلا على كرامته عنـــده ، بل هي مجرد فتنة يمتحن الله بها خلقه.

(**فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ**)

وهذه الآية تكمل الآية الثامنة من هذه السورة ، حيث ان الإنسان هناك نسب النجاة الى الأنـداد بينما هنا نسـبها الى نفسه ، والفرق واضح ، ففي المرة الاولى إلّه غيره ، وفي المـــرة الثانية ألّه نفسه ، واعتقد ان ما خوّله الله به من نعمة انما هو من ذاته.

ولان السـياق هنـاك كـان في مقـام نفي الأنـداد فقد عـالج حالة الشـرك بهم ، بينما السـياق هنا ـ فيما يبـدو ـ ينفي قيمة الثروة فانه عالج عبادة الـذات والـزعم بـأن ما حصل عليه من النعم كانت بعلمه.

وتذكرنا الآية بما قاله قارون (**إِذْ قـالَ لَـهُ قَوْمُـهُ* لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ* وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِـنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسـادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللـهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِـــدِينَ* قـــالَ إِنَّما أُوتِيتُـــهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي**)[1]

(**بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

لماذا قـال ربنا أولا «نعمـة» وهي صـيغة مـؤنث حيث استخدم ضمير المذكر ثم عاد إلى صيغة المؤنث؟

لعل الجـواب ان الأصل في السـياق اسـتخدام صـيغة المؤنث وانما انصرف عنه في قوله : «أوتيته» ، لبيـان ان الله انما خوله شيئا من النعمة ذلك ان الإنسان يتصور انه حاز على النعمة جميعا بينما لم يخوله الله الا شيئا بسيطا منها ، فإذا هو بهذا القليل يطغى فكيف بكل النعم.

ويشـــير السـياق إلى انّه ينبغي الا يـرى الإنسـان ان النعمة خـير له ... بل قد تكـون فتنة وابتلاء ، بل قد تكـون استدراجا من الله له ، ففي الرواية عن أمير المؤمنين ـ

---

(1) القصص / (76 ـ 78).

عليه السلام :

«**يا ابن آدم! إذا رأيت ربك سـبحانه يتـابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره**» (1)

وقال عليه السلام :

«**كم من مسـتدرج بالإحسـان اليه ، ومغـرور بالسـتر عليه ، ومفتـون بحسن القـول فيه ، وما ابتلى الله أحدا بمثل الاملاء له**» (2)

وأمرنا الإسلام بان نكـون على حـذر شـديد من النعم لكي لا تغرنا ، قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«**أيها الناس! لـيراكم الله من النعمة وجلين كما يـراكم من النقمة فـرقين ، انه من وسّـع عليه في ذات يـده فلم ير ذلك اسـتدراجا فقد أمن مخوفا ، ومن ضـيّق عليه في ذات يـده فلم ير ذلك اختبـارا فقد ضيّع مأمولا**» (3)

بل يجب ان يكون خوف الإنسـان من الغـنى أشد من خوفه من الفقر ، ومن الصحة أشد من خوفه من المرض ، فقد وضع الله سبحانه الحـرج عن المـريض ، ولم يكلف الله نفسا الا بما أتاها بينما صـاحب العافية والـثروة تلزمه مجموعة كبيرة من الحقوق لو قصر فيها اسـتحق العـذاب ، وفي الحديث :

«**لا يؤمن أحدكم حتى يكون الفقر أحب اليه من الغنى ، والمرض أحب اليه من الصحة (العافية)**»

---

(1) بحار الأنوار / ج (73) ص (383).
(2) بحار الأنوار / ج (73) ص (383).
(3) بحار الأنوار / ج (73) ص (383).

[50] وفي التـاريخ عـبرة فلقد أهلك الله من القـرون من كان يملك الثروات الطائلة ، ويزعم أنها تمنحه الحرية في التصرف حيث يشـاء ، والتهـرب من مسـئولية أعماله السيئة ، وقد قال مثل قـول هـؤلاء انه حصل على الـثروة بعلمه فهو قادر على دفع الضرر عن نفسه.

(**قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)

فأوغلوا في المعاصي اغترارا بالنعم.

(**فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**)

[51] لقد اعتمـدوا على مكاسـبهم المادية ، وزعمـوا انها تحلل لهم السـيئات ، أو لا أقل يقـدرون على دفع العقاب عن أنفسهم ولكن هيهات.

(**فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا**)

ولزمهم عقاب ما اجترحوا من الذنوب وتلك سنة الله تجري فيمن يأتي كما جرت فيمن مضى.

(**وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هـؤُلاءِ سَيُصِـيبُهُمْ سَـيِّئاتُ ما كَسَبُوا**)

جزاء للسيئات التي اكتسبوها.

(**وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ**)

اي لا يعجزون الله إهلاكهم ، أو إحضارهم إلى جهنم.

[52] لقد زعمـوا ان علمهم كـان سـبب مكاسـبهم ، فرد عليهم القرآن اولا ماذا

تغـني مكاسـبكم عن العـذاب ، وثانيا بـأن الـرزق من عند الله. ويبدو ان الرزق يختلف عن الكسب ، فـالرزق هو ما يعطيه الله سـواء بسـعيّ أو بـدون سـعي ، والكسب هو الذي يحتاج إلى سعي ، فكل كسب رزق ، وليس كل رزق كسـبا ، والنعم الاولية الفطرية هي رزق من الله مثل السمع ، والبصر والفؤاد ، والقوة ، والشباب.

ولو لم يكن رزق الله هل كـان يقـدر الإنسـان على الكسب؟

لو لم يعطك الله السـمع والبصر والفـؤاد هل كنت قادرا على السعي وراء رزقك؟

ولا تحصى نعم الله التي توفر للإنسـان فرصة لكسب ومن دون واحـدة منها لا يقـدر عليه فهل بعد ذلك يصح الادعاء بان علم الإنسان هو سبب غناه؟! كلا ...

(**أَوَلَمْ يَعْلَمُـوا أَنَّ اللـهَ يَبْسُـطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشـاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

أما غير المؤمنين فتراهم ينسـبون الـرزق لكل شـيء سـوى اللـه. فـترى الواحد منهم يربط رزق الله بنفسه ، حـتى يعتقد انه هو الـذي رزق نفسه ، أو يربط رزق الله بالنجوم ، فـالنجوم هي الـتي رزقته ، ولكنه ليس مسـتعدا ان يقول : بـأن الله هو الـذي رزقـني ، لأنه لو قـال لكـان عليه ان يؤدي حقوقه ويلتزم بالمسؤوليات.

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا
مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعـاً إِنَّهُ هُـوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُـوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْـلِمُوا لَـهُ
مِنْ قَبْــلِ أَنْ يَــأْتِيَكُمُ الْعَــذابُ ثُمَّ لا تُنْصَــرُونَ (54)
وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْـلِ أَنْ
يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ
نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللـهِ وَإِنْ
كُنْتُ لَمِنَ السَّــاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُــولَ لَــوْ أَنَّ اللـــهَ
هَـدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُـولَ حِينَ تَـرَى
الْعَذابَ لَـوْ أَنَّ لِي كَـرَّةً فَـأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِـنِينَ (58)
بَلى قَدْ جاءَتْـكَ آيـاتِي فَكَـذَّبْتَ بِها وَاسْـتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ
مِنَ الْكافِرِينَ (59) وَيَوْمَ الْقِيامَـةِ تَـرَى الَّذِينَ كَـذَبُوا
عَلَى اللـهِ وُجُـوهُهُمْ مُسْـوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْـوىً
لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60)

إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً

هدى من الآيات :

يذكّرنا ربنا في آيـات هـذا الـدرس برحمته الواسـعة ، وإلى أيّ مـدى يمكننا الاسـتفادة منهـا. أو ليس الله أنعم علينا برزقه الواسع ، وأسبغ علينا نعمه ظاهره وباطنه؟!

أو ليس الله دعانا للاســـــتفادة من رحمته ، وأن لا نقنط منها حين نسرف على أنفسنا بالذنوب؟!

بلى. ولكن طالما تحول بيننا وبين رحمة ربنا العقبـات النفســية كإســرافنا على أنفســنا بالــذنوب ، وقنوطنا من رحمته تعـالى بسـببها ، وهكـذا بعض العقبـات الاجتماعية التي تنتهي إلى ذات المشكلة.

وقد جــاء هــذا الــدرس ليعــالج جانبا من المشــاكل النفسية والاجتماعية عند الإنسان.

بينات من الآيات :

[53] كانت آيات الـدروس الماضـية شـديدة على من اتخذ من دون الله نـدّا أو شـفيعا ، أو احتسب الـرزق من علمه ، حتى تكاد تتفجّر لهبا ، والـذين يتلـون الكتـاب حـقّ تلاوته توشك قلوبهم أن تتصدع من وقع آيـات الزمر عليها ، ليس فقط لنفاذ بلاغتها ، وقوة صـعقاتها المتتالية ، وإنّما أيضا لبيـان جدية الحسـاب ومـدى دقته مما يضـيق الأمر على البشر بحيث لا تتخلص نفس منها ، فحتى الصـالحون من عباد الله قد يقعون في خطإ نسبة الـرزق إلى علمهم أو الزعم بأنّ هناك من يشفع لهم من دون الله أو يشـوب قلوبهم ما يتنافى ونقاء نياتهم.

ولعل خطر اليأس من روح الله كان قريبا من قلوبهم عند تلاوتهم لهذه الآيـات أكـثر من أيّ وقت آخر ، فجـاءت هذه الآية الـتي هي الأرجى بين آيـات الرحمة في الكتـاب لإعادة التوازن إلى نفوسهم. أو ليس قلب المـؤمن يعيش بين شدة الخوف وشدة الرجاء؟

(**قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ**)

إنّها قمة في الرحمة ، أن يدعو الربّ المسـرفين من خلقه بهذه الكلمة «عبادي» الـتي تختلف عن كلمة (عبـد) حيث يختص الخطاب بها بالعباد الصالحين عادة ، لكنها هنا تشمل ـ كما رحمة الله ـ حتى الذين تجاوزوا الحدود ، فلم يلـتزموا بالشـرائع الإلهية ، بل وأسـرفوا في المعاصي والـذنوب ، إلّا أنّ الله لم يطـردهم عن بـاب رحمته الـتي وسـعت كـلّ شـيء ، إنّما فتحه لهم على مصـراعيه ، ودعاهم إلى التوبة ، كما نهرهم عن القنوط واليأس.

(**لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**)

قــالوا : القنــوط بذاته هو اليــأس من الرحمة ، فلما أضيف إلى الكلمة : «من رحمة الله» كان تأكيدا للأمر.

(**إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**)

كل الذنوب بلا استثناء ، وإذا كان في آيات الرجاء في القـرآن بعض الاسـتثناء فـإنّ كلمة «جميعـا» هنا بعد كلمة «الـذنوب» الـتي هي أصلا للعمـوم ، تزيد الجملة سـعة ، مما يشـــمل الكبــــائر كالزنا ، والغيبة ، أو القتل وخدمة الظالمين ، وأظن الآية تعني بالخصـوص الـذنوب القلبية ، الـتي تقـترب من الشـرك بالله ، وانعـدام الخلـوص في الدين ، مما سيقت في آيات هذه السورة.

وفي الحديث عن رسول الله (ص) أنّه قال :

«**ما أحبّ أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية**» [1]

وقال أمير المؤمنين (ع) وهو يؤكد التفسـير المتقـدم للآية :

«ما في القـــرآن آية أوسع من (**يا عِبــــادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا**) ... الآية» [2]

وفي نهاية الآية نفســها نجد تأكيــدا على رحمة الله ، ودليل على سعتها وشمولها إذ يقول تعالى :

(**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**)

وقد تأكدت رحمة الله في هذه الآية ثلاث مرات :

---

(1) مجمع البيان / ج (1) ص (503).

(2) المصدر.

الأولى : عند قوله تعالى ناهيا عن اليـأس من الرحمة (**لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**).

الثانية : عند تعميمه للغفـران بأنه لا ينحصر في نـوع من الذنوب (**إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**).

الثالثة : عند ما وصف نفسه في نهاية الآية بأنّه «**الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

وهنا دعنا نقرأ هذه الرواية عن رحمة الله لـنزداد ثقة ورجاء في غفرانه تعالى :

في كتـاب نـور الثقلين : دخل معـاذ بن جبل على رسول الله (ص) باكيا فسلّم فـردّ عليه السـلام ثم قـال ، ما يبكيك يا معاذ؟ فقـال : يا رسـول الله إنّ بالبـاب شـابّا طـري الجسد ، نقيّ اللـون ، حسن الصـورة ، يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الـدخول عليك ، فقـال النـبي (ص) : أدخل عليّ الشـاب يا معـاذ ، فأدخله عليه فسلّم فردّ عليه السلام ثم قال : ما يبكيك يا شاب؟ قـال : كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوبا إن أخـذني الله عـزّ وجل ببعضها أدخلـني نـار جهنم ، ولا أراني إلّا سـيأخذني بها ولا يغفر لي أبدا فقـال رسـول الله (ص) : هل أشـركت بالله شـيئا؟ قـال : أعـوذ بالله أن أشـرك بـربي شـيئا ، قـال : أقتلت النفس التي حرم الله؟ قال لا ، فقال النبي (ص) : يغفر الله لك ذنوبك وإن كـانت مثل الجبـال الرواسي ، قـال الشـاب : فإنّها أعظم من الجبـال الرواسي ، فقـال النبي (ص) : يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الأرضـين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق قـال : فإنها أعظم من الأرضـين السـبع وبحارها ورمالها وأشـجارها وما فيها من الخلق ، فقـال النـبي (ص) : يغفر الله ذنوبك وإن كـانت مثل السـموات ونجومها ومثل العـرش والكرسي ، قـال : فإنّها أعظم من ذلك ، قـال : فنظر النـبي (ص) إليه كهيئة الغضـبان ثم قـال : ويحك يا شاب ذنوبك أعظم أم ربّك فخرّ الشاب لوجهه وهو يقـول : سـبحان ربي ما شـيء أعظم من ربي ، ربي أعظم يا نبيّ الله من كلّ عظيم ،

فقال النبي (ص) : فهل يغفر لك الـذنب العظيم إلّا الـربّ العظيم؟ فقال الشاب : لا والله يا رسول الله ، ثم سـكت الشاب فقـال له النـبي (ص) : ويحك يا شـاب ألا تخـبرني بذنب واحد من ذنوبك ، قال : بلى أخـبرك إنّي كنت أنبش القبور سبع سنين ، أخرج الأموات وأنزع الأكفان ، فمـاتت جارية من بعض بنـــات الأنصـــار فلمّا حملت إلى قبرها ودفنت وانصـــــرف عنها أهلها وجن عليهم الليل ، أتيت قبرها فنبشتها ، ثم استخرجتها ونـزعت ما كـان عليها من أكفانها وتركتها مجـــردة على شـــفير قبرها ، ومضـــيت منصرفا ، فأتـاني الشـيطان فأقبل يزينها لي ويقـول : أما ترى بطنها وبياضها؟ أما ترى وركيهـا؟ فلم يـزل يقـول لي هـــذا حـــتى رجعت إليها ولم أملك نفسي حـــتى جامعتها وتركتها مكانها ، فإذا أنا بصوت من ورائي يقول : يا شاب ويل لك من ديّان يوم الدين يوم يقفني وإيّاك كما تركتـني عريانة في عســاكر المــوتى ، ونزعتـــني من حفـــرتي ، وسلبتني أكفاني ، وتركتني أقوم جنبة إلى حسابي ، فويل لشبابك من النار ، فما أظنّ أنّي أشـمّ ريح الجنة أبـدا فما تـرى لي يا رسـول اللـه؟ فقـال النـبي (ص) : تنحّ عـني يا فاسق إنّي أخاف احترق بنارك ، فما أقربك من النـار ، ثم لم يـزل (ع) يقـول ويشـير إليه حـتى أمعن من بين يديه ، فذهب فأتى المدينة فـتزوّد منها ثم أتى بعض جبالها فتعبّد فيها ولبس مسحا وغـلّ يديه جميعا إلى عنقه ، ونـادى : يا ربّ هذا عبدك بهلول بين يديك مغلـول ، يا ربّ أنت الـذي تعرفني وزلّ مني ما تعلم ، يا سـيدي يا ربّ إنّي أصـبحت من النـــادمين وأتيت نبيّك تائبا فطـــردني وزادني خوفا ، فأســألك باســمك وجلالك وعظمة ســلطانك أن لا تخيّب رجائي سيدي ، ولا تبطل دعائي ولا تقنطـني من رحمتك ، فلم يـــزل يقـــول ذلك أربعين يوما وليلة ، فلما تمّت له أربعـــون يوما ، رفع يديه إلى الســماء وقـــال : اللهمّ ما فعلت في حـــاجتي إن كنت اســتجبت دعـــائي وغفـــرت خطيئتي فأوح إلى نبيك ، وإن لم تسـتجب لي دعـائي ولم تغفر لي خطيئتي وأردت عقوبـتي فعجّل بنـار تحرقـني أو عقوبة في الدنيا تهلكني وخلّصني من فضيحة يوم القيامة ، فأنزل الله تبارك وتعالى على

نبيّه (ص): (**وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً**) يعني الزنا (**أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**) يعني ارتكاب ذنب أعظم من الزنا وهو نبش القبور وأخذ الأكفان (**ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**) يقول : خافوا الله فعجّلوا التوبة (**وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ**) يقول عز وجل : أتاك عبدي يا محمد تائبا فطردته فأين يذهب ، وإلى من يقصد ، ومن يسأل أن يغفر له ذنبا غيري؟ ثم قال عز وجل : (**وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) يقول : لم يقيموا على الزنا ونبش القبور وأخذ الأكفان (**أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ**) فلما نزلت هذه الآية على رسول الله (ص) خرج وهو يتلوها ويتبسم ، فقال لأصحابه : من يدلني على ذلك الشاب التائب؟ فقال معاذ : يا رسول الله بلغنا أنّه في موضع كذا وكذا ، فمضى رسول الله (ص) بأصحابه حتى انتهوا إلى ذلك الجبل فصعدوا إليه يطلبون الشاب ، فإذا هم بالشاب قائم بين صخرتين مغلولة يداه إلى عنقه ، قد أسودّ وجهه ، وتساقط أشفار عينيه من البكاء ، وهو يقول : سيدي قد أحسنت خلقي وأحسنت صورتي فليت شعري ماذا تريد بي ، أفي النار تحرقني أو في جوارك تسكنني؟ اللهم إنّك قد أكثرت الإحسان اليّ فأنعمت عليّ ، فليت شعري ماذا يكون آخر أمري؟ إلى الجنة تزفني أم إلى النار تسوقني؟ اللهم إنّ خطيئتي أعظم من السموات والأرض ومن كرسيّك الواسع وعرشك العظيم ، فليت شعري تغفر خطيئتي أم تفضحني بها يوم القيامة ، فلم يزل يقول نحو هذا وهو يبكي ويحثو التراب على رأسه ، فدنا رسول الله (ص) فأطلق يديه من عنقه ، ونفض التراب عن رأسه وقال يا بهلول : أبشر فإنّك عتيق الله من النار ، ثم قال (ص) لأصحابه : هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول ، ثم تلا (ص) ما أنزل الله عزّ وجل فيه ، وبشّره بالجنة. [1]

---

(1) البقرة / (106).

ونتساءل : بعد هذا هل يصح لنا أن نغلق باب رحمة الله عن أنفسنا باليأس؟!

وبعد ان فتح الله للمذنبين بابا من رحمته الواسعة ، وهو باب الرجاء ، يفتح لهم بابا آخر ، هو باب التوبة والعودة اليه.

(**وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ**)

بترك الشركاء المزعومين من دونه ، لأنّه وحده الربّ الحقيقي للخلق.

(**وَأَسْلِمُوا لَهُ**)

بالخضوع والطاعة ، لأنّ رضى الله وأمره ونهيه هو الذي ينبغي له أن يؤثر في شخصية الإنسان ، أمّا العوامل الأخرى كالمال والسلطة ، وما يسمى بالحتميات فيجب تجاوزها كلّها ، وتلك الإنابة وهذا التسليم يجب أن يكونا عن وعي تام بضرورتهما لا بسبب شخوص العذاب الإلهي لأنّهما حينئذ لا ينفعان.

(**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ**)

حيث لا تقدر الآلهة المزيفة على ردّ عذاب الله عنكم.

[55] (**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**)

وقد اختلف المفسرون كثيرا في معنى الأحسن ، فقال بعضهم : إنّ الأحسن هو الناسخ لقوله تعالى في سورة البقرة : (**ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها**) ، وقال ابن عباس : «أي من الحلال والحرام ، والأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، فمن أتى بالمأمور به ، وترك المنهي عنه ، فقد اتبع الأحسن» [1]

(1) المجمع / ج (8) ص (503).

وما يبدو لي هو أنّ الآية تحتمل ثلاثة معاني كلّها هامة :

المعــنى الأول : هو معرفة الواجبــات وتطبيقها على أفضل وجه ، لقوله تعـــــــــــــــــــــــــــــالى : (**الَّذِي خَلَـقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيـاةَ لِيَبْلُـوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلاً**).

ولتقـريب الفكـرة نقـول : إنّ الإنسـان الـذي يمـرض ولده أو شـخص عزيز عليه مرضا خطـيرا ، فإنّه لن يبحث عن أيّ طــبيب لعلاجه ، إنّما ســيبحث عن أفضل طــبيب ممكن طمعا في حصــول الشــفاء بأســرع وقت وأفضل صورة ، والإنسـان في حياته العامة يواجه خطـرا مصـيريا هو النــــار ، وينبغي له لكي يخلّص نفسه من شــــرّها أن يتعـرّف على الواجبـات والمسـتحبات ويؤديها على أفضل وجه ، وكيف لا وقد ورد في الحديث :

«هلك العـالمون إلّا العـاملون ، وهلك العـاملون إلّا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم»

المعنى الثاني : وقد تقدّمت الإشـارة اليه عند تفسـير قوله تعالى في بدايات هذه السورة : (**الَّذِينَ يَسْـتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**) [1] وهو أنّ القــرآن كلّه حسن ، ولكن بالنسبة إلى ظروف كل شـخص وعصـره قد يختلف الأحسن ، فعلى سـبيل المثـال : الصـلاة والصـيام والحج والجهاد و.. و.. كل ذلك مفروض على الناس ، ولكن يتأكّد على كلّ شـخص أحد هـذه الواجبـات أكـثر من الآخـرين ، وأكـثر من سـائر الواجبـات الأخــرى ، فالتـاجر ينبغي أن يكون أقرب الناس إلى آيات التجـارة والمعاملة وأعـرفهم بها ، بينما المقاتل يكون الأحسن له معرفته بآيات الجهــاد والقتــــال ، أمّا القاضي فالأحسن له المعرفة بأحكــــام القضاء والحدود وما إلى ذلك ، وهكذا

---

(1) الزمر / (18).

بالنسـبة للظـروف الـتي تحيط بالشـخص فإنها تحـدد له الأحسن ، فمثلا للمجاهد في ظـــروف التقية ليس الإعلان عن نفسه بل الكتمــان والســرية ، إذن فموقع الإنســان وظروفه المحيطة هما اللذان يحدّدان الأحسن.

المعنى الثالث : التوحيد المخلص وهو أفضل ما أنزله الله على خلقه ، وأعظم شـــــيء يتجلّى فيه التوحيد هو اتباع القيادة الرسـالية الحقّة ورفض القيـادات المنحرفة ، وفي الخبر في تفسـير الآية : (**وَاتَّبِعُوا أَحْسَـنَ ما أُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**) قال :

«**من القـــرآن وولاية أمـــير المؤمـــنين والأئمة عليهم السلام**» [1]

ويبيّن القرآن بعد نهيه لنا عن اليـأس ، ودعوته بالإنابة والتسليم لله ، وأخيرا تأكيده على اتباع الأحسن ، خلفيات هذه الموعظة وأهميتها بالنسبة للإنسان فيقول :

(**مِنْ قَبْــلِ أَنْ يَــأْتِيَكُمُ الْعَــذابُ بَغْتَــةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ**)

فهــذا الإنســان الــذي يســدر في طريق الضــلال ، ويســرف في اقتحـام الـذنوب والموبقـات ، رافضا الإنابة والتســليم لله ، واتبـاع الأحسن ، ســوف يجـرّ على نفسه العـــذاب بألوانه ، وســيفاجأ به ، ليس لانعـــدام النـــذر والعلامــات الدالة عليه ، بل لأنّ كــثرة ممارسة الــذنوب والإصرار عليها يسلب الإنسان أدنى أســباب المعرفة وهو الشعور ، إذ يعيش عمق الغفلة والضلال.

[56] هــذا في الــدنيا أمّا في الآخــرة حيث تنكشف الحقـائق للإنســان ، فإنّه يصل الى أعلى مراحل الــوعي والشعور ، فإنّه يكاد يذوب حسـرة حين يـرى ما أعـدّ الله للمؤمــنين به الــذين اســتغلوا فرصة الحيــاة الــدنيا مثل الثواب ، بينما أغفل هو الاستفادة من هذه الفرصة الثمينة وحين يرى ما أعدّه الله من العذاب للكافرين

(1) البرهان / ج (4) ص (79).

والمشركين والظالمين.

(**أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَـرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ**)

بالإسراف في الذنوب والتقصير في الواجبـات وعمل الصالحات. إذن يجب أن نستفيد من فرصـتنا في الحيـاة ، وإنما السعيد من اتعظ بتجارب غيره.

فإذا كـان غيرنا قد مضى من الـدنيا مقصّـرا وبالتـالي هلك وتحسّـر ، فلنتعظ به حين يكـون الاتعـاظ نافعا ، لأنّه إذا جـاء المـوت فإنّنا لا نسـتطيع أن نغيّر من واقعنا شـيئا بزيادة أو نقصان.

وحيث يصل الإنسـان بعد المـوت إلى أعلى مراحل العلم وهي عين اليقين فإنّه يكتشف مـدى ضـلالته وانحرافه عن الحق.

(**وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**)

أي أنّني كنت من الساخرين الـذين اسـتهزءوا بـالحق وبأهله واتباعه.

[57] ويحمّل الله الإنسـان مسـئولية هداية نفسه ، بالاسـتفادة من آياته تعـالى ، سـواء ما تجلّى منها في الكون ، أو الاخرى المتجلّية في رسالاته للناس.

(**أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**)

بلى. إنّ الله يـوفّر أسـباب الهداية للإنسـان كالآيـات وكالمصـلحين ، أمّا إذا رفضـهم فلن يجـبره على اختيـار الحق ، في الحياة الدنيا ، لأنّ الـدنيا دار الامتحـان والابتلاء ، ثم ليس صحيحا أن ينتظر الإنسـان الهداية تأتيه إلى بيته إنّما يجب عليه هو البحث عنها وتحمّل مسئولياتها.

ونسـتوحي من الآية إشـارة إلى أنّ بعضا من النـاس سوف يتعذّرون بهذا التبرير ، والله يـبيّن لهم أنّه مرفـوض عنـده ، إذا كنت تريد الهداية فهـذا هو الطريق ، أن تتغلّب على القنوط ، وتنيب وتسلم لله قبل العـذاب أو المـوت ، وأن تتبع طريق الحق وأحسن ما أنـــزل ، وإذا فعلت ذلك فسـوف تكـون مهتـديا ، أمّا الطـرق الأخـرى كالانتظـار الساذج أو اتباع المناهج المنحرفة في الحياة ، أو الانصياع لقيادة الطاغوت ، أو الإصرار على الـذنب تحـديا أو قنوطا فإنّها كلّها لا تنتهي إلّا إلى الضلال.

[58] ولا بد أن يعرف الإنسـان قضـيّة هامة وحاسـمة بالنسبة للحياة الدنيا ، وهي أنّها الفرصة الوحيدة له والتي يســـــتطيع فيها تجربة نفسه وإرادته ، فــــإن فشل فيها فسوف يفشل في الآخرة ، وإن أفلح فسوف يفـوز هنـاك بنسبة فشله وفلاحه هنا.

(**أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ**)

الذي لم تره ببصيرة الإيمان حيث كفرت بالحق.

(**لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**)

وهكذا يكرّر القرآن تأكيده كثيرا على أهمية الإحسـان لأنّه أرفع درجة يصل إليها البشر ، باعتبـــاره يمثل خـــروج الإنســـان عن ذاتيّاته وأهوائه إلى خدمة الآخـــرين ، (**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**). [1]

[59] ونعود للسياق القرآني في هذه السورة بعد هذا الاستطراد لنرى ردّ القرآن على تلك الأقـوال الـتي تتكـرّر على لسان أصحاب النار يوم القيامة ، يقول تعالى :

(**بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي**)

---

(1) التغابن / (16).

وكــان بإمكانك أن تتجــاوز الحســرة والملامة ، وأن تهتدي للحق ، وأن تنتفع من فرصة الحياة الدنيا.

(**فَكَذَّبْتَ بِها**)

أوّلا.

(**وَاسْتَكْبَرْتَ**)

على الحـقّ الـذي جـاءت به ثانيا ، وهـذه المرحلة من أخطر مراحل المعصية.

(**وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ**)

حيث أنكرت إنكارا تامّا ما جاءت به ، هذا ثالثا.

[60] وأهم ما كــان يكــذّب به الكــافرون هو البعث ويـــوم القيامة ، الأمر الـــذي جعلهم بعيـــدين عن تحمل المســـؤولية ، وهل يتحمّل المســـؤولية إلّا من يـــؤمن بالجزاء؟

ولعلّه من هذا المنطلق جـاء ذكر القـرآن لهـذا اليـوم العظيم.

(**وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ**)

فأشـاعوا الضـلال ، وافـتروا على الله كـذبا بأنّه يـأمر بالفحشاء والمنكر.

ومن أبرز المصـاديق العملية للكـذب على الله هو أن يدّعي الإمامة من ليس أهلا لها ، وفي تفسـير هـذه الآية ، هناك حديث مأثور عن سورة بن كليب عن أبي جعفر (ع) قـال قلت : قوله تعـالى عـزّ وجـلّ (**الَّذِينَ كَـذَبُوا عَلَى اللـهِ**) ... الآيــة» قــال (ع) : «من قــال إنّي إمــام وليس بإمام» قلت : وإن كان علويّا فاطميا؟ قال : «**وإن كان**

علويّا فاطميا» قلت : وإن كـــــان من ولد علي بن أبي طالب؟ قال : «وإن كـان من ولد عليّ بن أبي طـالب» [1] فيجب على الإنسان أن لا يدّعي شـيئا لا يحـقّ له وإلّا فهو يرتكب الحرام ، وإذا كان ادعاء الإنسـان المعرفة بـالطب قد يتسبّب في قتل عشرات الناس الذين يتعالجون عنــده ، فـــإنّ ادعائه الإمامة والرئاسة كـــذبا ســـوف يفسد كل النظـام ، الاقتصـادي والسياسي والاجتمـاعي والثقـافي ، فعليه إذن أن يتجــاوز مشــكلة حب الرئاسة ، وأن يتواضع للحق ويسلم لأهله.

والكذبة لا تسعهم رحمة الله على سعتها اللامتناهية ، بل يحشرون يوم القيامة في هيئة مخزية لهم.

(**وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ**)

بآثار الكـذب والمعاصي ، وبالتـالي بانقطـاع نـور الله عنها (**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ**). [2]

ويستفهم منا السياق فيقول :

(**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ**)

ويتركنا نحن الذين نجيب عليه بأنفسنا فنقـول : بلى ، لنقرّ بوجود هذا المثوى في جهنم ، فنخاف ممّا أعـدّه الله للكاذبين من العذاب فلا نتكبر.

---

(1) البرهان / ج (4) ص (82).

(2) النور / (40).

وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّــوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُـوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقالِيـدُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِـرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْـرَ اللـهِ تَـأْمُرُونِّي أَعْبُـدُ أَيُّهَا الْجـاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (65) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66) وَما قَدَرُوا اللـهَ حَـقَّ قَـــدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعـــاً قَبْضَـــتُهُ يَـــوْمَ الْقِيامَـــةِ وَالسَّـماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ سُـبْحانَهُ وَتَعـالى عَمَّا يُشْــرِكُونَ (67) وَنُفِخَ فِي الصُّــورِ فَصَــعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللــهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ

(68) وَأَشْــرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُــورِ رَبِّها وَوُضِــعَ الْكِتــابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ بِـالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُـونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُـلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (70)

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها

هدى من الآيات :

تذكرنا آيات هذا الـدرس بيـوم القيامة الـذي لا سـبيل للخلاص من عقباته وعذابه الا بالتوحيد والتقـــــــوى ، أما الشرك فانه يحبط أعمال الإنسـان ولو كـانت من رسـول الله (ص) على عظمته.

كما نجد في الآيات تأكيدا على هيمنة الله على الكون ، والـتي تـدعونا لعبادته والتسـليم له تسـليما مطلقا ، ولا يشـرك البشر بشـيء الا إذا اعتقد بهيمنته وسـيطرته ولو على جـــــانب من الحيـــــاة ، وانما يخضع البعض لانظمة الطواغيت بسبب هيمنتهم الظاهرية على المجتمع.

بينات من الآيات :

[61] حــــدثنا ربنا في نهاية الــــدرس الســـــابق عن المتكـبرين الـذين يحشـرون بوجـوه مسـودة ، وفي جهنم يخصص لهم واديا سحيقا يلقون فيه أشد ألـوان العـذاب ، وهذا مما

يثــير الخــوف في النفس فــأراد الله تعــالى أن يــدخل الاطمئنــان والرجــاء على عبــاده المؤمــنين حيث وعــدهم مباشرة بالنجاة من العذاب ، وبراحة البال.

(**وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ**)

والمفــازة من الفــوز ، ومعناها النجــاة ، والمؤمنــون ينجون بتقواهم.

(**لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ**)

وهو ادنى العذاب.

(**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

من طبيعة الإنســان انه إذا وجد جــزاء عمله وكــان طموحا فانّه غالبا ما يســتقله ويعتقد أن عمله كــان أكــبر منه ، أما المؤمنــون فــإنهم يجــدون أن جــزاءهم الأوفى فترضى به نفوســهم ، ولا يحزنــون على ما قــدموه من عمل أو أنفقــوه من مــال أو نفس ، ذلك أنهم يــرون جــزاءهم الأوفى في يــوم القيامة ، وهو أكــبر بكثــير مما كانوا يتوقعونه فإنهم لا يحزنون.

[62] ويعرّفنا ربّنا نفسه من خلال القرآن.

(**اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**)

اي حافظ ومهيمن ومــدبر ، والآية تنسف فكــرة التفــويض الــتي تــزعم بأنه تعــالى خلق الأشــياء ثم تركها وشأنها.

[63] (**لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

يتصــرف فيهما كيف يشــاء ، والمقاليد جمع مقليد أو مقلاد ، ومعناه المفتاح ،

فمفاتيح السموات والأرض بيده عز وجل ، وكـون مفـاتيح الشيء بيده يدل على انه متصرف في ذلك الشيء وفيما يحتويه.
ولعل كلمة مفـاتيح تـدلنا على وجـود سـنن وانظمة تحكم هذا الكون ، ومع أن ربنا فوق السـنن والانظمة ، الا انه بحكمته يهيمن على الخلق من خلالهما ، ولان المؤمنون يسلمون له تعالى ، ويتبعون آياته فإنهم وحدهم الذين يفلحـون ويفـوزون في الحيـاة ، ويسـخرونها أفضل من غيرهم لصالحهم.
(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**)
والآية هي العلامة من الشـــيء ، وآيـــات الله هي العلامـات الهادية للحق والصـلاح ، وحيث يرفضـها الكفـار يضلون ولا يبلغون الفوز والفلاح.
[64] ويأمر الله نبيه الأكرم (ص) بتحدي هؤلاء.
(**قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ**)
أنهم يجهلـــون بالله ، ولا يعرفـــون هيمنته على كل شــيء وخلقه له ، ويرتكــزون في الجهل بصــورة أعمق حينما يظنون أن الأنـداد الـتي يزعمونها من دونه تسـتحق العبادة ، ويأمرون الناس بالخضوع لها.
وليس شرطا أن تكون هذه الأنـداد من الحجـارة ، بل هي كل باطل يخضع له الإنسـان ، سـواء تمثل في فكـرة يــؤمن بها أو طـاغوت يخضع له ، كما أنّه ليس المقصــود من العبــادة فقط الركــوع والسـجود أو طقــوس عبادية خاصة يقــوم بها الإنســان تجـاه من يشـرك بهم ، بل أن اعانتهم وطاعتهم وحـتى الرضى النفسي بهم يعد عبـادة ، ويجب على المؤمن أن يرفض ذلك كله.

[65] ثم يـــبين الله الموقف الحاسم من الشـــرك والمشــركين ، فيحــذّر نبيه (ص) تهديــدا حقيقيا ، بأنه لو افترض أن أشرك بالله فان جزاءه سيكون كسائر الناس ، وإذ يخصص ربّنا الخطــاب هنا بــأقرب النــاس اليه وهو النبي محمد (ص) مع عصمته لكي يبين لنا بان الشرك أعظم الذنوب عنده تعالى.

(**وَلَقَـدْ أُوحِيَ إِلَيْـكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِـكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**)

لان أعمــال الإنســان انما تكــون مقبولة حينما يكــون اطارها العــام أطــارا توحيــديا ، أما لو عملت الصــالحات وأنت تشرك فلن تنفعك أبدا.

(**وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

وهذه نتيجة طبيعية لإحبـاط العمل ، ذلك أن ما يجلب للإنسان الفلاح والفوز هو عمله الصـالح فـاذا أحبط فـأنّى له الفوز؟

ولعل هـذه الآية من أخـوف آيـات القـرآن الكـريم ، وتــأتي في هــذا الــدرس تقابل أرجى الآيــات وهي قوله تعالى : (**قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعـاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) [1]

ويدخل اجتمـاع هـاتين الآيـتين في سـورة واحـدة في سياق التوازن القرآني الدقيق. حيث يعيش قارءوه معادلة دقيقة طرفاها الخوف والرجاء.

وكيف لا تكون هذه الآية من أخوف الآيات ، وهي تنذر الإنسـان بأنه قد يعمل الصـالحات عشـرات السـنين دون نتيجة بسبب شركه ، ومن الشرك خضوعه للحاكم

(1) الزمر / (52).

الجائر؟!

[66] وفي مقابل دعوة الله نبيه وبالتـالي كل مـؤمن لرفض الشرك في الآيـتين المتقـدمتين ، يـدعوه في هـذه الآية لعبادة الله وحده وشكره على توفيقه له لعبادته. لان ذلك من أكبر نعم الله على الإنسان.

(**بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ**)

وفي تقـــديم كلمة الله (المفعـــول لـــه) على الفعل والفاعل (فاعبـــد) دلالة على أن العبـــادة يجب أن تكـــون خالصة منحصـرة لله وحـده. وهـذا يشـبه تقـديم الضـمير المنفصل «إيـــاك» وهو المفعـــول على الفعل والفاعل «نعبـد» في سـورة الحمد ، أمّا الشـكر المـأمور به فهو على عبـــادة الله الـــتي لا تتم إلّا بتوفيق الله أو هو على عموم نعم الله.

[67] ثم ـ وبصورة اخـرى ـ يؤكد لنا القـرآن ضـرورة عبـــادة الله ، الـــتي تـــأتي نتيجة معرفته عـــزّ وجـــل. والمشركون والكافرون انما عبدوا غير الله بسـبب جهلهم به وبقدرته. الأمر الذي جعل تقديرهم له دون مقامه مقام الربوبية.

(**وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**)

يتصـرف فيهما وفيمن عليهما من الخلق كيف يشـاء ، فهـــذه الأرض مع حجمها الكبـــير في نظرنا ، والســـموات السبع التي يعجز العقل عن استيعاب مداها ، والخيال عن تصور سعتها ، يشبه هيمنته على إحـداهما بهيمنة الإنسـان على قطعة النقد الصغيرة التي تكون في قبضته ، ويشـبه الاخـرى بالورقة الملفوفة في يمينه ، ولا ريب أن قبضـته تعـالى كما يمينه ليسـتا بمعـنى وجـود جارحة لله سـبحانه وانما هما رمز لقدرته وإرادته ، تعـالى كما اليد رمز لقـوة الإنسان ، وربّنا انما يستخدم التشبيهات المجازية لتقـريب المعنى

الى أذهاننا ولو وصف لنا قدرته كما هي لما اســــتوعبت ذلك عقولنا.

(**سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**)

إن من أسباب الشرك عند الإنسـان هو عـدم معرفته بالله ، فيتصــوره بعقله المحــدود عــاجزا محــدودا مثله ، ويزعم أنّه يحتاج الى الشركاء ليدبر شـؤون الخلـق. وربّنا منزه عن ذلك ، فمن هـذه قدرته لا يحتـاج الى الشـركاء ، ولا يجوز لنا باي حال أن نشرك به.

وبخصوص هذه الآية قال الإمام الباقر (ع) :

إن لله لا يوصف ، وكيف يوصف وقد قــــال الله في كتابه «**وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**»؟ فلا يوصف بقــدر الا كان أعظم من ذلك [1]

وعن سليمان بن مهران قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن قوله عز وجل (**ما قَدَرُوا**) ... الآية فقال : يعني ملكه لا يملكه معه أحد ، والقبض الى الله تعالى في موضع آخر المنع والبسط منه ، والإعطاء والتوسيع (**... وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) يعـني يعطي ويمنع والقبض منه عز وجل في وجه آخر الأخذ ، والأخذ في وجه القبـول كما قال : «ويأخذ الصـدقات» اي يقبلها من أهلها ويثبت عليها فقوله عز وجل (**وَالسَّــماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِــهِ**)؟ قــال : اليمين اليد ، واليد القــدرة والقــوة ، لقوله عز وجل (**وَالسَّــماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**) اي بقدرته وقوته [2]

[68] ويهــدينا القــرآن الى أحد مظــاهر قــدرة الله وهيمنته ، وذلك حينما ينفخ في

(1) البرهان / ج (4) ص (84).
(2) المصدر.

الصـور فيصـعق بـذلك كل الخلق في أقل من لحظة ، ولا يبقى أحد الا بعض من النـاس والملائكة يحفظهم الله من ذلك النفخ ولعل من بينهم الشهداء.

(**وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ**)

وبعد هـذه النفخة تكـون نفخة اخـرى تـدب بسـببها الحياة في الجميع.

(**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ**)

والنظر هنا ينصـرف لأحد معنـيين ، فاما أن يكـون بمعـنى النظر المتعـارف حيث تمـوت بالنفخة الاولى كل حـواس الإنسـان ثم تعـود لطبيعتها مـرة اخـرى ومن بينها حاسة النظر ، وأما يكون بمعنى الانتظار لأنهم في النفخة الثانية يستنهضـون للجـزاء فاما الى الجنة أو الى النـار ، وهـذا ما يجعل الجميع ينتظر الحكم الصـادر بشأنه كقوله تعالى : (**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنـاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**). [2]

ومن هذه الآية يتبين أيضا أن الناس يموتـون مـرتين ، مـرة في الـدنيا ومـرة بعد الحسـاب عند النفخة الاولى ، وهـذا بـدوره يفسر قوله تعـالى حكاية عن المشـركين : (**قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**) [3]

كما يحتمل أن المـــــــوت في النفخة الاولى يخصّ الموجـودين في حينها ممن لم يموتـوا بعد ، بينما تشـمل الحياة من النفخة الثانية الجميع.

[69] وينقلنا السياق الى جانب آخر من يوم القيامة ، إذ تشرق الأرض بنور

---

(2) النمل / (35).

(3) غافر / (11).

الله ، وتوضع المــوازين للحســاب العــدل وتــوفى الأنفس أعمالها التي أحصاها الله بعلمه.

(**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها**)

الـــذي يخلقه ويتجلى من خلاله جلاله وعظمته ، وقد يتجلى الله في خلقه الشـــمس والقمر ، وقد يتجلى في إبداع نور تشرق به الأرض ذلك اليوم.

وفي الاخبـار عن المفضل بن عمر قـال : سـمعت أبا عبد الله (ع) يقول :

«**إذا قـــام قائمنا أشـــرقت الأرض بنـــور ربّها وذهبت الظلمة**» [4]

ولا شك أنّ نهوض إمـام الحق وما يتبع ذلك من قيـام حكومة العدل الالهية هو من أبرز تجليات نوره تعـالى ، أو ليس الأنبياء والرسل والأولياء هم نور الله في الأرض؟

(**وَوُضِعَ الْكِتابُ**)

ليحاسب الله النـاس على أعمـالهم ، والكتـاب هنا هو الميزان والمقياس ، ونستوحي من ذلك أن الأشياء تتحول في الآخــرة من صــيغتها المعنوية الى المادية ، فالكتــاب الذي هو ميزان الحق والباطل ، وفرقان بينهما في الدنيا ، يتحول الى ميزان محسوس يراه الناس في الآخرة.

(**وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ**)

وهم مـــيزان آخر لمعرفة الحق والباطل ومحاســـبة الناس ، فالأنبياء ميزان بعصمتهم

---

(4) نور الثقلين / ج (4) ص (504).

وسلوكهم النموذجي ، بينما الشهداء ميزان بمواقفهم وشهادتهم على مجتمعاتهم ، حيث كانوا طليعتها ، ولعل الشهداء هنا اشمل من أن نحصرها في أولئك الذين يجاهدون من أجل الحق ، ويسقطون مضرجين بدمائهم ، انما هم كل من يلتزم بالحق فيصير حجة على الناس. فأيوب (ع) حجة على الذين ينهزمون إمام الابتلاء ، ويوسف (ع) حجة على الذين يغترون بجمالهم ، كما إن الذين يثورون ويتجاوزون إرهاب الطغاة حجة على القاعدين والخانعين.

وحيث يحضر هذان الميزانات يحاسب الناس بهما وفيهما يتجلى الحق.

(**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

وعدم الظلم نتيجة مترتبة على كون المقاييس حقانية وعقلانية ، وانما يجور الحاكم باتباعه الباطل في قضائه ، وما دام الأمر كذلك فالناس إذن هم الذين يظلمون أنفسهم بمخالفتهم الحق إذا قضي عليهم بالعذاب. والله يقول بهذا الشأن : (**إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) [1]

[70] ثم يؤكد الله عدالته في الحساب.

(**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ**)

والسؤال لماذا لم يقل الله وفي كل شخص ، أو وفي كل إنسان ، والجواب كما يبدو انه تعالى يريد بيان حقيقة هامة ، وهي أن الإنسان لا يحاسب على أعماله الظاهرة التي يمارسها بأعضائه وحواسه وحسب ، بل يلاقي جزاءه خيرا كان أو شرا حتى على أعمال النفس وتصرفاتها ، على فكره ، وحبه وبغضه ، والحساب الالهي ليس قائما على الجهل أو الظنون ، انما يقوم على علم الله المطلق.

---

(1) يونس / (44).

(**وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ**)

وعلمه تعـالى أدقّ من علم الإنسـان بنفسه بل حـتى من حساب الملائكة الحفظة ، لان البشر معـرض للزيـادة والنقصان في حسـاباته ، وذلك بسـبب وقوعه تحت تـأثير عوامل كثيرة كالغفلة والنسيان والجهل و. و. ولان الله قد يخفي حتى عن ملائكته بعض أعمال الإنسان سترا له.

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَـراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقــالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَــأْتِكُمْ رُسُــلٌ مِنْكُمْ يَتْلُــونَ عَلَيْكُمْ آيــاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْــذِرُونَكُمْ لِقــاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَـذابِ عَلَى الْكـافِرِينَ (71) قِيـلَ ادْخُلُـوا أَبْـوابَ جَهَنَّمَ خالِـدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْــوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَسِـــيقَ الَّذِينَ اتَّقَـوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَـراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقـــــالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَــــلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِـــدِينَ (73) وَقـــالُوا الْحَمْـــدُ لِلَّهِ الَّذِي صَــدَقَنا وَعْـدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَــوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (74)

---

71 [زمرا] : جمع زمرة وهي الفوج ، أي يساقون فوجا فوجا ، كلّ فوج مشتمل على متشابهي الأعمال كالزناة والمقامرين وهكذا.

وَتَـرَى الْمَلائِكَـةَ حَـافِّينَ مِنْ حَـوْلِ الْعَـرْشِ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (75)

وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

هدى من الآيات :

في هــذا الــدرس تــرد كلمة الزمر الــتي ســميت بها الســورة ، وقد تكــررت مــرتين ، مــرة عند الحــديث عن الكفار ، واخــرى عند الحـديث عن المؤمـنين ، ذلك أن كلا الفريقين يحشرون إلى مصيرهم زمرا وجماعات.

وربما سميت السورة بهذا الاسم ، وأكّد القــرآن عليه مــرتين ، من أجل أن يــوحي لنا بطبيعة التفاعل بين أبنــاء المجتمع ، فالنــاس انما يســاقون الى النــار والجنة وفق أعمــالهم وانتمــاءاتهم وهـذا المقيـاس أساسي في حيـاة الإنسان ، فهو إذا أراد أن يعـرف نفسه ، أو أراد الآخـرون أن يعرفـــوه ، فما عليه وعليهم الا معرفة الـــذين ينتمي إليهم اجتماعيا وعمليا ، فـان كـانوا صـالحين كـان منهم ، وإن كانوا منحرفين فهو كذلك أيضا.

والأحـــاديث المروية تؤكد بـــأنّ معرفة الرجـــال تتم بمعرفة الذين يحيطون بهم ،

فمعرفة القائد بحاشـيته ، والشـاب بأصـدقائه ، والنظـام بالعـاملين فيه ، والدولة بالـذين يؤيـدونها من طبقـات المجتمع.

قال سليمان (ع):

«**لا تحكموا على رجل بشـيء حـتى تنظـروا الى من يصاحب ، فإنّما يعرف الرجل بأشـكاله وأقرانه ، وينسب الى أصحابه وأخدانه**» [1]

وقال الإمـام علي وهو يوصي ولـده الحسـين (عليهما السلام) :

«**قـارن أهل الخـير تكن منهم وبـاين أهل الشر تبن عنهم**» [2]

فالحيـاة إذن ليست احادية ولا متنـاثرة ، وانما تسـير كتلا وأجناسا (زمـرا زمـرا) وإذا لم تعـرف شخصا بذاته فانك تسـتطيع معرفته بـالزمرة الـتي ينتمي إليها ، وهـذه الحقيقة يؤكـدها القـرآن في مواضع كثـيرة منه ، وبصـيغ مختلفة كمخاطبته النـاس بصـورة التجمعـات : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**) في صفة المؤمنين ، و(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا**) في صـفة الكـافرين ، وهكـذا المنـافقين والمنافقـات ، والصابرين والصابرات ... إلخ.

بينات من الآيات :

[71] (**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً**)

اي جماعات على أسـاس تجـانس أعمـالهم يسـوقهم ملائكة العذاب.

(**حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها**)

---

(1) بح / ج 74 ص (188).

(2) المصدر.

السبعة يدخل كل جماعة من باب ، وقد يكـون معـنى الأبواب العـذاب الـذي يتضـمنه كل قسم من جهنم ، وفي الخصال عن الصادق عن جده عليهما السلام :

«إن للنار سبعة أبواب ، باب يـدخل منه فرعـون وهامـان وقـارون ، وبـاب يـدخل منه المشـركون والكفـار ممن لم يـؤمن بالله طرفة عين ، وبـاب يـدخل منه بنو أمية هو لهم خاصة وهو بـاب لظى ، وهو باب سقر وهو بـاب الهاوية يهـوي بهم سـبعين خريفا فكلما هوى بهم سبعين خريفا فار بهم فورة قذف بهم في أعلاها سـبعين خريفا ، ثم هـوى بهم هكـذا سـبعين خريفا فلا يزالـون هكـذا أبـدا خالـدين مخلـدين ، وبـاب يـدخل منه مبغضـونا ومحاربونا وخاذلونا ، وانه لأعظم الأبواب وأشدها حرا» [1]

وعند ما يـدخل كل فريق من بابه يتلقـاه خزنة النـار بالشماتة والسؤال.

(**وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُـلٌ مِنْكُمْ يَتْلُـونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ**)

فمن جهة كـان الرسل هم الـذين جـاؤوا إليكم وهـذه نعمة كبـيرة إن يبعث الله هاديا في المجتمع ، ومن جهة اخـرى لم يكونـوا غربـاء عنكم فلقد كـانوا من وسـطكم الاجتمـاعي ويتكلمـون بلسـانكم ، ومن جهة ثالثة كـانوا يحملون إليكم رسالة ربكم ويهدونكم الى الآية تلو الآية.

(**وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا**)

وكـان هـذا كافيا لهـدايتكم وخلاصـكم من النـار لو اتبعتموهم.

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ص (504) ، وتجدر الاشارة في هذا الحـديث الى أن المذكورين عينات لأصحاب الأبواب السبعة والا فهو يدخل معهم كل من جانسـهم في العمل ، بل أن السـبعة قد تكـون للتخصـيص والكثرة وليس للحصر.

ولم يكن يملك أصحاب النار ردا على كل هـذه الحجج البالغة الا بأن.

(**قالُوا بَلى**)

إذن فالهداية ممكنة لو أرادوها فعلا.

(**وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ**)

إن باستطاعة الإنسان أن يكفر بالله ، باختيـاره ولكن بعدئذ يغلق عليه باب الاختيار ، ويحاول البعض تبرير كفره بأنه سوف يتوب في المستقبل كعمر بن سعد الذي اختار الكفر بقتل الإمام الحسين (ع) ثم انشد :

يقولـون إن الله خـالق جنة ونـار وتعـذيب وغـلّ يـدين

فـإن صـدقوا فيما يقولـون إنّـي أتـوب الى الـرحمن من سـنتين

وهــذا من أخطر الأشــياء على البشر ، حين يختــار الانحـراف ثم يمـني نفسه بالتوبة في المسـتقبل دون أن يـدرك سـنة الله في الحيـاة ، وهي أن الإنسـان قد يختـار طريقا بحريته ويتخذ قــرارا بكامل إرادته ، ولكنه بعد ذلك لا يتمكن من العـودة عنه والخـروج من المـأزق الـذي يقع فيه بسـبب ذلك الاختيـار السـيء. كالـذي يقـرّر أن يلقي بنفسه من جبل شـاهق ثم يجد نفسه عـاجزا عن الصـعود مرة أخرى ، فالسقوط يكون باختيـاره ولكنه لا يتمكن من العروج أنّى حاول.

والقرآن يعبر عن هذه الفكرة بصيغ عديدة في آياته ، فتارة يسـميه بـالختم على القلـوب والأسـماع (**خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ**) [1] وتـارة يسـميه بـذهاب النـور (**ذَهَبَ اللـهُ بِنُـورِهِمْ وَتَـرَكَهُمْ فِي ظُلُمـاتٍ لا يُبْصِرُونَ**) [2] ، وأخرى يسميه

---

(1) البقرة / (7).

(2) البقرة / (17).

باستحقاق الضلالة (**وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّــلالَةُ**) [1] أو باســـــــــــــــــــــــــــــتحقاق كلمة الله (**كَـذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَـقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**) [2] ويعـبر القـرآن أيضا عن ذلك يجعل الغشـاوة على الأبصار (**وَجَعَلَ عَلى بَصَـرِهِ غِشـاوَةً فَمَنْ يَهْدِيـهِ مِنْ بَعْـدِ اللـهِ**) [3] أو بجعل الاكنة على القلـوب (**وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**) [4] وهـذه التعـابير وتلك كلها تشـــير الى ســـلب الله الإنســـان حينما يصر على الانحراف والضـلال ارادة الهـدى فيجد نفسه مجبـولا على الفساد والاستمرار في طريق الباطل.

إن الاختيـــار ، والارادة ، والحرية من أكـــبر نعم الله على الإنسـان ، وإذا سـلبه ربّه هـذه النعمة فبمـاذا يختـار الحق على الباطل ، والمســتقبل الأخـــروي على الحاضر الدنيوي؟

وأن استحقاق الكـافرين لكلمة العـذاب هو بكفـرانهم بنعمة الحرية وتضييعهم فرصة الاختيار على أنفسهم.

[72] ولأنهم حقت عليهم كلمة العذاب بانحرافهم في الدنيا ، تحقق ذلك العذاب بواقعة المحسوس في الآخرة.

(**قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها**)

بتمحضـــكم في الكفر ، وعلى الإنســـان أن لا يغـــتر بأعماله أبـــدا لأنّه قد يســـتطيع أن يغلق عن نفسه بـــاب الـــزنى من النـــار ، ولكنه يـــدخلها من بـــاب الاستســـلام للطـاغوت والتقـاعس عن الجهـاد ، فيجب علينا إذن لكي نزحزح عن النار أن نغلق كل أبوابها

---

(1) النحل / (36).
(2) يونس / (33).
(3) الجاثية / (23).
(4) الانعام / (25).

عن أنفسنا ، وذلك بعمل الصالحات وتـرك الـذنوب جميعا الـــتي هي مفـــاتيح أبـــواب جهنم ، وأهم تلك الأبـــواب واخطرها باب المتكبرين الذي يخصصه القرآن هنا بالـذكر والذم من بينها كلها.

(**فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**)

[73] وفي الجـــانب الآخر يحـــدثنا ربّنا عن مصـــير المؤمـنين المتقين الـذين يزفّـون بـالترحيب والتحية الى قصورهم ، وحورهم ، وعموم جزائهم في الجنة.

(**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَـوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَـراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها**)

الثمانية كما في الروايات [4] ، ففي كتاب الخصال عن الإمام الصادق (ع) عن جدّه قال :

«إن للجنة ثمانية أبواب ، باب يدخل منه النبيون والصديقون ، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون ، وخمسة أبـواب تـدخل منها شـيعتنا ومحبونا ، وبـاب يدخل منه ساير المسـلمين ممن يشـهد أن لا اله الا الله ولم يكن في قلبه مثقـال ذرة من بغضـنا أهل البيت» [5]

وعنه (ع) قال : قال رسول الله (ص) :

«للجنة بـاب يقـال له بـاب المجاهـدين يمضـون اليه ، فـاذا هو مفتـوح وهم متقلـدون بسـيوفهم ، والجمع في الموقف والملائكة تزجر ، فمن تـــــرك الجهاد ألبسه الله ذلا وفقرا في معيشته ومحقا في دينه ، إن الله اعزّ أمتي بسنابك خيلها ومراكز

(4) راجع التعليق الذي مر في الرواية المتقدمة عن النار.
(5) نور الثقلين / ج (4) / ص (505).

رماحها» (6)

وقال الإمام الباقر (ع) :

أحسنوا الظن بالله ، واعلموا أن للجنة ثمانية أبواب عرض كل باب منها مسيرة أربعمائة سنة [1]

وإذا دخل المؤمنون الجنة استقبلهم الملائكة الموكلون بها ، يلقون إليهم تحية ربّهم عز وجل.

(**وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ**)

ولا يطيب الإنسان وبالتالي يدخل الجنة الا إذا اجتنب الذنوب والمعاصي في الدنيا ، فزكى نفسه بذلك وبعمل الصالحات ، لان الجنّة دار الطيبين فقط.

[74] وحيث يعتبر المؤمنون دخول الجنة من أكبر نعم الله عليهم شكروه على ذلك.

(**وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ**)

قالوا : المراد بالأرض الجنة ، والله العالم.

(**فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ**)

وهذه النهاية الحكيمة للآية تؤكد حقيقة هامة جدا ، وهي أن التقوى وإن

---

(1) المصدر.

كانت درع الإنسان وحصـنه الـذي يقيه العـذاب ، الا انها لا تكفي وحـــدها من دون العمل ، الـــذي لا ينفك أن يكـــون جزءا أساسيا منها.

أن الـــدرع وحـــدها لا تكفي المقاتل الـــذي يخـــوض المعركة ، بل لا بد له من سلاح يمارس به عملية الهجــوم والدفاع ، وهكذا بالنسبة للمؤمن فهو يتحصن بالتقوى عن ارتكاب الموبقـات ، ولكنه من جهة اخـرى لا يسـتغني عن العمل لكي يقرب نفسه من الجنة ويبني مستقبله الأبدي.

ولان الجنة لا تحصل الا بالعمل الصـالح بعد التقـوى ، ولان عمر الإنسان قصير ومحدود فلا بد أن يزيد من تقواه ومن عمله ، وأن يسـتفيد قـدر الإمكـان من فرصة العمر القصيرة ، في سبيل رضى الله وشـراء الجنة ، وذلك بـان يجعل ذلك هدفا امامه يسخّر كل جهوده لبلوغه.

وعن جابر بن عبد الله الانصـاري قـال : جـاء اعـرابي الى رسول الله (ص) فقال : يا رسـول الله هل للجنة من ثمن؟

قال : «نعم»

قال : وما ثمنها؟

قال : «**لا اله الا الله يقولها العبد الصـالح مخلصا بها**»

قال : وما إخلاصها؟

قال : «**العمل بما بعثت به في حقه**» [1]

---

(1) أمالي ابن الشيخ الطوسي / ص (21).

وقـال رسـول الله (ص) : «**من قـال لا اله الا الله غرست له شــجرة في الجنة.**» وحينما عـــرج به (ص) الى السـماء رأى الملائكة يبنـون القصـور وربما أمسـكوا (عن العمل والبنــاء) ، فقــال : مــالكم ربما بــنيتم وربما أمسكتم؟!

فقالوا : لا نبني حتى تأتينا النفقة.

فقال : وما نفقتكم؟!

فقالوا : قول المـؤمن سـبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر. [1]

ومما يـروى من سـيرة الإمـام زين العابـدين (ع) انه خــرج ذات مــرة وقد تطيّب ولبس الجديد ، فــرآه بعض أصحابه فقال له : الى اين يا ابن رسول الله؟

فقال : اذهب لأخطب.

ثم افترقا بعدئذ. وحينما جـاء الصـحابي للمسـجد رأى الإمــام واقفا للصــلاة ، فســأله مســتغربا : الم تقل انك ذاهب لتخطب؟!

فقال (ع) : بلى اخطب الحور العين من ربها [2]

إذن فالذي يقيم الصلاة ، والذي يجاهد في سبيل الله ، والذي يتصـدى للمشـاريع الاسـلامية و... و... كلهم يبـني مستقبله الأبدي بهذه الأعمال.

[75] وصــورة ثالثة من يــوم القيامة بالاضــافة الى دخــول أولئك النــار وهــؤلاء الجنة ، هنــاك منظر الملائكة الذين يحفون بعرش القدرة والعزة يسبحون بحمد الله.

(1 ، 2) النصوص منقولة بمضامينها.

(**وَتَــرَى الْمَلائِكَــةَ حَــافِّينَ مِنْ حَــوْلِ الْعَــرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**)

وهذا المنظر من أعظم تجليات قــدرة الله وعظمته ، ثم يشـــير القـــرآن الى انتهـــاء المحكمة الالهية العادلة باعتمادها مقياس الحق.

(**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ**)

ويبقى أهل الجنة يتـــــــذكرون نعم الله عليهم ومن أعظمها نعمة الهداية في الــدنيا ، والنجــاة من النــار في الآخرة فيحمدون ربّهم ، ومن جانب آخر يتجلى عــدل الله لأصحاب النار فيـدخلونها وهم معـترفون بمسـؤوليتهم عن هذا المصير وبان حكم الله فيهم حق وصـدق ، فيحمـدون ربهم.

(**وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

الفهرست

سورة فاطر

سورة يس

سورة الصافات

سورة ص

سورة الزمر